شرائح قصصية سليمانية

(الجزء الثاني)

(من القصة الأولى بعد المئة حتى القصة المئتين)

نحو قصة عربية أصيلة وهادفة وبناءة وجادة ومحترمة

بقلم

أحمد علي سليمان عبد الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء!

(أهدي هذه الشريحة القصصية ، إلى هواة القصة والباحثين عن

العبرة فيها ، ليتأملوها وليتدبروها ، وليعملوا بمقتضاها!)

مع خالص احترامي وتقديري

الكاتب الفقير إلى الله والراجي عفوه ومغفرته /

أحمد علي سليمان عبد الرحيم

(كاتب أهل الصعيد)

بين الرواية والقصة

الحمد لله وكفى ، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى ، أما بعد! فيطيب لنا أن نعرف بالرواية والقصة ونفرق بينهما. أما الرواية فهي نوع خاص من القصة! ذاك أن القصة بمعناها العام تعني حكاية حدثٍ أو أحداثٍ يقوم بها شخصيات من البشر أو غير البشر! وسواء تعين فيها الزمان والمكان أو كانا غير معلومين! كما أنها ليست مقيدة بنوع خاص من اللغة. ومع تغيراتٍ طرأتْ على العناصر السابقة التي تتكون منها القصة ، بأن أصبحت جميعها تحاكي الواقع المعاش ، خصها نقاد الأدب ومؤرخوه في إنجلترا باسم الرواية "novel"! وشاع هذا الاسم عَلماً عليها منذ النصف الأخير من القرن الثامن عشر. والمقصود بمحاكاة الواقع: أن الأحداث أصبحت من قبيل ما يقع في الواقع المُعاش ، حتى وإن كانت مُتخيلة ، وأن الأشخاص من طينة البشر الذين يعيشون بيننا ، وليسوا كائناتٍ خرافية ، لا علاقة لها بدنيا الواقع! وهؤلاء الأشخاص يتحركون في بيئةٍ محددةٍ من بيئةٍ اجتماعيةٍ معروفةٍ ، كمدينة القاهرة مثلاً أو حي من أحيائها أو قرية من قرى الريف ، والأحداث تقع في زمن معلوم يدل عليه من خلال أحداثٍ تاريخية معروفة ، أو بذكر أزمنة معينة كالعام أو الشهر أو حتى اليوم ، في تضاعيف السرد! وأخيراً فإن التغير الذي أصاب اللغة يتمثل في أنها أصبحت من قبيل ما يتخاطب به الناس في الحياة اليومية. التغير الذي أصاب اللغة يتمثل في أنها أصبحت من قبيل ما يتخاطب به الناس في الحياة اليومية. ولها شروط وضوابط منها: أن تكون ذات حجم كبير نسبياً لا يقل في رأي بعض النقاد عن ثلاثين ألف كلمة ، أما حدها الأقصى فلا نهاية له. ولم تظهر الرواية بمعناها الفني في أدبنا العربي إلا في أوائل القرن العشرين ، ومن الروايات الرائدة رواية زينب لمحمد حسين هيكل باشا (1888م: 1956م) التي صدرت سنة 1913 م. ولقد حظي هذا الفن بإقبال عددٍ كبير من الكتاب عليه ، وبلغ به الأديب الكبير وعملاق القصة في العصر الحديث الدكتور نجيب الكيلاني ذروة الإبداع فيه ، حتى حصل على أرقى الجوائز وشهادات التقدير ، واحترام القراء من المحيط إلى الخليج ، حتى إن بعض رواياته طبعت عشرات الطبعات في فترة وجيزة! وأما عن القصة القصيرة: فلها شروط وضوابط أخرى: فمثلاً ينبغي أن تكون - محدودة الشخصيات. - قليلة الأحداث. - قصيرة المدى الزمني غالباً. - والتعبير فيها غاية الإيجاز. - فكل وصف مقصود وكل عبارة لها دلالتها ، حتى إن واحداً من أبرز كتابها وهو الكاتب الأمريكي "إدجار ألن بو" ذهب إلى أنه لا يمكن حذف جملةٍ أو عبارةٍ ، بل كلمة من القصة القصيرة دون أن يتأثر بناؤها ، وقد يكون ذلك من قبيل المبالغة والحرص على إحكام البناء ولكنها مبالغة لا تنفي الأصل). ونسأل فنقول: ما الغاية الفنية من القصة القصيرة؟ وفيم تتمثل؟ وكيف تؤدى؟ وهذا هو الجواب: إن الغاية الفنية من القصة القصيرة تتمثل في أنها: توصل رسالة إلى المتلقي تتمثل في: فكرة ، أو مَغزى ، أو انطباع خاص ، لكنه بدلاً من أن يقدم أياً منها بصورة تقريرية مباشرة يعزف عنها القارئ أو لا يوليها اهتمامه ، فإنه يجسده في حكايةٍ قصصيةٍ تُحاكي واقع الحياة ، فتجذبه إلى متابعتها والتأمل فيها ، والتفكير فيما توحي به. ونسأل سؤالاً آخر فنقول: متى عرف أدبنا العربي الشكل الفني للقصة القصيرة؟ وما أهم الأعمال القصصية الرائدة في أدبنا العربي الحديث؟ ونجيب فنقول: عرف الأدب العربي هذا الشكل الفني من أشكال القصة القصيرة خلال العقد الثاني من القرن العشرين. ومن الأعمال الرائدة في هذا المجال قصة "سنتها الجديدة" للكاتب اللبناني ميخائيل نعيمة. ونسأل: ما هي مراحل تطور القصة القصيرة؟! ونجيب: من الأعمال الرائدة في هذا المجال قصة "سنتها

الجديدة" للكاتب اللبناني ميخائيل نعيمة ، وقد ظهرت سنة 1914 م في مجموعته التي عنوانها "كان ما كان" وقصة "في القطار" لمحمد تيمور التي كتبها 1917 م ، وظهرت في العام نفسه ضمن مجموعة "ما تراه العيون". وفي أثر هذا الكاتب مضى نفر آخر من الكتاب في مصر من أمثال شحاتة عبيد وعيسى عبيد وطاهر لاشين! ثم أخذت تتطور على أيدي عددٍ من الكتاب في الأجيال اللاحقة ، وبدا اتخاذهم القصة وسيلة للتعبير والتحليل النفسي للعواطف والمشاعر وتجسيد المواقف والمعاني وتقابل الآراء والأفكار وتصارعها! فتتفاعل نفس الكاتب مع الريح العنيفة التي تبعثر الثلج من قمم الجبال بقوتها واندفاعها ، أو مع الريح التي تعوي ، حيث تحاصرها الجبال من كل جانب ، وقد تهدأ الريح فلا يكاد يسمع لها صوت ، مثل نفسه ثائرة وساكنة ، فلا تجيبه مهما حاول فهمها والاتصال بها لتوضيح مكنوناتها! ومن هنا فإن كتاب القصص اتجهوا إلى الحياة العامة حولهم يصورون هموم الناس ومشاكلهم وآمالهم وتطلعاتهم ، وأصبحت الكتابة عندهم تعبيراً عن الواقع بوجوهه المختلفة من صدق وزيفٍ وتقدم وتخلفٍ وفرح ويأس ، ومن صراع بين الحرية والعبودية والعدل والظلم وغير ذلك من متناقضات الحياة ، ولم تقتصر التجربة الكتابية للقصص والروايات على العاطفة والشعور والخيال فحسب ، فجمعت إلى ذلك أموراً متعددة ، ومنها: موقف الإنسان من الكون ، ومن التاريخ ، ومن الأساطير ، ومن إحياء التراث ، ومن استخدام اللغة الحية التي نسمعها في كلام الناس. وقد ظهر ذلك في اختيار عناوين قصصهم وحتى رواياتهم ، وذلك لأنهم يحاولون أن يُخففوا من سيطرة اللغة الكلاسيكية والمعجمية والجماليات الشكلية ، حيث إن الأسلوب عندهم وسيلة لا غاية. ونحن في مشروعنا هذا الذي سميناه: (شرائح قصصية سليمانية) نذهب المذهب ذاته من تجسيد الواقع والحديث إلى التاريخ ، فأحياناً نشير إلى قصة ما حدثت لنا أو لغيرنا ، وأحياناً نستقي القصة من القرآن أو السنة ، وأحيانا نستقي القصة مترجمة عن أدب الغرب ، وذلك بشرط أن تكون قصة هادفة ولها مضمون محترم لا يخدش الحياء ولا يحتوي أي نوع من أنواع السقوط أو التحلل أو الانحطاط أو التهتك أو الإباحية أو الرذيلة! وأحياناً تكون قصتنا رأياً أو فتوى أو وجهة نظر ، نتبناها لتعبر عن حقيقة ثابتة لا سبيل إلى تغييرها! ومن هنا فنحن نجعل القصة سبيلاً إلى توصيل ما نهدف إليه من ترسيخ القيم الأصيلة والمبادئ النبيلة والمناقب الجليلة والسجايا الجميلة! إن مدرستنا في هذه القصص ، هي مدرسة الفن للقيم وليست مدرسة الفن للفن! وفرق كبير جداً بين المدرستين! فمدرستنا الفن للقيم تجعل الفن - وأعني هنا فن القصة – خادماً للقيم والأخلاق والمبادئ! بينما مدرسة الفن للفن فلا يعنيها القيم ولا المبادئ بقدر ما يعنيها الصياغة والتركيب بقطع النظر عن المحتوى والمضمون! ونسأل: ما قيمة المضمون أو المحتوى إن كان لا يحوي قيماً ومبادئ ودروساً ومواعظ وعبراً ينبغي توصيلها للقراء لنضيف إلى رصيدهم من الأخلاق والقيم؟! لقد خمّت الأرض من القصص الساقطة المرذولة التي الهدف منها الدرهم والشهرة ! ودخل كُتابها التاريخ ن أوسخ أبوابه وأقذر بواباته – إن صح التعبير – ناهيك عن نيلهم سخط الله تعالى وغضبه ولعنته إن لم يتوبوا! وإذن فهو خزي الدنيا وعذاب الآخرة وإن نالوا بلايين الإعجابات وملايين الشهادات والجوائز! بينما كُتاب القصة الهادفة والرواية البناءة دخلوا التاريخ من أطهر أبوابه وأجمل بواباته وإن حُرموا الأموال والإعجابات والجوائز وشهادات التقدير! يكفيهم رضوان الله تعالى وتوفيقه وتثبيته في الدنيا وجنته في الآخرة! ويكفيهم أنهم نالوا رضا القراء المحترمين الباحثين عن القيم والأخلاق ولمبادئ!

1 ـ أغداً ألقاك؟! (تغريدة يمنية!)

(كانت هذه الزوجة اليمنية تعيش مع زوجها آمنة مطمئنة. وفجأة قالت له: إلى متى انشغالك عنا بالأسفار والتجارة؟ أنت هكذا تتركُ عليّ حِمل الأولاد وتربيتهم وتوجيههم! وصحيحٌ أنك تكفينا الأموال التي نحتاجها ويزيد ، ولكنني مللتُ الحياة بسبب انشغالك وأسفارك! فوعظها فلم يُجد الوعظ ، ونصحها ولم ينفع النصح ، فحاول الإصلاح وقلل من السفريات والرحلات! وأناب غيره ولكن دون جدوى! فقررتْ أن تخلع نفسها منه! وهناك في المحكمة وبعد نقاش حكيم جميل مع القاضي الشرعي المحنك المحترم الفقيه ، أشار عليها القاضي باقتراح يمهد للخلع الذي تطلبه! وهو أن تجرب البعد لفترة فإن استراحت جاءت لتنفيذ الخلع! فرضيت! وقبلت بالبيت وإيجار العقارات وأكرمها زوجها في هذا الاقتراح جداً! وبعد شهور أرسلت له رسالة عبر الهاتف من كلمتين وأجاب عليها بكلمتين! فما نص رسالتها؟ قلنا كلمتان هما: (أرجو الرجوع!) فماذا كان نص رسالته؟ أيضاً كلمتان هما: (ألقاكِ غدا!)

2 ـ المرأة السوداء (أم علقمة)

(يُذكر في غير ما كتب من كتب السيرة أن راوياً قال بأنَّ امْرَأَةً ـ أوْ رَجُلًا ـ كَانَتْ تَقُمُّ المَسْجِدَ ـ ولَا أُرَاهُ إلَّا امْرَأَةً ـ فَذَكَرَ حَدِيثَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه صَلَّى علَى قَبْرِهَا. أما الراوي: فهو أبو هريرة | وأما المحدث : فالبخاري | وأما المصدر : فصحيح البخاري | وأما الصفحة أو الرقم : فهو 460 | وأما خلاصة حكم المحدث: [فصحيح] | وأما التخريج: فأخرجه مسلم (956) باختلاف يسير. أنَّ رَجُلًا أسْوَدَ أوِ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كانَ يَقُمُّ المَسْجِدَ فَمَاتَ ، فَسَأَلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنْه ، فَقالوا: مَاتَ ، قالَ: أفلا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي به دُلُّونِي علَى قَبْرِهِ ـ أوْ قالَ قَبْرِهَا ـ فأتَى قَبْرَهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا. وعلق صاحب الدرر السنية على هذا الحديث بقوله: (كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كما وَصَفَه ربُّه في قُرآنِه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} ، وصَلاتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الميِّتِ رَحمةٌ له ونُورٌ يُنوِّرُ اللهُ به قبْرَ الميِّتِ. وفي هذا الحديثِ يَروي أبو هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ سَألَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَنِ الرَّجلِ أوِ المرأةِ السَّوداءِ الَّتي كانتْ تُنظِّفُ المسجِدَ وتَكْنُسُه ، فَأخبَروه أنَّها ماتَتْ ، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأصحابِه: «أَفَلا كُنْتم آذَنْتُموني» فأعْلمتُموني بموتها ، وفي رِوايةِ الصَّحيحينِ أنَّهم حقَّروا شَأنَ الميِّتِ ولم يَهتمُّوا به كَثيرًا ، وفي رِوايةِ النَّسائيِّ عن أبي أُمامةَ بنِ سَهلِ بنِ حُنيفٍ رَضيَ اللهُ عنه: «كَرِهنا أنْ نُوقِظَكَ لَيلًا». ثُمَّ سَألَ عَن قَبْرِها أو قَبْرِه وصلَّى على الميِّتِ عندَ القبْرِ بعْدَ أنْ دُفِنَ. وفي الحديثِ: فَضلُ تَنظيفِ المسجِدِ ، والسُّؤالُ عَن الخادمِ والصَّديقِ إذا غابَ. وفيه: المُكافأةُ بالدُّعاءِ ، والتَّرغيبُ في شُهودِ جَنائزِ أهْلِ الخَيرِ. وفيه: مَشروعيَّةُ الصَّلاةِ على الميِّتِ الحاضِرِ عندَ قَبْرِه لمَن لم يُصَلِّ عليه ، والإعلامُ بالموتِ).هـ. وتحت عنوان: (الدروس الفيحاء من قصة المرأة السوداء) يقول الأستاذ معيض محمد آل زرعه) ما نصه بتصرف زهيد: (هذه سيرة امرأة سوداء وأَمةٍ غريبة لكنها عظيمة ، تعيش في حيّ من أحياء العرب وليست بعربية ، غير معروفه وليس لها قبيلة ولا تملك بيت تسكنه ولا مال ولا جاه ، تلك هي المرأة السوداء التي كانت تقم المسجد أي تكنسه وتنظفه وهي (أم علقمة رضي الله عنها وأرضاها) ، كانت تسكن في حي من أحياء العرب ولكنها يوم من الأيام أتهمت بسرقة وشاح لفتاة تجهز للزواج والعرس ، ولكن الذي حصل أن حدأةً نزلت من السماء فأخذت ذلكم الوشاح تظنه لحماً ، فوقعت التهمة على تلك المرأة السوداء ، فقامت

هذه المرأة وتضرعت إلى من يكشف الضر ويجيب دعوة المضطر ، فاستجاب الله لها ونزلت تلكم الحدأة بأمر الله ووضعت ذلكم الوشاح بينهم وأظهر الله الحق ، فعزمت تلكم المرأة على مغادرة الحي والذهاب إلى جوار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت تردد هذا البيت وتقول:

ويوم الوشاح من تعاجيب ربنا * ألا إنه من بلدة الكفر أنجاني

كانت هذه المرأة تقم المسجد إذا خرج الناس من صلاة العشاء ، وكانت تتردد على بيت عائشة يومياً فكان بيت الرسول صلى الله عليه وسلم مأوى نفسي لها لأنها لا تملك سوى عشاش صغير بجوار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم من الأيام فوجد قبراً جديداً فسأل من صاحب هذا القبر فقالوا الصحابة: المرأة السوداء توفيت ودفناها ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ولماذا لم تُعلموني)؟ فقالوا الصحابة ماتت بعد الظهر والشمس شديدة فأشفقنا عليك يا رسول الله ، وقيل انها ماتت في الليل البهيم ودفنوها في الليل ، ففقدها صلى الله عليه وسلم فأخبروه الصحابة بها فقال: (أفلا آذنتموني) فغضب صلى الله عليه وسلم وقال (أما علمتم أن من صليت عليه وجبت له شفاعتي) ثم ذهب صلى الله عليه وسلم إلى قبرها وصلى عليها وقال: (يا أم علقمة أي الأعمال وجدتي خيراً)؟ ثم أنصت وقال لمن حوله: (هل تسمعون)؟ قالوا: لا! فقال صلى الله عليه وسلم: (والذي بعثني بالحق نبياً إنها تقول خير ما وجدت تعمير بيوت الله)! ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة موجهاً ومرشداً ومربياً: (إن هذه القبور مليئة ظلمة على أصحابها وإن الله ينوّرها بصلاتي عليهم). هكذا عاشت هذه المرأة وهكذا وظّفت طاقتها وإمكانيتها لخدمة هذا الدين العظيم وهكذا فقدها أفضل البشرية وقائد الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم. يا ترى من هي الدروس المستفادة من هذه السيرة الجميلة لهذه المرأة السوداء؟ لا شك أن فيها دروس وعبر وعظات نقف معها بإذن الله تعالى في الخطبة الثانية. ومن الدروس والعبر في سيرة هذه المرأة ما يلي: أولاً - العمل الصالح يرتقي بصاحبه: مع أن المرأة عادية والعمل عادي والمرأة ليست ذات شهادات عليا إلا أن الرسول فقدها. ثانياً: - لا تحتقر من المعروف شيئاً فربما يكون سبباً في الرفعة في الدنيا والآخرة. ثالثاً: - (ففقدها) يُقال بأنه فقدها الرسول صلى الله عليه وسلم في عدم نظافة المسجد وقيل إنه فقدها في عدم مجيئها إلى بيت عائشة رضي الله عنها وبعض أهل الإسلام يرحل ولا يفقده أحد وينسى مع تراب قبره. رابعاً: - فضل القائمين على بيوت الله وأن لهم أجر عظيم وهذه فرصة للأسر أن ينظموا زيارة لمسجد الحي لتنظيفه وترتيبه ولو لمرة واحدة يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (عُرضت عليّ أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد). والقذاة هي الشيء الصغير جدا. خامساً: - إن الرسول صلى الله عليه وسلم يعظّم أصحابه بحسب أعمالهم الصالحة ومسارعتهم للخيرات والطاعات. سادساً: - جواز تولي المرأة تنظيف المسجد وليس ذلك مقصوراً على الرجال ، سواءً باشرت المرأة ذلك بنفسها أو وكّلت من يقوم به مقابل مبلغ مالي. سابعاً: - أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب والدليل أنه قال (دلوني على قبرها). ثامناً: - مشروعية الصلاة على الميت وهو في القبر لمن تعذر عليه الصلاة قبل الدفن. تاسعاً: - حسن رعاية الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته بالتفقد والسؤال والاهتمام. عاشراً: - هذا فضل تنظيف المساجد فماذا نقول لمن طيب وبخر المساجد فكيف بمن عمّرها بالصلاة والطاعة والعلم. حادي عشر: - التخصصية مطلب فقد تخصصت هذه المرأة لتنظيف المسجد وفعلا كان عملها ذات قيمة ولذلك فقدها الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا لها. ثاني عشر: - إن الله أخفى أولياءه في عباده وأخفى رضاه في طاعته).هـ.

3 ـ قصة الملك شيرخان

من هو الملك شيرخان؟ إن الملك شيرخان قد شوهته وسائل الإعلام المختلفة ، وأعطت صورة الإنسان الشرير عنه ، ولكن الملك شيرخان كان قد تميز بعدله ونزاهته ، ويُعرف باسم سيرشاه وهو من أصل بشتوني "أفغاني" ، وقد قام بتأسيس أسرةٍ حاكمةٍ عُرفتْ باسم أسرة (صوري) في شمال الهند عام 1540م ، وتم طرد الأسرة المغولية التي كانت متواجدة في أغرة من قِبل شيرخان ، وقد بدأ حكمه عند تأسيس أسرة (صوري) التي لم تعمر كثيراً في الهند ، وقد كانت مدة حكم الملك شيرخان في شمال الهند في الفترة التي تعود إلى 1530 م – 1540م. أي عشر سنوات! فما هي القصة الحقيقية للملك شيرخان العظيم؟ حيث كنا قد تردد على مسامعنا اسم شيرخان بشخصيته المفترسة الشريرة في قصص الأطفال ، وقد ورد في المسلسل الكرتوني ماوكلي الذي كان يعيش في الغابات ، فشيرخان في هذا المسلسل هو الشرير الذي يسعى لقتل ماوكلي الشخصية الطيبة ، وإن من تسبب بنشر هذه الافتراءات المضللة هم الغرب وأمريكا والذين عملوا على تشويه هذا الاسم ، وسعوا وما زالوا في هذه المساعي لتشويه ما هو جميل في الإسلام ، ونحن للأسف قد تأثرنا بالإعلام الغربي وبرموزه. وإن هذه أحد وسائل العدو للعمل على زعزعة الإيمان بقدواتنا المسلمة ، فدائماً يصورون لنا أن العربي هو عبارة عن رجل بدوي راعي شديد القذارة وأخرق ، ولكن في الحقيقة العرب هم الذين نقلوا لهم العلوم والتي لها أثر كبير في نهضتهم ، وهنا في هذا المقال سنسلط الضوء عن أحد الملوك المسلمين العظماء المعروف باسم الملك شيرخان. وهو نفسه "فريد خان" وهو ملك مسلم ، وقد حكم أفغانستان بالإضافة إلى أجزاء من الهند ، وقد كان يتميز بالعدل ، فلم يجد العالم له مثيلاً في عدله ، وكأنه صحابي ولكن في غير عصر الصحابة ، فكان الملك فريد خان هو من حراس الملك المغولي المعروف باسم "محمد خان"، وهو الذي حكم الهند ، وفي أحد الأيام خرج فريد خان مع الملك في نزهة ، ولكن في هذه النزهة تعرضوا لهجوم من قبل أسد شرس ، وقام بقتل عدداً كبيراً من حراس الملك. ولكن قام فريد خان بالهجوم على الأسد وقد قام بقتله بجرأة وشجاعة ، وجزَّ رأسه ثم قام بتقديمه للملك ، فبعد هذه الحادثة أعجب به الملك كثيراً ولقبه باسم "شريخان" ، ومعناه أسد خان ، وقد نصبه الملك مربياً لأولاده حتى يكتسبوا منه الشجاعة والجرأة ، ثم بعد ذلك أصبح ملكاً. فكان جيش الملك شيرخان "فريد خان" يحارب على حدود دولته فوق قمم الجبال ، وكان في إحدى هذه القمم كوخ لأحد الفقراء يعيش فيه هو وأسرته ولكن الجيش اضطر إلى إزالة هذا الكوخ بسبب الخطط العسكرية وسيرورة الحرب التي تخص الجيش ، وقد تمت إزالة هذا الكوخ وانتقل الرجل هو وأسرته إلى السهل المنبسط ، ولكنه لم يستطع أن يتأقلم في هذه المنطقة لأن حياته ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقمة الجبل ، فهو يعتمد على الصيد والاحتطاب فيها. بالإضافة إلى أنه يقوم برعي الغنم ، لهذا قرر الرجل أن يشتكي إلى الملك شيرخان ، وأن يذهب إليه ليخبره عن ما فعله الجيش بمنزله ، فعندما وصل إلى المدينة سأل عن مقر الحاكم شيرخان ، فقالوا له أنه عند أطراف المدينة يلعب مع الأطفال ، فلم يصدق الرجل وظن أن الناس يسخرون منه ، فظل يسأل أناساً آخرين ولكن كان الرد هو ذاته ، فذهب للمكان الذي وصفوه له. عند ذهاب الرجل الفقير لخلف المسجد الكبير في المدينة وهو المكان الذي تم وصفه له لإيجاد الملك شيرخان ، وجد هناك ساحة كبيرة تعج بالأطفال الذي يرتدون أجمل الثياب ، ثم رأى الملك شيرخان يلعب معهم ، وقد تملكه الفضول بالسؤال عن هؤلاء الأطفال ، فقيل له أنهم يتامى من أطفال المسلمين ، ولكن الرجل قد استغرب من

هيئة هؤلاء الأطفال فلا يدل على أنهم أيتام ، فقيل له أن الأيتام عندهم يرتدون أثمن وأفخر الثياب وهذا بأمر من الملك شيرخان ، حتى يكون مظهرهم أعلى قيمة عن باقي الأطفال ، فاستبشر هذا الرجل الفقير خيراً وشعر بعدل الملك وبأنه سيقوم بقضاء حاجته ولم يرده خائباً. فعندما فرغ الملك شيرخان من اللعب مع الأطفال قيل له أن هناك رجلاً غريباً يود مقابلته في حاجة له ، فقال الملك لمحدثه: "ولِمَ لمْ توصله إليَّ مباشرة فور أن حضر؟" ، "يا رجل ربما الغريب جائع أو خائف او غير آمن .. فكيف أسعفكَ فِكرُك إلى أن تؤخره عنا ...؟؟!!" ، فخرج إلى الرجل الفقير وقال له: "لبيك يا عبدَ الله ..أنا خادمُكم شيرخان ..هل لك مظلمة نقضيها لك بإذن الله تعالى ؟؟؟" ، فعندما قال الفقير قصته للملك شيرخان فقال له: "أبشر يا عبد الله فقد قضيت مظلمتك ، وهي في ذمتي الآن حتى يصلك حقك" ، وقام بفرض عقوبة على قائد الجيش تجلت في أخذ بيته ، وأمر إعادة بناء بيت للرجل الفقير فوق قمة الجبل ، وأن تكون القلعة العسكرية قريبة منه لصد أي عدوان.

4 - الأميرة زبيدة بنت جعفر (طموح يتحدى الواقع)

(نعم إن رحلة الطموح والأمنيات والآمال في حياة الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله تعالى - لا تكاد تصل إلى نهاية. بل كانت حياتها جهداً متواصلاً والله المستعان على كل حال. الله نسأل أن يرحمها رحمة واسعة ويتقبل عنها صالح عملها ويبارك سعيها ويجعلها من سيدات الآخرة كما كانت من سيدات الدنيا! فلقد كانت ذخراً للإسلام والمسلمين. أنشدتُ هذه القصيدة في وصف رحلة العطاء والطموح في حياة الأميرة زبيدة بنت جعفر زوج هارون الرشيد – رحمهما الله تعالى – عرفاناً بجميلها واعترافاً بفضلها ، فلقد كانت من ربات الفضل والعطاء والمكرمات. ووجدتِ القصيدة طريقها إلى (ديوان السليمانيات) في مجلده الخامس اعتزازاً بالأميرة العظيمة. ونسجّلها في هذه الديوان عنها لتكون بمثابة التحية لها ، وإن ديوان أي شاعر مسلم ليشرف بأن تكون فيه قصيدة عن زبيدة صاحبة الهمة العالية والمقام الرفيع. جاعلين هذه القصيدة بمقدمتها الطويلة تلك ترجمة لحياتها وعطائها. ولقد تناولنا فيها مسيرة الأميرة زبيدة بنت جعفر ، واقتطفنا بعض الزهور من بستان حياتها اليانع لنحمل الجميع على الاقتداء بها في بذلها للخير وإثرائها للعمل الخيري والتطوعي في الداخل والخارج ، والتأسي بها في رعاية الأيتام وكفالتهم والإحسان إليهم ابتغاء مرضاة الله – عز وجل – وحده. وتناولنا كذلك جانباً كبيراً من فلسفة الأميرة زبيدة بنت جعفر في العطاء ، حيث إنها لا تتعمد إراقة ماء وجه السائل والمسكين وإذلاله قبل أن تعطيه ، بل تبادر إلى العطاء قبل السؤال في أغلب الأحوال كما عرف عنها وأثر من خلال سيرتها في كتب التراجم والتاريخ. ومن هنا كانت أسلوبية العطاء أجمل من العطاء الجزيل ذاته. يقول الفرنسيون في مثلهم: (طريقة العطاء هي أفضل مما نعطي). وصدق الأديب العربي جبران حيث يقول: (جميل منك أن تعطي من يسألك ما هو بحاجة إليه ، ولكن الأجمل من ذلك أن تعطي من لا يسألك وأنت تعرف حاجته). ولجبران أيضاً مقولة ظريفة تبين لنا أن أصحاب العطاء لم يتفضلوا على غيرهم إلا ليترجموا أخلاقهم السامية إلى واقع ، يقول جبران: (ليس اللؤلؤ سوى رأي البحر في الصدف وليس الماس سوى رأي الزمن في الفحم). وهكذا أصحاب القلوب الرحيمة يعطون ليترجموا

رحمة قلوبهم إلى سلوك عملي تطبيقي. وهكذا رأينا الأميرة زبيدة بنت جعفر تجعل عطاءها ترجمة لرقة مشاعرها ورحمة قلبها وشفقتها على الأيتام والأرامل والفقراء والمحتاجين والمنكوبين في بلاد الإسلام وخارجها. إن هذه المسيرة مشوار حياة محفوف بالمخاطر عبر المجهودات الشاقة في بلاد الدنيا ومُكلل إن شاء الله تعالى بالأجر الجزيل عند الله تعالى. ما بين العمل المتواصل في الداخل ، في بغداد والعمل في الخارج شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في بلاد الإسلام. ومن هنا كانت القصيدة محطات وقفناها عبر مسيرة الأميرة زبيدة بنت جعفر لنستروح أرجَ العمل الخيري والتطوعي بكل صدق وإخلاص. تقول عنها الكاتبة سارة علام ما نصه: (بين صفحات التاريخ المطوية أكثر من وجه لـ "زبيدة" التي نعرفها ، وجوه نحرص على أن نروي سيرتها ، ونبرز مناقبها ومآثرها التي أضافت إلى هذا الاسم على مر التاريخ بهاءً وجلالاً. ولعل درة تاجهم "زبيدة" بنت جعفر بن المنصور (149هـ - 216هـ) ، زوجة الخليفة العباسي الخامس هارون الرشيد (149هـ - 193هـ) رائدة العمل الخيري في التاريخ الإسلامي قبل عصور الروتاري والليونز. حيث ارتحلت في عام 186هـ لأداء مناسك الحج ، فواجهت الكثير من المشاق رغم موكبها العظيم ، وهودجها الموشى ، وناقتها الوضحاء ، فعزمت لدى عودتها على إعادة الحياة إلى طريق الحج الوعر الذي يصل بين بغداد ومكة ، الذي سمي منذ حينها "درب زبيدة". أمرت بنت جعفر بتمهيد طريق الحج بطول 870 ميلاً ، وشيدت على جانبيه المرافق والمنافع والآبار التي ظلت تخدم الحجيج لأكثر من 1200 عام ، والتي ما تزال آثارها شاخصة بمنطقة حائل على الحدود الشمالية للمملكة العربية السعودية كما لقبت بـ "ساقية الحجيج" حيث هالها ما يكابده زوار بيت الله الحرام من مشقة العطش ، فأطلقت مشروع ري عملاق شمل حفر عدد من القنوات لنقل المياه من منابع سقوط الأمطار إلى مكة بعمق 40 متراً تحت الأرض ، ولمسافة امتدت لنحو 10 أميال ، لتصبح قنوات "عين زبيدة" الخالدة حتى الآن بمعمارها الهندسي الفريد ، ولم تثنها دراسة الجدوى الاقتصادية للمشروع عن تنفيذه - بلغت تكلفة المشروع نحو 1.7 مليون دينار - بل أصرت وهي تضع حجر الأساس ، على اصدار توجيه واضح لمهندس المشروع: اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً).هـ. لقد كانت هذه المناقب وساماً على صدرها يجلي سيرتها لمن لا يعرفها! رحمها الله تعالى رحمة واسعة ، وجزاها عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء! وأسكنها فسيح جناته! وغفر لها ذنوبها وتجاوز عن سيئاتها! وجعلها الله مع النبيين والشهداء والصدّيقين والصالحين وحسن أولئك رفيقاً!)

5 - أصحاب أحمد – رضي الله عنهم -!

(مهما تحدثنا عن مناقب صحابة النبي – صلى الله عليه وسلم – ورضي الله عنهم - ، فلن نوفيهم حقهم من التقدير والاحترام والتوقير! وتأتي هذه القصيدة في معرض الدفاع عنهم ضد من يلعنونهم ويتنقصونهم من أعداء الإسلام! قال الله تعالى واصفاً أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم -: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً). وقال: (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في

صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون). وقال: (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يُبايعونك تحت الشجرة فعلم ما قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً). وقال: (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك همُ الفائزون). ويقول الإمام المُقرئ أبو عمر الداني في كتابه الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة: «ومن قولهم أن يحسن القول في السادات الكرام ، أصحاب محمد عليه السلام ، وأن تذكر فضائلهم ، وتنشر محاسنهم ، ويمسك عما سوى ذلك مما شجر بينهم ، لقوله صلى الله عليه وسلم: (إذا ذكر أصحابي فأمسكوا). يعني إذا ذكروا بغير الجميل ، ولقوله: (الله الله في أصحابي) ، ويجب أن يلتمس لهم أحسن المخارج وأجمل المذاهب لمكانهم من الإسلام وموضعهم في الدين والإيمان». وقال أبو الوليد الباجي المالكي في وصيته لولديه: (وأشربا قلوبكما محبة أصحابه أجمعين ، وتفضيل الأئمة منهم الطاهرين ، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، - رضي الله عنهم - ، ونفعنا بمحبتهم ، وألزِما أنفسكما حسنَ التأويل لما شجر بينهم ، واعتقادَ الجميل فيما نقل عنهم....) اهـ. [وصية أبي الوليد الباجي لولديه (ص43)]. وقال الإمام محمد بن صُبيح بن السماك - رحمه الله تعالى - لمن انتقص الصحابة: "علمتَ أن اليهود لا يسبون أصحاب موسى - عليه السلام - وأن النصارى لا يسبون أصحاب عيسى - عليه السلام - فما بالك يا جاهل سببت أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم -؟ وقد علمتُ من أين أوتيتَ لم يشغلك ذنبك أما لو شغلك ذنبك لخفت ربك ، ولقد كان في ذنبك شغل عن المسيئين فكيف لم يشغلك عن المحسنين؟ أما لو كنت من المحسنين لما تناولت المسيئين ، ولرجوت لهم أرحم الراحمين ، ولكنك من المسيئين فمن ثَمَّ عبت الشهداء والصالحين ، أيها العائب لأصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - لو نمتَ ليلك ، وأفطرت نهارك لكان خيرا لك من قيام ليلك ، وصوم نهارك مع سوء قولك في أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فويحك لا قيام ليل ، ولا صوم نهار ، وأنت تتناول الأخيار فأبشر بما ليس فيه البشرى إن لم تتب مما تسمع وترى. وبم تحتج يا جاهل إلا بالجاهلين ، وشر الخلف خلف شتم السلف لواحد من السلف خير من ألف من الخلف"ا.هـ. وقال ابن الصلاح - رحمه الله تعالى -: "إن الأمة مجمعة على تعديل جميع الصحابة ، ومَن لابس الفتن منهم فكذلك بإجماع العلماء الذين يُعتد بهم في الإجماع" ا.هـ. وقال أبو زرعة – رحمه الله -: (إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنَّه زنديق ، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندنا حقٌّ ، والقرآن حقٌّ ، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسُّنن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسُّنَّة ، والجرح بهم أولى ، وهم زنادقة). [أسنده الخطيب في الكفاية ، (177/1)]. وقال إمام أهل السُّنَّة أحمد بن حنبل – رحمه الله -: (إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوء فاتهمه على الإسلام). وقال الإمام البربهاريّ – رحمه الله -: (واعلم أنَّ من تناول أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنَّه إنَّما أراد محمداً صلى الله عليه وسلم وقد آذاه في قبره). [شرح السُّنَّة ، للبربهاري ، ص(114)]. وروى الإمام أحمد في فضائل الصحابة عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال: "لا تسبوا أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - فلمقامُ أحدهم ساعة خيرٌ من عبادة أحدكم أربعين سنة". قال الإمام الطحاوي: "ونحب أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا نفرط في حب أحد منهم ، ولا نتبرأ من أحد منهم ، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم ، ولا نذكرهم إلا بخير وحبهم دين وإيمان وإحسان ، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان". وقال شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني في عقيدته: «فمن أحبهم ، وتولاهم ، ودعا لهم ، ورعى حقهم ، وعرف

فضلهم ، فاز في الفائزين ، ومن أبغضهم ، وسبهم ، ونسبهم إلى ما تنسبهم إليه الروافض والخوارج لعنهم الله ، فقد هلك في الهالكين....». وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه). ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة أو الإجماع ، من فضائلهم ومراتبهم» إلى أن قال: «ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره ، من أن أخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ويثلثون بعثمان ، ويربعون بعلي رضي الله عنهم ، كما دلت عليه الآثار ، وكما أجمعت الصحابة على تقديم عثمان في البيعة ....». وتحت عنوان: (در السحابة في مناقب الصحابة) يقول الأستاذ منصور بن محمد فهد الشرايدة ما نصه بتصرف: (لاتزال عقيدة المسلمين على إجماع حبهم وتوقيرهم ومعرفة منزلتهم حتى نبتت نابته من أهل الرفض وأذنابهم ، فأخذوا يطعنون في الصحابة ويسبونهم ويشتمونهم مخالفين بذلك الكتاب والسنة وسلف الأمة ، فانبرى لهم الأئمة وبينوا خطر طعنهم وأن القدح في الناقل مسلتزم القدح في المنقول ، فاتخذ كثير من الزنادقة الطعن في صحابة رسول الله ﷺ مطية لتعطيل الشريعة السمحة. يقول علامة قطر الشيخ أحمد بن حجر البوطامي رحمه الله تعالى رحمه الله: «وأجمع أهل السنة سلفاً وخلفاً من أهل الفقه والحديث والتفسير والكلام ، على تنوع مذاهبهم: أن الواجب الثناء على أصحاب رسول الله ، وحبهم والاستغفار لهم ، والترحم عليهم ، والترضي عنهم ، وموالاتهم ، وعقوبة من أساء فيهم القول .....». قال أبو الحسن الأشعري: أثنى الله -عز وجل- على المهاجرين والأنصار والسابقين الى الاسلام ، ونطق القرآن بمدح المهاجرين والأنصار في مواضع كثيرة وأثنى على أهل بيعة الرضوان فقال عز وجل: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}. وقال أبو الحسن الأشعري – رحمه الله - أيضاً: (وكل الصحابة أئمة مأمونون ، غير متهمين في الدين ، وقد أثنى الله ورسوله على جميعهم ، وتعبّدَنا بتوقيرهم وتعظيمهم وموالاتهم ، والتبرّي من كل من ينقص أحداً منهم - رضي الله عنهم أجمعين -). [الإبانة عن أصول الديانة ، لأبي الحسن الأشعري]. قال القاضي الشوكانيّ في تفسيره عند الآية السابقة: "أمرهم الله بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغِلَّ للذين آمنوا على الإطلاق ، فيدخل في ذلك الصَّحَابة دخولاً أوَّلياً لكونهم أشرف المؤمنين ، ولكون السِّيَاق فيهم ، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ، ويطلب رضوان الله لهم فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية ، فإن وجد في قلبه غلاً لهم فقد أصابه نزغٌ من الشيطان ، وحلّ به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه. فإن جاوز ما يجده من الغِلِّ إلى شتم أحد منهم فقد انقاد للشيطان بزمام ، ووقع في غضب الله وسخطه. وهذا الدَّاء العضال إنما يُصاب به من ابتلي بمعلِّم من الرَّافضة ، أو صاحب من أعداء خير الأمَّة ؛ الذين تلاعب بهم الشيطان ، وزيّن لهم الأكاذيب المختلفة ، والأقاصيص المُفتراة ، والخرافات الموضوعة. وما زال الشيطان الرَّجيم ينقلهم من منزلة إلى منزلة ، ومن رُتبة إلى رُتبة ، حتى صاروا أعداء كتاب الله وسُنَّة رسوله ، وخير أُمَّتِه ، وصالحي عباده وسائر المؤمنين ، وأهملوا فرائض الله ، وهجروا شعائر الدين ، وسعوا في كيد الإسلام وأهله كل السعي ورموا الدين وأهله بكل حجر ومدر ، والله من ورائهم محيط." ا.هـ [فتح القدير للشوكاني (5/268-269)]. وقال مالك بن أنس – رحمه الله - ، لما ذكر هذه الآية: (قسم الله تعالى الفيء ؛ فقال: "للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم" ثم قال: "والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا" الآية ، فمن لم يقل هذا لهم فليس ممن جعل له الفيء) (أسنده عنه الحميدي في أصول السنة ، (مسند الحميدي 2/546)). وقال مجاهد - رحمه الله – في تفسير قول الله تعالى: (أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) قال: "بمحمد

صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين." [أسنده عنه ابن عبد البر – رحمه الله – في (الاستيعاب) ، (47/1)]. وقال شيخ المالكية أبو عمر ابن عبد البر النميري: "ونحن وإن كان الصحابة - رضى الله عنهم - قد كُفِينا البحث عن أحوالهم ، لإجماع أهل الحقِّ من المسلمين وهم أهل السُّنَّة والجماعة على أنهم كُلَّهُم عُدُولٌ ، فواجبٌ الوقوف على أسمائهم ، والبحث عن سيرهم وأحوالهم ، ليُهتدى بهديهم ، فهم خيرُ من سُلِكَ سبيله واقتُدِي به." ا.هـ [(الاستيعاب في معرفة الأصحاب) ، (9/1)]. وقال الخطيب البغداديُّ – رحمه الله- بعد أن ساق جملةً من أدلّة الكتاب والسُّنَّة الدَّالّة على فضلهم وعدالتهم: "فلا يحتاج أحدٌ منهم مع تعديل الله تعالى لهم ؛ المطلعِ على بواطنهم إلى تعديل أحدٍ من الخلق لهم. على أنّه لو لم يَرِدْ من الله عز وجل ورسوله فيهم شيءٌ مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها ؛ من الهجرة والجهاد والنُّصرة وبذل المهَج والأموال ، وقتل الآباء والأولاد والمناصحة في الدين ، وقوّة الإيمان واليقين القطعَ على عدالتهم ، والاعتقاد لنزاهتهم ، وأنهم أفضل من جميع المعدّلين والمزكَّيْن الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين ، هذا مذهب كافَّة العلماء ، ومن يُعتدّ بقوله من الفقهاء." ا.هـ. [(الكفاية في أصول علم الرواية) ، (186/1-187)]. وإن من سعادة الدنيا وأسباب النجاة في الآخرة أن يتولّى المسلم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وأزواجَه ، والصالحين من أهل بيته ، فإنه بذلك يكون محبّاً ومتوليّاً لمن أخبر الله بمحبته لهم ، ورضاه عنهم ، وبشَّرهم بجنَّته ، بعد أن اصطفاهم وفضلهم على كلّ من سواهم دون الأنبياء ، وهذا ما وفّق الله إليه أهل السُّنَّة قاطبةً ، فأعلنوا الولاء لأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وأزواجه ، في غير إفراط ولا تفريط ، وتتابعوا على ذلك وتوارثوه كابراً عن كابر ، قال الطّحاويّ مقرّراً عقيدة أهل السُّنَّة: (ونُحِبُّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نُفَرّط في حبّ أحدٍ منهم ، ولا نتبرَّأ من أحد منهم ، ونبغض من يبغضهم ، وبغير الخير يذكرهم ، وحبُّهم دين ، وإيمان ، وإحسان ، وبغضهم كفرٌ ونفاق وطغيان). [العقيدة الطحاوية مع شرحها لابن أبي العزّ ، ص(689)]. وقال: (ومَن أحسنَ القول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه الطاهرات من كلّ دنس ، وذرياته المقدسين من كلّ رجس ، فقد برئ من النفاق). [العقيدة الطحاوية مع شرحها لابن أبي العزّ ، ص(737)]. قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: "إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلبَ محمدٍ - صلى الله عليه وسلم - خيرَ قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، فابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيِّه ، يقاتلون على دينه". وقال أيضًا مخاطبًا أصحابه: "أنتم أكثر صلاة ، وأكثر صيامًا ، وأكثر جهادًا من أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - وهم كانوا خيرًا منكم" ، قالوا: فيمَ ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: "كانوا أزهد منكم في الدنيا ، وأرغب منكم في الآخرة. وقال الحسن البصري - رحمه الله -: "إنَّ أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - كانوا أكياساً ، عملوا صالحاً وأكلوا طيباً ، وقدموا فضلاً ، لَم يُنافسوا أهل الدنيا في دنياهم ، ولم يجزعوا من ذلها ، أخذوا صفْوها ، وتركوا كدرها ، والله ما تعاظمتْ في أنفسهم حسنةٌ عملوها ، ولا تصاغرت في أنفسهم سيئةٌ أمرهم الشيطان بها. قوله: "ولا نُفَرِّط في حبِّ واحد منهم ، ولا نتبرأ من أحد منهم ، ونبغض من يبغضهم ، وبغير الخير يذكرهم ، وحبهم دين وإيمان وإحسان". يقصد بذلك الرد على الروافِض والنواصب ؛ فإن الرافضة يُكَفِّرون أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويعتقدون أنهم كفروا إلا ثلاثة منهم ؛ بل يعتقدون أنه لا ولاء إلا ببراء ؛ أي: لا يتولى أهل البيت حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر ، وأهلُ السنة يوالونهم كلهم ، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدْل والإنصاف ، والرافضة يغلون في عليٍّ ويرفعونه فوق منزلته ، أما النواصب ، فإنهم

يسبون عليًا ، ويبغضون آل بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم. قال يحيى بن معين في تليد بن سليمان المحاربي الكوفي: "كذاب ، كان يشتم عثمان ، وكل من شتم عثمان أو طلحة أو أحدًا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم – دجال ، لا يُكتب عنه ، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين").هـ. وتحت عنوان: (فضائل الصحابة رضي الله عنهم)قال الدكتور نايف بن أحمد الحمد ما نصه: (عن عبد الله بن مغفل المزني - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله تبارك وتعالى ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه). قال المناوي - رحمه الله تعالى -". (الله الله في حق أصحابي) أي اتقوا الله فيهم ، ولا تلمزوهم بسوء ، أو اذكروا الله فيهم وفي تعظيمهم وتوقيرهم ، وكرره إيذانا بمزيد الحث على الكف عن التعرض لهم بمنقص (لا تتخذوهم غرضاً) هدفاً ترموهم بقبيح الكلام كما يرمى الهدف بالسهام هو تشبيه بليغ (بعدي) أي بعد وفاتي".ا.هـ. وقال بشر بن الحارث - رحمه الله تعالى -": مَن شتم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهو كافر وإن صام وصلى وزعم أنه من المسلمين ". ولعل كثيراً من الكتاب ممن في قلوبهم مرض الذين ينتقصون أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الصحف وغيرها يرون أن الوقت لم يحن بعد لانتقاص القرآن والسنة فرأوا أن تقليل شأن الصحابة الكرام عند الناس هو من أخصر الطرق لرد الكتاب والسنة كما قال أبو زرعة - رحمه الله تعالى -". إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاعلم أنه زنديق وذلك أن الرسول حق والقرآن حق وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنة أصحابُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليُبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة ".ا.هـ.)

6 - أصنام وعاكفون

(قبل البعثة سادتِ الأصنام في مكة وغيرها ، حول الكعبة وفي البيوت. وطهّر الله الكعبة والبيوت والأرض من الأصنام ببعثة خير الأنام محمد النبي الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثم عادت الأصنام في ثياب جديدة وفي صور شتى تتناسب وعِظم الجاهلية وتعقيد أساليب الحياة بها. ولن أتعرض للصور الساذجة لأصنام الجاهلية الغابرة ، كما أنني لن أتعرض لصور الأصنام في الجاهلية الحاضرة. ولكن أشير هنا إلى خلاصة في التعريف الذي يحتوي على القاسم المشترك بين الأصنام قديماً وحديثاً ، فأقول بأن كل شيء أو شخص أو مذهب أو شعار أو فكرة أو مبدأ أخذ مكان الله في القلوب فهو صنم. وأسأل ما الفرق مثلاً بين هبل كنموذج لأصنام الجاهلية الغابرة ، والحاكي كنموذج لأصنام الجاهلية الحاضرة؟ كلاهما يصرف الناس عن الله والحق. سادت الأصنام وراجت عبادتها بين فئام كثيرة من الناس ، وذلك بسبب غياب التوحيد والعقيدة. ولقد كانت صور الأصنام على زمان الجاهلية الأولى ساذجة إذا قيست بصورها المعاصرة. ورحم الله صاحب الظلال فوالله ثم والله ما كان لي من علم بصور الأصنام المعاصرة ولا بحقيقة عبادة الأصنام في الجاهليتين الغابرة والحاضرة ، حتى منّ الله تبارك وتعالى عليَّ بهذا الرجل العظيم. وسيظل عند كل - من لم يُطالع تراث هذا الرجل – شيء من القصور في فهم حقيقة الألوهية والربوبية والعبادة والدين ، حتى يطالع بدراسة مستفيضة تراث ذلك الرجل بُغية الوصول إلى الحق ، لا بغية تصيد الأخطاء والعثرات. وهناك سطور طالعتها في منتدى الطريق إلى الله عن الأصنام المعاصرة ، أوردها هنا بتصرف يسير: (قبل

بعثة النبي كان الجهل وتغيب العقل ، هو الفكرة السائدة ، فالكل كان يعتقد أن العقل لا مجال له في التفكير في العادات والتقاليد والموروثات ، وإنما تطبق كما هي وتردد كما هي! وكأنها منظمة الببغاوات ، جيل بعد جيل لا يسعه إلا الترديد! فأدى بهم ذلك إلى الاندفاع في حب الصالحين ، ثم تطور الأمر فقاموا بعمل الأصنام تمجيداً للصالحين ، ثم بعد ذلك أصبحوا يعبدونها ، ولم يكن غريباً عليهم أو مستهجناً أن يقوموا بصنع تمثال ليتخذوه إلهاً! فالفكرة طبقت من قبل ولم يكن أي اعتراض ولا استخدام عقل من أي فرد فيهم! حتى جاء الإسلام فألغى فكرة عبودية الأصنام ، ودعا إلى توحيد الله الواحد القدير. وبالمثل ما فعله الأفراد قبل الإسلام هو نفس الطريق لظهور الديانة البوذية ، فكان بوذاً رجلاً صالحاً بزعم قومه ، وعند موته ميّزه الناس فبنوْا له تمثالاً وأخذوا يتعبدونه فصار بذلك إلها الآن في الديانة البوذية! فنحمد الله أننا هدانا الله إلى طريق الإسلام والدين الحنيف. ولكن في الاعتقاد السائد بين الناس في هذا العصر أن الاصنام لم تعد موجودة تماماً فطالما لم يوجد تمثال ويلتف حوله البشر بالهتافات والذبائح والقرابين فهذا التصور يستنتجون منه أنه لا يوجد أصنام في هذا العصر! والحقيقة للأسف مخالفة لما يقولون تماماً. فالعصر الحديث الآن ملئ بالأصنام التي يعبدها الناس ، ولكن ليس بالمفهوم الجاهلي وصورته في وضع الصنم الحجري والسجود له والصراخ حوله وذبح القرابين له وكل هذا الهراء المذموم الممقوت ، وإنما أصنام اليوم تختلف نوعياً. فأصنام اليوم يعبدها الناس دون أن يشعروا ودون أن يدروا تماماً ، ولكن يعتقدون أنها شيء عادي تافه لا يهم. ولكن الحقيقة أن تأليه الأصنام في هذا العصر أصبح أسوأ من عصور الجاهلية الأولى ، ففي العصر الجاهلي كان الفرد إذا أراد عمل صنم جديد يمكنه أن يحطم صنمه القديم ، أو يلقى به ليأتي بالجديد ، فالفكرة عندهم ليست أهميه صنم بعينه ، أو عبادة صنم واحد ، وإنما كانت فكرة الأصنام ما هي إلا لهو بالعقول ودرجة من الغباء تصل إلى عدم الاهتمام! ما هذا المعبود وما هي صورته؟ وهل يدرك أم لا؟ ولكن أصنام اليوم قد بولغ في تعظيمها! فبالنسبة لهم الصنم لا يُمس أبداً؟ ولا تناقش عابده فيه؟ فأصنام اليوم ليست من الحجر ولا من العجوة ، ولكن أصنام اليوم يمكن أن تكون أشخاصاً. فيمكن أن تكون المرأة بالنسبة للرجل صنماً ، كما يحدث الآن فنجد المرأة للرجل ما هي إلا صنماً يعبده ، ويقدم له القرابين ، ويهتف بالحب والمشاعر ، ولكن ليس لحب الصنم ولكن تعصباً له. فأوامرها لا تعصى! إن قالت لرجل أبواه معه في ذات البيت: لا أريدهما ، واذهب بهما إلى دار العجزة والمسنين فبدلاً من عصيانها يطيع صاغراً! وبالمثل فنحن الآن نعيش في زمان أصنام الشخصيات! فمنا من يكون بالنسبة له شخصية ما لا تخطئ أبداً! فهو يراها كاملة متكاملة. لا تخطئ أبداً فهو يرفع صاحبها فوق مستوى البشر العاديين ليضعه في منزلة إله يعبده. وأي شخص يتكلم بسوء عنه لا يمثل له إلا كافراً بالملة وعابداً لغير الصنم. هذا هو حالنا الآن فبالنسبة لنا هناك أصنام لا نحاول أن نضعها في صورة الإنسان ، وإنما نضعها في صورة الملاك الذي لا يخطئ ، وإن قال كلمة فكلمته دائماً هي الصحيحة ومن يناقش الكلمة فيصبح عدواً للصنم وخارج عن الملة الصنمية فيقتلونه أو يأخذون من كل قبيلة رجلاً ليقتلوه. والمجتمع لا يدرك أنه يمجد الشخص لدرجة جعله صنماً ، ففكرة الأصنام ليست مقتصرة فقط على أصنام الجاهلية الخشبية والحجرية ، وإنما فكرة الأصنام يمكن أن تكون مجرد فكرة. لذلك فعليك يا صديقي ألا تمجّد شخصاً وتجعله في مرتبة سامية صنماً ، وإنما كل ما عليك هو الاتفاق أو الاختلاف مع الفكر أو الشخصية من ناحيه الفكر والأساس ، وليست من ناحية

موقف أو كلام يأكل به عقول الناس. فتنبهوا أيها الناس للأصنام العصرية.)هـ. وأما الدكتور مصطفي محمود فيقول تحت عنوان الأصنام المعاصرة: (نحن نقول إننا في عصر العلم وإننا خلّفنا الجاهلية وراءنا بأصنامها وأوثانها. ولم يعد هناك من يعبد اللات والعزى وهبل ولا من يسجد لبعل. انتهى الشرك إلى غير رجعة. ولكني أقول بل منا من هم عبدة أوثان يسجدون ويركعون ويحرقون البخور ويرتلون التسابيح والابتهالات في كل لحظة لأصنام لا حصر لها. نحن في الجاهلية بعينها ولو تكلمنا بلغة الإلكترونيات. ولو مشينا على تراب القمر. إنما اختلفت أسماء الأصنام. واختلفت صورها ونوعياتها. وتسترت تحت ثياب الألفة. ولكنها هي الأصنام بعينها. ماذا يكون جسد المرأة العاري اليوم. وهل هو إلا صنم رُفع إلى مرتبة الإله المعبود المعشوق المرتجى. لقد أصبحت صورة الجسم العاري ماركة مسجلة تروّج بها أي بضاعة. صورة المرأة العارية هي تعويذة التاجر التي يرسمها على إعلانات السجائر وإعلانات الخمور والصابون والبيرة والكاميرات والساعات والحرابر والأقمشة حتى أدوية الزكام وشفرات الحلاقة ومعاجين الأسنان. وهي عامل مشترك في كل أفيشات السينما والمسرح. وهي على أغلفة المجلات وعلى كروت المعايدة وفي جميع الفاترينات بمناسبة وبدون مناسبة. وهي على علب الشيكولاته وعلب البونبون وزجاجات العطر ونجدها بدون سبب في إعلان لتروس الماكينات. ونفاجأ بها في إعلان سيارات تفتح لنا الباب وفي الطائرات تقدم لنا طبقاً من الجاتوه مع ابتسامة. وإلى جانب مطحنة بن تقدم لنا فنجاناً من القهوة. بل وفي إعلان عن أسياخ الحديد الصلب تدعونا لنبني بيتاً جديداً. وهي دائماً عارية أو نصف عارية. وكأنما لا وسيلة لجذب الانتباه إلا باستخدام هذا المعبود الجديد. ولا طريقة لشد العين إلا بالتلويح بهذا الوثن. إنه الذكر والابتهال ، والتسبيح العصري الذي تسفح فيه الدموع وتنشد الأشعار وترتل المزامير والأغاني والرباعيات والسباعيات وتؤلف المسلسلات والحلقات كل حلقة تشحذ الذهن وتثير شهية المستمع والمتفرج. أما الصنم الثاني أو لعله المعبد أو الكاتدرائية العظمى أو جبل الأولمب الذي يتجمع فيه حشد الآلهة العصرية فهو فاترينة البضائع الاستهلاكية التي تتحلق حولها العيون مشدوهة مبهورة مسبحة تكاد تركع للثلاجة والريكوردر والتليفزيون والساعة الذهبية والسوار الماسي. والابن يقتل أباه والأخ يسرق أخاه والموظف يختلس والصانع يغش والصراف يزوّر والمزيف يزيف في سبيل هذه الفاترينة الوهاجة ، فاترينة الأحلام. الكل يتهجدون ويسهرون الليل يصلون لها. وكل شيء يفنى ما عدا وجهها ذي الجلال والإكرام ، المُضاء دائما بالنيون والفلورسنت في حي المال والتجارة من كل مدينة. أما الصنم الثالث فهو الهيكل. هيكل الفكرة المجردة والنظرية والمذهب الذي يركع فيه المريد المتعصب. لا يرى حقاً إلا ما تقوله بنود نظريته ولا يرى صدقاً إلا ما يأمر به مذهبه فإذا سمع من يتكلم عن مذهب آخر فهو عنده خائن مارق فاسق يستحق أن يحرق حياً. وهو يعيش بفكر مقلوب ومنطق معكوس ، فالإنسان عنده يجب أن يوضع في خدمة النظرية لا النظرية في خدمة الإنسان. وهذا هو عابد الصنم الأجوف المجرد وعابد قصاصات الورق والشعارات الطنانة الكاذبة. وهو أحد مجانين هذا الزمان. وصنم آخر شائع هو الدكتاتور المستبد الجالس على العرش ومن حوله بلاط الهتافين والمصفقين وحملة المباخر والمجامر والمسبحين بالحمد والمنافقين والكذابين وقارعي الطبول ونافخي الأبواق. تزفه الأناشيد والأهازيج في كل مكان. ويلقن الأطفال في مدارسهم: أنه الرزاق والمنقذ والمعين الذي يطعمهم من جوع ويؤامنهم من خوف ويكسوهم من عري وأن عليهم أن يتوجهوا إليه بالتسبيح والتحميد كل صباح. وأن عليهم أن يحفظوا

كلماته ويعُوا وصاياه ويلتمسوا رضاه. وربما كانت أشيع أصنام هذا العصر وأكثرها انتشاراً هو صنم (الذات). عبادة النفس واتباع الهوى. والمرأة التي تعبد جمالها. والرجل الذي يعبد أناقته. والممثل الذي يفتتن بشهرته. والفنان العابد لفنه. والبطل المبهور ببطولته. والمتحدث اللبق الذكي المعجب بنفسه وبذكائه. ونجم السهرة المزهو بشخصيته. وصاحب الملايين الفرحان بملايينه. والمال في أكثر الأحوال وفي هذا العصر المادي صنم في ذاته تقدم له القرابين من دم الجميع. وقد يختفي صنم (الذات وراء صنم أكبر هو (العصبية) للعائلة أو القبيلة أو الطائفة أو العرق أو العنصر أو الملة وكلها أصنام. وكلها عبوديات. وكلها شرك. وعابد الله لا يكون عبداً لله إلا إذا تحرر منها جميعا وأسلم قلبه ووجهه خالصاً من جميع الشواغل والعلائق والتبعيات والمنازعات. القلب لله (بلا منازع) ، هذا هو الدين. أما ما نحن فيه فهو جاهلية. جاهلية العلم التي جاءت بأصنامها الجديدة ونصبت أوثانها العصرية وأقامتها مكان اللات والعزى وهبل وبعل وأقامت لها الهياكل ووظفت لها السدنة والكهان وقدمت لها النذور والقرابين. ولو أننا جلسنا إلى أنفسنا وصارحنا أنفسنا في لحظة صدق لوجد أكثرنا نفسه في إحدى خانات عباد الأصنام يسبح دون أن يدري لوثن من تلك الأوثان الخفية التي أقامها عصر المادة في قلوب الناس.)هـ. والحقيقة أن الناس كانوا بعد آدم يعبدون الله وبعد قرون طويلة كان هناك خمسة رجال عُرفوا بالصلاح في الدين فلما ماتوا اشتاق لهم قومهم فقالوا: نجعل لهم تماثيل ونضعها في المجلس الذي اعتادوا الجلوس فيه ونجلس نتحدث وكأنهم معنى لم يفارقونا ولم يعبدوهم ولم يتقربوا إليهم بشيء بل كانوا مجرد تماثيل كالصور اليوم تذكرنا بالعظماء وبعد مرور قرون أخرى على هذا الحدث أخذ كل جيل جديد يُضيف شيئاً من التعظيم للتماثيل حتى جاء جيل قالوا ما هذه التماثيل إلا آلهة عبدها أسلافنا فعبدوها وقلدهم الناس في كل مكان بعبادة الأصنام. فكان في زمن نوح خمس من الأصنام هم (ود وسواع ويعوق ويغوث ونسر). هؤلاء كانوا رجالاً يحبهم الناس ، فلما ماتوا ذهب الشيطان الى أهلهم ، وتجسد في صورة رجل طيب ، وقال لهم: يمكن أن أصنع لكم تمثالاً يشبه من تحبونه. إلى أن عبدت الأصنام! وسادت بعض أسماء أخرى في العرب مثل: اللات ومعناها الخصوبة ، ويقال: اسم رجل كان يلت السويق للحاج. والعزى هى كوكب الزهرة ، وهو الكوكب الذى رآه إبراهيم. ومناة وكان مختص بالمصير والقدر. وهبل ويعني الشمس ، وكان من أعظم الأصنام. وإساف ونائلة وهما إله الحب لأنهما كان على شكل رجل وامرأة. وأظن أنه قد آن الأوان لأن يصحح المسلمون مفهوم الصنم ، خاصة في هذا الزمان الذي قل خيره وكثر بلاؤه وشره! وأصبحت الأصنام تأخذ صوراً متعددة بحيث يصعب على كل من يريد تحديدها الإلمام بحقيقتها وكنهها! ولنتابع قصيدتنا! وسواء كان الصنم مرئياً محسوساً ملموساً أو غير ذلك فيكفي أنه أخذ اهتمام الله في القلوب!)

7 - أضغاث أحلام

(الرؤيا من الله ، والحُلم من الشيطان. هكذا قال النبي – صلى الله عليه وسلم - . وربما يكون حديث نفس أخذ طريقه من النفس إلى العقل الباطن في المنام في صورة حُلم. والمسلم متفائلٌ بطبيعته. إذ عقيدته تحثه على الاستبشار والتفاؤل وإحسان الظن بالله دائماً. فرسولنا يوصينا بقوله: (يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا ، إنما بعثتم ميسرين لا معسرين ، ومبشرين لا منفرين). أو كما قال صلوات الله وتسليماته عليه. إذن المسلم لا يقض مضجعَه

حُلمٌ مزعج ولا تعسيرُ معسرٍ ولا تنفيرُ منفر. إنه أكبر من الأحلام والمنامات والرؤى. وضلت أقوام تأخذ دينها من خلال الأحلام والرؤى والمنامات. قد ينزعج المسلم من حُلم ، ولكنه يمضي ولا شيء يؤخره عن المضي. ولقد يستأنس بالرؤى ذات الدلالة. ولكنها لا تنهض دليلاً يحتج به على شيء! عن أبي رزين – واسمه لقيط بن عامر العقيلي – رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة). رواه الإمام أحمد وابن أبي شيبة والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح ، وصححه الحاكم والذهبي. وفي رواية لأحمد والترمذي وابن حبان: «رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءًا من النبوة». وفي رواية لأحمد: «الرؤيا الصالحة جزء من أربعين جزءًا من النبوة». وفي رواية لابن حبان: (الرؤيا جزء من سبعين جزءًا من النبوة). وهذا حُلم فرض نفسه عليَّ وعلى روحي ، وكم كان مزعجاً مريعاً ، وما صرحت به لأحد. لأن كل موحّد مأمورٌ من قبل دينه بألا يتحدث عن تلعاب الشيطان به. وأخذت أعاتب حُلمي هذا بعتاب رقيق يذيب الفؤاد ، عبر هذه القصيدة الخاطفة. وكم أعجبتني مقالة حاشية عزيز مصر ، عندما قالوا له وقد طلب إليهم أن يفتوه في رؤياه: (أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين). إنها الصراحة التي لا تقل عن صراحة ملأ بلقيس ، هذه الملكة التي كانت قبل إسلامها تعرف حدود طاقتها وما عند رجالها من إمكانات ، عندما طلبت إليهم أن يفتوها في أمرها ، فقالوا: (نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين).

8 - أطلال فن القصيدة

(اعتاد ذلك الشاعر على كتابة أغلب شعره ارتجالاً. وكان قد تعجّل نشره بشتى السبُل ، فخرجتْ قصائده خالية من الفن والجودة ، ناهيك عن الأخطاء الإملائية والثانية التصحيفية والثالثة الطباعية! وما ذاك إلا لنقص الخبرة من كافة الوجوه: الخبرة في التأليف والكتابة والصياغة لحداثة التجربة ، وكذلك الخبرة في التعامل مع المطابع ودور النشر! وكانت القصائد أشبه ما تكون بالأطعمة المسلوقة دون طهي أو حبك أو صياغة! فكتبتُ أرشده إلى فن تأليف وطباعة القصيدة! والأصل أن يتعلم الشاعر ليصقل موهبته ، ثم يعرض ما كتب على أصحاب الفن والعلم ليبينوا أخطاءه العلمية اللغوية والعروضية والصياغية ونحو ذلك! ثم يعرضه على أهل التذوق ليشجعوه! وأما الطباعة والنشر للجمهور فهذي آخر المراحل لا أولها!)

9 - أطلال المأساة

(قديماً كان الشعراء الجاهليون يبكون على الأطلال ، والتي أغلبها بقايا ديار المحبوب. ولكنني في قصيدتي هذي أبكي أطلال مأساة عشتها وحدي. وسببها الرئيسي الأقربون. وإن كل إنسان ساعة تنزل به نازلة ، ويحاول بكل ما أوتي من طاقة أن يحتويها ، ويتغلب عليها بفضل الله ورحمته ، فإنه يسعد بذلك الانتصار كل السعادة ، ويشعر فعلاً بلذة الغلبة على لواعج الأسى التي تنتاب النفس بين الحين والآخر ، ولكن إذا عاوده طيفُ الحنين إلى ذكريات الماضي ، فإنه يعيشُ مع الأطلال التي تُطل بآلامها ، تُحاول أن تنال منه ، وهو ينظر إليها على أنها شيء فاته ، ولقد عشت هذا الشعور المرير وحدي ، فأنشدت هذه القصيدة وأنا أعيشُ مع أطلال مأساة نزلت بي ، وحزنتُ أنني ألفتها بعد ذلك! ولكنها تبقى مجرد ذكرى ، لها وظرفها المواتي!)

10 - أطلق قصيدك - شعر / د. عدنان النحوي

(وأما هذه القصيدة فليست من شعري! إنما هي مهداة من الشاعر الكبير سماحة الوالد الدكتور / عدنان على رضا النحوي ، حفظه الله تعالى ، وفيها يرد على قصيدتنا (رسالة عزاء رقيقة إليك يا عدنان - لا يطفئ النار الرماد). وهي إحدى قصائد ديواننا: الأمل الفواح. جعلني الله خيراً مما يظن بي الوالد الكريم ، وغفر الله لي ما لا يعلم عني ، ولا فتنني الله بما أنشد في ، آمين. والحقيقة أنني أهديتُ شعراء كثيرين من شعري: أثني فيها عليهم وأطريهم وأنصفهم وأتبنى قضاياهم ، وأعيد لهم بعض حقوقهم ، وأرد لهم اعتبارهم ، وأسُلهم من قوادح أعدائهم كما تسل الشعرة من العجين على حد قول حسان بن ثابت – رضي الله عنه -. ولكنْ أن يرد أحدهم على تحيتي له شعراً ، فهذا ما حدث إلا من الدكتور عدنان – حفظه الله -. وفي اعتقادي أن تحايا الشعراء لا تكون إلا بالشعر! ولا أستطيع قط أن أصف شعوري يوم طالعت قصيدة الدكتور عدنان (أطلق قصيدك) بقلمه في الرسالة للمرة الأولى! كما لا أستطيع أن أصف شعوري وأنا أطالعها للمرة الثانية في ديوانه: (عبر وعبرات)! وأعتبر هاتين الفرحتين من الأفراح المعدودة في حياتي على قلتها! حيث إنني كنت حينها كنت في ظروف نسيت معها الابتسام! يقول الأستاذ أحمد أمين في مقاله: (ابتسم للحياة) ما نصه: (لا شيء يضيع ملكات الشخص ومزاياه كتشاؤمه في الحياة ، ولا شيء يبعث الأمل ، ويقرب من النجاح ويُنَمِّي الملكات ، ويبعث على العمل النافع لصاحبه وللناس ، كالابتسام للحياة. ليس المبتسمون للحياة أسعد حالاً لأنفسهم فقط ، بل هم كذلك أقدر على العمل ، وأكثر احتمالاً للمسئولية ، وأصلح لمواجهة الشدائد ، ومعالجة الصعاب ، والإتيان بعظائم الأمور التي تنفعهم ، وتنفع الناس. ولو خُيِّرتُ بين مال كثير ، أو منصب خطير ، وبين نَفْسٍ راضية باسمة لاخترت الثانية ؛ فما المال مع العبوس؟ وما المنصب مع انقباض النفس؟ وما كل ما في الحياة إذا كان صاحبه ضيقاً حرجاً كأنه عائد من جنازة حبيب؟ وما جمال الزوجة إذا عبست وقلبت بيتها جحيماً؟ لَخَيْرٌ منها ألف مرة زوجة لم تبلغ مبلغها في الجمال ، وقد جعلت بيتها جنة. ولا قيمة للبسمة الظاهرة إلا إذا كانت منبعثةً عن نفس باسمةٍ ، وتفكير باسمٍ ، وكل شيء في الطبيعة جميلٌ باسمٌ منسجمٌ ، وإنما يأتي العبوس مما يعتري طبيعة الإنسان من شذوذ ، فالزهر باسم ، والغابات باسمة ، والبحار ، والأنهار ، والسماء ، والنجوم ، والطيور كلها باسمة ، وكان الإنسان بطبعه باسماً لولا ما يعرض له من طمع ، وشر ، وأنانية تجعله عابساً ؛ فكان بذلك نشازاً في الطبيعة المنسجمة. ومن أجل هذا لا يرى الجمالَ مَنْ عَبَستْ نفسُه ، ولا يرى الحقيقةَ مَنْ تدَنَّس قلبه ؛ فكل إنسان يرى الدنيا من خلال عمله ، وفكره ، وبواعثه ؛ فإذا كان العمل طيباً ، والفكر نظيفاً ، والبواعث طاهرة ، كان منظاره الذي يرى به الدنيا نقياً ، فرأى الدنيا جميلة كما خلقت ، وإلا تغبَّش منظاره ، واسْوَدَّ زجاجُه ، فرأى كل شيء أسودَ مغبَّشاً. هناك نفوس تستطيع أن تخلق من كل شيء شقاءً ، ونفوس تستطيع أن تخلق من كل شيء سعادة).هـ. فقرأتُ القصيدة ، وابتسمتُ للحياة! وشكرتُ للشاعر الدكتور عدنان النحوي تواضعه الكبير وحسه المرهف وتشجيعه المبطن! وأورد هذا الموقف هنا في شرائحنا القصصية السليمانية لأصف شعوري بالحرج الشديد لمدح يعلم الله أنيي لا أستحق حرفاً واحداً من حروف كلماته! ولكنها حكمة الله أن أيدني وثبتني ووفقني ، وسخر لي عبداً أحسبه صالحاً موفقاً من عباده هو الدكتور عدنان ليشجعني ويأخذ بيدي ، فجزاه الله تعالى خير ما جزى معلماً عن تلميذه يا رب!)

11 - أطياف الذكريات

(إنها نفحات شعرية أهديها لولديّ العزيزين عبد الله وعبد الرحمن ، حيث سافرا للدراسة في مصر. وعانيت كما عانت الأسرة فراقهما. فأنشدتُ أطمئنهما على أن المحبة كما هي ، وعسى الله أن يجمعنا على خير. ولقد حرصت منذ رزقني الله إياهما أن يكون مبدأ تربيتهما قائماً على الحب والتقدير والاحترام! والدكتور ميسرة طاهر في محاضرته الرائعة: (التربية بالحب) يشير إلى المعنى الذي أتناوله في هذه القصيدة فيقول ما نصه: (عندها نسمع كلاماً من قبيل: ألا تذكر ما فعلته لك؟ ألا تذكر أني حرمتُ نفسي من كثير من المزايا في سبيل تأمين ما تريده؟ ألم أعطك من وقتي وعمري؟ يا حسرتي على عمري وتربيتي لك! لو أنني ربيتُ قطةً لكانت خيراً منك! ليس بحبٍ إلا ما عرفته ارتقاءً شخصياً تعلو فيه الروح بين سماوين من البشرية وتبوح منها ، كالمصباح بين مرآتين يكون واحداً فترى منه العين ثلاثة مصابيح ، فكأن الحب هو تعدد الروح في نفسها وفي محبوبها. ولنقرأ هذه الحادثة التي سطرتها لنا كتب التاريخ. اشترى حكيم بن حزام زيد بن حارثة لعمته خديجة بنت خويلد فلما تزوج رسول الله بخديجة وهبته له فتبناه الرسول. فخرج أبو زيد وعمه لفدائه فلما وصلا مكة سألا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذهبا إليه وخاطباه بلغة راقية جداً ، قالا: يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله وجيرانه ، تفكون الأسير وتطعمون الجائع ، وتغيثون الملهوف ، وقد جئناك في ابن لنا عندك ، فامنن علينا بفدائه ، فإنا سندفع لك في الفداء ما تشاء. فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ومن هو؟ فقالا: زيد بن حارثة. فقال عليه الصلاة والسلام: فهلاّ غير ذلك. قالا: وما هو؟ قال: أدعوه فأخيّره ، فإن اختاركم فهو لكم! وإن اختارني فما أنا بالذي أختار على من يختارني أحداً. فقالا: قد زدتنا على النصف وأحسنت. فدعاه وقال له: هل تعرف هؤلاء؟ قال: نعم. قال: من هذا؟ قال: هذا أبي! ومن هذا؟ قال: هذا عمي. فقال لزيد: فأنا مَن قد علمتَ فاخترني أو اخترهما. "ولم يقدم كشف حساب طويل." هذا الكلام مهم لأنه يمثل مفتاح التربية بالحب. قال زيد: ما أنا بالذي يختار عليك أحداً ، أنت مني مكان الأب والعم. إن الحب الصحيح ليس له فوق ، ولا يشبه من هذه الناحية إلا الإرادة الصحيحة! فليس لها وراءٌ ولا يمين ولا شِمال ، وما هي إلا أمام أمام. إذا غضبنا على أولادنا هل ندعو عليهم أم لهم؟ وهذا معيار من معايير الحب. الحب يكون من الإنسان وهو في أحلك حالات الضعف تماماً كما يبدو والإنسان في أشد لحظات القوة. إن من حق الجميع على أولادهم أن يَبرّوهم أي أن يردّوا جميلهم وصنيعهم وإحسانهم بإحسان. وإنْ لم يفعل ذلك الأبناء فقد خسروا خسراناً كبيراً. ولكن لا ينبغي التوقف عن الإحسان إليهم إذا أساءوا أو أخطأوا إن كنا نحبهم حباً حقيقياً).هـ. جزا الله خيراً الدكتور ميسرة طاهر على نصيحته التي أفادتني كثيراً! ميسرة طاهر ، ذلك الفيلسوف الذي يعيش في غير زمانه وفي غير أهله! وإنني من لأدعو القراء الأعزاء لأن يتزودوا في التربية والتعليم والتوجيه والإرشاد بآراء ذلك العبقري الموفق الدكتور الفذ ميسرة طاهر! إن الآراء التربوية كثيرة تملأ الكتب والمراجع والقواميس والمخطوطات! ولكن أين هي الآراء التربوية المنبثقة من كتاب الله وسنة رسوله والمقترنة بالصحيح مما أنعم الله به على العقل البشري؟! إن ما يميز الدكتور ميسرة طاهر هو ربطه الواقع المُعاش بالكتاب والسنة من جهة ، وبما صح من الآراء التربوية التي دونها الغربيون والشرقيون في كتاباتهم! ولا أزكي على الله ربي أحداً – أحسب الدكتور ميسرة طاهر هكذا!)

12 - أعاجيب الأوهام

(كم قتلتِ الأوهام من قلوب أقوام أذعنتْ إليها ورضختْ لها واسترسلتْ معها! والقلوب المؤمنة لا تذعن للأوهام ولا ترضخ لها ولا تسترسل معها! والمخرج من الأوهام هو الاعتصام بحبل الله المتين والعمل بكتابه المبين واتباع نبيه الأمين – صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى أصحابه وأزواجه والتابعين -. وساعتها تنقشع الأوهام إلى غير رجعة! ويخشع القلب لذكر الله! وهذا هو الدكتور خالد بن عثمان بن سبت يحاضر بعنوان: (إلى من أسرته الأوهام) فيقول في بعض كلامه: (وهذا شاب يتوقد ذكاء ، إلا أنه لا يستطيع أن يتخذ قراراً في حياته ، فهو دائماً إذا لاحت له فرصة من الفرص يفوّتها بدراسة البدائل ، والنظر في كثير من الأمور الدقيقة التي تضيع عليه الزمان ، وتطير من بين يديه الفرص ، حتى أصيبت شخصيته بالتردد ، والخوف ، ثم بعد ذلك صارت تقع له الإحباطات ، والمشكلات ، والتراجع في عمله ، وفي دراسته قبل ذلك حتى صار لا يستطيع أن يتخذ قراراً حتى في أموره الشخصية البسيطة ، وصار من حوله من أهله يتخذون القرارات نيابة عنه. ويلحق بهؤلاء أيضاً أولئك الذين يطلبون الكمالات من غير مظانها ، الذين يدرسون في هذه الدورات التي تأخذ أموالهم ، وتفضي بهم إلى وهم كبير ، الذين يدرسون في هذه البرمجة العصبية طلباً للثروة ، ويقال له: إذا درست هذه الدورات ستكون ثريًّا ، ستكون من أصحاب المليارات. ثم يدرس المسكين ، ولا يجد إلا الفَلَس ، والخيبة وهكذا من يظن أنه سيعالج الأمراض ، يدرس في هذه الدورات ، ويقال له: تخيّل هذا المرض الآن في دائرة سوداء تجتمع في إنسان أمامك مسجى ، وأن هذا المرض يخرج منك الآن بدائرة سوداء ، ثم ينتقل ، تخيله الآن ينتقل ، ينتقل إلى هذا الإنسان المقابل ، والآن تخلصت من المرض. كيف يتخلص من المرض؟ إنسان في بطنه - في جوفه – طاعون ، فيه علة ، فيه مرض ، كيف يخرج مثل هذا المرض بهذه الخيالات الفاسدة؟. وهكذا أولئك الذين يتبعون المظهرية الجوفاء ، فالكمال عندهم بنوع الساعة التي يلبسها هذا الإنسان الذي أمامهم ، ونوع المركب الذي يركبه ، وقد يكون هذا ينطوي على أمور لا حقيقة لها ، بل قد يكون هذا الإنسان لا يحمل أي معانيَ ، ولا مبادئ ، ولكنه لُبِّس هذه الساعة ، أو هذا الثوب ، أو رُكِّب في هذا المركب. وهكذا أولئك الذين يعتمدون على النسب ، والحسب ، ويظنون أن هذا تُكَأة يتكئون عليها من أجل السمو ، والرقي ، والإنسان إنما يسمو بعلمه ، وعمله ، والكمالات التي حصلها بيمناه بعد توفيق الله. وبعض أولئك الشباب المساكين الذين يظن الواحد منهم أنه قد تمسك بالثريا ، وأخذ بمعاقد العز إذا غيّر سيارته ، أو إذا أوقفها ، وقد فرّ عجلتها إلى ناحية اليمين ، أو اليسار ، أو إذا جلس يفحط فيها ، وبدأت تلاحقه كاميرات الجوال ، أو كاميرات أخرى ، ثم بعد ذلك طار عقله ، وحلق في عالم الجنون ، وحاله يقول: إني مستهلكٌ ، ميتٌ ، متفانٍ لا يبالي في أي وادٍ هلك ، المهم أن الجماهير قد اصطفت لتتفرج عليه ، وتصوّر مثل هذه الحماقات ، فيظن أن هذه من الكمالات العظيمة ، وأنه قد أخذ بمعاقد العز ، وأنه قد سما في عالم الكبار. ألا إن طلاب السعادة الذين يظنون أنهم يحصلونها في المال لا شك أنهم قد أخطأوا. انظروا هذا المثل ، هذه امرأة يونانية ثرية يقال لها "كريستينا" ابنة الملياردير "أونسايس" هذا يملك جُزراً ، وأموالاً طائلة ، ماتت أمها ، ثم أبوها ، ثم مات أخوها بعدما سقطت به طائرته التي كان يعبث ، ويلهو بها ، وصارت زوجة أبيها هي الوارث الوحيد مع هذه الفتاة لتلك الثروات الطائلة ورثت من أبيها ما يزيد على خمسة آلاف مليون ، وصارت تملك أسطولاً بحريًّا ، وجزراً بأكملها ، وشركات طيران. وكانت أمها قد ماتت بعد حياة مأساوية كان آخر فصولها الطلاق ،

وأما أبوها فقد اختلف مع زوجته الجديدة "جاكلين كيندي" وهذه زوجة الرئيس الأمريكي الأسبق ، فتزوجها هذا الرجل بالملايين بحثاً عن الشهرة ، وكان من بنود العقد ألا تنام معه في فراش ، وأن لا يسيطر عليها ، وأن ينفق عليها الملايين حسب رغباتها ، ثم بعد ذلك اختلف معها ، وبعد وفاته اختلفت مع ابنته. أما هذه البنت فقد تزوجت في حياة أبيها برجل أمريكي ، وبقيت معه شهوراً ، ثم طلقها ، وبعد أبيها تزوجت برجل يوناني ، وعاش معها شهوراً ، ثم طلقها ، ثم تزوجت شيوعيًّا روسيًّا ، وحينما سألها الصحفيون عن ذلك ، قالت: أبحث عن السعادة. ثم ذهبت معه إلى روسيا في وقت الشيوعية ، حيث النظام الذي لا يسمح بامتلاك أكثر من غرفتين ، ولا يسمح بخادمة ، فجلست تخدم في بيتها ، ولما سئلت عن هذا ، قالت: أبحث عن السعادة. فبقيت معه سنة ، ثم طلقها ، ثم أقامت حفلة في فرنسا ، وسألها الصحفيون: هل أنتِ أغنى امرأة؟ قالت: نعم ، أنا أغنى امرأة ، ولكني أشقى امرأة. ثم تزوجت برجل فرنسي، ثم طلقها ، ثم عاشت تعيسة وحيدة ، ثم وجدت ميتة في شاليه في الأرجنتين ، ثم دفنت في جزيرة أبيها. وهكذا أولئك الذين يظنون أن السعادة في الشهرة. هذا ممثل مشهور ، معروف ، تزوج ممثلة يهودية معروفة ، وقد كتبت في مذكراتها أنه كان ممثلاً بسيطاً ، فقال: أتمنى أن أملك مليون جنيه حتى لو أصبت بالمرض. فقالت: وما ينفعك هذا المال إذا جاءك المرض؟ فقال: أنفق جزءًا من المال في العلاج ، وأعيش ببقيته سعيداً. فملك أكثر من مليون جنيه ، وابتلي بسرطان الكبد ، فأنفق المليون ، وزيادة ، ولم يجد السعادة ، حتى إنه كان لا يأكل إلا قليلاً ، فهو ممنوع من كثير من الأطعمة ، ثم مات بمرضه هذا).هـ. وإذن فالإنسان عندما يكون أسيراً للأوهام يبتعد كثيراً عن ساحة الواقع! ويكاد الخيال والوهم أن يستوليا عل قلبه!)

13 - أعاجيبُ قلب قاس

(لخلافاتٍ قامت بينها وبين جارتها قاطعتْها لسنوات عديدة. وذات يوم تذهب جارتها إلى المستشفى في حالة طارئة ، لم تكن لتستعد لها أبداً. فتركت ابنها ذا السنوات الثلاث في الشارع مضطرة ، فقد أتاها ما شغلها. فأخذْته الجارة القاطعة الهاجرة ، ونظفته وأطعمتْه وقامت على شأنه. وأدخلت الفرحة على قلبه بإعطائه بعض اللعب من لعب أولادها الصغار الذين هم في مثل سن ذلك الطفل البائس. فعلت ذلك كله ابتغاء وجه الله على حد تعبيرها. فتعجبتُ من هذا القلب. وقررتُ أن أصف شعوري شعراً فضلاً عن كتابة رواية عن الموقف! والشاعرة رشا القاسم ترى جملة تشخيصات تعرض لها ببساطة حول رؤيتها لطابع الإشكال الشعري من خلال عوامله الداخلية أو بالمقارنة بالرواية وتسيّد الأخيرة المستمرّ على مساحات كانت تُحتسب للشعر فيما مضى. تصف رشا «ما حدث» بأن أحد أسبابه هو أن لغة المجتمع تغيّرت عن لغة الشاعر ، فصار جمهور الشعراء هم الشعراء من ذات جنسه ولونه ، بينما التفت المجتمع إلى أجناس أدبية أخرى ذات لغة وأسلوب سهلين ومفهومين. ما يحدث اليوم هو أن الشاعر الحقيقي يواجه أزمة قرّاء ، والقارئ المثقف يواجه أزمة في الشعر. وتضيف القاسم نعم ، أصبح الشعر أكثر يُتمًا ، ليس لأن الرواية تحاكي بشكل أدقّ معاناة الواقع العراقي أو العربي فحسب ، بل إن شروط كتابة الرواية سابقًا اختلفت عن شروط كتابتها اليوم بدءًا من الأسلوب وصولًا إلى عدد الصفحات. كما أنها لا تتداول الرموز التي يتناولها الشعراء في نصوصهم ، وقد يتوافر ذلك في بعض النصوص ، لكن ليس كما هو في الرواية).هـ. واستقر الرأي في النهاية على هذه القصة لوصف الحدث.)

14 - اعتذار

(كتب لي هذه الكليمات المرتجلة والد أحد طلابى في مدرسة (أم القرى) بأم القيوين: عبد الله عبد الحكيم المساعد ، من أهل اليمن. وكان قد صاغها على وريقة في دفتر ابنه ، وأتاني بها الطالب مشفوعة بالدعاء والثناء. وها أنذا أسطرها كما هي ، والعذرُ ملتمس للرجل:

(قـــال لـــي أنيســـي وجـــدت لـــي مثـــل فقلـــــــــت لـــــــــه صـــــــــفه

فقـــال إنـــه بطـــل إذا وعـــد أوفـــاء وإذا قـــال فعـــل فقلـــــت ذاك القـــــوى بـــــالحق مـــــاذا بعـــــد

فقـــال ابـــين مـــاذا اقـــول عـــن زرع فينـــا الأمـــل (أم القـــرى) تهـــزو لأنـــه فيهـــا نـــزل اوجـــز

إذا لـــــم ارآه يوفـــــا شـــــعر بالمـــــل فقلـــــــت تلـــــك صـــــفات الأمـــــين

فقـــال مطبـــق الســـنة بلبســـه والعمـــل ومـــا يمـــل فـــي نصـــحه كأنـــه غيـــث همـــل

فقلـــــت لـــــه مبـــــروك يـــــا بنـــــي ذاك البـــــــــــــدر اكتمـــــــــــــل)

أخي وعزيزي الأستاذ المربى الفاضل أحمد علي سليمان مهما حاولت انتقاء كلمات بليغة للتعبير عن مشاعري تظل عاجزة . وقد حاولت كتابة تلك الأبيات رغم أني لست شاعراً ولكنها تعبير صادق عن مشاعر أولادي الذين لا يمر يوم إلا وأنت حاضرٌ بيننا. أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يوفقك ويسدد خطاك. أخوك اليمني: عبد الحكيم المساعد).هـ. (ورحت أشكره نثراً. إنه لمن هدي النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه يقول لمن أحبه معلناً ذلك أحبك الذي أحببتني من أجله وكان الصدّيق - رضي الله عنه - يقول لمن مدحه : (اللهم أنت أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي من الناس ، اللهم اجعلني خيراً مما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون. ولا تؤاخذني بما يقولون.) وإن سليمان النبي – عليه السلام - لما وجد عرش الملكة بلقيس ملكة سبأ مستقراً عنده في القدي توجه إلى الله بالثناء والدعاء قائلاً: (هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم). ويطيب لي أن أدفع هنا شبهة عن المدح والإطراء. إن الذي عناه النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله: (إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب.) إنما هذ القول فيمن يكون المدح ديناً له وطبيعة وجبلة. وأرشدنا نبينا – صلى الله عليه وسلم – إن أردنا مدح زيد أو عمر أن نقول: (إني لأحسب فلاناً كذا وكذا ، والله حسيبه ، ولا أزكى على الله أحداً.) أقول: قال العُتبي نقلاً عن المستطرف في كل فن مستظرف لعلامة مصر الأبشيهي وإن كان على كتابه مآخذ جمة: (إنما عنى النبي – صلى الله عليه وسلم - بقوله: (احثو في وجوه المدَّاحين التراب) ، هو المدح الباطل والكذب. وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به. وقد مدح العباس وحسان وكعب بن مالك وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة وسارية الديلي (سارية عمر) رسول الله - صلى الله عليه وسلم – وما علمنا أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حثا التراب في وجه مادح منهم! وكذلك حسان بن ثابت الذي مدح الأنصار والمهاجرين ونساءهم وبعض أعيان الصحابة.

وكذلك قول سارية الديلى في مدح النبي - صلى الله عليه وسلم -: (فما حملت ناقة فوق ظهرها أبر وأوفي ذمة من محمد.) ومن ذلك قول حسان بن ثابت في مدح الرسول أيضاً:

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساءُ

خلقتَ مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

ومنه قول ابن رواحة في مدحه - عليه الصلاة والسلام -:

(لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تنبيك بالخبر) . إنني أكتفي بهذا عن أبي الطالب عبد الله عبد الحكيم المساعد اليمني ، وأوردها هنا كقصة تحمل رد الجميل ليس إلا!)

15 - اعتذار الحِيتان

(إنني لأتعجب من حوت آدمي يزدرد فريسته ، ثم يدعي أنه لم يقصد إلى ازدرادها سبيلاً. وبعد ذلك يزيد هذا الأمر سفهاً وإسفافاً فيقدم الاعتذار تلو الاعتذار. وما يُجدي اعتذارك أيها الحوت الواشي الحقير ، بعد الذي كان من أمرك ووشايتك بالكذب والبهتان؟ إن المسألة لها ثلاثة محاور: المحور الأول هو الحق المعنوي لهذا المظلوم ، وهو أن تبطل وشايتك الباطلة عند من أضللتم بما قلت. والمحور الثاني هو الحق المادي الذي أحدثه صنيعك الذي قد يتورع عنه ابن سلول لو كان حياً يرزق. وأما المحور الثالث فهو أن لا يعقب هذا الأمر صفاءُ قلب لأن هذا بيد الله وحده ، وإنما أنت تشتري مظلمتك لا يزيد. وعندما يُخرب إنسان ما بيت أخيه الإنسان ، ثم يعود بلا رويّة ولا خشية من الجبار يعتذر اعتذاراً باهتاً ممقوتاً مريراً لا روح فيه ولا ضمير ، معللاً ما فعله به كان من التدمير والتخريب ، باجتهاد أخطأ فيه بدون قصد وترصّد وعمدية ، فإنه اعتذار الحيتان ، تلك التي تبتلع الفريسة ، ثم تبكي وتندم وتعتذر! ونظلم الحيتان الحقيقية عندما نشبهها ببعض بني آدم اليوم ، حيث إن بعض المخادعين الآدميين يُظهرون من السكينة والورع المصطنع ، ما يخدعون به غيرهم من بني البشر ، أنا في هذي القصيدة أكشف ستر بعض الحيتان الآدمية التي تجرم ، ثم تعتذر أنها تملك حقاً كبيراً في الاجتهاد ، الأمر الذي هي عنه بمنأى ومعزل ، إن الاعتذار الباهت منها لا يقبله إلا غر أحمق لا يعرف الحيتان. وإلا فلم يكن ليُخدع في اعتذارها وهو واضح الزيف! عن أبي إدريس الخولانِي قال: سمعت أبا الدرداء ، يقول: كانت بين أبي بكر وعمر محاورة ، فأغضب أبو بكر عمر ، فانصرف عنه عمر مغضبًا ، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له ، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه ، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو الدرداء ونحن عنده: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما صاحبكم هذا فقد غامر) ، قال: وندم عمرُ على ما كان منه فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله ، لأنا كنتُ أظلمَ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل أنتم تاركون لي صاحبي ، هل أنتم تاركون لي صاحبي ، إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا ، فقلتم: كذبت ، وقال أبو بكر: صدقت). رواه البخاري. وإنني لأرجو أن تكون مبادراتنا لإصلاح

ذات البين عند وجود الخلاف ، كما فعل الفاروق العبقري عمر بن الخطاب رضي الله عنه! والمعنى الذي أقصده أن المرء المسلم عندما يتجاوز في حق أخيه فليبادر إلى الاعتذار بسرعة! وذلك حتى لا تتسع هوة الخلاف ، وتتطور المسألة ، وتخرج عن السيطرة! والاعتذار ينبغي أن يكون من القلب حتى يصل إلى القلب! ولا يكون باللسان فقط كاعتذار الحيتان التي تلتهم الفريسة ودموع عيونها تهطل!)

16 - اعتذاري للشاعرة جُمانة شبانة!

(الشاعرة القديرة جمانة شبانة لها مكانتها بين شواعر العرب المسلمات المؤمنات في عصرنا الحديث ولا شك! فلقد سخرت شعرها ونثرها لخدمة القيم الإسلامية والمعايير الإنسانية التي يقرها الإسلام! وكانت قد عارضتْ قصيدتي (أبتاه) تلك التي تخيلتُ فيها فتى يستدر عطف أبيه في عيد الأضحى ويرسل له رسالة اعتذار وبدء صفحة جديدة! وأردت – وأنا أستعرض بعض قصائدها العذبة – أن أصحح إسناد فعل لضمير ، وكنت أظن أن ذلك بيني وبينها ، فإذا بالنصيحة الشعرية كانت على ملأ ، وذلك لفرط جهلي بوسائل الاتصال! فاعتذرت لها ، وأقسمتُ أنني لم أقصد! وتذكرتُ أن اعتذار الشعراء للناس ينبغي أن يكون شعراً! فما بالنا إن كان الاعتذار لشاعرة؟! فنظمتُ في هذا الموقف قصيدة اعتذارية لجُمانة شبانة تحمل العنوان ذاته ، تطلب في مظانها! ولكنني أورده كموقف محرج حدث لي وعالجته حسب الوسع والطاقة! وقامت الشاعرة مشكورة بالرد علي وقبلت الاعتذار!)

17 - اعتراف قلب قاس

(يقول الله - عز وجل -: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون). وإذن فكثرة ذكر الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار وكثرة قراءة القرآن وكثرة الخطا إلى القبور وكثرة مسح المؤمن على رأس يتيم وكثرة مدارسة العلم وكثرة المشي في حاجات المسلمين (قضيت أو لم تقض) وكثرة التأمل في آيات الله في الكتاب الكوني المفتوح وكتاب الله المتلو القرآن ، كل هذه الأعمال تساعد على رقة القلب ومحو قسوته وإبعاد غلظته وإزهاق جفائه ، كما تساعد على دحر المحن والبلايا التي تكاد تحيق بالإنسان لولا رحمة ربه! والحقيقة أن المحن والإحن والمصائب والرزايا جديرة في حد ذاتها بأن ترقق القلب إن جأر صاحبها إلى الله وتضرع له وبكى بين يديه وسأله صرفها عنه وتطهيره من ذنوبه! وعندما يخرج المؤمن الموحد القانت من محنة إلى محنة ، ومن ابتلاء إلى ابتلاء ، ومن امتحان إلى امتحان ، ومن فتنة إلى فتنة ، ويجأر إلى الله ويفر إليه ويلجأ إلى جنابه ويأوي إلى ركنه الشديد ، فإنه من الطبيعي أن يرق قلبه ويلين ويتذكر ويتبصر ويعتبر. ولكن عندما يستأثر به شيطانه فيصور له أنه فاشل فاسل ، وأنه لا فائدة من أخذ العبرة والدرس والعظة فإن القلب ساعتئذ يقسو ويضطرب. والقلب إن وصل إلى هذي المرحلة ولم تتداركه رحمة ربه البر الرحيم ضاع صاحب هذا القلب العطيب! وصدق النبي – صلى الله عليه وسلم – إذ يقول: (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد

الجسد كله ، ألا وهي القلب). وإذن فالقلب أساس الصلاح والفساد ، نسأل الله القلب السليم (الخالي من الشرك) في الدنيا والآخرة ، (إلا من أتى الله بقلب سليم) ، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وعموماً أمور القلوب كما وصفه النبي – صلى الله عليه وسلم – إذ وصفها بقوله: (قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. إن الخراب إذا حصل والفِرار إذا نزل ، يكون مرْجع ذلك كله إلى هذه القلوب إذا كانت خاوية ، يقول الله عز وجل: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً). فينظر كيف تعملون! وهذه التحركات والتصرفات محسوبةٌ علينا ، وسنبعث ونرجع جميعاً إلى الله عز وجل: (ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). ما مدة لبثنا في هذه الدنيا ؛ وما طول مقامنا فيها؟ لا شيء بالنسبة لما سيأتي بعد الموت من الحياة الدائمة الخالدة المستقرة في الدار الآخرة ، ولذلك لا بد أن نُري الله تعالى من أنفسنا خيراً ، ولا بد أن نأخذ للأمر أهبته ، وللميدان عدته حتى تتحد القلوب في مواجهة الشر والكفر وليكون المسلمون يداً واحدة أمام عدوهم. وإن تحركات المسلم ليست طائشة ، ولا هوجاء ؛ لأنها يجب أن تكون منضبطةً بنور هذه الشريعة ، وينبغي أن يكون نور الوحيين هو الذي يعمل عمله وفعله في قلوب الناس في أوقات الشدائد ، وإذا كان للجوارح أعمالٌ كالصلاة والحج والجهاد ، فإن للقلوب أعمالاً أعظم من ذلك بكثير ؛ لأن عمل القلب ينبني عليه صلاح عمل الجوارح أو فسادها. ولذلك فينبغي للمسلم أن يهتم بقلبه جداً في أوقات المحن - ونحن نمرُ ولا شك بمحنة - وإن الحوادث من حولنا تُوجب علينا أن نكون أكثر بصيرةً من ذي قبل ، وينبغي أن تكون قلوب المسلمين حية ؛ لأن القلب الميت لا خير في صاحبه. قال الله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ). وإذا كان ذلك كذلك فإن كل مسلم قانت لا بد وأن يتعهد قلبه ويقفه على حدود طاعة ربه والالتزام بأوامره واجتناب نواهيه. ذلك أن القلب إما أن يرفعه في أعلى عليين إذا أخلص دينه لله ، كما يمكن أن يجعل صاحبه في أسفل السافلين إذا خبث وفسد!! فليتفقد كل مسلم قلبه وليتعهده بالخير! وليحاول المسلم مراراً وتكراراً أن يأخذ بأسباب تزكية القلب ، ويبتعد عن أسباب تدسيته حتى لا يقسو!)

18 - اعترافات العذراء

(كانت تكيد لصويحباتها في الخفاء ، فتفرق بين زوجةٍ وزوجها ، وتخرب بيتاً كان عامراً بأهله ، وتفسد ذات البين ، وتغتاب وتنم ، وتتقول وتتخرص بالباطل ، وتشهد الزور ، وتحيك الإفك والزيف ، وتكذب وتغش. وأحياناً يكون عدم الزواج لفتاةٍ هذا شأنها فتنة. فلما ابتلاها الله بعقاب من عنده ، اعترفت وندمت بعد أن بانت لها الحقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار. واستغفرت ربها وأنابت إليه ، وعلى الله القبول. غير أنني كنتُ قد انفعلتُ بمواقفها ، ورحت أحكي عنها شعراً وهي تصف حالها بعد التوبة والندم! لقد سنت سنة سيئة وهي إفساد ذات البين بدلاً من أن تسعى لإصلاحها! ويذكرنا هذا بالرجل الذي تصدق فتبعه الناس على صدقته! فكان هذا منه أفضل بكثير ممن سن سنة البخل والشح! ففي صحيح مسلم، عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ : فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ ، عُرَاةٌ ، مُجْتَابِي النِّمَارِ ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ . فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنْ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ

فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} ، وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: {اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ} ، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ ، مِنْ دِرْهَمِهِ ، مِنْ ثَوْبِهِ ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ). قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا ، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً ، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً ، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».)

19 - أعجمية تعلم العرب

(كانا ينتظران سيارة عمومية تستقلهما إلى البيت. فأشفقتُ عليهما فتطوعتُ بأن أقوم بهذا العمل التطوعي الذي هو توصيلهما ابتغاء وجه الله تعالى محتسباً عند الله أجر ما أفعل. وكانت المسافة طويلة نسبياً فأردت إشغال الوقت في شيء نافع مفيد يبقى أجره عند الله. فأدرت مسجل سيارتي على تسجيل صوتي للشيخ الحبيب عبد الباسط عبد الصمد ، وكان الترتيل المبارك من سورة البقرة. وذلك بقراءة ورش عن نافع. فأخذ زوجها العربي الذي جلس بجواري بالطبع يستهجن القراءة ويستغربها. فراحت زوجته الأعجمية تبين وتشرح وتستفيض ففرحت بهذا جداً. فأنشدت في هذا من شعري أشيد بهذه الأعجمية التي كانت تتكلم العربية بطلاقة يتوقف عندها كل من سمعها! وانتابني شعور غريب نحوها كأخت مسلمة تحرص على تعلم القرآن بالقراءات المتواترة عن النبي – صلى الله عليه وسلم-. الأمر الذي لا تحرص عليه اليوم إلا القليلات من المؤمنات ممن يتكلمن العربية وهي عليهن غير شاقة. فجزا الله خيراً هذه الأعجمية الحريصة التي قل أن نجد مثلها فينا. وأسأل الله أن يجزل لها العطاء وأن يبارك فيها.)

20 - أعرابية في عصر الإنترنت

(دخلتْ مع زوجها حانوتاً ، فوجدتْ مجلة غربية فيها صور للنساء عارية ، فصاحت: حرام! ما هذا؟ ولماذا يغشى قرانا؟ وكيف له أن يُتداول؟ ومن أذن به؟ فعجبتُ لها وقلت في نفسي: هل جاءت من كوكب آخر؟ وراح زوجُها يُبرّر لها ويقول: هذا شيء طبيعي! فاستمرتْ في الجدال الذي لم تكن فيه فائدة سوى أن عبرتْ هذه الأعرابية - التي نسيتْ أنها تعيش في عصر الإنترنت – على رأيها! فقلتُ: رحم الله زمان الجاهلية الأولى؟ وساد صمت بعده كانت القصة! إنه عندما تتوافر دواعي الخجل فلا بد للإنسان أن يخجل! وعندما تتوافر دواعي الأسف فلا بد له من أن يأسى ويأسف! ولكننا في زمان المعكوسات والمتناقضات! اليوم يُصدق الكاذب ويُكذب الصادق ، اليوم يؤتمن الخائن ويُخون الأمين ، اليوم ينطق الرويبضة الرجل التافه الحقير في أمر الأمة والعامة! انقلبت الموازين وطاشت المكاييل واندحرت النِسَب ، وأصبحنا أمماً شتى لا معايير تحكم أغلب أهلها ولا مقاييس ولا قِيم ولا مبادئ!)

21 - أعرابية في عصر الجاهلية المعاصرة

(كانت في الماضي تصلي خمسها ، وتصوم شهرها ، وتطيع زوجها ، وتلزم دارها. واليوم ما زالت بها الجاهلية ، حتى تركت الصلاة ، وعصت الزوج وهجرت بيتها ، وترسخ في ذهنها أن الإسلام انتهت رعوته التي تناسب الماضي. ورد في الموسوعة الإسلامية المعاصرة ، في باب شبهات في الفكر الإسلامي ما نصه: (التحدي القائل أن الإسلام أصبح شيئاً من الماضي ، ولا يصلح للزمن الحاضر. وأنه سببُ تخلف المسلمين وانحطاطهم. لهذا صدرتْ كتاباتٌ إسلامية كثيرة ترد على هذه المقولة ، مؤكدة الشعار الذي شدد عليه عبد العزيز جاويش كما ينقل عنه الدكتور أحمد صدقي الدجاني وهو: (أن الإسلام صالحٌ لكل زمان ومكان). ومن ثم فهو صالح لهذا العصر الذي هو أشد ما يكون حاجة إلى الإسلام. وفي الواقع لا يمكن أن تطلق صفة مفكر إسلامي على من يقول بصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان. ولهذا نرى المفكر الغربي فوربير تابيرو ومن سار على نهجه يعجب من المصلحين الإسلاميين حين لا ينسبون التخلف إلى الإسلام. وقد أخذ عليهم أيضاً اندفاعهم في الدفاع عن الإسلام وتفوقه وحث حتى الغربيين على اعتناقه ، ويسمى هذا الموقف "مركب نقص". وكان سلامة موسى قد قال ضمن هذا المنطق: (لا أستطيع تصور نهضة لأمة شرقية ما لم تقم على المبادئ الغربية). بينما شدد الفكر الإسلامي على مقولة جمال الدين الأفغاني: (لا نهضة بغير ديننا). وراح علال الفاسي يؤكد أن من غير الممكن مُواجهة الأخطار ، وحماية أنفسنا ، وأراضينا ، إلا بالعودة إلى الإيمان واتباع الجهاد الإسلامي. ويُطالب الدكتور مصطفى حلمي بالتفريق بين قديم أوروبا وقديم المسلمين. فقديم أوروبا يُطلق على عصور التخلف أو العصور المظلمة. وأما قديم المسلمين فيُطلق على تقدمهم الحضاري في كافة المجالات. لذلك حين تريد أوروبا أن تتقدم ترفض تاريخها القديم. وأما نحن فالعكس. ثم يستطرد قائلاً: ولكن لا يخطر لنا على بال ، أن نضع الأمة الإسلامية في متحف التاريخ ، بمعنى أن نطالبها بإرجاعها للأخذ بوسائل العصور السابقة في الحياة العمرانية بأساليبها في الإنتاج والنقل والتعليم ، والتطبيب وتشييد المدن وتجهيز الجيوش والجند ، وبناء المدارس والجامعات والمستشفيات. ويؤكد أن أصحاب المنهج السلفي لا يمنعون فتح النوافذ على العلوم التجريبية والاكتشافات. فالتقدم المادي الماثل أمامنا ما هو إلا جزء من التصور الحضاري الإسلامي. ولكن الأمر الذي يجب التوقف عنده ودراسته هو إعادة النظر ، وفحص الإنتاج الثقافي في العلوم الإنسانية. لأنه يرتبط بتطورات للحياة تختلف عن تصوراتنا).هـ. وإنني إذ أورد هذا النص من الموسوعة الإسلامية ، فإنني أورده من باب رد الشبهة الملعونة التي تذهب إلى أن الإسلام لا يواكب العصر ، ولا يتناسب مع الحضارة المعاصرة. وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمامُ أحمد من قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال له: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك ، فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول ، فعصاه فهاجر قال: ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له: هو جهاد النفس والمال ، فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ، فعصاه فجاهد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة). وبعض الناس يستهجن أن يسلم لله رب العالمين في زمان الجاهلية المعاصرة الذي قل خيره وكثر بلاؤه وشره! وزاد حبات الطين بلة ، فرأى في التدين بالإسلام تخلفاً ورجعية وعودة إلى عصور الظلام! ومَنْ تخيّل أن في الإسلام ومتابعة الرسول إزراءً وطعناً منه على آبائه وأجداده

وذمّاً لهم ، فأراه لم يفهم الإسلام ولم يع رسالته السامية ، وهذا هو الذي منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال. ولذا لما حضرت أبا طالبٍ الوفاة وجاءه أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقالا له: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب - آخر ما كلمهم -: هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله. كما في الصحيحين. فهذا مانعٌ من موانع الهداية ، بالإضافة إلى صُحبة السوء ، فإنها تمنع من الهداية والاستقامة والالتزام والتمسّك بشرع الله. فيُسمعون صاحبهم الذي ربما أراد الاستقامة على دين الله عبارات النبز والاستهزاء والسخرية حرصاً منهم على بقاءه ضالاً كحالهم. ومن هنا رحت أشفق على أعرابية قصيدتنا ، مطالباً إياها أن ترجع إلى صوابها وتدرك أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ولكل عصر ومصر. فبدلاً من أن تحُث الناس على العودة إلى ما إن تمسكوا به لن يضلوا أبداً: كتاب الله وسُنة رسوله – صلى الله عليه وسلم - ، راحت تحُث الناس على البراءة من القرآن والسنة!)

22 - أعرضْ عن هذا!

(كلما قابلني لا حديث له إلا عن الماضي وما كان فيه من مجد كريم قد مضى ، وشرفٍ مَروم عليه الزمان عفى ، وعز عظيم أصبح في ذمة التاريخ غفا! فرُحتُ أقول له: يا صاحبي ، لقد حوى الماضي سلبياتٍ كثيرة وإيجابياتٍ قليلة! فلماذا لا تحاول اتباع الخير واجتناب الشر؟ هلا تحدثت عن اليوم وما فيه؟! ونصحته بأن يحقق اليوم من الخير والمجد الكريم والشرف المَروم والعز العظيم ما حققه أجداده بالأمس! ولن يكون ذلك إلا باتباع هُدى الله - تعالى - بالتزام أمره واجتناب نهيه! ليس الفتى من قال: كان أبي! إن الفتى مـن قـال: ها أنـــذا!)

23 - أعمالٌ ونيّات

(يذكر غير واحد من أهل الأصول أن ديننا الحنيف قام على أحاديث ثلاثة للنبي – صلى الله عليه وسلم -: (إنما الأعمال بالنيات – الحلال بيّن والحرام بين – من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد). والأحاديث الثلاثة والحمد لله صحيحة. واليوم أصدّر قصيدتي هذي بثلث ما يقوم عليه الإسلام: حديث (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه). وإذن فأعمالنا وأقوالنا تنعقد بنيّاتنا. ويكون الأجر عليها عند الله إن كانت صالحة ، أو العقاب عليها إن كانت غير ذلك. وأوجّه هذه القصيدة لأم أولادي عازماً معها على تحمّل الحق وتبعاته وأثقاله ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. يذكر لنا الأصمعي عن أبّان بن ثعلبة أنه قال: مررتُ بامرأة بأعلى الأرض ، وبين يديها ابن لها يريد سفراً ، وهي توصيه فتقول: (اجلسْ أمنحْك وصيتي ، وبالله توفيقك ، وإنه لقليلٌ إجدائه عليك أنفعُ من كثير عقلك: إياك والتمائم فإنها تزرع الضغائن ، ولا تجعل نفسك يوماً غرضاً للرماة ، فإن الهدف إذا رمي لم يلبث أن ينثلم ، ومثل نفسك مثالاً ، فما استحسنته من غيرك فاعمل به ، وما كرهته فدعه

واجتنبه ، ومن كانت مودته بشره كان كالريح في تصرّفها. ثم نظرتْ فيّ وقالت: كأنك يا عراقي أعجبت بكلام البدو؟ ثم قالت تكمل وصيّتها لابنها: يا بُني إذا هززت فهز كريماً ، فإن الكريم يهتز لهزتك ، وإياك واللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها ، وإياك والغدر فإنه أقبح ما توصّل إليه وأحقر ما تعومل به ، وعليك بالوفاء ففيه النماء ، وكن بمالك جواداً ، وكن بدينك شحيحاً).هـ. فتأثرتُ بالوصية ، وندمت أنني أحسنت الظن بالذئاب البشرية والحيتان الآدمية حتى رُمِيت في العراء دونما مأوى ، وبعد ذلك عزمت على ألا أحسن الظن بأحد ـ بدت علامات غدره وخسته ونذالته ـ إلا بعد تجربة وتمحيص! يقول أستاذنا محمد الخضر حسين تحت عنوان: (صدق العزيمة) ما نصه: (يخطر في النفس أمرٌ فتثق بأنه حق أو نافع ، فتحرص على حصوله ، فإذا أضافت إلى هذا الحرصِ النظرَ في وسيلة بلوغها إياه ، وبدا لها أنه في حدود استطاعتها ، فسرعَان ما تقبل عليه ، وتبذل سعيها للوصول إليه ، وذلك ما نسميه بالعزم أو الإرادة. فما يخطر في النفس مما تعتقد حقيته أو نفعه ، وتود أن يكون حاصلاً لديها ثم لا تسعى له سعيه ، ولا تضع لبلوغه خُطَّةً ، فإنما هو التمني الذي لا يفرق بين المحال والمستطاع ، والذي يخطر في نفوس القاعدين كما يخطر في نفوس المجاهدين ، وما مثله إلا كمثل الشرر الذي يلمع حول النار ثم يتصاعد هباءً. وإذا تحدثنا في هذا المقال عن قوة الإرادة وذهبنا في حديثها مذهب خصال الحمد ، فإنما نعني الإرادة المتوجهة إلى ما هو خير. ومن أفضل ما يُمدح به الرجل أن يتوجه بعزمه القاطع إلى إظهار حق ، أو إقامة مصلحة. وتنشأ قوة الإرادة من التجارب ، فمن تعلق همه بأمر كان قد عُرف بطريق التجربة أنه ميسور وأن عاقبته سلامة ونجاح ، انقلب همه في الحال عزماً صادقاً).هـ. رحمك الله ، وأعاننا على العمل بوصيتك يا شيخنا الخضر ، آمين!)

24 ـ أعود كما أتيت

(كان من أغنى الأغنياء. ولكنه كان تقياً ورعاً متصدقاً مُحْسناً متفضلاً. ولما رأى افتتان الناس به وبغناه وبماله أخذ يُبين لهم ويدعوهم إلى عدم الافتتان به ، ولكن دون جدوى. ولذا قال لأبنائه لما حضرته الوفاة: إذا أنا مِت ، فأخرجوا يديّ من الكفن ليراها الناس خالية من المال والثراء والنعيم. ففعل الأبناء الوصية. وكانت المسافة طويلة إلى القبر ، والناس تنظر وكأن لسان حاله يُشهدهم أنه عاد كما أتى إلى الدنيا. قال الأستاذ ناصر بن سعيد السيف واصفاً الموت: (الموت هو هادم اللذات ، ومفرق الجماعات ، وقاطع الأمنيات ، وميتم البنين والبنات ، وهو الواعظ الصامت يأخذ كل أحد بدون استئذان ؛ يأخذ الغني والفقير ، والملك والحقير ، والرقيق والأمير ، والكبير والصغير ، والصحيح والسقيم. فمهما طال العمر فلا بد أن يأتي اليوم الذي يكون فيه العبد طريحاً بين أهله ، لا حراك له وقد وقعت منه الحسرة ، وجفت منه العَبرة ، وثقل منه اللسان ، واشتدت به الأحزان ، وعلا صُراخ الأهل والولدان ، ونادَوْا بالأطباء للدواء ، ووقع القضاء وفي هذه اللحظات ينظر العبد آخر النظرات إلى الأبناء والبنات ، والإخوان والأخوات ، وتسبقها الآهات والزفرات ، وتعقبها السكرات والحسرات ، فتخرج الروح وتبقى السيئات والحسنات).هـ. كفى بالموت واعظاً! ولكن ماذا يفعل الموت إذا كانت القلوب قد قست ، والعقول قد فسدت ، والضمائر قد خربت ، والفهوم قد انحدرت ، والدنيا قد سيطرت؟!)

25 - أغرقت جفني الدموع

(ألا ما أبطأ الأيام! إذ يصاب الإنسان بالمكروه وما تغير شيءٌ في الأيام. فاليوم كما هو اليوم أربع وعشرون ساعة لم تنقص دقيقة واحدة ، وإذن ، فما الذي أبطأ الأيام؟ والجواب: أنَّ شعور المرء بمرور الأيام هو الذي جعلها بطيئة ، وإلَّا ، فهي كما هي ، لم تتغير قط. وإذا تذكر الإنسان فراقه لهذه الحياة لم يبك عليها طرفة عين. إنَّ كل شيء في الحياة لينبئ أنَّ الإنسان إلى زوال ، وإلَّا فأين من سبقوه إلى هذه الأرض واستعمروها ردحًا من الزمان؟ أليسوا منذ زمن بعيد تحت أطباق الثرى نسيًا منسيًّا ، وعظامًا نخرة ، وترابًا فوق التراب وتحت التراب؟ والجواب: بلى. ولقد أغرقت الدموع عيني حزنًا وألمًا تستقرئ الغيب المخبوء ، ماذا خبَّأ لها المقدور؟ لمْ يكُن يسيرًا عَلَيَّ إظلامُ عيني ، وَسَيْري بها وهي هكذا شَائهة وسْطَ الناس ، وذلك انتظارًا مِنِّي لجراحة أخيرةٍ مصيريَّةٍ بها ، بعدها تُسْفِرُ الأيامُ عَنْ مخبوئها. وبينما كُنْتُ أنتظرُ أحدَ الفحوص ، أخذتُ أستذكر بعضَ أبياتٍ من الشعر الذي كان لي به وَلَعٌ أيامَ صِبَايَ ، وكنتُ أتغنى به كثيرًا ، كقول أبي نُواس متحدثًا عَنِ الابتلاءِ:

أيا ربَّ وَجْهٍ في التَّرابِ رقيقِ ... ويا ربَّ حُسْنٍ في التَّرَابِ عَتِيقِ
فقُل لقَرِيبِ الدارِ: إنّكَ راحِلٌ ... إلى منزِلٍ نائِي المَحَلِ سَحِيق
وَمَا النّاسُ إلا هَالِكٌ وابنُ هالكٍ ... وذو نَسَبٍ فِي الهَالِكِينَ عَرِيق
إذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لبيبٌ تكشَّفتْ ... لهُ عنْ عَدُوٍّ في ثياب صَدِيق

وتذكرتُ شاعرًا آخر يُعَزِّي نفسَه ، وله تقسيم بديع ، فقلتُ أنا بالعزاء أوْلى:

ثمانيةٌ قامَ الوجودُ بها فهَلْ ... تُرَى مِنْ مَحِيصٍ للوَرَى عَنْ ثَمَانِيَةْ
سُرورٌ وحُزْنٌ واجتماعٌ وفرقةٌ ... وعُسْرٌ ويُسْرٌ ثم سُقْمٌ وعَافِيَة
بَهِنَّ انقَضَتْ أعمارُ أولادِ آدم ... فهَل من رأى أحوالَهُم مُتَسَاوِيَة؟

وعشت مع الشافعي إذ يلقي باللائمة على نفسه ، فيلومها لوماً شديداً ، ويدرك أنها كم جرته إلى المعاصي ، فيتوجه إلى الله تعالى بالدعاء مُديناً نفسه فيقول:

إلهِي لا تُعذبنَي فإنّي ... مُقِرٌ بالذي قَدْ كَانَ مِنِّي
وَمَا لِي حِيلةٌ إلاّ رَجَائِي ... وعفوُك إنْ عفوتَ وَحُسْنُ ظَنِّي
فكَمْ مِنْ زَلّةٍ لِي فِي البرايا! ... وأنتَ عليَّ ذو فَضْلٍ ومَنِّ
إذا فَكَّرْتُ فِي نَدَمِي عَلَيْهَا ... عَضَضْتُ أناملِي ، وقَرَعْتُ سِنِّي
يَظُنُ النّاسُ بِي خَيْرًا ، وإنِّي ... لشَرُّ النّاس ، إنْ لَمْ تَعْفُ عَنِّي

وتذكرتُ ابن الأحنف الذي يفترض في الناس من يعيره عيناً ليبكي بها فيقول:

مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عينَهُ تبكي بها ... أرأيتَ عينًا للبُكاءِ تُعَارُ؟

وتأثرتُ بهذا البيت جدًّا وجعلتُه مَطْلَعَ قصيدة لي مع تصرف يسير لفرط إعجابي: وتطلبُ القصيدة في مظانها! ولكنني أوردها هنا كموقف أغرقت فيه الدموع أجفاني على الأحوال!)

25 - إغفاءة اليراع

(أخرج الترمذي عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَوَدُّ أَهلُ العَافِيَةِ يَومَ القِيَامَةِ حِينَ يُعطَى أهلُ البلاءِ الثَّوابَ ، لَو أنَّ جُلُودَهُم كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنيَا بِالمَقَارِيضِ». وقد أخرج البخاري والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنِ مثل الزرعِ ؛ لا تَزَالُ الريحُ تُميلهُ ، ولا يزالُ المؤمنُ يصيبُهُ البلاءُ ، ومَثَلُ المُنَافِقِ كشَجَرة الأرز ، لا تهتَزُّ حتى تَسْتَحصِدَ». وإنني أكتب «إغفاءة اليراع» لأكفكف من غُلَواء الدموع حتى تذعن لقدر الله تعالى ، وتعطي اليراع الفرصة لكي يدون شيئًا من ذكريات البلاء الذي أعيش. فلعل الله ينفع به الناس. إنَّ العُيونَ ـ ساعة الدُموع ـ يَأخذُها السُّهادُ. ولذا تُصبحُ في وجوه أصحاب الأحزان كالخَرَزِ المُلْتَصِقِ هناكِ بكل جِفْن ، والحُزْنُ رَهيبُ الأثرِ على النَّفْسِ ، والدموعُ هي عنوانُ الحزن. ويَراعةٌ في يَدِ الشاعر تعجزُ حقًّا عن التعبير عمَّا بداخل النفس مِنْ لوعةٍ ، فتأخذُها الإغفاءة. والبلاءُ حقًّا دليلُ الصلاح لكلِّ مُوَحِّد: وهكذا نجدُ كلَّ مُوَحِّد يدعو الله – تعالى - ويجأرُ إليهِ في مُصَابِه. (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ، وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ، وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ، وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ، وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ).هـ. ولقد أصاب الأستاذ أسامة عبد الله خياط في خطبة له بالمسجد الحرام عنوانها الصبر إذ قال ما نصه بتصرف بسيط: (ففي الوقوف أمام الابتلاء موقفَ الصبر خيرٌ عظيم اختُصَّ به المؤمنُ دون غيره كما جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال: عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر ، إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم. فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط. أي من رضي بقضاء الله النافذ الذي لا رادَّ له فعاقبة ذلك الرضا من الله على عبده ، وأما من سلك سبيل السخط على ربه فيما دبره وقضى به من نكبة وبلاء ، وشدة وعناء فإن عاقبة ذلك السخط من الله ؛ جزاء سوء ظنه بالله ، وعدم رضاه بقدر الله ، وقد أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم ـ في الحديث الصحيح ومن يتصبر يصبره الله. وإن مما يعزي النفوس عند نزول الشدائد ، ويصرف عنها موجة الألم لفواجعها ونكباتها الأملَ في فرج الله القريب ، والثقة في رحمته وعدله ؛ إذ هو – سبحانه ـ أرحم الراحمين).هـ. والمرء يجد أن الدموع دائماً سبيل للتفريج عن النفس من الكُرُبات التي تعانيها. كما أنها سبيل للتعبير عند بعض الناس عن الأمجاد التي تدركها! عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ «إن الله ـ عز وجل ـ أمرني أن أقرأ عليك: (لم يكن الذين كفروا) قال: وسمّاني لك؟ قال: «نعم» فبكى أبي. متفق عليه. وفي رواية: فجعل أبي يبكي. بكى أبَي رضي الله عنه فرحاً ، واستبشاراً ، وخشوعاً ، وخوفاً من التقصير في حق الله أو التفريط في جنبه تعالى ، واستحقاراً لنفسه ، قيل: الحكمة في تخصيصها بالذكر لأن فيها {يتلو صحفاً

مطهرة} ، وفي تخصيص أبي التنويه به في أنه أقرأ الصحابة. وقال ابن كثير: قرأها عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قراءة إبلاغ ، وتثبيت ، وإنذار ، لا قراءة تعلم واستذكار ، كما قرأ على عمر بن الخطاب سورة الفتح يوم الحديبية. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال أبو بكر لعمر ، رضي الله تعالى عنهما ، بعد وفاة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها ، كما كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم – يزورها ، فلما انتهينا إليها بكت ، فقالا لها: ما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله تعالى خير لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟! قالت: إني لا أبكي أني لا أعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء ؛ فهيجتْهما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها. رواه مسلم. وإذن فليست الدموع في كل مرة يجب أن تكون قرينة الأسى ، بل لقد تكون قرينة الفرح! والدموع ولا شك تكشف حقيقة صاحبها إن كان شامتاً حاقداً أم كان محباً منصفاً! وكثيراً ما أساء قوم تأويل دموع فلان أو فلانة في مناسبة سعيدة سواء له أو لها أم كانت لأحد المعارف أو الأقارب! فقال البعض: إن الذي يبكي في مناسبةٍ سارةٍ إما حاسد أو حاقد! وليس بالضرورة أن يكون ذلك كذلك. لأن الحاسد يخفي مشاعره!)

26 ـ أغلال العاصفة

(يقول أحمد شوقي في التعبير عن الموت وهو يرثي جدته تمزار خانوم – رحمها الله ـ:

خُلقنـــــا للحيـــــاة وللممـــــاتِ ومِـــن هـــذين كـــل الحادثـــاتِ

ومَـــن يولـــد ويمـــت كـــأن لـــم يمـــر خيالـــه بالكائنـــات

ومهـــدُ المـــرء فـــي أيـــدي الرواقـــي كـــنعش المـــرء بـــين النائحـــات

ومـــا ســـلم الوليـــدُ مِـــن اشـــتكاءٍ فهـــل يخلـــو المعمَّـــر مـــن أذاة؟

ولـــو أن الجهـــات خلقـــن ســـبعاً لكـــان المـــوت ســـابعة الجهـــات

والمرء في هذه الحياة يعيش مدركاً أنه راحل عنها لا شك. وليعتبر بغيره إن كان عاقلاً من الذين رحلوا وتركوا كل شيء. إنها عواصف الحياة تتجاذب النفس الإنسانية وتسعى بها بعيداً عن دروب الهداية. وأنا هنا ألوم نفسي وأحذرها أغلال العاصفة التي لا يكاد يسلم من هاويتها إلا النذْرُ اليسيرُ من الناس. فهل تسلم النفس منها يوماً؟ إن النفسَ التي تقبلُ الهَوان وتستسيغه نفسُ غير كريمة ، وتلك النفس سرعان ما يفقدها صاحبها. وذلك عندما تنحدر إلى درك الشقا واللاإنسانية، وخاصة عندما تستسلم لأغلال الجاهلية وتعصف بها عواصفَ شتى تضللها. وعلى النفس أن تدرك أن هناك قيامة وحساباً ووزناً للأعمال. نعم إن يوم القيامة آت لا محالة ، وإن الحساب يومها لتقرير الأعمال التي عملها كل عبد أو أمة ، وإن الوزن ساعتئذ لإظهار مقدار هذه الأعمال ليكون الجزاء بحسبها. قال الله تعالى: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين). (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ). فإذا وزنت الأعمال ، وتقرر الجزاء ، ما بقى إلا أن يلقى كل واحد

مصيره ، إما إلى جنة ، وإما إلى نار! فيأمر الملك الحق جل وعلا أن ينصب الصراط على متن جهنم ليمر عليه المسلمون المؤمنون الموحدون الصادقون إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وليمر عليه المشركون الملعونون والمجرمون الكافرون والجاحدون الملاحدة إلى نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى.)

27 - آفاتٌ وحُزونات

(المشاكل الزوجية لا بد من علاجها بحكمة ورشد وروية. وليس العلاج أبداً بالتسلط على الزوج من قِبل أهل زوجته. كما أنه لا يكون أبدا بالتسلط على الزوجة من قِبل أهل زوجها. فإذا حدث شيء من هذا كانت الآفات والحُزونات المستعصية! إن أهل كل زوج يجب أن يَحترموا زوجته وأهلها ، وإنْ هم أخطأوا في حقهم وقصّروا فيجب أن يحاول الجميع عدم إحراج الزوج والزوجة في خلافات ليسا طرفاً فيها ، على حين يجنون ثمارها العطبة! وأيضا يجب على كل أهل زوجةٍ أن يحترموا زوج ابنتهم وأهله. وأن يجنبوهما مشاكل تنشأ بين الأحماء والأصهار ليس أحد من الزوجين طرفاً فيها! وما كان الرفق في شيء إلا زانه ، وما نزع الرفق من شيء إلا شانه. كما أخبر رسول الصدق ونبي الحق – صلى الله عليه وسلم –. وإذن فيجب على كل فريق أن يُبيت حُسن النية ويتنازل من طرفه عن بعض حقه لتسير سفينة الحياة في خضم المعيشة وصولاً إلى بر الأمان ونهاية العمر بسلام! وأنا هنا أعتب على زوجة فتحتْ على زوجها وأولادها وبيتها بوابة الجحيم يوم جعلت حُكاماً بينها وبين زوجها من ليسوا أهلاً للتحكيم ولا للفصل في القضايا بمقتضى الحكمة المنبثقة من كتاب الله وسنة رسوله – عليه الصلاة والسلام -. وفي محاضرة عنوانها: (الخلافات الزوجية وطرق حلها الخلافات الزوجية وطرق حلها) يقول الأستاذ إبراهيم العبيدي ما نصه: (سبل حل الخلاف في الحياة الزوجية الحوار ؛ وذلك بأن يحاور كل من الزوجين الآخر ، وأن يكون هذا الحوار في أجواء وديّة بعيدةً عن الأبناء في المنزل. الصراحة والوضوح فلا شيء يغوِّر الصدر في الخلافات الزوجيَّة كالغموض ، فهو يضعف الثقة بينهما ، فلا بدَّ من الوضوح التام والصراحة ؛ لأنَّ عدم الوضوح والضبابية والغموض تعني أنَّ هناك تعظيماً للخطأ وإصراراً عليه. ويساعد على الحل حسن التوصيف للأمر بأن يحدد كل منهما الموضوع المسبب للتأزم ونظرتهما إليه وتحديد ما إذا كان خلافاً أم مجرد سوء فهم ؛ لأنّ هناك تبعات تترتب على هذا الفهم ، فإن كان خلافاً فلا بدَّ من خطوات للحل ، وإن كان سوء فهم فلا بدَّ من تصحيحه ، وفي كلتا الحالتين لا بدّ من الصراحة والجديّة. ومحاسبة كل منهما لنفسه في علاقته بالله سبحانه ؛ فهي الأساس ، وما دون ذلك يصغر ويمكن حله ، فأساس كل سعادة هو حسن العلاقة بالله سبحانه ، وسبب كل تأزم وشقاء سوء العلاقة معه سبحانه. وحصر الخلاف بين الزوجين ، وعدم نقله للخارج ؛ كأقاربهما مثلاً فما يحصل بينهما من سوء علاقات ، أو خلاف يجب أن يعالج بينهما فقط ، إلَّا في حال تأزُّم الوضع ، واقترابه من الخروج عن السيطرة ، فهنا لا بدَّ من طرف رشيد من أحدهما أو كليهما لحل الخلاف وإصلاح العلاقة. والحكمة في التعامل مع الغضب متى وقع ، ويكون ذلك بشكل متدرِّج ، وذلك بالاستعاذة من الشيطان أولاً ، ثمّ الوضوء ، فإن استمرَّ فالجلوس ، وإن استمرَّ فالنوم أو الاستلقاء ، ليبقى الإنسان بعيداً كلَّ البعد عن ردات الفعل غير المحسوبة ، وفي ذلك نوع من تفريغ الشحنات السلبيّة ، وما يتبعها من طاقة سلبيّة مدمّرة. التعالي على الأخطاء

البسيطة ، وعفو كل منهما عن الآخر ، وتعظيم رابط العلاقة الزوجيَّة واعتباره أسمى وأقدس من كل هذه الخلافات. اعتراف كل منهما بإيجابيات الآخر يقرِّب القلوب من بعضها ، أمّا نكران العشير أو الكفر به فهو يؤزِّم الأمور ، ويبعد القلوب عن بعضها. إقرار كلٍ من الزوجين أنَّ عليه واجبات عليه التزامها قبل حديثه عن حقوقه عند الطرف الآخر؛ لأنّ الحديث عن الحقوق دون الواجبات يعكّر أجواء الحل ، بل إنه من أسباب تعكُّر الحياة الزوجيَّة دوماً. صبر كل منهما على الطبائع المتأصلة عند الطرف الآخر ؛ كالغيرة بالنسبة للمرأة ، والفضولية بالنسبة للزوج! وقد يشتركان في الكثير من الطبائع ، فلا بدّ إذاً من الصبر. تعظيم كل منهما لاهتمامات الطرف الآخر ، فهذا من أهم ما يقوي العلاقات بينهما. ومن مسببات الخلاف في العلاقات الزوجية كاختلاف المستوى الثقافي والتعليمي بين الزوجين. كثرة المعاصي فالمعصية سبب في كل شر. واتِّباع الهوى. والجهل: كأن تجهل الزوجة بحقوق زوجها ، أو العكس. انعدام الثقة بين الزوجين وتشكيك كل منهما في الآخر ، وإساءة الظنّ به. والاستماع للمغرضين من أقارب كلا الطرفين. والكِبْر والغرور ، والتعالي على الإقرار بالذنب. ونقل خلافات البيت إلى الخارج ، كأن تنقل الزوجة ذلك إلى صديقاتها ، أو إلى أمّها أو أختها ، أو أن ينقل ذلك الزوج إلى أصدقائه أو أهله فإنَّ الأطراف الخارجيَّة قد تزيد رقعة الخلاف).هـ. أكتب للزوجة هذه القصة العصماء وإن تكن قاسية عليها موصياً وناصحاً ومستفتحاً عليها بما فيه صلاحها! فهذا منشد كل مسلمة!)

28 - إفحامُ البُهت ببراءة المُحصنات الست!

(إن تبرئة المظلوم منقبة عظيمة! فإذا كان المظلوم من ذوي الفضل والمكانة ديناً ودنيا كانت المنقبة أعظم! وندافع في قصيدتنا كما هو باد من عنوانها عن ست محصنات حرائر من خيرة النساء هن: (مريم ابنة عمران وعائشة بنت أبي بكر في كفة (حيث أنزل الله براءة كل منهما من فوق سبع سماوات في كتابه العزيز! وأربع أخريات في سؤال نسأله ونجيب عنه نثراً وشعراً ، في ضوء المصادر التاريخية الصحيحة! (هل صحيح ما تدعيه بعض الفرق الضالة من أن: 1- النابغة سلمى بنت حرملة قد اشتهرت بالبغاء العلني ومن ذوات الأعلام وهي أم عمرو بن العاص. 2- هند بنت عتبة وقد اشتهرت بالبغاء السري في الجاهلية هي زوجة أبي سفيان ، وابنها معاوية. 3- ميسون بنت بجدل الكلبية هي أم يزيد بن معاوية ، كانت تأتي الفاحشة سراً مع عبد لأبيها ومنه حملت بيزيد. 4- أمنة بنت علقمة بن صفوان هي أم مروان بن الحكم كانت تمارس الزنا مع أبي سفيان فولدت مروان؟!) ولست هنا بصدد الترجمة لمريم ابنة عمران ولا لعائشة بنت أبي بكر! فإن قصة كلاً منهما أشهر من نار على علم! ولكن أحاول أن أترجم للأخريات وأعرف بهن! وعن النابغة بنت سلمى بنت حرملة أم عمرو بن العاص ، قال الأستاذ فيصل نور في مقالته: (الحقائق الغائبة) ما نصه بتصرف يسير: (ذكر الروافض أن: النابغة أم عمرو بن العاص كانت بغياً ، فوقع عليها أبو لهب ، وأمية بن خلف ، وهشام بن المغيرة ، وأبو سفيان بن حرب ، والعاص بن وائل ، فأتت بعمرو ، وادعاه الأربعة ، فقالت أمه: هو من العاص ، ولما قيل لها: لماذا اخترت العاص؟ قالت: لأنه كان ينفق عليّ وعلى أولادي أكثر منهم ، وكان عمرو أشبه بأبي سفيان). والروافض ذكروا هنا أن عمرو بن العاص ادعاه الأربعة ، بينما ذكر آخرون منهم في موضع آخر أنه ادعاه ستة نفر. قال عبد الواحد الأنصاري - وهو من الروافض المعاصرين -: لم يشك أحد من المؤرخين في أنه ولد

سفاح اشترك في إخراجه من أعماق أمه ستة نفر: أبو سفيان ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، وهشام بن المغيرة ، وأبو لهب ، وخلف الجمحي ، وادعاه كلّهم فحكّموا أمه ، فحكمت فيه للعاص بن وائل ، وكان ينفق عليها كثيراً ، وهيهات أن ينجب ابن الزنا ، وقد ورث المجرم من آبائه الستة أخس الصفات وأرذل السمات ؛ فقد ورث من أبي سفيان الغدر والتهتك ، ومن أبي لهب الكفر والإلحاد ، ومن العاص العداوة لله ورسوله ، ومن شابه أباه فما ظلم. وهذه الافتراءات من الروافض ليس لهم على إثباتها دليل ، وهي مجرد إفك محض حملهم عليه حقد عظيم على الصحابة عموماً ، وعلى كبارهم بشكل خاص ، وقد لحق عمرو من حقدهم وبغضهم ما لحق غيره من كبار الصحابة ، وهو قد مات وانقطع عمله ، ولكن الله لم يشأ أن يقطع عنه الثواب. وأما عن الرد على ما ذكر حول أم سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه! فإنني أود أن أمهد بمقدمةٍ مختصرةٍ ثم أعود للرد على ما قيل حول أم سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه! لقد اتهم اليهود سيدنا عيسى عليه السلام بأنه ابن زنا! وكذلك اتهمت ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها حتى نزل القرآن بتبرئتها! وإذن فحينما يُذكر خبرٌ مدسوسٌ عن أم سيدنا عمرو بن العاص فقد اتهم من هو أفضل منه كما هو الحال في سيدنا عيسى عليه السلام وأمه مريم وأمنا عائشة رضي الله عنها! فيمكن عده من أكاذيب الأعداء للنيل من سيدنا عمرو بن العاص! ولذلك نقول في ردنا أن عمرو بن العاص من فرسان قريش وأبطالهم ، ويُعد أحد دهاة العرب (ذوي الرأي والبصيرة في الأمور). توفي في مصر وله من العمر 93 سنة ودفن في المقطم. كانت أمه سبية تدعى سلمى بنت حرملة من بني عنزة ، وتلقب (بالنابغة) وقد بيعت بسوق عكاظ ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل السهمي فولدت له ابنه عمراً ، وتزوجت أمه أزواجاً آخرين ، فكان لعمرو بن العاص أخوة من أمه هم عروة بن أثاثة العدوي ، وعقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري. وهذا الكلام نقلته بتصرف من كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب / لابن عبد البر وكتاب أسد الغابة / لابن الاثير! أما القول انها كانت بغياً فهذا افتراء! أما المصدر الذي نقل منه هذا الخبر فهو كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد الذي نقله عن كتاب ربيع الأبرار للزمخشري! أقول: إن كتاب (ربيع الأبرار) ليس كتاباً مرجعياً للتاريخ ، بل ألفه كاتبه لقصد التسلية ، واقتبس مما قاله الزمخشري عن كتابه (ربيع الأبرار) (وهذا كتاب قصدت به إجمام خواطر الناظرين في الكشاف عن حقائق التنزيل ، وترويح قلوبهم المتعبة بإجالة الفكر في استخراج ودائع علمه وخباياه ، والتنفيس عن أذهانهم المكدودة باستيضاح غوامضه وخفاياه ، وأن تكون مطالعته ترفيهاً لمن مل ، والنظر فيه أحماضاً لمن اختل ، فأخرجته لهم روضة مزهرة وحديقة مثمرة ، متبرجة بزخارفها ، مياسة برفارفها ، وتمتع برايع زهرها ، وتلهي بيانع ثمرها ، وتقر العيون بآنق مرآها ، وتفعم الأنوف بعبق رياها ، وتلذ الأفواه بطيب جناها ، وتستنصت الآذان إلى خرير مائها الفياض ، وتطبي النفوس إلى برد ظلها الفضفاض ، وتميل الأعطاف بغصونها الأماليد ، وطيورها المستملحة الأغاريد ، نزهة المستأنس ، ونهزة المقتبس ، من خلا به استغنى عن كل جليس ، ومن أنس به سلا عن كل أنيس. أين من طيب ندامه نديما مالك وعقيل ، وأين من ذل غزله كُثير عزة وجميل. إن أردت السمر فيا له من سمير ، وإن طلبت الخبر فقد سقطت على خبير ، وإن ابتغيت العظات المبكية ففيه ما يشرق بالدمع أجفانك ، أو المُلح المضحكة ففيه ما يفر بضاحكه أسنانك).هـ. وأما عن الطاهرة المطهرة الشريفة العفيفة البتول مريم ابنة عمران ، فإنها لم تسلم من أفواه الحاقدين الخبثاء ، حيث اتهموها بالزنا صراحة –

والعياذ بالله! وتحت عنوان: (اتهام اليهود لعيسى عليه السلام بأنه ابن زنا) يقول الأستاذ الدكتور عمر بن عبد العزيز قريشي ما نصه بتصرف زهيد: (لقد كان إيذاء اليهود - عليهم لعنة الله - للمسيح - عليه السلام - كثيرًا ومتنوعًا ، وسنكتفي هنا بذكر أهم نقاط الإيذاء: وأولها: اتهامه عليه السلام بأنه ابن زنا: فلقد زعم اليهود - وبئس ما زعموا - أن عيسى ابن مريم "عليه السلام" ابن زنا ، وأنه من سِفاحٍ ، وأشاعوا ذلك فيما بينهم ، وكان ذلك منذ ولدتْه أمُّه ، ثم سكتوا عنه ، حتى قام فيهم بدعوته - نبيًّا ورسولاً - فلم تُعجِبْهم دعوته ؛ إذ أرادوه ملكًا يُعيد إليهم مُلْكَهم المفقود ، ومجدَهم التليد ، ودولتهم السليبة ، فإذا به يدعوهم إلى الدار الآخرة ، بدعوة روحانية ، بعيدًا عن الماديات التي طَغَت عليهم ، لتكون دعوته علاجًا لما هم فيه ، ودواءً لما أصابهم من أدواء ، فتردهم إلى الجادة ، وتعود بهم إلى الصراط المستقيم ، لقد أرادوه مسيحًا مخلِّصًا لهم وانتظروه ، فلما جاء المسيح تأهبوا لتنصيبه ملكًا عليهم ، فلما أحسَّ عيسى - عليه السلام - عزمَهم على هذا تركهم إلى الجبل ، فإذا بهم ينكرون دعوته ، ويناصبونه العداء ، ثم أرادوا تشويه صورته أمام الناس ليرفضوا رسالته ، فزعموا زعمَهم القديم بأنه ابن زنا ، وأن أمه لم تتزوَّج ، وإنما حملت به من سفاح ، من "باندار ا العسكري" أو من "يوسف بن النجار"! ولا يعلِّم سوى الهرطقة والكذب التي يستحيل على العقل إدراكها ، وإذا كان المسيح كافرًا مرتدًّا ، فإن تعاليمه - بناءً على ذلك - لا تعدو إلا أن تكون كذبًا وتلفيقًا ، لا يصح التعبد بها ؛ [راجع بتوسع: فضح التلمود ، ص55 – 57 ، الكنز المرصود في فضح التلمود ، ص258 – 260 ، جذور الفكر اليهودي ، ص86 ، جنايات بني إسرائيل ، ص156 - 160]. وعجبًا لأمر المسيح بين اليهود والنصارى ؛ فاليهود قالوا عنه - وبئس ما قالوا -: "ابن زنا"! (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) ، والنصارى قالوا عنه - وكَبُر ما قالوا -: "ابن الله"! (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) ، (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) ، وأَكْرِم بالإسلام من دينٍ ، اختُصَّ بالوسطية ، فبرَّأ ساحة "عيسى" من الزعْمينِ ، ونزَّهَه من الاتِّهامينِ ، وقال عنه: (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ) ، كما قال أيضًا: (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) ، كما قال أيضًا: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ). كما طعن اليهودُ في أمه مريم - رضي الله عنها ؛ لما جاء عيسى - عليه السلام - إلى الدنيا على خلافِ ما جَرَتْ به عادة النساء غير أمِّه - عليه السلام - حيث وُلِد بلا أبٍ ، كان هذا أمرًا عجيبًا ، وخاصة بين هؤلاء الماديين ، فاتخذ اليهود من مولده - الذي لم تستطع عقولهم القاصرة وقلوبهم المنكرة أن تستوعبه - مدعاةً للطعن في أمه - عليهما السلام - فرَمَوها بالزنا وارتكاب الفاحشة وهي البَتُول الطاهرة. واعتقدوا أن المسيح - عليه السلام - وُلِد من الفحشاء ، وأن مريم خانتْ حياءها وعفَّتها فيه ، وأتتْ به بطريقٍ بشري غير شرعي أثناء الحيض ، وهذا الأمر ليس غريبًا على اليهود ، الذين تطاولوا على خالقهم ، وقتلوا أنبياءهم ، ورمَوهم بأفحش الفِرَى. ولعل الذي دفع اليهودَ إلى هذا الاعتقاد هو أنهم - لبذاءةٍ في أنفسهم جُبِلوا عليها - ينظرون إلى جانب الشر دون الخير ، فيَميلُون - دون شعور منهم - إلى تصديق الجانب الشرير في الإنسان ، ويرجحونه على جانب الفضيلة ؛ [الجدل اليهودي في مواجهة العقيدة الإسلامية ، رسالة ماجستير د/ عثمان علام ، أصول الدين ، فرع الزقازيق ، مصر ، ص236 ، بتصرف]. لقد واجه اليهودُ نبيَّهم عيسى - تلميحًا - بهذا الطعن ، يظهر ذلك من قولهم له: "نحن

لم نُولَد من زنا" ؛ [إنجيل يوحنا ، إصحاح8 (41)] ؛ تلميحًا له أنه هو الذي وُلِد من الزنا ـ وحاشا لله ـ أن يبعث رسولاً يدعو إليه ، وقد تدنس نسبُه بالفاحشة. ولما عرض عيسى ـ عليه السلام ـ دعوتَه على القوم ، "استقبله ناسٌ من اليهود ، فلما رأوه قالوا: جاء الساحر ابن الساحرة ، الفاعل ابن الفاعلة ، وقذفوه وأمَّه" ؛ [فضح التلمود ، ص55 – 57 ، الكامل لابن الأثير ج1 ، ص1101 ، ط/ الخامسة ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، 1405هـ/1985م ، إسرائيل والتلمود ، ص60 - 61]. ولا يتصور منهم أن يؤمنوا به وهم يظنون به هذا الظن ، ويعتقدون فيه هذا الاعتقاد ، واستبدلوا باحترامه الازدراء والاحتقار ، فسمَّوه أسماء صريحة أحيانًا ، وأحيانًا أخرى غير صريحة ، لكن يُفهَم منها أنه هو المراد ، وتشير هذه الأسماء إلى احتقارهم له. وذلك كما جاء في كثير من فقرات التلمود ـ كما سبق أن ذكرنا ـ التي تحتوي على اسم المسيح بغير صراحة حقدًا وحسدًا ، فمثلاً يقول: "ذاك الرجل" ، أو "الرجل الذي شنق" ، أو "ابن النجار" ، ويصفونه بالساحر ، المشعوذ ، المجنون ، المخبول ، روح شيطان ، ومضلل ، مدفون في جهنم ؛ لأنه وثن ، إنه يسوع المسيح الذي ارتد عن دين اليهود وعبَدَ الأوثان ؛ [راجع بتوسع: فضح التلمود ، ص57 – 84 ، اليهود تاريخ وعقيدة ، ص151]. ومعلوم أن التلمود كتاب مقدَّس يؤمِن اليهود بتعاليمه ، وهو أساس تربيتهم الدينية مع التوراة ، كما سبق بيانه ، وبهذا كفَر اليهودُ بعيسى بحكم نظرتهم إليه من ناحية المولد ؛ [حقيقة العلاقة بين اليهود والنصارى ، ص108 ، بتصرف]. وأيضًا ، فالمسيح عيسى ابن مريم عند اليهود يُشَار إليه بكلمة "يشو" العبرية ، ويشار إليه في التلمود بوصفه "ابن العاهرة" ، كما يشار إلى أن أباه جندي روماني ، حملت منه مريم العذراء سِفاحًا. أما كلمة "ماشيح" ، فإنها تُشِير إلى المسيح المخلِّص اليهودي الذي سوف يأتي في آخر الأيام ، ويشير التلمود إلى أن صَلْب المسيح تَمَّ بناءً على حكم محكمة حاخامية "السنهدرين" ، بسبب دعوته اليهودية إلى الوثنية ، وعدم احترامه لسلطة الحاخامات ، وكل المصادر الكلاسيكية اليهودية تتحمَّل المسؤولية الكاملة عن ذلك ، ولا يذكر الرومان بتاتًا في تلك المصادر. وظهرت كتب مثل "توليدوت يشو" (ميلاد المسيح) ، وهي أكثر سوءًا من التلمود نفسه ، وتتهم المسيح بأنه ساحر. واسم المسيح نفسه (يشو) اسم مَقِيت ، ولكن يفسَّر على أنه كلمة مركبة من الحروف الأولى لكلمات أخرى ، وقد أصبحت الكلمةُ عبارةَ قدحٍ في العبرية الحديثة ، فيقال: "ناصر يشو" ، وهي تساوي "لِيَفْنَ اسمُ ناصرٍ ، ولْتَفْنَ ذِكراه" ، وهكذا. ولا تساوي اليهوديةُ الحاخامية المسيحيةَ بالإسلام ، فهي تعتبر أن المسيحية شرك ووثنية ، ولكنها لا ترى أن الإسلام كذلك. و(توليدوت يشو) عبارة عبرية تعني: (حياة المسيح) ، وهي عنوان كتاب كان متداولاً بين أعضاء الجماعات اليهودية في العصور الوسطى في الغرب ، ويقدِّم هذا الكتابُ التصورَ اليهودي لمولد وحياة المسيح وقد تداخلت عدَّة عناصر لتكون هذه الصورة ، من بينها بعض أقسام التلمود ، ويقدم الكتاب أحيانًا صورة إيجابية إلى حدٍّ ما للعذراء مريم أم المسيح ، فهي من عائلة طيبة ، وتعود جذورها لبيت داود ، أما أبو المسيح ، فهو رجل شرير قام باغتصابها ، ثم هَرَب.وبيَّن الكتاب أن المسيح شخصٌ يتمتع بذكاء عالٍ ، ولكنه لا يحترم شيوخ البلد وحكماءها ، وهو يتمتَّع بمقدرات عجائبية ؛ لأنه سرق أحد الأسماء السرية للإله من الهيكل ، ومع هذا ينجح أحد فقهاء اليهود في إبطال سرِّه ، وتوجد تفاصيل أخرى في الكتاب أكثر بشاعة وقبحًا ، ويهدف الكتاب إلى تفريغ قصَّة المسيح من أي معنى روحي ، كما أنه يحاول تفسير المعجزات التي تدور حول المسيح بطريقةٍ تكشفها وتنزع عنها أي سحر ، أو جلال ، أو هالات دينية. وهذا الكتاب يسبِّب كثيرًا من الحرج للجماعات اليهودية حينما تكتشف السلطات أمرَه ؛ ولذا كان بعض الحاخامات يَحرِصُون على تأكيد أن يسوعَ المشار إليه في الكتاب ليس المسيح ، وإنما هو شخص يحمل هذا الاسم عاش قرنين قبل الميلاد! [انظر: يسوع والأناجيل ؛ تأليف جون و.درين ، ج5 ، ص340 - 341]. ولم يكتفِ اليهود بالزعم

أن عيسى ـ عليه السلام ـ ابن زنا ، حتى اتهموه هو أيضًا بالزنا ، ففي كتاب يسمى "إنجيل الشيطان" اتَّخذه عَبَدة الشيطان كتابًا مقدسًا لهم ، نجد في هذا الكتاب ـ فضلاً عمَّا فيه من إنكار وجود الله ، والتصريح بأن الأنبياء والرسل كذَّابون ، وأنه لا قيامة ولا دينونة... ، وأن عباد الشيطان هم الغالبون الفائزون إلى الأبد ، وأن الحياة مال وجنس.. ـ أنه يسخَر كثيرًا من المسيح وأمه).هـ. ولأنني أحب هذه النساء المحصنات الست ، فأسأل الله تعالى أن يحشرني وأهلي ومن أحب معه يوم القيامة! لعموم قول النبي – صلى الله عليه وسلم – كما صح عند ابن حِبان: (من أحب قوماً حُشر معهم) ، وقوله كما صح عند البخاري: (المرء مع أحب)! وأؤمن على دعاء من دعا بهذه الدعوة لي فقال: حشرك الله معهن فأقول: آمين يا رب العالمين! وعموماً من أراد المزيد فليتوجه إلى المراجع والمصادر التاريخية وكتب السير والتراجم!)

29 ـ أفراح

(الأفراحُ وما أدراك ما الأفراح. تنوعت فيها الهمم ، فَهمّةُ تُقيم الشرع الحنيف وتحرص عليه ، وهمّة تقيم الشرع الجاهلي وتحرص عليه. وكل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها. وكلٌّ يعمل على شاكلته. وقد أقيمت الحجة والحمد لله. وصار هناك البديل الإسلامي متمثلاً في الأناشيد العذبة التي نعتقد أنها لا تخالف الشرع كلمة ولا لحناً ولا طريقة أداء. وأشكر من فؤادي أبا عابد ومحمدا المساعد وأبا راتب وأبا عاصم وأبا مازن وأبا مالك وأبا الجود ومحمد العزاوي ، ومن حذا حذوهم وسار على دربهم من أصحاب العقائد الصحيحة والغيرة على الدين وأهله ، فأوجدوا البديل الإسلامي الشرعي ، وأقاموا بذلك الحجة ، وأوقفوا الناس على الحق البديل في الأفراح. هذا ، وكنت قد عزمت على الإدلاء بدلوي وتوفير أناشيد للأفراح قدر الوسع والطاقة. فكتبت هذه القصيدة. وإنني لأحيي كل مَن سعى لإقامة البديل الشرعي الطاهر الوضئ من أناشيد الأفراح الملائكية التوحيدية الحنيفية ، بعيدا عن أذى الجاهلية وحضيضها وعفنها ودنسها وخيلها ورجلها وركابها. وإن هو إلا الاستسلام المطلق للإله الخالق القدير في شريعته. والأصل أن يفرح المسلم وفق الشريعة الربانية ، وليس وفق الهوى والمجتمع! هذا ، ويعلق صاحب الظلال على أية (يونس): (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) فيقول: (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون. إنه ذم الجاهلين في تشريعاتهم الباطلة وفي ظل هذا الحديث عن فضل الله ورحمته المتمثلين فيما جاء للناس من موعظة وهدى وشفاء لما في الصدور يتعرض السياق للجاهلية وهي تزاول حياتها العملية لا وفق ما جاء من عند الله ، ولكن وفق أهواء البشر واعتدائهم على خصائص الله سبحانه ومزاولتهم أمر التحليل والتحريم فيما رزقهم الله (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون). قل ماذا ترون في رزق الله الذي أنزله إليكم وكل ما جاء من عند الله في عليائه إلى البشر فهو منزل من ذلك المقام الأعلى).هـ. أي دليل على أن عرس المسلم لا بد وأن يحتوي على الموسيقى والغناء والاختلاط المستهتر والرقص والمجون؟! إنه يجب أن يكون هناك كبير فرق بين العرس المسلم والعرس الجاهلي. ذلك أنه يحلو لكثيرين من أهل الجاهلية أن يتهموا الشرع المطهر بالقصور عن الاستجابة لضغوط واقعهم الجاهلي! نقول بل النقص والقصور فيكم أنتم حيث لم ترتفعوا بعدُ إلى مستوى الوحي! ومن أرد الالتزام بالحق فليس يعوقه شيءٌ بالمرة!)

30 - من إفرازات الاحتضار

(إن الترهل والتردي في مزابل الماسون وفي زرائب الجاهليين ، سبيل إلى الاحتضار الذي يُفضي بدوره إلى الموت. وتكون له بالطبع مطية ذلولاً كل أمة تنكبت هُدى الله تعالى وتنكرت لخير شريعة والتي هي شريعة الإسلام. ويا للخيبة: هوانٌ في الدنيا وكينونة بئيسة في ذيل الأمم والشعوب والحضارات ، وعذابٌ في الآخرة! وإن شاءت الأمة تابت وأنابت إلى ربها وطبقت الإسلام عقيدة وشريعة وشعيرة ، مصحفاً ومسجداً وسيفاً ، عبادة وريادة وقيادة. وتحت عنوان: (نبراس الأمة في التميز الحضاري) يقول الدكتور إبراهيم بن ناصر الحمود ما نصه بتصرف: (لا ريب أن كل أمة تعتز بحضاراتها التي هي عنوان تقدمها ورقيها ، وإنما تستمد الأمة الإسلامية هذا التميز الحضاري من خلال معالم ثقافتها الإسلامية ، فهي مثابة الأفكار والتصورات التي يبني الإنسان المسلم عليها وجوده في هذه الحياة - لا سيما وأن الثقافة الإسلامية تستمد تلك الرؤى والأفكار من مصدرين أساسين مهمين هما: الكتاب والسنة ثم يأتي بعد ذلك ما للأمة من تراث وتقديرات ، إضافة إلى ما استفادته من تجارب الأمم الأخرى مما لا يتعارض مع تعاليم الدين الإسلامي. وإن التزام الأمة بهذا التواصل ليضمن لها تقويم ثقافتها الذاتية وأصالتها على مستوى الأفراد والجماعات. وكلما ابتعدتِ الأمة عن تلك المصادر الأساسية ، أو أخلت بشيء منها لا يمكن للأمة أن تثبت وجودها الحقيقي - إذا هي فقدت شيئاً من ذلك لأنها تكون قد فقدت قيمها وأخلاقها الإسلامية ، أو تناست لغتها وتاريخها في هذه الحياة. وإذا أردنا البحث عن أهم الأسباب التي تحول دون تميز الأمة في حضاراتها في العصر الحاضر ، لتبين لنا أن من أهم ذلك تدخل عدد من الروافد الأجنبية في بناء المجتمع الإسلامي ، ما يطفئ شعلة التميز والقيادة في تلك الحضارة. ومعلوم أن الدين الإسلامي جاء - والحمد لله - مهيمناً على ما سبقه من الملل والنحل ، ولهذه الهيمنة صلة وثيقة بمسألة التميز التي ينشدها المجتمع الإسلامي ، الذي يرفض أن يكون تابعاً ذليلا لغيره أو مقلداً أو مقتبساً من حضارة أخرى ، فهذه الأمور إن وجدت ، فما هي المتمات لأصول التميز القائمة وروحه السائدة ومناهجه الثاقبة. فالمأمول لهذه الحضارة الإسلامية في الحال والمستقبل أن تكون ذات قيادة مستقلة بنفسها ، ومستمدة تعاليمها من القرآن والسنة إذا هي أرادت التميز الحقيقي ، وعلى غيرها من الحضارات أن تنضم إلى مركب القيادة والتوجيه ، لتكون حضاراتنا الإسلامية في مقدمة الركب ، وحق لها ذلك ما دامت ثابتة وراسخة على قواعدها الأصولية لم تتغير أو تتبدل إذ كيف يليق بثقافة تنتسب إلى هذا الأصل المنيع والركن الرشيد ، ثم هي تقلد سواها أو تكون في موقع الاقتباس والتقليد؟! وتأكيدًا لهذا المعنى يقول الله تعالى في محكم التنزيل: (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق. لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً. ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون). هكذا يبين الله تعالى الخيرية التي تميزت بها هذه الأمة من خلال كتابها والتحاكم إليه ونبذ الأهواء المضللة خشية الفتنة والتفكك والاضطراب! فالحق واحد وطرق الضلال متعددة ، وركون كثير من الناس إلى سلطان الهوى ، والبعد عن الهدى من أهم معوقات التميز الحضاري في العصر الحاضر. وما ذاك إلا بسبب الجهل بمقاصد التشريع الإلهي ، حتى جلب أولئك لأمتهم شيئاً من توابع الذل والانكسار ، ووصفهم بالفسق في قوله سبحانه في سياق تلك الآيات: (وإن كثيرًا من الناس لفاسقون). وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد ميّز هذا الإنسان عن

غيره من المخلوقات بهذا العقل البشري الذي يعرف به الحق والباطل ، والخير والشر ، فإن هذا العقل يحتاج إلى الغذاء المناسب حتى يعطي وظيفته على الوجه الأكمل ، وهذا الغذاء يستمد من القيم الحقيقية لثقافتنا الإسلامية ، وأصولها المباركة ، لينعكس أثر ذلك على التميز الحضاري لهذه الأمة وواقع حياتها العملية ، فيكون المجتمع مجتمعاً تسوده روح المحبة والتعاون والقيم الفاضلة ، وتلك خصوصية لثقافتنا الإسلامية ، وينبغي أن يوجد هذا التميز وتلك الخصوصية في كل وقت ، فلا تحدد بزمان معين ؛ لأن رسالة الإسلام رسالة خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وعامل الثقافة الإسلامية عامل مهم جداً في رسم المنهج السليم لحضارة الأمة ، لأنها قلبها النابض ولباسها المنيع الذي يحميها من زيف وضلال الحضارة الغربية. ومن هنا ندرك أن الثقافة الحقيقية التي لها أثر في بناء حضارة الأمة ثقافة واحدة ، وهي الثقافة الربانية التي تستمد رسالتها من الوحي الإلهي وفيها سعادة البشر! وما عداها فهي من الجاهلية الأولى التي همها النهب والسلب والاستعمار كما هو الحال في الاستعمار الغربي الذي من أهم أهدافه: زعزعة العقيدة الصحيحة في نفوس المسلمين ، إدراكاً منه أن التمسك بالعقيدة سبب بناء الأمة المسلمة ، وزعزعتها وتحطيمها في نفوس سبب لتدميرها. والواقع اليوم يشهد لذلك ؛ فنحن نرى آثار الاستعمار في تلك الأجيال المسلوبة الإرادة ، بل منها من فقد هويته حتى صار تبعاً لغيره عاجزاً عن تحقيق شخصيته المسلمة ، وهذه نتيجة حتمية لكل مجتمع يفقد ثقافته الأصلية. ولا أحد ينكر أن واقع ثقافتنا اليوم يحتاج إلى مزيد من العطاء ممن ينتسبون إليها من رجال الفكر والأدب ، بحيث نحقق الاكتفاء الذاتي الذي يحفظ لنا كيان تلك الثقافة. ولنجعل من الشعوب التي فقدت قيمها وأخلاقها ، خير دليل على تأثر الحضارة بالبعد عن معالمها وأصولها التي تبني عليه ، ما يجعل هذا التأثر السلبي يصيب الأمة بالخلل في حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وهذا هو سبب التأخر الحضاري لدى أمة من الأمم. ولقد كان من نتائج الخروج عن أصول الثقافة الإسلامية والعربية أن انهار أكبر حصون التحصين الثابتة في المجتمع ، ما حدا بالمجتمع إلى أن يعيش فترة من الجمود والتعطيل ، لكونه وقع بين فكين: أحدهما حضارة غربية مستوردة والآخر عامل أصيل متجمد ، ومتى استمر الوضع على هذه الحال فإن عملية النهوض بثقافة الأمة تكاد تكون مستعصية ما لم يهيئ الله لها من يأخذ بيدها من مفكري الأمة ، أصحاب العقول الراجحة الذين يعرفون للحياة المطمئنة قيمتها. ومن مظاهر التقدم الحضاري الذي يشهده المجتمع المسلم ما يتعلق بأنواع التقنين الحديثة المعلوماتية التي بدأت تنتشر في كل قطاع أو مؤسسة ، بل وعلى مستوى الأفراد ، حيث أصبح لا غنى للفرد عنها اليوم لتنظيم حياته وأولوياته ، إضافة إلى ذلك تجد الكثير ممن كانوا يسكنون الوادي ، ويمارسون الحياة البدائية ، قد تولوا عدداً من المناصب التي تؤهلهم لتغيير أنماط السلوك في المجتمع ، وفق الشريعة الإسلامية بعيداً عن عادات وتقاليد الجاهلية الأولى. فعلينا أبناء هذه الأمة المسلمة أن نسرع إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من جوانب حضارتنا اليوم ، ونأخذ بها إلى شاطئ الأمان بعيداً عن عوامل الغزو الفكري الثقافي ، وما أكثره اليوم ، بل التنافس فيه قائم على حساب ثقافتنا الإسلامية. وإن مما يعين على إنقاذ تلك الحضارة في ظل قيمنا الإسلامية وفق متطلبات العصر أن تسلك مسلك التوسط والاعتدال في التعامل مع تلك القيم والمبادئ ، إذ إن التطرف والغلو من أشد العوامل فتكاً بحضارة الأمة ، وإنزال أنواع الذل والهوان التي تصيب العباد والبلاد ، وما نشأ ذلك الغلو وذلك التطرف إلا بسبب القوى الداخلية التي ابتعدت عن عقيدتها ، ما سهل للاستعمار السيطرة والهيمنة على

مقدرات الأمة حتى فقدت الكثير من معالم حضارتها الإسلامية حيث أراد الاستعمار طمس تلك المعالم. وما أن أحست الأمة بالخطر القادم الذي يهدد حياتها وحضارتها حتى اتجهت إلى نزعة جديدة شغلتها عما هو أهم ، ألا وهي النزعة المادية ومن هنا غاب معظم القيم من حياة الأفراد والمجتمعات ، ولم تعد حياتهم قائمة على أي نوع من التعالي والمثالية. فأملنا في ثقافتنا الإسلامية اليوم أن تأخذ بزمام الحضارة إلى بر الأمان بعيداً عن مظاهر الفوضى والانحراف ، وألا تترك مجالاً لتلك القوى المادية لإشباع رغباتها على حساب قيمنا وأخلاقنا التي هي عنوان حضارتنا الإسلامية، وأن نكرس جهدنا في سبيل الحفاظ على مقدراتنا التي أساسها وحدة الإيمان والعقيدة الصحيحة بعيداً عن الطغيان المادي الذي يفقد الإنسان إنسانيته ، ومتى بنى الإنسان حضارته على قيمه وأخلاقه الإسلامية فإن هذا البناء لن يقهر بإذن الله ، وسيظل شامخاً إلى الأبد في مواجهة التبعية من أجل تميز حضاري مرموق لا يتغير ولا يتبدل).هـ. ولا شك أن ليل التبعية قد طال! ولا ريب أن فجر الخروج عن طوق الذل والهوان قد غاب وتأخر! ولا مُشاحة في أن سفينة الحق تمخر عُباب الماء ، وسط حنادس الظلم وغياهب الدياجير من حولها ، ونسأل: متى يقال: أيتها الأرض ابلعي ماءك ، ويا أيتها السماء أقلعي عن إنزال الغيث؟! ومتى يُقال: يا أرض ابلعي ماءك؟! ومتى تستوي سفينة الحق على جودي النصر؟! ومتى يُقال للطواغيت وعبيدهم وجندهم: بُعدا للقوم الظالمين؟! عسى الله أن يكون ذلك قريباً. فلقد أوشك أهل الإيمان أن ييأسوا لولا بقية الإيمان وأثارة العلم ، وأمل كبير في رب العالمين وحسن ظن به سبحانه!)

31 - أفصحت يا عمر

(عندما نذكر الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عز وجل عنه - نذكر العدل والرحمة وذلك بمطالعة سيرته العطرة الذكية اليانعة. ذلك العبقري المُلهم الذي كان القرآن الكريم يتنزل على رأيه. فلقد وافق القرآن فيما يزيد على عشرين آية من آياته الشريفة. ولقد توقفت طويلاً عند رسالته – رضي الله عنه – للقضاة وكل من يلي القضاء ، فألفيتها رسالة في غاية الجمال ومنتهى الكمال ، فأنشدت تحت عنوان (أفصحت يا عمر) هذه القصيدة مُصَدّراً إياها بوصية عمر ، والتي يقول فيها متحدثاً لكل قاض يؤمن بالله واليوم الآخر: (سلامٌ عليك. أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة وسُنة متبعة. فافهم إذا أدلي إليك. وأنفِذ إذا تبين لك. فإنه لا ينفه إذا تكلم بحق لا نفاذ له. آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريفٌ في حيفك ولاييأس ضعيفٌ من عدلك. البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر. والصلحُ جائزٌ بين المسلمين. إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً. ولا يمنعك قضاء قضية اليوم ، فراجعت فيه عقلك وهديت لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم. ومراجعة الحق خير من التمادي فى الباطل. فعليك بالفهم لما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب الله ، ولا سنة النبي (صلى الله عليه وسلم)! ثم اعرف الأشباه والأمثال. فقس الأمور عند ذلك بنظائرها ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق. واجعل لمن ادعى حقاً غائبا أو بينة أمدا يُنتهى إليه. فإن أحضر بينته أخذت له بحقه. وإلا استحللت عليه القضية ، فإن الله قد تولى منكمُ السرائر وادرأ بالبينات والإيمان. وإياك والغلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات. فإن الحق في

مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن الذكر. فمن صحت نيته ، وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس. ومن تخلق للناس بما يعلم أنه ليس من نفسه شانه الله. فما ظنك بثواب عند الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته؟) ويكفي أن نطالع ما أورده الإمام السيوطي في: (تاريخ الخلفاء) فيما قال الصحابة عن عمر ، حيث يقول ما نصه: (قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ما على ظهر الأرض رجل أحب إلي من عمر! أخرجه ابن عساكر. وقيل لأبي بكر في مرضه: ماذا تقول لربك وقد وليت عمر؟ قال: أقول له وليت عليهم خيرهم. أخرجه ابن سعد. وقال علي رضي الله عنه: إذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر ، ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر! أخرجه الطبراني في الأوسط. وقال ابن عمر رضي الله عنه: ما رأيت أحداً قط بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث قبض أحد ولا أجود من عمر! أخرجه ابن سعد. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لو أن علم عمر وضع في كفه ميزان ووضع علم أحياء الأرض في كفة لرجح علم عمر بعلمهم! ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم! أخرجه الطبراني في الكبير والحاكم. وقال حذيفة رضي الله عنه كأن علم الناس كان مدسوسا في حجر عمر! وقال حذيفة وقالت عائشة رضي الله عنها وقد ذكرت عمر: كان والله أحوذياً نسيج وحده والله ما أعرف رجلاً لا تأخذه في الله لومة لائم إلا عمر! وقال معاوية رضي الله عنه: أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن! أخرجه الزبير بن بكار في الموفقيات. وقال جابر رضي الله عنه: دخل عليٌ على عمر وهو مسجى فقال: رحمة الله عليك ، ما من أحد أحب إلي أن ألقى الله بما في صحيفته بعد صحبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من هذا المسجى. أخرجه الحاكم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر ، إن عمر كان أعلمنا بكتاب الله ، وأفقهنا في دين الله تعالى. أخرجه الطبراني والحاكم. وسئل ابن عباس عن أبي بكر فقال: كان كالخير كله. وسُئل عن عمر فقال: كان كالطير الحذر الذي يرى أن له بكل طريق شرَكاً يأخذه. أخرجه في الطيوريات).هـ. ومهما نهلنا من بحر الفاروق فلن نرتوي ، بل سنظل في حاجة ماسة له!)

32 - أقطاب القرآن العشرة

(لا شك أن القراء العشرة أصحاب القراءات قد قاموا بجهد جهيد في خدمة القرآن الكريم. والقراء العشرة أرتبهم حسب التاريخ الزمني لهم: الأول فالثاني فالثالث فالذي يليه إلى العاشر على النحو التالي: * الأول – عبد الله بن عامر اليحصبي مقرئ الشام 8هـ - 118هـ . وراوياه هما: هشام بن عمار الدمشقي. وعبد الله بن أحمد الدمشقي المعروف بـ (ابن ذكوان). رحمة الله تعالى على الجميع. * الثاني - عبد الله بن كثير الداري مقرئ مكة 45هـ - 120هـ. وراوياه هما: البزيّ ، وقنبل ، وهو تابعي لقي من الصحابة عبد الله بن الزبير وأبا أيوب الأنصاري وأنس بن مالك. رضي الله عن الجميع. * الثالث - عاصم بن أبي النجود الكوفي 129هـ. وراوياه هما: حفص بن سليمان الدُوريّ وشعبة بن عياش الحناط وهو تابعي. رحمة الله تعالى على الجميع. * الرابع – أبو العلاء البصري. زبان بن العلا 68 هـ - 154هـ. ورواياه هما: حفص بن عمر الدوري ، وصالح بن زياد السوسي. رحمة الله على الجميع. * الخامس – حمزة بن حبيب الزيات الكوفي 80هـ - 156هـ.

وراوياه هما: خلاد الصيرفي وخلف البزار. رحمة الله على الجميع. * السادس – نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني 169هـ. وراوياه هما: ورش وقالون. رحمة الله على الجميع. * السابع – على بن حمزة الكسائي النحوي المعروف 187هـ. وراوياه هما: حفص الدوري والليث بن خالد البغدادي. رحمة الله على الجميع. فهؤلاء هم القراء السبعة ، أصحاب القراءات السبع المتواترة المعتمدة المشهورة. وهناك قراءات ثلاث متمّمة للعشر وقد حازت على الشروط في القبول ، وقراؤها معتبرون كذلك وهم: (* الأول – أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني 130هـ. وراوياه: ابن وردان وابن جماز. * الثاني - يعقوب بن إسحاق الحضري 205هـ. وراوياه هما: روح عبد المؤمن ورويس. * الثالث – خلف بن هشام البزار 229هـ. وراوياه هما: إدريس الحدّاد والوراق. رحمة الله على الجميع. فجزاهم لله خيراً على جهودهم في إثراء علم القراءات. وأرى أن اتصالهم بكتاب الله عز وجل هو الذي أعلى قدرهم وشأنهم ، وجعل لهم لسان صدق في الأولين والآخرين. إن كل شخص أو شيء يتصل بكتاب الله يأخذ صفة هذا الكتاب من العلو والرفعة والجلال. والسادة الأحناف قالوا قديماً: (وإن الكيس الذي يحمل المصحف لمن المصحف!) وتمتلئ دواوين كثير من الشعراء بأسماء المغنين والفسقة والممثلين واللاعبين والموسيقيين وغيرهم من المفسدين والمجرمين. الأمر الذي حدا بي إلى أن أملأ ديواني بأسماء الصالحين المصلحين الكرام من علماء القرآن والسنة. ذلك أن كل بئر بما فيه ينزح. ولمّا كنت أوقر هؤلاء الأقوام رأيتني ألهجُ بتقديرهم وتثمين جهودهم. وعشتُ ردحاً طويلاً من عمري ولا أزال أجلهم وأنصتُ إلى نصائحهم ووعظهم ، وأصغي إلى قراءاتهم إن هم قرأوا ، وأرى أن تراثهم كنز تجب المحافظة عليه. وأكتب في الثناء عليهم وتقدير جهودهم العظيمة هذه المقالة في التعريف بهم!)

33 - أقِلوا من أخباركم

(كلما غدا هؤلاء السفهاء أو راحوا ذكروا من أخبارهم وأحوالهم ومواقفهم الشيء الكثير. وأخبارهم لا علاقة لها بالله ولا بأنبيائه المرسلين ولا بالإسلام. فقلتُ لهم: اتقوا المعاصي فإنها لصوص العلوم ، فكم من حافظ لكتاب الله أنسيه حين تعلق قلبه بمعصية! وكم من مُجدّ في البحث والتدقيق حُرم بركة العلم والوقت بسبب هنةٍ أو زلة! وتذكروا أن العلم الحق ما أورث خشية وذلاً. وأعقب تعبدًا وقربًا ، ومن أضرار المعاصي والذنوب حرمان الرزق ، فكما أن الطاعة مَجلبة للرزق ، فالمعصية مَجلبة للفقر ، وقد يخالط النفوس شك من هذا ، إذا نظر الناس في واقع الكثير. فكم من العصاة بل من الكفار من بُسط له في رزقه ، ونُعّم في حياته! وكم من العُباد والعلماء من عاش حياته بين الفقر والعوز! فيقال: إنما الرزق في بركته لا في كثرته. فالمتأمل في حياة الفريقين على مر العصور ، يجد السعادة مع البركة ، وكلما ازداد العبد طاعة وقربًا كلما يُسّر له في عمل الصالحات ، وأضحت أهونَ عليه من كل شيء ، وأحبَ إليه من أي شيء. وكلما ازداد العبد معصية وبُعدًا ، كلما تثاقل عن الطاعة وحُرمها ، وألفَ المعصية وأحبها ، ولو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن الطاعة لكان في ذلك كفاية لما فيه من الحرمان. وأخبر النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - أنَّ المجاهرة بالمعاصي لها عقوباتٌ في

الدنيا قبلَ الآخرة ، روى ابن ماجه في سُننه من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: أقبل علينا رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - فقال: (يا معشرَ المهاجرين ، خمسٌ إذا ابتُليتم بهنَّ - وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ -: لم تظهرِ الفاحشة في قوم قطُّ حتى يُعلنوا بها ، إلا فَشَا فيهم الطاعونُ والأوجاعُ التي لم تكن مَضتْ في أسلافهم الذين مضَوْا ، ولم ينقصوا المكيالَ والميزان إلا أُخِذوا بالسِّنين وشدَّة المؤونة وجورِ السلطان عليهم ، ولم يَمنعوا زكاة أموالهم ، إلا مُنِعوا القطر من السَّماء ، ولولا البهائم لم يُمطَرُوا ، ولم يَنقضوا عهدَ الله وعهدَ رسوله ، إلا سلَّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم ، فأخذوا بعضَ ما في أيديهم ، وما لم تحكُم أئمتُهم بكتاب الله ويتخيَّروا مما أَنزل الله ، إلا جَعَل الله بأسَهم بينهم). والحديث صحيح أورده الألباني مصححاً في صحيح الجامع الصغير. وروى البخاري ومسلم من حديث سالم بن عبد الله ، قال: سمعت رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - يقول: (كلُّ أُمَّتي معافًى إلا المجاهرين ، وإنَّ من المجاهرة أن يعمل الرَّجلُ بالليل عملاً ، ثم يصبح وقد ستره الله عليه ، فيقول: يا فلان، عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربُّه ، ويُصبِح يكشف سترَ الله عنه). قال ابن حجر: والمجاهِر هو الذي أظهر معصيتَه ، وكشف ما ستَر الله عليه ، فيحدِّث بها ، أما (المجاهرون) في الحديث الشريف فيحتمل أن يكون بمعنى مَن جَهَر بالمعصية وأظهرها ، ويحتمل أن يكون المراد الذين يُجاهِر بعضهم بعضًا بالتحدُّث بالمعاصي ، وبقية الحديث تؤكِّد المعنى الأول. ويفصل الأستاذ أمين عبد الله الشقاوي مسألة المجاهرة بالمعصية فيقول: (إنَّ المجاهرة على أنواع ثلاثة: 1 - المجاهَرة بمعنى إظهار المعصية ، وذلك كما يفعل المُجَّان والمستهترون بحُدود الله ، والذي يفعل المعصية جهارًا يرتكب محذورين: الأول: إظهار المعصية. والثاني: تلبُّسه بفعْل المُجَّان ؛ أي: (أهل المجون) ، وهو مذموم شرعًا وعُرفًا. 2 - المجاهرة بمعنى إظهار ما سَتَر الله على العبد مِن فعْله المعصية ؛ كأنْ يُحدِّث بها تفاخرًا أو استهتارًا بسِتر الله تعالى ، وهؤلاء هم الذين لا يتمتَّعون بمعافاة الله - عزَّ وجلَّ - كحالِ الشباب الذين يُسافرون إلى خارج البلاد ، ويرتكب الواحدُ منهم الفواحشَ وشُرْب الخمور ، ثم يُخبر بهذا أصدقاءَ السُّوء تفاخرًا واستهتارًا بستر الله له. 3 - المجاهرة بمعنى أن يُجاهِر بعض الفسَّاق بعضًا بالتحدُّث بالمعاصي ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: إنَّ المُظهِر للمنكَر يجب الإنكارُ عليه علانيةً ، ولا تبقى له غِيبة قط ، ويجب أن يُعاقَب علانية بما يردعه عن ذلك ، وينبغي لأهل الخير أن يهجروه ميتًا إذا كان فيه رَدْعٌ لأمثاله ، فيتركون تشييعَ جنازته. وقال النووي - رحمه الله -: "إنَّ مَن جاهر بفسقه أو بِدعته ، جاز ذِكرُه بما جاهر به دون ما لم يجاهرْ به" ، وقال ابن حجر - رحمه الله -: "مَن قصد إظهار المعصية والمجاهرةَ ، أغضبَ ربَّه فلم يستره ، ومَن قصد التستُّرَ بها حياءً من ربه ومِن الناس ، منَّ الله عليه بسِتره إياه".اهـ. قال ابن بطال: "في الجهرِ بالمعصية استخفافٌ بحقِّ الله ورسوله ، وبصالحي المؤمنين ، وفيه ضرْبٌ مِن العناد لهم ، وفي الستر بها السلامة من الاستخفاف". قال ابن القيم رحمه الله: "مثال تولد الطاعة ونموها وتزايدها كمثل نواة غرستها فصارت شجرة ثم أثمرت فأكلت ثمرها وغرست نواها ، فكلما أثمر منها شيء جنيت ثمره وغرست نواه وكذلك تداعي المعاصي ، فليتدبر اللبيب هذا المثال".أهـ. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: (وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ). فناشدتهم بالله تعالى بأن يُقلوا من أخبارهم الغثة الفجة ، لأنه لا يفتخر بمعصية ربه إلا سفيه. وأولى به إن كان ناصحاً لنفسه أن يكف عن هذا!)

34 - أقِلوا من اللوم

(أخذوا يلومونه على العواقب التي نجمتْ عن زواجه من امرأة لم تكن لتصلح لأن تكون زوجة يوم تقدّم هو لخطبتها ، وراحوا ينصحونه ويحثونه على ترك هذا الأمر ، فلم يقبل قط. واليوم لاموه على سوء النتائج ، فراح يقول: خففوا اللوم ، كفاني ما أنا فيه! يقول الأستاذ إياد نزيه الدرويش في آداب العتاب ما نصه: (يلجأ الكثير من الناس إلى العتاب كوسيلة لحل خلاف مع شخص عزيز! وذلك من مبدأ أن "العتاب لغة متعارف عليها بين الأحباب"! ومن منطلق الحرص والحفاظ على العلاقة مع هذا الشخص. وعندما نذكر أن العتاب "فن" في حد ذاته ، فإن ذلك يتطلب منا أن نتقن كيفية ممارسته وإدارته بمهارة من خلال عدة أمور ، من أهمها أن نقوم بتحديد العتاب ، فلا يجب أن يزيد العتاب عن حد معين أو أن يتحول الكلام لنوع من التوبيخ. أيضاً يجب علينا أن لا نتهاون في العتاب ، فبينما لا يجب أن يزيد عتابنا عن حدٍ معين ، يلزم أيضاً أن لا ينقص عن الحد الذي يجعله فعّالاً ، وهنا تكْمنُ المهارة! وعلينا أن لا نوجّه اتهاماً مباشراً: فلا يجوز أن نضع الآخر موضع المتهم ونضطره للدفاع عن نفسه بطريقة تبدو وكأنه يُبرّئ شخصه من تهمة مؤكدة ، فذلك يوغر صدره تجاهنا وربما نخسره جزئياً أو كلياً". ويجب أن نحدد الأشياء بدقة وأن نضع النقاط على الحروف مع التأكيد على حرصنا على الطرف الآخر).هـ.)

35 - اكتشاف الخليل

(كثير من الناس يظنون أن الخليل بن أحمد الفراهيدي قد اخترع بحور الشعر. وهذا محض خطأ. والصواب أنه اكتشفها في شعر العرب وقد قمت بتفصيل ذلك في مقدمة قصيدة (اللاشعر المتفلت). واليوم أبين الحقيقة ، وأهدي الخليل قصيدتي هذه التي تحمل عنوان: (اكتشاف الخليل). وربي المستعان. وأذكر هنا ما أورده صاحب (ميزان الذهب في صناعة شعر العرب) الأستاذ السيد أحمد الهاشمي ، نقلاً عن الخليل بن أحمد نظمه لبحور الشعر العربي شعراً (بالتفعيلة والشواهد القرآنية والشعر). ويكون ذلك مني بمثابة المفتاح لكل مبتدئ والتذكرة لكل متقن: نعم نوردها هنا للفائدة من جهة ، ومن جهة أخرى لنثبت أن القرآن قد حوى كل شيء! وصدق ابن مسعود: (لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله!) نظم الشهاب أوزان البحور الستة عشر السابقة فقال:

(الطويل)

أطـــال عـــذولي فيـــك كفرانـــه الهـــوى وآمنـــت يـــا ذا الظبـــي فـــأنس ولا تنفـــرْ

فعـــولن مفـــاعيلن فعـــولن مفـــاعلن فمـــن شـــاء فليـــؤمن ومـــن شـــاء فليكفـــرْ

(المديد)

يـــا مديـــد الهجـــر هـــل مـــن كتـــاب فيـــــه آيـــــات الشـــــفا للســـــقيم

فـــــاعلاتن فـــــاعلن فـــــاعلاتن تلـــــك آيـــــات الكتـــــاب الحكـــــيمِ

(المديد)

لـــــو مـــــددنا بابتهـــــال يـــــديْنا نـــــرتجيكم هـــــل يكـــــون العطـــــاءُ؟

فـــــاعلاتن فـــــاعلن فـــــاعلاتن إن زعمـــــــــتم أنكـــــــم أوليـــــــاءُ

(البسيط)

إذا بَســـطت يـــدي أدعـــو علـــى فئـــةٍ لامـــوا عليـــك عســـى تخلـــو أمـــاكنهم

مســـتفعلن فـــاعلن مســـتفعلن فعلـــن فأصـــــبحوا لا تـــــرى إلا مســـــاكنهم

(الوافر)

غرامـــــيَ فـــــي الأحبـــــة وفرتْـــــهُ وُشـــــاة ـ فـــــي الأزفـــــة ـ راكزونـــــا

مفـــــاعلتن مفـــــاعلتن فعـــــولن إذا مـــــــروا بهـــــــم يتغـــــــامزونَ

(الكامل)

كملـتْ صـفاتك يـا رشـا وأولـو الهـوى قـد بـايعوك ، وحظهـم بـك قـد نمـا

متفـــــاعلن متفـــــاعلن متفـــــاعلن إن الـــــــذين يبايعونـــــــك إنمـــــــا

(الهزج)

لـــــــئن تهـــــــزجْ بعشـــــــاق فهـــــم فـــــي عشـــــقهم تـــــاهوا

مفـــــــــاعلين مفـــــــــاعلين وقـــــــــالوا حســـــــــبنا اللهُ

(الرجز)

يـــاراجزا بـــاللوم فـــي موســـى الـــذي أهـــوى وعشـــقي فيـــه كـــان المبتغـــى

مســـــتفعلن مســـــتفعلن مســـــتفعلن اذهـــــب إلـــــى فرعـــــون إنـــــه طغـــــى

(الرمل)

إن رملـــــتم نحـــــو ظبـــــي نـــــافر فاســـــــتميلوهُ بـــــــداعي أنسِـــــــهِ

فـــــاعلاتن فـــــاعلاتن فـــــاعلن ولقـــــد راودتُـــــه عـــــن نفســـــهِ

(السريع)

سـارع إلـى غـزلان وادى الحمـى وقـل أيـا غيـدُ ارحمـوا صـبكم

مسـتفعلن مسـتفعلن فـاعلن يـا أيهـا النـاس اتقـو ربكـم

(المنسرح)

تنسـرح العـين فـي خديـد رشـا حيّـي بكـأس وقـال خـذه بفـي

مسـتفعلن مفعـولات مسـتفعلن هـو الـذي أنـزل السـكينة فـي

(الخفيف)

خـف حمـلُ الهـوى علينـا ، ولكـنْ ثقلتـه عـواذل تتـرنمْ

فـاعلاتن مسـتفعلن فـاعلات ربنـا اصـرف عنـا عـذاب جهـنمْ

(المضارع)

إلـى كـم تضـارعونا فتـىً وجهـه نضـيرُ

مفاعيـل فـاعلاتن ألـم يـأتكم نـذيرُ

(المقتضب)

اقتضـب مـن وشـاةِ هـوىً مـن سـناك حـاولهم

مفعـولات مفـتعلن كلمـا أضـاء لهـم

(المجتث)

اجتـث مـن عـاب ثغـرا فيـه الجمـانُ النظـيمُ

مسـتفع لـن فـاعلاتن وهْـو العلـي العظـيم

(المتقارب)

تقـاربْ وهـات اسـقني كـأس مـاءِ وباعـد وشـاتك بعـد السـماءِ

فعـولن فعـولن فعـولن فعـولن وإن يسـتغيثوا يغـاثوا بمـاءٍ

(مخلع البسيط)

خلعـتُ قلبـي بنـار عشـق تصـلى بهـا مهجتـي الحـرارة

مسـتفعلن فـاعلن فعـولن وقودهـا النـاس والحجـارة

(المتدارك – الذي تدارك به الأخفش على الخليل)

داركْ قلبـــــــي بلمـــــــى ثغـــــــر فـــــــي مبســـــــمه نظـــــمُ الجـــــوهرْ

فعلـــــن فعلـــــن فعلـــــن فعلـــــن إنـــــــا أعطينـــــــاك الكـــــــوثرْ

وإذن فالشعر العربي كلام موزون مقفي ذو معني ووحدة موضوعية وهدف. وإلا يكن ذلك كذلك فليس بشعر ما كان على خلاف ما ذكرنا ، ولا يعتبر صاحبه شاعراً! ولقد أورد عبد الوهاب الزنجاني ، في كتابه (القسطاس في علم العروض) ، ما يفيد ثناءه الحار الجيد على معلمه جار الله الزمخشري مبيناً أهمية عروض الشعر فقال ما نصه: (ولَعَهدي بهذه الأصناف لا يُسمَعُ لها صدًى ، ولا تُرى لها عينٌ ولا أثر ، فيما بين أهل بلادنا ، وساكنه ديارنا. اللهمَّ إلاَّ متنَ اللغةِ ، هكذا غُفلاً لا يَسِمهُ التحقيق ، وعرياناً لا يُشمل بالإتقان ، إلى أن قيَّضَ اللهُ للعَمَى أن تنكشف ضبابته ، وللجهل أن تنقشع ربابته ، بيُمن نَقيبةِ سيّدنا وأميرنا ومولانا ، الإمام الأستاذ الرئيس الأجلّ ، فريدِ العصر ، فخرِ العرب والعجم ، جمالِ الزمان ، نجمِ الدّين ، أدام الله عزَّ الفضلِ وأهلهِ ، بإطالة بقائه ، وإدامة علائه. لا جرَمَ أنه فتح الأبواب إلى تلك الفضائل ، ورفع الحجب دون أولئك المناقب ، مُفهِماً ومُوقِفاً ومُرشداً ومطرّفاً ، ومُرشّحاً ومُرغبّاً. حتى أنهجتِ المسالكُ واتلأبَّتِ الأساليب ، وهزَّ الأدبُ مَناكبَه وأرخى الفضل ذوائبه ، وغادر بذلك آثاراً أبقى من المسند لا ينمحي رقمُها ، ولا ينطمس رسمهُا. فمتى تفوَّهنا بحرف من الأصناف المعدودة ، فهو التقاط من ذلك المعدِن ، واستقاء من ذلك المَصبّ. وقد لاحت لي ، ببركات الانتماء إلى حَضْرته ، ومَيامن الانضواء إلى سُدَّتِه ، طريقةٌ في باب العروض عذراء ، ما أظنُّها وُطئت قبلي. فعمدتُ إلى تحرير هذه النسخة منها ، وأوفدتُها على مجلسه العالي ، لأفّخِمَ شأنها ، وأعلي مكانها ، بمدّ يده إليها ، واطّلاِع عينه عليها. فإنه شريعة للفضائل يُحام حواليها ، ومدينة للعلوم والآداب يهاجَرُ إليها. إنَّ بناء الشعر العربي على الوزن المُخترعِ ، الخارج عن بحور شعر العرب ، لا يَقدحُ في كونه شعراً عندَ بعضهم. وبعضُهم أبى ذلك ، وزعم أنه لا يكون شعراً حتى يُحامَى فيه وزن من أوزانهم. والذي ينصر المذهب الأول هو أن حَدَّ الشعر لفظٌ موزونٌ ، مقفي يدلّ على معنى. فهذه أربعة أشياء: اللفظ ، المعنى ، الوزن ، القافية. فاللفظ وحده هو الذي يقع فيه الاختلاف بين العرب والعجم. فإنَّ العربيّ يأتي به عربيّاً ، والعجميّ يأتي به عجميّاً. وأما الثلاثة الأُخر فالأمر فيها على التَّساوي بين الأمم قاطبة. ألا ترى أنا لو علمنا قصيدة على قافية ، لم يُقَفّ بِها أحدٌ من شعراء العرب ، ساغ ذلك مساغاً لا مجالَ فيه للإنكار. وكذلك لو اخترعنا معاني ، لم يسبقونا إليها ، لم يكن بنا بأس ، بل يُعدّ ذلك من جملة المزايا وذلك لأن الأمم عن آخرها متساوية بالنسبة إلى المعاني والقوافي والافتنان فيها ، لا اختصاص لها بأمة دون غيرها. فكذلك الوزنُ ، لتساوي الناس في معرفته ، والإحاطة بأن الشيئين إذا توازنا ، وليس لأحدهما رُجحان على الآخر ، فقد عادل هذا ذاك ككفَّتي الميزان. ثم إنَّ من تعاطى التصنيف في العروض ، من أهل هذا المذهب ، فليس غرضه الذي يؤمّه أن يحصر الأوزان التي إذا بُني الشعر على غيرها لم يكن شعراً عربيّاً ، وأنَّ ما يرجع إلى حديث الوزن مقصور على هذه البحور الستةَ عشرَ لا يتجاوزها. إنما الغرض حصر الأوزان التي قالت العرب عليها أشعارهَا. فليس تجاوز مقولاتها بمحظور في القياس ، على ما ذكرت. فالحاصل أنّ الشعر العربيّ ، من حيث هو عربيّ ، يفتقر قائله إلى أن يطأ أعقاب العرب فيه ، فيما يصير به

عربياً. وهو اللفظ فقط ، لأنهم هم المختصّون به. فوجب تلقيه من قِبَلِهم. فأما أخواته البواقي فلا اختصاص لهم بها البتة ، لتشارك العرب والعجم فيها.)هـ. فذكرنا ذلك كله بكلمة ابن مسعود: (والله لو ضاع مني عقال بعيري لوجدته في كتاب الله). ولما كانت الشبكة تجري حوارا مع الدكتور عدنان النحوي قال حفظه الله: (باستعراض الساحة الأدبية نجد أن بعض الأدباء المسلمين تأثروا بنسب مختلفة بالنظريات العلمانية الغربية، وبرز التأثر في إنتاجهم وعطائهم، وأوضح مثال على ذلك ما يسمى بالشعر الحر بين النثر والتفعيلة، والذي أسميه الشعر المتفلت! ولقد انتشر هذا الشعر انتشاراً واسعاً في المجلات الإسلامية ولدى عدد غير قليل من الشعراء المسلمين. ولقد أصبح واضحا في الساحة الأدبية أني أرفض هذا الشعر المتفلت بجميع أشكاله، وأعتبره خطراً على اللغة العربية وأدبها، ولقد أوضحت رأيي بوضوح تام في معظم كتبي الأدبية وخاصة كتابي (الشعر المتفلت بين النثر والتفعيلة وخطره). ومن ناحية أخرى فقد تأثر بعض الأدباء المسلمين بالحداثة والبنيوية والأسلوبية وغيرها ، وقد يصرح بعضهم بذلك ، وقد يتردد آخرون ، ولكنني فندت هذه الاتجاهات كلها وما يتبعها من اتجاهات فكرية على أسس علمية وإيمانية دون الهبوط إلى مهاترات ، وأساس ذلك كله عندي الكتاب والسنة ، المصدر الذي وفر لدي كل الحجج والبراهين التي أحتاجها في هذه الأبحاث والدراسات وغيرها ، وما كنت أنا نفسي سابقاً أدر ك حقيقة هذا الكنز العظيم الكنز الرباني، ومع هذه الدراسات أصبح الإدراك إيمانياً عملياً مشاهداً في التطبيق).هـ. وهذا تحليل رائع للغاية! وأشكر للدكتور النحوي غيرته على الإسلام والكتاب والسنة والعربية والشعر العربي!)

36 - إكرام الراحلة

(عند زيارتي لإكرام بنت علي سليمان عبد الرحيم (أختي من أبي) – رحمها الله – لمستُ عندها أصالة الصعيد وأخلاقه. فازداد حبي لها. ومن أجلها أنشدت هذا القصيد. والحب بين الأشقاء فطرة طبيعية ، وإنما يحب كل شقيق من أشقائه وشقيقاته الأقرب منهم إلى الحنيفية التي يدين لله بها ، ولقد كانت إكرام من أحب إخوتي حقيقة إلى قلبي – على أنها كانت أختي من أبي ، وذلك لذات السبب الذي ذكرت. وذات يوم فارقت الحياة الدنيا إلى الرفيق الأعلى ، وكان ذلك صعباً علي ، ورحتُ أسطر هذي الأبيات في رثائها وتأبينها ، وكم كنت أتمنى لو شيعتها بنفسي! ولكنها إرادة الله تعالى. عَنِ الْبَرَاءِ بن عَازِبٍ رضي الله عنه قال: خَرَجْنَا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إلى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ ، فَجَلَسَ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وكأن على رؤوسنا الطَّيْرَ ، وفي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ في الأَرْضِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فقال: اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ من عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ أو ثَلَاثاً ، ثُمَّ قال: إن الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إذا كان في انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إليه مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ ، مَعَهُمْ كَفَنٌ من أَكْفَانِ الْجَنَّةِ ، وَحَنُوطٌ من حَنُوطِ الْجَنَّةِ ، حتى يَجْلِسُوا منه مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يجئ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السَّلَامُ حتى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فيقول: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ ، اخرجي إلى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ، قال: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كما تَسِيلُ الْقَطْرَةُ (أي قطرة الماء) من في السِّقَاءِ ، فَيَأْخُذُهَا ، فإذا أَخَذَهَا لم يَدَعُوهَا في يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حتى يَأْخُذُوهَا! فَيَجْعَلُوهَا في ذلك الْكَفَنِ وفي ذلك الْحَنُوطِ ، وَيَخْرُجُ منها كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ

الأَرْضِ ، قال: فَيَصْعَدُونَ بها ، فَلاَ يَمُرُّونَ - يَعْنِي بها على مَلأٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ - إلا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلاَنُ بن فُلاَنٍ ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ التي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بها في الدُّنْيَا ، حتى يَنْتَهُوا بها إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْتَفْتِحُونَ له فَيُفْتَحُ لهم ، فَيُشَيِّعُهُ من كل سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إلى السَّمَاءِ التي تَلِيهَا ، حتى يُنْتَهِيَ بِهِ إلى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فيقول الله عز وجل: اكْتُبُوا كِتَابَ عبدي في عِلِّيِّينَ ، وَأَعِيدُوهُ إلى الأَرْضِ ؛ فإني منها خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ، قال: فَتُعَادُ رُوحُهُ في جَسَدِهِ ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنَ له: من رَبُّكَ؟ فيقول: ربي الله ، فَيَقُولاَنِ له ما دِينُكَ؟ فيقول: ديني الإِسْلاَمُ ، فَيَقُولاَنِ له: ما هذا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فيقول: هو رسول اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - ، فَيَقُولاَنِ له: وما عِلْمُكَ؟ فيقول: قرأت كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ في السَّمَاءِ: أن صَدَقَ عبدي ، فأفرشوه مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَافْتَحُوا له بَاباً إلى الْجَنَّةِ ، قال: فَيَأْتِيهِ من رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ له في قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ! قال: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فيقول: أَبْشِرْ بالذي يَسُرُّكَ ، هذا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوعَدُ ، فيقول له: من أنت؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يجئ بِالْخَيْرِ ، فيقول: أنا عَمَلُكَ الصَّالِحُ! فيقول: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حتى أَرْجِعَ إلى أهلي ومالي! قال: وان الْعَبْدَ الْكَافِرَ إذا كان في انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ ، نَزَلَ إليه مِنَ السَّمَاءِ مَلاَئِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ منه مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يجئ مَلَكُ الْمَوْتِ حتى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فيقول: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ ، اخرجي إلى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ ، قال: فَتُفَرَّقُ في جَسَدِهِ ، فَيَنْتَزِعُهَا كما يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ! (وفي رواية لأحمد: فَيَنْتَزِعُهَا تَتَقَطَّعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ) فَيَأْخُذُهَا ، فإذا أَخَذَهَا لم يَدَعُوهَا في يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، حتى يَجْعَلُوهَا في تِلْكَ الْمُسُوحِ ، وَيَخْرُجُ منها كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بها فَلاَ يَمُرُّونَ بها على مَلأٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إلا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلاَنُ بن فُلاَنٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ التي كان يُسَمَّى بها في الدُّنْيَا ، حتى يُنْتَهَيَ بِهِ إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ له فَلاَ يُفْتَحُ له ، ثُمَّ قَرَأَ رسول اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: {لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَلَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ}. فيقول الله عز وجل: اكْتُبُوا كِتَابَهُ في سِجِّينٍ في الأَرْضِ السُّفْلَى ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحاً ثُمَّ قَرَأَ: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ ، فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ، أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}. فَتُعَادُ رُوحُهُ في جَسَدِهِ ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ ، فَيَقُولاَنِ له: من رَبُّكَ؟ فيقول: هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِى ، فَيَقُولاَنِ له: ما دِينُكَ؟ فيقول: هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي ، فَيَقُولاَنِ له: ما هذا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فيقول: هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي ، فَيُنَادِى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أن كَذَبَ فَافْرِشُوا له مِنَ النَّارِ ، وَافْتَحُوا له بَاباً إلى النَّارِ ، فَيَأْتِيهِ من حَرِّهَا وَسَمُومِهَا ، وَيُضَيَّقُ عليه قَبْرُهُ ، حتى تَخْتَلِفَ فيه أَضْلاَعُهُ ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فيقول: أَبْشِرْ بالذي يَسُوءُكَ ، هذا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوعَدُ ، فيقول: من أنت؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يجئ بِالشَّرِّ ، فيقول: أنا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ! فيقول: رَبِّ لاَ تُقِمِ السَّاعَةَ». رواه أحمد وأهل السنن إلا الترمذي! وفي رواية للطيالسي: «فيقول: أنا عملك الخبيث ، والله ما علمتك إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله ، سريعاً إلى معصية الله». وفي رواية لأبي داود: «قال: ثُمَّ يُقَيَّضُ له أَعْمَى أَبْكَمُ معه مِرْزَبَّةٌ من حَدِيدٍ ، لو ضُرِبَ بها جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا ، قال: فَيَضْرِبُهُ بها ضربة ، يَسْمَعُهَا ما بين الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إلا الثَّقَلَيْنِ ، فَيَصِيرُ تُرَابًا قال: ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ». وفي حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عند الترمذي قال في المؤمن: «... ثُمَّ يُفْسَحُ له في قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا في سَبْعِينَ ، ثُمَّ يُنَوَّرُ له فيه ، ثُمَّ يُقَالُ له: نَمْ ، فيقول: أَرْجِعُ إلى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ ، فَيَقُولاَنِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الذي لَا يُوقِظُهُ إلا أَحَبُّ أَهْلِهِ

إليه ، حتى يَبْعَثَهُ الله من مَضْجَعِهِ ذلك. وَإِنْ كانَ مُنَافِقًا...يُقَالُ لِلْأَرْضِ: الْتَئِمِي عليه ، فَتَلْتَئِمُ عليه ، فَتَخْتَلِفُ فيها أَضْلَاعُهُ ، فلا يَزَالُ فيها مُعَذَّبًا ، حتى يَبْعَثَهُ الله من مَضْجَعِهِ ذلك». وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (أكثروا ذكر هادم اللذات - يعني الموت - فإنه ما ذكره أحد في ضيق إلا وسعه الله ، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه). وعن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال: "كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا ذهب ثلثا الليل ، قام فقال: يا أيها الناس ، اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة * تتبعها الرادفة * جاء الموت بما فيه * جاء الموت بما فيه". وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: كنت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاءه رجل من الأنصار ، فسلم على النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم قال: يا رسول الله ، أي المؤمنين أفضل؟ ، قال: "أحسنهم خلقاً" قال: فأي المؤمنين أكيس؟ ، قال: أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم لما بعده استعداداً ، أولئك الأكياس". وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ("لقد أعذر الله إلى عبد أحياه) (حتى بلغه ستين سنة) (لقد أعذر الله إليه) (أي في العمر). وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك". وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "معترك المنايا بين الستين إلى السبعين". وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ("أقل أمتي أبناء السبعين") ، وفي رواية: "أقل أمتي الذين يبلغون السبعين" ، وعن أبي قتادة - رضي الله عنه - قال: (كنا جلوساً عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ طلعت جنازة) (فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "مستريحٌ ، أو مستراحٌ منه" ، فقالوا: يا رسول الله ما المستريح والمستراح منه؟ ، فقال: (العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله! والعبد الفاجر يستريح منه العبادُ والبلاد! والشجر والدواب). وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (قال الله تعالى للنفس: اخرجي ، قالت: لا أخرج إلا كارهة) (قال: اخرجي وإن كرهت). وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (قال الله تعالى: ما ترددت عن شيء أنا فاعله ، ترددي عن) (قبْض) (نفس) (عبدي) (المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته) (ولا بد له منه). وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: (إن من نعم الله علي أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - توفي في بيتي ، وفي يومي وبين سحري ونحري (وكان بين يديه ركوة فيها ماء ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: "لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات"). وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: "رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يموت ، وعنده قدحٌ فيه ماء ، فيدخل يده في القدح ، ويمسح وجهه بالماء ، ثم يقول: اللهم أعني على سكرات الموت". وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: (ما رأيت أحداً أشد عليه الوجعُ من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -) (وما أغبط أحداً بهون موت (ولا أكره شدة الموت لأحد أبداً) (بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. وعن جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "تحدثوا عن بني إسرائيل ، فإنه كانت فيهم الأعاجيب ، ثم أنشأ يحدث ، قال: خرجت طائفة منهم ، فأتوا مقبرة من مقابرهم ، فقالوا: لو صلينا ركعتين ، ودعونا الله يخرج لنا بعض الأموات ، يخبرنا عن الموت ، قال: ففعلوا ، فبينما هم كذلك ، إذ أطلع رجل رأسه من قبر خلاسي بين عينيه أثر السجود ، فقال: يا هؤلاء ، ما أردتم إلي؟ ،

فوالله لقد مت منذ مائة سنة ، فما سكنت عني حرارة الموت حتى كان الآن ، فادعوا الله أن يعيدني كما كنت"..... قال الله تعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) ، وقال: (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ) ، وقال: وقال تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ) ، وقال: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ) ، وهذه الآية هي التي تلاها الصديق أبو بكر – رضي الله عنه - يوم وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما سمعها الناس كأنهم لم يسمعوها قبل.....وقال تعالى: (إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً). ومن هذا المنطلق رحت أبكي أختي (إكرام) معنوناً قصيدتي بـ (إكرام الراحلة) لأشير إلى أنها وإن رحلتْ عن العين ، فليست ترحل عن الفؤاد! ولست الذي يُفضل الغربة والبُعد عن الأهل ، ولكنها والله العظيم ظروفٌ قاهرة خارجة عن الطوع والإرادة والمقدرة. وكانت الغربة حائلاً بيني وبين أقارب لم أودعهم ، ربما كانت إكرام الأولى في سلسلة الراحلين والراحلات. وأسأل الله الرحمة والمغفرة للجميع. كما وأسأله سبحانه أن يتجاوز عن تقصيري في حقهم. إنه عز وجل العليم بما في النفوس والقلوب. وأعرف أن غربة كهذي يمكن أن يفسرها الجهلاء السفهاء من غير الراسخين في معرفتي على أنها ضيق بهم وشُحٌ بالمال عن زيارتهم! ويشهد الله أن شيئاً من ذلك لا يوجد. ولكنه قدر الله الغالب ، ولا شك أن الله صنع بي ذلك لحكمة لا يعلمها إلا هو. وإذن فكل من عرفني ، علم بكل يقين أنني أحب الوصل والواصلين ، ولكن عندما لا أستطيع إلى ذلك سبيلاً ، فإنه يجب التماس العذر ريثما تُعْلم الأسباب والمبررات!)

37 - إلا الذين آمنوا

(إنه ليُفترض فيمن يُشرفون على الإذاعة المدرسية أن يكونوا معلمين مثقفين على درجة عالية في مختلف الثقافات! ولكن للأسف ابتليتُ على مدى حياتي التدريسية بنوعيات بينها وبين الثقافة كما بين السماء والأرض. فلا وعي ولا فقه ولا فهم عند أغلبهم. وقشة قصمت ظهر بعير تحملي كل هذه العقود أن قام أحد الأبناء بقراءة القرآن الكريم قراءة عذبة لخواتيم سورة الشعراء مبتدئاً بقوله تعالى: (قل هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) ، واستمر في قراءته وأنا أسمع وأتذوق مع المستمعين والمتذوقين للقرآن من المعلمين والطلاب ، فإذا بمشرف الإذاعة يطلب منه الوقوف عند الآية: (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) ، فحزنتُ حزناً عميقاً وأنا شاعر والآية تعنيني بالطبع في جملة الشعراء ، وكنت أقول في هذا الفريق من الشعراء المتهمين اللهم لا تجعلني منهم. وأنتظر الشعراء المؤمنين لأدعو الله أن لا يجعلني منهم! فإذا بمشرف الإذاعة الجاهل يقف عند قوله تعالى: (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) ولم يكمل الاستثناء في قوله تعالى: (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا)! فأنشدت هذه القصيدة لأترجم لهذا المشهد المضحك وكأني أقول لمشرفي الإذاعة: دعوه يكمل ليعلمنا أن الشعراء صنفان: مسلمين ومجرمين ، فاسقين ومؤمنين!)

38 - ألا تستحون؟!

(دُعيَ ذلك الموفق إلى حفلة شاي عند شياب ، قلوبُهم أسودُ من الشاي وأقسى من الكؤوس. وألسنتهم أحدّ من السيوف وأمرّ من الحنظل ، مرقوا من القيم الأصيلة مروق السهم من الرمية. شبوا على الهزل وشابوا عليه. كانوا في فترة الشباب ساقطين. وها هم أولاء في المشيب هازلون. ودارت النكات حول النساء والبنات. واستحيا صاحبنا وراح يعظهم وينصحهم ويرشدهم غير راض منهم بكلام لم يقل منه حرفاً ولم يستمع منه إلى حرف وهو ابن أربعة عشر عاماً. فكيف يقبله أو يقوله أو يستمع إليه وقد جاوز به العمر الأربعين؟ ومن هنا أخذ يخوّفهم بالله ويلومهم ، ويقول لهم أليس منكم رجل رشيد؟ فراحو يوبخونه ويزجرونه كارهين منه ذكر الموت والبلى. فأحس صاحبنا بالضيم والذل والإهانة إذ إنه خسر الجولة مع هؤلاء الأراذل الأوباش الذين قد تفلتوا من الدين وشريعته ومن الحياء وانكساره ومن الشيب ووقاره فراح يعلنها: ألا تستحون؟ وفي سورة فاطر قَالَ الله تَعَالَى: (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ). أورد النووي في رياضه ، وفيصل المبارك في تطريزه للرياض: (قَالَ ابن عباس والمُحَقِّقُونَ: أَولَمْ نُعَمِّرْكُمْ سِتِّينَ سَنَةً؟ وَيُؤَيِّدُهُ الحديث الَّذِي سنذْكُرُهُ إنْ شاء الله تَعَالَى ، وقيل: معناه ثماني عَشْرَة سَنَةً ، وقيل: أرْبَعينَ سَنَةً ، قاله الحسن والكلبي ومسروق ونُقِلَ عن ابن عباس أيضاً. وَنَقَلُوا أنَّ أَهْلَ المدينَةِ كانوا إِذَا بَلَغَ أَحَدُهُمْ أربْعينَ سَنَةً تَفَرَّغَ للعِبادَةِ ، وقيل: هُوَ البُلُوغُ . وقوله تَعَالَى: (وجَاءكُمُ النَّذِيرُ) قَالَ ابن عباس والجمهور: هُوَ النَّبيّ - صلى الله عليه وسلم - ، وقيل: الشَّيبُ ، قاله عِكْرِمَةُ وابن عُيَيْنَة وغيرهما. والله أعلم . قوله تعالى: (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ). هذا توبيخ من الله تعالى لأهل النار. يقول: أَوَمَا عشتم في الدنيا أعمارًا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم. قال قتادة: اعلموا أنَّ طول العمر حجَّة ، فنعوذ بالله أنْ نُعيَّر بطول العمر قد نزلت هذه الآية: (أَوَلَم نُعَمِركُم مَّا يَتَذَكَّرُ) ، وإنَّ فيهم لابن ثماني عشرة سنة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: إذا كان يوم القيامة قيل: أين أبناء الستين؟ وهو العمر الذي قال الله تعالى فيه: (أَوَلَم نُعَمِركُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ). وعلى هذا وجب عليهم الاعتبار! وقال الشاعر الفذ في هذا: (إذا بلغ الفتى ستين عامًا فقد ذهب المسرة والفتاء). وعن قتادة: (وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ) احتج عليهم بالعمر والرسل. وقرأ عبد الرحمن بن زيد: (هَذَا نَذِيرُ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى). والشيب نذير أيضًا ؛ لأنه يأتي في سن الاكتهال ، وهو علامة لمفارقة سِنِّ الصبا سِنِّ اللهو واللعب. قال الشاعر الفحل: (رأيت الشيب من نذر المنايا لصاحبه وحسبك من نذير). وأما الأحاديث فالأول: عن أبي هريرةَ - رضي الله عنه - عن النَّبيّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «أعْذَرَ الله إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أجَلَهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً». رواه البخاري. قَالَ العلماء: معناه لَمْ يَتْرُكْ لَهُ عُذراً إِذْ أمْهَلَهُ هذِهِ المُدَّةَ. يقال: أعْذَرَ الرجُلُ إِذَا بَلَغَ الغايَةَ في العُذْرِ. والمعنى: أنَّ الله تعالى لم يُبْقِ للعبد اعتذارًا. كأن يقول: لو مُدَّ لي في الأجل لفعلت ما أُمرت به. فينبغي له الاستغفار والطاعة ، والإقبال على الآخرة بالكلية. الثاني: عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قَالَ: كَانَ عمر - رضي الله عنه - يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدرٍ فكأنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ في نفسِهِ ، فَقَالَ: لِمَ يَدْخُلُ هَذَا معنا ولَنَا أبْنَاءٌ مِثْلُهُ ؟! فَقَالَ عُمَرُ: إنَّهُ منْ حَيثُ عَلِمْتُمْ! فَدعانِي ذاتَ يَومٍ فَأَدْخَلَنِي مَعَهُمْ ، فما رَأيتُ أَنَّهُ دعاني يَومَئذٍ إلا لِيُرِيَهُمْ ، قَالَ: مَا تقُولُون في قولِ الله تعالى: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ). فَقَالَ بعضهم: أُمِرْنَا نَحْمَدُ اللهَ وَنَسْتَغْفِرُهُ إِذَا نَصرنَا وَفَتحَ عَلَيْنَا ، وَسَكتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيئاً. فَقَالَ لي: أَكَذلِكَ تقُول يَا ابنَ عباسٍ؟ فقلت: لا. قَالَ: فما تقول؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُول الله - صلى الله عليه وسلم -

أعلَمَهُ لَهُ ، قَالَ: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ) وذلك علامةُ أجَلِكَ (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً). فَقَالَ عمر - رضي الله عنه -: مَا أعلم مِنْهَا إلا مَا تقول. رواه البخاري).هـ. ورحم الله النووي وحفظ فيصل المبارك. أكتب هذه القصة أطلب إلى الشيّاب أن يستحوا من الله!)

39 - إلا تنصروه فقد نصره الله!

ثاني اثنين أفضل الرجال بعد النبي

(إن أصحاب الحق ينبغي أن يعلموا أن الحق منتصرٌ بهم وبغيرهم! إنهم عندما ينصرون الحق يحققون المجد في الدنيا وينالون شرف الآخرة! وليس يرهب الأعداء أصحاب الحق وهم جبناء! وهذا الكلام تصدق فحواه في موقف الصديق أبي بكر من نصر الحق بالغالي والنفيس! أخرج البخاري من حديث أبي إدريس الخولاني قال: سمعت أبا الدرداء يقول: كان بين أبي بكر وعمر محاورة ، فأغضب أبو بكر عمر ؛ فانصرف عنه عمر مغضباً ، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له ؛ فلم يفعل حتى أغلق الباب في وجهه ؛ فاقبل أبو بكر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم! فقال أبو الدرداء: ونحن عنده فقال رسول الله (أما صاحبكم هذا فقد غامر)! قال: وندم عمر على ما كان منه فأقبل حتى سلم ، وجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقص على رسول الله الخبر ، قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله ، لأنا كنت أظلم! فقال رسول الله: (هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلتُ: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ، فقلتم: كذبت ؛ وقال أبو بكر: صدقت)! وهنا لنا استخلاص لبعض الفوائد من هذا الموقف الجميل الجليل! أولاً: فضيلة أبي بكر رضي الله عنه ، وكونه خير خلق الله بعد رسله! ولم يحمله هذا على التكبر وازدراء من هو أقل منه عملاً للإسلام ، بل تبعه رضي الله عنه إلى بيته ، وهو يطلب منه العفو ويقول لعمر: استغفر لي حتى أغلق باب بيته في وجهه رضي الله عنهما! وثانياً: لم ينتصر أبو بكر رضي الله عنه لنفسه عندما غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمر وقال: هل أنتم تاركو لي صاحبي عدة مرات ، بل إنما زاده هذا الموقف حباً لصاحبه حتى إنه جثا على ركبتيه وهو يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم! {إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا} ثَانِيَ اثْنَيْنِ: [هنا ميز القرآن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - عن سائر الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - بالذكر الجميل والثناء الحسن ، وخاصة في حادثة الهجرة.] قال العلامة محمد بن عبد الرحمن بن قاسم – رحمة الله تعالى عليه -: "الفضيلة التي حصلتْ لأبي بكر في الهجرة لم تحصل لغيره من الصحابة بالكتاب والسنة والإجماع ، فتكون هذه الأفضلية ثابتة له دون عمر وعثمان وعلي وغيرهم من الصحابة ، قال الله تعالى: {إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا} الفضيلة في الغار ظاهرة بنص القرآن ، وقد أخرجا في الصحيحين من حديث أنس ، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، قال: «نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار ، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا ، فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما». (البخاري) قوله: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ} لا يختص بمصاحبته في الغار ، بل هو صاحبه المطلق الذي كمل في الصحبة كمالاً لم

يشركه فيه غيره ـ فصار مختصًا بالأكملية من الصحبة ، وهذا مما لا نزاع فيه بين أهل العلم بأحوال النبي ـ صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ، كما في الحديث الذي رواه البخاري ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم – وفيه يسأل: «هل أنتم تاركو لي صاحبي؟» فقد تبين أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خصه دون غيره ، مع أنه جعل غيره من أصحابه أيضًا ؛ لكنه خصه بكمال الصحبة ، ولهذا قال من قال من العلماء: إن فضائل الصديق خصائص لم يشركه فيها غيره قوله: {لا تَحْزَنْ} يدل على أن صاحبه كان مشفقًا عليه محبًا له ناصرًا له حيث حزن ، وإنما يحزن الإنسان حال الخوف على من يحبه. وكان حزنه على النبي لئلا يقتل ويذهب الإسلام ، ولهذا لما كان معه في سفر الهجرة كان يمشي أمامه تارة ووراءه تارة ، فسأله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك ، فقال: «أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون وراءك». رواه أحمد في كتاب مناقب الصحابة ، فقال: حدثنا وكيع عن نافع ، عن ابن عمر ، عن ابن أبي مُليكة ، قال: «لما هاجر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج معه أبو بكر فأخذ طريق ثور ، قال: فجعل أبو بكر يمشي خلفه ويمشي أمامه ، فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما لك؟ قال: يا رسول الله أخاف أن تؤتى من خلفك فأتأخر ، وأخاف أن تؤتى من أمامك فأتقدم ، قال: فلما انتهينا إلى الغار قال أبو بكر: يا رسول الله كما أنت حتى أيمه»! قال نافع حدثني رجل عن ابن أبي مليكة أن أبا بكر رأى جحرًا في الغار فألقمها قدمه ، وقال يا رسول الله إن كانت لسعة أو لدغة كانت بي» ، فلم يكن يرضى بمساواة النبي ؛ بل كان لا يرضى بأن يقتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يعيش ؛ بل كان يختار أن يفديه بنفسه وأهله وماله. قوله: {إِنَّ اللهَ مَعَنَا} صريح في مشاركة الصديق للنبي في هذه المعية التي اختص بها الصديق لم يشركه فيها أحد من الخلق ... وهي تدل على أنه معهم بالنصر والتأييد والإعانة على عدوهم فيكون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أخبر أن الله ينصرني وينصرك يا أبا بكر ، ويعيننا عليهم ، نصر إكرام ومحبة ، كما قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا آمنوا في الحياة الدنيا}. وهذا غاية المدح لأبي بكر ، إذ دل على أنه ممن شهد له الرسول بالإيمان المقتضي نصر الله له مع رسوله في مثل هذه الحال التي يخذل فيها عامة الخلق إلا من نصره الله؛ ولهذا قال سفيان بن عُيينة: إن الله عاتب الخلق جميعهم في نبيه إلا أبا بكر. قال الله تعالى: (وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى)! ومعلوم أن هذه الآيات نزلت في الصديق أبي بكر! إننا مهما كتبنا عن الصديق أبي بكر نثراً وشعراً ، فما وفيناه حقه!)

40 ـ إلا من تاب وآمن

(ذهب ذلك الرجل ذو الأبناء الثلاثة مع رفقة له في رحلة قصد منها الاستمتاع بالطبيعة وتغيير الجو هكذا أوْهمَ الأصحابُ صاحبهم الساذج الذي لم يكن يعرفهم على حقيقتهم. بينهما هم قصدوا الاستمتاع المحرّم بالنساء والخمر. ولمّا وصلوا بَدا له أنه يستطيع الصمود. وبعد حين انزلقتْ قدمه ، حيث كان موج الغواية أكبر من قدراته على المقاومة والاصطبار! وحظيَ بامرأة وباشرها وبكي دماً لا دموعاً. ويئس من الحياة ، وبعد العودة عمد إلى صاحب له مؤمن مسلم موحّد ، وهناك بكى في توجّع وقال لصاحبه وهو يحاوره: أنا سوف أسَلم نفسي للمحكمة

حتى يُقام عليّ حدّ الله (الرجم). فعارضه صاحبه وأقنعه بأنْ لا يفعل وأن الواجب عليه أن يستر على نفسه ويتوب ، ولكن دون فائدة. فاقترح عليه استفتاء أحد العلماء الثقات فوافق ، وعند الاتصال بالشيخ أنصت واستمع ، فإذا بجواب الشيخ هو عين رأي صاحبه: أنْ تب إلى الله واندمْ على ما بدر منك واعزمْ على أنْ لا تعود واعمل الصالحات وابك على خطيئتك ولا تسلم نفسك للمحكمة واستر على نفسك كما ستر الله عليك. فقال للشيخ: سيدي الفاضل ، أعطني الدليل من كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم - ، فقال الشيخ: أفعلُ إن شاء الله ، أما من كتاب الله فمن سورة الفرقان: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً إنها ساءت مستقراً ومُقاماً ، والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقتروا وكان بين ذلك قواماً ، والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق آثاماً ، يضاعفْ له العذاب يوم القيامة ويخلدْ فيهِ مُهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ، ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً). وأما من السُنة فالخبر الصحيح عندما جاء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم - رجل يقول: رأيت ماعزاً يفعل كذا وكذا. فقال: هلا سترت على أخيك بثوبك؟! فكان الستر اختيارَ النبي – صلى الله عليه وسلم - فتاب صاحبنا وعدل عن الذهاب إلى المحكمة. ثم داوم على الطاعات والندم والبكاء ولزوم الصالحات حتى حانت ساعة احتضاره. فطلب من أهله إحضار صديقه الموفق ليودعه فجاؤوا به. فسلم عليه وقال له: إنك أحب الناس إلي وإني راحل كما ترى ، ولذلك أرسلتُ في طلبك لوداعك. ولأقول لك: إلا من تاب وآمن .... واستمر يقرأ الآيات حتى فاضت روحه إلى باريها تبارك وتعالى. فجعلتُ هذا المقطع من الآية عُنواناً لقصيدةٍ أحكي فيها قصة الرجل الصالح مع قرناء السوء كاملة وبلا رتوش إلا ما تتطلبه ضرورة النص الفنية من لوازم وقد رُوِي عن بعض السلف أنه قال: أدركت قومًا لم يكن لهم عيوب ، فذكروا عيوب الناس ، فذكر الناس عيوبهم ؛ وأدركت قومًا كانت لهم عيوب ، فكفُّوا عن عيوب الناس فنُسِيت عيوبهم. وعن أبي بَرْزَةَ رضِي الله عنه عن النبي - صلَّى الله عليْه وسلَّم أنه قال: {يا معشر مَن أسلم بلسانه ولم يفضِ الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ، ولا تعيروهم ، ولا تتَّبعوا عوراتهم ؛ فإنه مَن يتبع عثرات أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومَن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله}. [أخرجه الترمذي ؛ من حديث ابن عمر ؛ وقال: حسن غريب ، أخرجه الطبراني ؛ من حديث ابن عباس ؛ وقال الهيثمي: رجاله ثقات]. وقال صلَّى الله عليْه وسلَّم: {مَن ستَر مسلمًا ستَرَه الله يوم القيامة} [رواه البخاري ومسلم]. وقال صلَّى الله عليْه وسلَّم: {إن الله يُدنِي المؤمن ، فيضع عليه كنفه ويستره ، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم ، أي رب ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلَك قال: سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ؛ فيُعطَى كتاب حسناته} [أخرجه البخاري ، ومسلم]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلَّى الله عليْه وسلَّم: {مَن ستَر عورةَ أخيه المسلم ، ستر الله عورته يومَ القيامة ، ومَن كشفَ عورة أخيه المسلم ، كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته} [أخرجه ابن ماجه ؛ وقال الهيتمي: إسناده حسن]. وقال صلى الله عليه وسلم: «كلّ أمّتي معافىً إلاّ المجاهرين ، وإنّ من المجاهرة أن يعمل الرّجل باللّيل عملاً ثمّ يصبح وقد ستره اللّه فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربّه ويصبح يكشف ستر اللّه عليه». ومن هنا يندب للمسلم المؤمن الموحد إذا

وقعت منه هفوة أو زلّة أن يستر على نفسه ، ويتوب بينه وبين الله عزّ وجلّ ، وأن لا يرفع أمره إلى السّلطان ، ولا يكشفه لأحد كائناً ما كان ، لأنّ هذا من إشاعة الفاحشة الّتي توعّد على فاعلها بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} ولأنّه هتك لستر الله سبحانه وتعالى ، ومجاهرة بالمعصية. قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم «اجتنبوا هذه القاذورة ، فمن ألمّ فليستتر بستر الله وليتب إلى الله ، فإنّ من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله». وعن حكم الستر علي المسلم يقول الأستاذ جمال سعيد المالك ما نصه: (أجمع العلماء على أن مَن اطَّلع على عيبٍ أو ذنبٍ أو فجورٍ لمؤمن من ذوي الهيئات أو نحوهم ممَّن لم يُعرَف بالشر والأذى ولم يشتهر بالفساد ، ولم يكن داعيًا إليه ؛ كأن يشرب مسكرًا أو يزني أو يفجر متخوفًا متخفيًا غير متهتِّك ولا مجاهر يُندَب له أن يستره ، ولا يكشفه للعامة أو الخاصة ، ولا للحاكم أو غير الحاكم. [الموسوعة الفقهية الكويتية]. كما قال صلَّى الله عليْه وسلَّم: {مَن علم من أخيه سيئة فسترها عليه، ستر الله عليه يوم القيامة} [أخرجه احمد والطبراني ، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح]).هـ.)

41 - الأب الحقيقي

(إن الأبوة ليست بمجرد الانتساب ، بل هي بذلٌ وجهدٌ وعطاءٌ ونصيحة وتضحية. أورد الخولي في قصصه الواقعية تحت عنوان (الأب الحقيقي) قصة ملخصها: (دخل الأب منزله كعادته في ساعةٍ متقدمةٍ من الليل ، وإذ به يسمع بكاء من غرفة ولده. فدخل عليه فزعاً متسائلاً عن سبب بكائه ، فردّ الابن بصعوبة: لقد مات جارنا فلان (جد صديقي أحمد) ، فقال الأب متعجباً: ماذا! مات فلان! فليمت عجوز عاش دهراً ، وهو ليس في سنك يا بني ، وتبكي عليه كل هذا البكاء ، يا لك من ولدٍ أحمق لقد أفزعتني ، ظننت أن كارثة قد حلت بالبيت ، ربما لو أني مُت لمَا بكيت عليّ هكذا! نظر الابن إلى أبيه بعيون دمّاعة كسيرة قائلاً: نعم لن أبكيك مثله! هو مَن أخذ بيدي إلى الجُمَع والجماعة في صلاة الفجر ، وهو من حذرني من رفاق السوء ، ودلني على رفقاء الصلاح والتقوى! هو من شجعني على حفظ القرآن وترديد الأذكار. أنت ماذا فعلت لي؟ كنت لي أباً بالاسم ، كنت أباً لجسمي ، أما هو فقد كان أباً لروحي ، اليوم أبكيه وسأظل أبكيه ، لأنه هو الأب الحقيقي ، ونشج بالبكاء. عندئذٍ تنبه الأب إلى غفلته ، وتأثر بكلامه واقشعر جلده ، وكادت دموعه أن تسقط ، فاحتضن ابنه وتاب إلى الله منذ ذلك اليوم ولم يترك أي صلاة في المسجد. وأحسن إلى ابنه).هـ. ومن هنا جاز القول عندنا بأن الأب الحقيقي هو الأب الذي يُربّي وينشئ ويضع التصورات الصحيحة عن القيم ومنظومة الأخلاق ، ويتابع تطبيقها في الحياة العملية. أما الأب الذي كل همّه البيت الوسيع المترف الراقي والأثاث الجميل والطعام اللذيذ الشهي والملابس الأنيقة الغالية الأثمان والمستوى المعيشي الذي يحلم به الأبناء ، أقول بأن هذا كله بدون القيم والأخلاق لا يعطي هذا النوع من الآباء وصف الأبوة الحقيقية الحانية ، التي ينبغي أن يكون عليها الآباء في الحياة. وأذكر أنني أيام كنت في عمر ذلك الصبي بطل قصيدتنا كنتُ أحرصُ الحرص كله على مصاحبة الكبار الذين منهم من يفوق سن أبي أو يقل قليلاً. وما ذاك إلا للاستفادة من خبراتهم الحياتية. وهذا أمرٌ قد عُرفتُ به ، يدركُه الكبير والصغير من أقربائي ومن الراسخين في معرفتي. وما ندمتُ يوماً على صحبة هؤلاء. وفي (منتديات الشروق) كان تعريفٌ للأبوة أقتبسه كما هو: (يعتقد الكثيرون أن دور

الأبوين ينحصر في مجرد إطعام الأولاد وكسوتهم وصرف المال لعيشهم فقط. لكنهم لا يعلمون أن الأبوة الحقة تكمن في إظهار عاطفة الآباء تجاه أبنائهم ، في حبهم وحنانهم. إضافة إلى تكوينهم وتعليمهم نفسياً ليتحملوا متاعب الحياة. قليل فقط مكن الأولياء ، ومعظمهم من طبقة المثقفين ممن يعلمون بهذه الحقيقة. كما أن البعض الآخر يجد صعوبة في تربية ابنه مما يجعله ابناً عاقاً ، عندها يلقي كل اللوم عليه لأنه غير مؤدب ، وقد لا يدرك أنه السبب في حصول ذلك فشخصية الطفل تتكون من محيطه الذي يعيش فيه ، ألا وهو الأسرة. قد لا ينجح الكثيرون ممن ضاقت بهم الدنيا في الاعتناء مادياً بأبنائهم ، لكنهم يوجهون جُل حبهم وعواطفهم تجاههم ، وهذا بالضبط ما يحتاجه الأبناء: الحب والحنان. على عكس البعض ممن يسرفون في صرف الأموال الباهظة من أجل أن يلبس أبناؤهم أجمل الثياب ويسكنوا أفخم منزل ، وبذلك تشغلهم تلك الأموال عن إظهار عواطفهم وحنانهم).هـ. ومن هنا أعجبتني قصة الفتى ، فكتبتُ تحت عنوان (الأب الحقيقي) الذي هو تعبير الابن عن صديقه الرجل الأشيب ، هذه المقالة!)

42 - الأب الغريب

(لكثرة خلافاتها مع زوجها ، كان زوجها في كل مرة يؤثر السلامة ويلوذ بالصمت ، ثم زادت الأمور بلاءً ، فاعتزل البيت أغلب الوقت. فكان الأولاد يشعرون بأن أباهم غريب عن هذا البيت وأهله. فأنشدت حكاية عنه هذه القصيدة لتكون نذيراً للزوجات اللاتي يرون سعادتهن في جعل البيت يشتعل ناراً لأتفه الأسباب. وإن العواقب وخيمة في النهاية ولا شك. والأصل أن تحل الخلافات بالسلمية والأخلاق والأدب والقيم. ولا أعتقد أن العنف كان قد حل مشكلة يوماً ما. إن العنف يقود إلى العنف. وكلما لزمت المرأة حدودها التي حددتها الشريعة ، كلما كان الأمر إلى السهولة أقرب. وكلما رفرفت على البيت رايات السلام ، كلما تفيأ الأبناء أرج الحب والعطف والاحترام المتبادل بين أفراد العائلة ودفء المشاعر وعذوبة الأحاسيس بينهم. وكلما كان ذلك كذلك كلما خرج من هذا البيت أبناء أسوياء يحملون مشعل القيم والأخلاق والمبادئ.)

43 - الابتلاء سُنة ماضية

(لا يخفى على أحدٍ أنَّ الحياة الدنيا مليئة بالمصائب والبلاء ، وأنَّ كل مؤمنٍ ومؤمنةٍ عُرضة لكثيرٍ منها وفي أي وقت: فمرة يُبتلى في نفسه ، ومرة يبتلى في ماله ، ومرة يبتلى في حبيبه. وهكذا تُقلَّب عليه الأقدار من لدن حكيم عليم خبير. وإذا لم يحمل المؤمن النظرة الصحيحة للبلاء والتصور الصواب للمحن ، فسوف يكون زلـلُه أكبر من صوابه ، ولا سيما أن بعض المصائب تطيش منها العقول لضخامتها وفُجاءَتها. ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يسير بين الناس على أرض الله ودنيا الناس وليس عليه ذنوب! يقول الله – عز وجل -: {وَلَنَبلُوَنكُم بِشَيءٍ منَ الخَوفِ وَالجُوعِ وَنَقصٍ منَ الأمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثمَراتِ وَبَشرِ الصابِرِينَ ، الذِينَ إذَا أَصَابَتهُم مصِيبَةٌ قَالُوا إنا لِلهِ وَإنا إلَيهِ راجِعونَ ، أُولَـئِكَ عَلَيهِم صَلَواتٌ من ربهِم وَرَحمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ المُهتَدُونَ}. أصيب عُروة بن الزبير - رضي الله عنه - في قدمه ؛ فقرر الأطباء قطعها ، فقطعت. فما زاد على أن قال: "اللهم لك الحمد فإن أخذت فقد أبقيت ، وإن ابتليت فقد

عافيت". فلما كان من الغد ركلتْ بغلةٌ ابنه محمداً – وهو أحب أبنائه إليه ، وكان شاباً يافعاً – فمات من حينه ، فجاءه الخبر بموته ، فما زاد على أن قال مثل ما قال في الأولى ، فلما سُئِل عن ذلك قال: "كان لي أربعة أطراف فأخذ الله مني طرفاً وأبقى لي ثلاثة ، وكان لي سبعةٌ من الولد فأخذ الله واحداً وأبقى لي ستة. وعافاني فيما مضى من حياتي ثم ابتلاني اليوم بما ترون ، أفلا أحمده على ذلك؟!" نعم ، الابتلاء محطة نتوقف فيها برهة من الزمن فإذا بأدران الذنوب والمعاصي تتحاتّ منا كما يتحات ورق الشجر ؛ إذ المؤمن يُثاب على كل ضربة عرق ، وصداع رأس ، ووجع ضرس ، وعلى الهم والغم والأذى ، وعلى النَصَب والوَصَب يصيبه ، بل وحتى الشوكة يشاكها. وفي الحديث: "ما يصيب المسلم من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ – وهما المرض والتعب – ولا همٍ ولا حزنٍ ولا غمٍ ولا أذى ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفَّر الله بها من خطاياه". [متفق عليه]. فالأجر ثابت عند الله ، على كل ألمٍ نفسي أو حسي يشعر به المؤمن إذا صبر واحتسب. وفي الأثر "أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل على أم السائب رضي الله عنها فقال لها: ما لكِ تزفزِفين؟ قالت: الحمى لا بارك الله فيها. فقال: لا تسبي الحمى فإنها تُذهِب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد". [رواه مسلم]. وعَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِحْصَنٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا. البُخَارِي ، في الأدب المفرد وابن ماجة والتِّرمِذي. قيل ليحيى بن مُعاذ رحمه الله: متى يبلغ العبد مقام الرضا؟ قال: إذا أَقام نفسه على أَربعة أُصول فيما يعامل به ربِّه ، فيقول: إن أعطيتني قَبِلْت ، وإن منعتني رضيت ، وإن تركتني عبدت ، وإن دعوتني أَجبت. والمسلم الحق هو الذي يعجّل إلى ربه ويفر إليه طالباً رضاه ، وكأن لسان حاله ومقاله: (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى). وقال معروف الكرخي: قال لي بعض أصحاب داود الطائي: إياك أن تترك العمل ، فإن ذلك الذي يقربك إلى رضا مولاك فقلت: وما ذلك العمل قال: دوام الطاعة لمولاك ، وحُرمة المسلمين ، والنصيحة لهم. (وفيات الأعيان). وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما من مسلم يصيبه أذى من مرضٍ فما سواه إلا حطَّ الله تعالى به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها" [متفق عليه]. ولقد ابتليتُ بسادن من سدنة الطواغيت ، كان قد وشى بي عند من يعبدهم من دون الله. وأعانني الله عليه وعلى من استعان بهم في إلحاق الضرر بي! وصبّرني الله وأيدني بنصر منه وتثبيت! وكتبت فيه هذه القصة مبكتاً ومحذراً.)

44 ـ الإحسان أسمى عبادة

(إن كل مساهمة في إثراء اللغة العربية تعتبر مساهمة في خدمة القرآن الكريم لأنها لغته! ومهما بذل علماء العربية في خدمة لغتهم ، فأراهم مقصرين في خدمة العربية مقارنة بأختها الإنجليزية! وإننا لنفتخر بلغتنا العربية ونسأل الله أن يغفر لنا تقصيرنا في حقها! وعسى الله أن يعينني على نظم أبياتً أخرى تسهل على الدارسين فهم اللغة العربية والإلمام بنحوها وصرفها! والإخلاص لله تعالى صنو الإحسان ، فإن المسلم يعمل العمل ، ويظن أنه على شيء وليس كذلك. قال سبحانه: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ). وإن أقواماً يأتون يومَ القيامة ، فيبدوا لهم ما لم يكونوا يحتسبون

كما قال الحق سبحانه: (وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ). وإن آخرين يَظُنّون أنهم يُحسنون صُنعاً ، وليسوا كذلك. قال سبحانه: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا). وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة. متفق عليه. فإذا لم يكن العمل خالصاً لله عز وجل كان سبباً في ضلال وانتكاس صاحبه ، وكان وبالاً على صاحبه يوم القيامة. قال سبحانه: (وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ). وقال جل جلاله: (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا) والاعتصام بالله يكون بالتمسك بحبل الله المتين ، التمسك بالقرآن العظيم. قال صلى الله عليه وسلم: (تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله). رواه مسلم. وكذا التمسك بالسنة. والقرآن يهدي للتي هي أقوم في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فواضحٌ مما تقدّم. وأما في الآخرة فلقوله صلى الله عليه وسلم: (يُقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها). رواه أحمد وأصحاب السنن. وتكرر في الكتاب العزيز وصف القرآن بأنه هُدى ورحمة للمؤمنين.)

45 - الوجه الآخر للحضارة

(إن الذي ينظر للحضارة الغربية اليوم يجدها ذات وجهين: الأول يدعي التقدم والعلم المادي البحت في شتى أمور الحياة. ونحن لا ننكر عليها ذلك بحال من الأحوال! نعم لا مُشاحة في ذلك. ولكن الوجه الثاني هو عالم الروح والأخلاق والمثل والقيم التي تسبح القلوب والضمائر في سبحاتها! تقدم الغرب في المسكن المرفه والملبس الأنيق والمركبة المتطورة ووسائل العيش السهلة. ولكن أين هو من عالم الأخلاق ومنظومة القيم؟ حتى ليمكننا القول بأن هذه الحضارة المادية جعلت عابدها والمسبح بحمدها يطير في الفضاء أسرع من الطائر ويسبح في الماء أسرع من السمك ولكنها لم تستطع أبداً أن تجعله يعيش فوق الأرض كإنسان له شقان: (جسم وروح). وصدق ثاني القطبين صاحب جاهلية القرن العشرين إذ يقول في مقدمة ذلك السفر العظيم ما نصه: (لم يقل القرآن قط إن العرب كانوا في (جاهلية) لأنهم لا يعرفون الفلك والطبيعة والكيمياء والطب. أو لأنهم لا يعرفون النظم السياسية. أو لأنهم قاصرون في ميدان الإنتاج المادي. أو لأنهم خلوا من بعض الفضائل ، أو خلواً من (القيم) على الإطلاق! ولو قال لهم ذلك لأعطاهم البديل من نفس النوع! البديل من الجهل العلمي (معلومات) علمية فلكية وطبيعية وكيميائية وطبية.. إلخ! والبديل من الجهل السياسي نظريات سياسية مدروسة مفصلة! والبديل من القصور في الإنتاج المادي توجيهات لزيادة الإنتاج أو لتحسينه! والبديل من نقص بعض الفضائل وبعض القيم مزيد من هذه وتلك مطلقة من أي ارتباط! ولكنه لم يقل لهم ذلك ، ولم يكن البديل الذي أعطاهم إياه شيئاً من ذلك كله. إنما قال لهم إنهم جاهليون لأنهم يحكمون أهواءهم ويرفضون حكم الله. وأعطاهم البديل من الجاهلية. الإسلام. فذلك هو المقياس الذي يقيس به القرآن الحياة البشرية. وهو المقابل للجاهلية ، سواء جاهلية العرب أو أية جاهلية غيرها في التاريخ. ولقد قص القرآن عن (حضارات) كثيرة في أمم خالية ، كانت - ولا شك - أكثر تحضراً من العرب حين نزل عليهم الإسلام ، ومع ذلك اعتبرها الإسلام جاهلية لأنها

لا تهتدى بهدى الله: (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟ كانوا أشد منهم قوة ، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون). فهنا يوجه القرآن العرب(الجاهليين) إلى النظر في أمر(جاهلية) سابقة ، ليروا نتائجها ويحذروها ، فلا يكذبوا بآيات الله ، بل يؤمنوا بها ويهتدوا. وإن كان لا يستخدم هنا لفظ (الجاهلية) بالتحديد فإنه يستخدم مدلولها ، ويقول للعرب الجاهليين: هؤلاء مثلكم في الجاهلية ، وإن كانوا أكثر منكم قوة وتعميراً للأرض و(حضارة) و(مدنية). فخير لكم أن تخرجوا من الجاهلية - التي تشملكم وتشمل تلك (الحضارة) المنحرفة سواء - بأن تدخلوا في هدى الله وتصبحوا مسلمين).هـ. وإذن فالذي يقرأ هذا الكلام ويمزجه بكتاب (الإسلام ومشكلات الحضارة) للقطب الأول ، يدرك أن الحضارة الغربية فعلاً ذات شق واحد وهو الجسم. ذلك الذي قد أشبعته وأتخمته بالمطعوم والمشروب من حلال أو من حرام لا يهم. حتى إنك لتقرأ على وجبات طعامهم مصطلح (حتى الإشباع!) وعلى قنينة العصير (حجم عائلي!) ، فهي حضارة التخمة ليس إلا! يقول الدكتور إبراهيم بن عبد الله الزهراني في تعليقه على أمر الجاهلية واتباعها للهوى: (إن فساد الدين يقع بالاعتقاد بالباطل ، أو بالعمل بخلاف الحق "فالأول البدع ، والثاني اتباع الهوى ، وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء ، وبهما كُذِّبت الرسل ، وعُصى الرب ، ودُخلت النار ، وحلت العقوبات" ولذلك ما ذكر الله الهوى في كتابه إلا على سبيل الذم ، وأمر بمخالفته وبين أن العبد إن لم يتبع الحق والهدى ، اتبع هواه. قال تعالى: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ} ، وقال: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}.هـ. والملاحظ أن الجانب الآخر للحضارة الغربية وهو الجانب الأخلاقي والقيمي ، لم يحظ بالاهتمام والتطوير والتغيير كما ينبغي! وإلا لم يكن هنالك محلٌ للدعوى!)

46 - الأخوة الزائفة

(بعد أن سعى عامداً في خراب بيت شقيقه ، وصاحبَ الأعداء ، وقام بصياغة الحبكة القصصية والتمثيلية الهزلية ، زاعماً أن الحقيقة يمكن أن تموت بمرور الأيام ، ولم يكن فيه مَعلمٌ من معالم الأخوة التي كان عليها عتبة وشيبة ولدا ربيعة ، فضلاً عن معالم الأخوة في التصور العقدي ، حيث يزعم هذا الجاني أنه من أهله. وقد أرسل شفعاءه ليحقق مبدأ يتوافق عليه كثير من المغالطين هو:

مـــــــن اليـــــــوم تعارفنـــــــا ونسـيـــــــى مـــــــا جـــــــرى منـــــــا

ولا كـــــــــان ، ولا صـــــــــار ولا قلـــــــــتم ، ولا قلنـــــــــا

وإذا به يبتسم لشقيقه ابتسامة البُله والسذج والمنافقين ، واهماً أن الابتسامة يمكن أن تعيد الأخوة المزعومة المفتراة المدعاة ، ونسي أو تناسى بيتاً من الشعر يصف تنافر القلوب فيقول:

ومن هنا كانت القصيدة ترجمة لهذا الموقف الأليم المزري من الشقيق الزائف الذي لا يُشرّف. يقول الأستاذ عبد الرحمن الكيلاني عن الأخوة الحقيقية ما نصه: (لا شك أن مفهوم الأخوة في الإسلام يتعلق بالإيمان نفسه وهو قائم على العلاقة في الله ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول في الحديث الصحيح: "أوثقُ عُرى الإيمانِ الحُبُّ في اللهِ والبغضُ في اللهِ". وفي الحديث الآخر: "من أحبَّ في الله وأبغضَ في الله فقدِ استكملَ الإيمانَ" لأن الحب من عمل القلب متعلق به. وكذلك البغض ، وهما - أي الحب والبغض - يجب أن يكونا عند المؤمن في الله ولله. فالمؤمن يحب ما أحب الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وهو يبغض ما أبغض الله ورسوله - عليه الصلاة والسلام -. لذلك ، فإن عمل قلب المؤمن - من حب أو بغض - إنما متعلق بأمر الله تعالى وأمر دينه! لا بهوى النفس وحظوظها ، لأن النفس في ذاتها قد تحب ما يبغض الله - والعياذ بالله – وبالعكس ، فإنها قد تبغض ما يحب الله تعالى. وهذا - بلا شك - نقص وشرخ في إيمان المرء. لذلك ، فإن مفهوم الحب في الله والبغض فيه - سبحانه - له موازين تحكمه. يقول المولى عز وجل: (والعَصْرِ. إنَّ الإنْسانَ لفي خُسْرٍ. إلاّ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ وتَواصَوْا بِالحَقِّ وتواصَوْا بالصَّبْرِ). روى الطبري في تفسيره جامع البيان بسنده عن مجاهد: "(إن الإنسان لفي خسر) إلا من آمن (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) يقول: إلاّ الذين صدقوا الله ووحدوه ، وأمروا له بالوحدانية والطاعة ، وعملوا الصالحات ، وأدوا ما لزمهم من فرائضه ، واجتنبوا ما نهاهم عنه من معاصيه ، واستثنى الذين آمنوا من الإنسان ، لأن الإنسان بمعنى الجمع ، لا بمعنى واحد". وقال الطبري: "وقوله: (وتواصوا بالحق) يقول: وأوصى بعضهم بعضا بلزوم العمل بما أنزل الله في كتابه من أمره واجتناب ما نهى عنه فيه. وقد جاء عن الحسن (وتواصوا بالحق) يعني: كتاب الله. قوله: (وتواصوا بالصبر) "يقول: وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر على العمل بطاعة الله. وهذا مروي عن قتادة بن دعامة السدوسي. قال: (وتواصوا بالصبر) الصبر: طاعة الله. وكذلك قال الحسن البصري رحمهم الله تعالى"اهـ. وجاء عن الشافعي قوله: "إن الناس أو أكثرهم في غفلة عن تدبر هذه السورة". ونقل ابن كثير في تفسيره قول الشافعي - رحمه الله -: "لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم". وقال ابن كثير عند قوله تعالى: (وتواصوا بالحق): "وهو أداء الطاعات ، وترك المحرمات. (وتواصوا بالصبر) أي على المصائب والأكدار وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر").هـ. روى الإمام مسلم بن الحجاج القشيري في صحيحه عن بردة عن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضُه بعضاً". وعنده عن النعمان بن البشير مرفوعاً: "مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالسهر والحمى". وفي رواية عنه قال صلى الله عليه وسلم: "المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينُه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسُه اشتكى كلُّه").هـ. الأخوة أكسير الحياة بعد التوحيد! ولكن أية أخوة؟ إنها الأخوة الحقيقية الصادقة! وأعتذر عن هذه الصراحة ، فلقد كان هدفي أن أبين الفارق الجوهري بين الأخوة الزائفة والأخوة الحقيقية! ويخرج علينا سفيهٌ جاهل يهرف بما لا يعرف يقول: تدعو إلى قطيعة الأخ! أي أخ يا هذا؟! إننا عندما نفتقد الأخوة الإيمانية التي كانت بين أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم (إنما المؤمنون إخوة) ، ونفتقد الأخوة العامة التي تكون في القبيلة بالانتساب العام (وإلى عاد أخاهم هوداً – وإلى ثمود أخاهم صالحاً – وإلى مدين أخاهم شعيباً) ،

ونفتقد الأخوة الجاهلية ذات القيم كانت كنت بين شيبوب وأخيه عنترة ولدي شداد بن قراد العبسي ، فكيف تقول: أخوة؟ تلك الأخوة التي لم يسمح فيها شيبوب عابد الصنم لأعداء عنترة بأن ينالوا منه في البيداء ، بل جمع رجاله وحال بين أخيه المشرك عابد الوثن وبين أعدائه وقد ظفروا به!) أية أخوةٍ إذن؟! وعن أية أخوة تتحدث يا هذا؟ الأخ الذي يلود كما تلود النساء ويكتب بقلمه ما ليس في قلبه ، ويقول بلسانه كلاماً ليس من أهله ، ويلبس ثياب أهل التقى وهو من أهل الضلال على التحقيق ، ويشارك أعداء أخيه النيل من سُمعته وهتك عرضه وخراب بيته والاستحواذ الكامل على ممتلكاته من كتاب وشريط ومقتنيات شخصية أخرى! أية أخوةٍ تلك التي يخذل الأخ أخاه في غربةٍ عدم فيها الثاني خيار الصحب والآل؟! أية أخوة بين أخ مسلم مؤمن موحد ، وأخ والله العظيم لا يستطيع التفريق ولو نظرياً بين الإله والرب؟ ولا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه! أي أخ هذا الذي لا يعرف ما الدين؟ ما العبادة؟ ما شروط لا إله إلا الله؟ لو كان من أهل العذر بالجهل لعذرناه! ولكنه من أهل التخصص وادعاء العلم! يا قوم اعقلوا ما تقولون قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله! أي أخ هذا الذي لا يعلم التوحيد ولا العقيدة ولا يريد أن يتعلم التوحيد ولا العقيدة؟

47 - الآداب في كتاب

(عندما طالعت كتاب (منهاج الصالحين في الآداب الإسلامية) للأستاذ / محمد عبد العاطي بحيري. والذي يقع في 500 صفحة ، ويُترجم لـ 60 أدباً إسلامياً ، شعرتُ بأهمية هذا الكتاب ، وشكرتُ للكاتب وترجمتُ شعوري شعراً. عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم – يقول:(فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم). ثم قال - صلى الله عليه وسلم -: (إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير).أخرجه أبو داود. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال - صلى الله عليه وسلم -:(لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها). أخرجه البخاري. وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال - صلى الله عليه وسلم -:(من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع). وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال - صلى الله عليه وسلم -: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً). أخرجه مسلم. وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم – يقول:(من سلك طريقاً يبتغي فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض ، حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه اخذ بحظ وافر). أخرجه مسلم. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما – قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم – يقول: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا). أخرجه البخاري. وعن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل

غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبه قبلت الماء ، فأنبتت الكلاء والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاء ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به). أخرجه البخاري. وعن معاوية - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (من يرد الله به خيراً يفقه في الدين). أخرجه البخاري. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقا إلى الجنة) أخرجه مسلم. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم – يقول: (نضر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع). أخرجه البخاري. وعن أبي هريره - رضي الله عنه – قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار).أخرجه الترمذي. وعن سهل بن سعد - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لعلي - رضي الله عنه - (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم). أخرجه البخاري. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال - صلى الله عليه وسلم -: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له). أخرجه مسلم. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم – قال:(بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار). أخرجه البخاري. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم – يقول: (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالماً أو متعلماً). أخرجه الترمذي. ومن هنا رحت أشيد بالأستاذ بحيري وكتابه منهاج الصالحين في الآداب الإسلامية. وليس هذا الكلام من باب الترويج للكتاب والدعاية له ، لا وربي! وإن كان يستحق ذلك كله! وأشكر كاتبه أستاذي عبد العاطي بحيري على ما قدم!)

48 - الإسلام هو الحضارة

(إن حضارة الغرب لم تُغن عنه من الله شيئاً. فلقد استطاع الغربي أن يطير في الفضاء مثل الطائر ، ويسبح في الماء مثل السمك ، ولكنه للأسف الشديد لم يستطيع أن يعيش فوق هذه الأرض كإنسان! وما ذاك إلا لتمرده على أوامر الله تعالى. فهل هذه هي الحضارة؟ ضلت أقوام ترى الحضارة في مجرد البنايات الشاهقة ، وفي الحياة الراقية ، وفي رفاهية العيش ورغد التعايش ، بعيداً عن هدي السماء. إن هُدى الله الإسلام هو الحضارة الحقيقية التي تشبع جسم الإنسان وعقله وروحه وجوارحه وأحاسيسه ومشاعره وعواطفه. وليست الحضارة الغربية المادية الإلحادية الديوثية العُهرية المعاصرة بحضارة. تلك الجاهلية التي لم تشبع في الإنسان أحاسيسه ومشاعره وعواطفه وجوارحه بقدر ما أشبعت شهواته ونزواته. ولو كان فيها خير لكانت نفعت أهلها بذلك الخير. إنما هي انحلال وفساد وفراغ وإلحاد. إن الإسلام هو الحضارة التي تجعل صاحبها ومتبعها سعيداً ومسروراً في الدنيا وفي الآخرة. ذلك أنه يُقيم الحياة بشقيها المادي العمراني والروحي الخلقي. يقول الأستاذ ألب أرسلان في تعريف الحضارة في بحث له عنها ما نصه: (الحضارة هي الجهد الذي يُقدَّم لخدمة الإنسان في كل

نواحي حياته ، أو هي التقدم في المدنية والثقافة معاً! فالثقافة هي التقدم في الأفكار النظرية مثل القانون والسياسة والاجتماع والأخلاق وغيرها ، وبالتالي يستطيع الإنسان أن يفكر تفكيرًا سليمًا. أما المدنية فهي التقدم والرقى في العلوم التي تقوم على التجربة والملاحظة مثل الطب والهندسة والزراعة ، وغيرها. وقد سميت بالمدنيَّة ؛ لأنها ترتبط بالمدينة ، وتحقق استقرار الناس فيها عن طريق امتلاك وسائل هذا الاستقرار ، فالمدنية تهدف إلى سيطرة الإنسان على الكون من حوله ، وإخضاع ظروف البيئة للإنسان. ولا بد للإنسان من الثقافة والمدنية معًا ؛ لكي يستقيم فكر الأفراد وسلوكياتهم ، وتتحسن حياتهم ، لذلك فإن الدولة التي تهتم بالتقدم المادي على حساب التقدم في مجال القيم والأخلاق ، دولة مدنيَّة ، وليست متحضرة ؛ ومن هنا فإن تقدم الدول الغربية في العصر الحديث يعد مدنية وليس حضارة ؛ لأن الغرب اهتم بالتقدم المادي على حساب القيم والمبادئ والأخلاق ، أما الإسلام الذي كرَّم الإنسان وأعلى من شأنه ، فقد جاء بحضارة سامية ، تسهم في تيسير حياة الإنسان. والحضارة الإسلامية هي ما قدمه الإسلام للمجتمع البشرى من قيم ومبادئ ، وقواعد ترفع من شأنه ، وتمكنه من التقدم في الجانب المادي ، وتيسِّر الحياة للإنسان. والفرد هو اللبنة الأولى في بناء المجتمع ، وإذا صلح صلح المجتمع كله ، وأصبح قادرًا على أن يحمل مشعل الحضارة ، ويبلغها للعالمين ، ومن أجل ذلك جاء الإسلام بتعاليم ومبادئ تُصْلِح هذا الفرد ، وتجعل حياته هادئة مستقرة ، وأعطاه من المبادئ ما يصلح كيانه وروحه وعقله وجسده. وبعد إصلاح الفرد يتوجه الإسلام بالخطاب إلى المجتمع الذي يتكون من الأفراد ، ويحثهم على الترابط والتعاون والبر والتقوى ، وعلى كل خير ؛ لتعمير هذه الأرض ، واستخراج ما بها من خيرات ، وتسخيرها لخدمة الإنسان وسعادته وقد كان آباؤنا على قدر المسئولية ، فحملوا هذه الحضارة ، وانطلقوا بها يُعلِّمون العالم كله ويُوجهونه. والحضارة الإسلامية بهذا التصور تصبح على ضروب ثلاثة. * الأول: حضارة التاريخ (حضارة الدول): وهي الحضارة التي قدمتها دولة من الدول الإسلامية لرفع شأن الإنسان وخدمته ، وعند الحديث عن حضارة الدول ينبغى أن نتحدث عن تاريخ الدولة التي قدمت هذه الحضارة ، وعن ميادين حضارتها ، مثل: الزراعة ، والصناعة ، والتعليم ، وعلاقة هذه الدولة الإسلامية بغيرها من الدول ، وما قدمته من إنجازات في هذا الميدان. * الثاني: الحضارة الإسلامية الأصيلة: وهي الحضارة التي جاء بها الإسلام لخدمة البشرية كلها ، وتشمل ما جاء به الإسلام من تعاليم في مجال: العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد ، والقضاء ، والتربية ، وغير ذلك من أمور الحياة التي تسعد الإنسان وتيسر أموره. * الثالث: الحضارة المقتبسة: وتسمى حضارة البعث والإحياء ، وهذه الحضارة كانت خدمة من المسلمين للبشرية كلها ، فقد كانت هناك حضارات وعلوم ماتت ، فأحياها المسلمون وطوروها ، وصبغوها بالجانب الأخلاقي الذي استمدوه من الإسلام ، وقد جعل هذا الأمر كُتاب العالم الغربى يقولون: إن الحضارة الإسلامية مقتبسة من الحضارات القديمة ، وهما حضارتا اليونان والرومان ، وأن العقلية العربية قدْ بدَّلت الصورة الظاهرة لكل هذه الحضارات وركبتها في أسلوب جديد ، مما جعلها تظهر بصورة مستقلة. وهذه فكرة خاطئة لا أساس لها من الصحة ، فالحضارة الإسلامية في ذاتها وجوهرها إسلامية خالصة ، وهي تختلف عن غيرها من الحضارات اختلافًا كبيرًا ، إنها حضارة قائمة بذاتها ، لأنها تنبعث من العقيدة الإسلامية ، وتستهدف تحقيق الغاية الإسلامية ، ألا وهي إعمار الكون بشريعة الله لنيل رضاه ، لا مجرد تحقيق التقدم المادي ، ولو كان ذلك على حساب الإنسان والدين كما هو الحال في حضارات أخرى ، مع الحرص على

التقدم المادي ؛ لما فيه من مصلحة الأفراد والمجتمع الإنساني كله. أما ما استفادته من الحضارات الأخرى فقد كان ميزة تحسب لها لا عليها ، إذ تعنى تفتح العقل المسلم واستعداده لتقبُّل ما لدى الآخرين ، ولكن وضعه فيما يتناسب والنظام الإسلامي الخاص بشكل متكامل ، ولا ينقص من الحضارة الإسلامية استفادتها من الحضارات السابقة ، فالتقدم والتطور يبدأ بآخر ما وصل إليه الآخرون ، ثم تضيف الحضارة الجديدة لتكمل ما بدأته الحضارات الأخرى.)هـ. ويقول الأستاذ ياسر تاج الدين حامد عن الحضارة وأسسها في الإسلام ما نصه: (الحضارة: هي جملة مظاهر الرُّقِى العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في مجتمع من المجتمعات ، أو في مجتمعات متشابهة. فهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني. كانت فترة ظهور الإسلام هي الفترة التي أعادت صياغة الإنسان في الجزيرة العربية ، وأرست لبنات حضارة جديدة أخرجت الناس من الظلمات إلى النور ، ووضعت الأساس لبناء الإنسان في الإسلام. وكان الوحى هو الذى يعيد صياغة الفرد في معتقداته وأفكاره ، ويزكيه ، وينشئ الروابط ، ويؤسس الصرح الذى يقوم عليه بناء الأمة. وصدق الله العظيم إذ يقول: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ). ولقد قامت هذه الحضارة على أسس ودعائم منها: # أولاً: عقيدة التوحيد: حيث أرسى الإسلام مفهومًا للتوحيد عندما خاطب مشركي مكة ذاكرًا لهم أنه لا يكفي ما هم عليه من توحيد الربوبية ، أي: الإقرار بأن الله هو رب كل شيء وخالق كل شيء ، بل لا بد أن يقترن هذا الإقرار بالتوجه بالعبادة لله وحده لا شريك له من مخلوقات الله. وقد ترتب على هذا الإقرار آثار إيجابية في بناء المسلمين ، لأن الناس عندما يُقبلون على الخضوع لله وحده فإنهم سيُحلون حلاله ويُحرّمون حرامه ويُجاهدون في سبيله لإرساء قيم الحق والعدل والمساواة والكرامة والعلم النافع. # ثانياً: العدل: وقد ركزت نصوص القرآن والسنة على قضية العدل ، فمن الأمثلة القرآنية قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) ، وقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ). وقوله: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا). ومن الأمثلة الواردة في السنة النبوية ؛ قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن عز وجل - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا". # العلم: حيث جاء الإسلام ليُعيد ترتيب العقل الإنساني ، ثم يُطلقه ليعرف ربَّه من خلال رسالات الأنبياء والمرسلين ثم من خلال آيات الله في الكون والنفس ، فإن أول ما نزل به الوحى على النبي محمد صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) ، وهو يختص بالعلم ، ومما يدل على اهتمام الإسلام بالعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل فداء أسرى بدر ؛ تعليم الواحد منهم عشرة من أبناء الأنصار القراءة والكتابة ، هذا وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة في الحث على تحصيل العلم النافع ، مما كان له أثر فعال في بناء الحضارة الإسلامية. # الأخلاق الفاضلة: حيث إن القرآن الكريم دستور شامل لتربية الأفراد والجماعات تربية صحيحة في شتى مجالات الحياة ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" ، فجعل إتمام مكارم الأخلاق هدفًا لبعثته. # العمل: وهو الذي يشيِّد صرح الحضارة. والإسلام يدعو للعمل بل هو دين عملي ، ونبي الإسلام كان يتعوذ من العجز والكسل. ولقد حث الإسلام الناس على عمارة الأرض في شتى الميادين انطلاقًا من قول الله عز وجل:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) ، ومن قوله: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) ، والأحاديث النبوية التي تدعو للعمل والسعي من أجل طلب الرزق وعمارة الأرض كثيرة جدًّا ، وهى التي دفعت المسلمين لإقامة حضارة عالمية جعلتهم في طليعة الشعوب الحضارية. فهذه هي أسس الحضارة الإسلامية وهي تمثِّل المبادئ الإصلاحية التي تضمَّنها الدين الإسلامي. وبتلك المبادئ أرسل الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم لتنظيم هذا العالم وإصلاحه وقيادته إلى الطريق السليم الذي يوجِّهه إلى الخير والسعادة ، وينأى به عن الشر والشقاء.)هـ. ويرحم الله صاحب هذه الفكرة صاحب الظلال الذي اختصر المدى قبل ألب أرسلان والدكتور ياسر وعرّف للإسلام بأنه هو الحضارة بشقيها المادي والروحي! وتحت عنوان: (الإسلام والعقل) يقول الأستاذ موسى ضيف الله المطرفي ما نصه بتصرف: (إن مقياس علو الإنسان وهبوطه ليس هو الإنتاج المادي والعمارة المادية للأرض: (كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا). لكنهم كانوا جاهليين ؛ لأنهم رفضوا الهدي الرباني ، وأصابهم في النهاية ما يصيب الجاهلية من الدمار ، على الرغم من كل القوة التي يملكونها ومن أثارة في الأرض وعمارتها. إنما مقياس علو الإنسان أو هبوطه هو مقياس الإنسانية الذي يتمثل في التزامه بمقتضيات الكتاب والسنة في عمارة الأرض وفق المنهج الرباني لا بأي منهج سواه. إن الإسلام يعطي العقل مكانه اللائق به بلا إفراط ولا تفريط ؛ فالرؤية الإسلامية لا تغالي في تقدير قيمة العقل ، فتقحمه فيما ليس من شؤونه ، أو تجعله المرجع الأخير لكل شيء حتى الوحي الرباني ، ولا هي تبخسه قدره ، فتمنعه من مزاولة نشاطه في ميادينه الطبيعية التي يصلح لها ويحسن العمل فيها . فتكل إلى العقل مهام خطيرة وواسعة: تكل إليه مهمة حراسة الوحي الرباني الذي تكفل الله بحفظه من كل تأويل فاسد مضل ، وحراسة أحكام الله من الانحراف بها عن مقاصد الشريعة ، وحراسة المجتمع من الآفات الاجتماعية والسياسية والفكرية والخُلقية التي تؤدي إلى تدميره ، كما تكل إليه مهمة التقدم العلمي والبحث وعمارة الأرض ، ولكنها لا تكل إليه ولا تسمح له أن يحيد عن الوحي الرباني.)هـ. ولقد جربت أمتنا كل الجاهليات التي تلبس ثياب الحضارة وبقي الإسلام. نعم ، بقي الإسلام لم يُجرّب ليرفع عن كاهلها هذه الكوارث والعثرات والعقابيل والعراقيل التي تحول بين الأمة والصدارة والحضارة والتقدم. وصدق العشماوي الشاعر الحكيم عندما قال: (وقبيح من الفتى أن يكون الرأ س في قومه ثم يصبح ذيلا!) ، وصدق من قال ينعي تقلب الأحوال: (سلامٌ على الدنيا ، سلامٌ على الورى إذا ارتفع العصفور وانخفض النسرُ!) وأذكر وكلنا يذكر أن أمتنا كانت في الصدارة من الأمم والشعوب والحضارات. وكان قادة الغرب من الرومان يكتبون لخليفتها: (خادمكم المطيع). وكان الكل يخشى بأسها وسطوتها! وما ذاك أبداً إلا لأنها كانت تقيم دين الله في أرضها ودنيا الناس ، وتدعو الآخرين إليه ، وتفتح البلاد له وتجاهد في سبيل عزته ورفعته وسيادته! ولكنها اليوم أصبحت في ذيل الأمم والشعوب والحضارات ، وهان عليها الهوان ، وفرضت عليها الذلة والمهانة! وما ذاك إلا لأنها لا تقيم دينها المنتسبة إليه بلا مصداقية تعضد ذلك الانتساب. وكان الأحرى أن تعلم أن آخر هذه الأمة لا ينصلح إلا بما انصلح به أولها (الكتاب والسنة). وإذن فالإسلام هو الحضارة! ونعني بهذه المقولة أن الإسلام يقيم شقي الحضارة: الشق التكنولوجي المادي والشق الروحي معاً! وهذا الذي تحتاجه البشرية اليوم: الشق الروحي القيمي الأخلاقي!)

49 - الإسلام أمانة

(كثير من المرتزقة اتخذوا دين الله هزواً ولعباً حيث جعلوه مغنماً. ونسوا أو تناسوا أنه أمانة بين أيديهم. ولا لوم عليهم حيث إنهم يأكلون ويشربون بالإسلام كتاباً وسُنة! وكم من منابر تلعن خطباءها الذين هم خطباء الفتنة! وكم من آيات تلعن قارئيها الذين هم قراء الأهواء والمناسبات الذين يرجّعون القرآن ، والقرآن لا يجاوز تراقيهم. وعمر الدنيا قصير! فهل فقه ذلك الهازلون؟ كتبتُ لهؤلاء الفرقاء المرتزقة الأخسّة المنتفعين من الضالين المضلين ، أبين مدى خستهم ونذالتهم ورذالتهم في الإسلام كتاباً وسُنة وسيلة للتربح والتكسب والارتزاق الرخيص المقيت! بل يتسابقون في الارتزاق ويتباكون معنا على ما آلت إليه أحوال الإسلام والمسلمين! والله يشهد إنهم لكاذبون! حيث لا يبكي على الإسلام إلا أهله الصادقون ، وليس المنتسبين إليه زوراً وبهتاناً من المنافقين الذين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ولا يعرفون من المصحف إلا رسمه! وقد استظهر أحدهم القرآن لا يسقط منه حرفاً وقد أسقط العمل به!)

50 - الإسلام ديوان العرب

(كان الشعر ديوان العرب قبل بعثة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -. حيث استأثر الشعر بتسجيل مآثر العرب ، وتدوين غزواتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم. وسار معهم في أفراحهم وأتراحهم ، في سلمهم وحربهم ، في حلهم وترحالهم ، في ظعنهم وإقامتهم. ولكن بعد البعثة النبوية ، أصبح الإسلام (كتاباً وسُنة) ديوان العرب الحقيقي. وأصبح شعر العرب منبثقاً من إسلامهم ، بعد أن كان منفلتاً من عقال التوحيد ورباط العقيدة. ومن وجهة نظري الشعر الموحد من أنجع السبل في الذود عن الإسلام والدفاع عن العقيدة والذب عن التوحيد. وفي رسالة الجرح والتعديل للأستاذ / جمال الدين القاسمي ص42 يقول: (وتحسين الكلام لدفع الضرر عن الإسلام عبادة ، والنثر والنظم للذب عن أهل الإسلام من باب الحسنى وزيادة).هـ ، وكلامنا في مقدمتنا هذي لا ينقص من أهمية الشعر ولا يقلل فوائده الجمة ولا يقلص دوره. بالعكس بعد مقالة القاسمي التي أسلفناها يكون الأمر قد اتضح. كان الشعر ديوان العرب يوم كانوا يعبدون الأصنام. فلما دانوا بالإسلام وعبدوا الواحد العلام صار ديوانهم الإسلام. ومن هذا المنطلق وجدنا القرآن يحكي الكثير عن العرب وعن عاداتهم وأخلاقهم وتقاليدهم وعباداتهم ومعبوداتهم. وكذلك حفلت دواوين السنة بالكثير من أخبار العرب وعاداتهم ومعاييرهم وأذواقهم ، وأصبح الإسلام ديوان العرب الذي يحوي أخبار وعادات وتقاليد العرب على الوجه الصحيح الذي لا يتطرق إليه الكذب طرفة عين ولا أقل من ذلك. بل تطوع الإسلام مشكوراً لأن يحكم على كل هذه الأشياء ويبين الخطأ فيها من الصواب. فلا يسردها فقط كما كان الشعر يفعل في الجاهلية! بل القرآن والسنة يبينان ما يصلح لأن يقتدى به وما ينبغي اجتنابه من العادات والتقاليد العربية. وإذن فالإسلام الذي أصبح ديوان العرب قد زادهم بذلك عزاً وسُؤدداً وشرفاً. وأشيد بالإسلام الذي رفع الله به العرب رفعة لا حدود لها ونقلهم نقلة نوعية من حضيض الأرض إلى عنان السماء. وجعل الله بهذا الدين من رعاة الغنم قادة للأمم وسادة لهم! الإسلام الذي انتسب إليه كثيرون من أهل زماننا وهم لا يعيشون حقيقته ولا يدركون كنهه ولا يفقهون ماهيته! إن الإسلام في حقيقته استسلام لله بالتوحيد واستسلام لنبيه – صلى الله عليه وسلم بالمتابعة! وإلا يكن ذلك كذلك فليس ثمة إسلام بالمعنى الحقيقي ويبقى المعنى الادعائي! وفرق كبيرا جداً بينهما ، يزيد عن الفرق بين السماء والأرض بكثير!)

51 - هنيئاً لك الإسلام يا لينة!

(فتاة من بلاد الشام جاوزت عقدها الثاني بسنوات ، وكانت نصرانية ثمّ منّ الله تعالى عليها بالإسلام. وأصرت على لقاء داعية شاعر ، وراحت تسأل وتستفسر وكان يجيبها ، فألفها صاحبنا عقلية فذة متوقدة ، فدعا لها خير ونصح لها بصدق متوجهاً إلى الله تعالى بالدعاء الحار ان يثبتها على الحق. وناشدها بقراءتين: الأولى في دينها القديم الباطل من خلال تقييمه ووزنه بميزان العقيدة الإسلامية الحقة ، والثانية في دينها الجديد الحق الإسلام الحنيف. كما ناشد المحيطين بها أن يولوها اهتماما كبيراً أن يعتنوا بها ويتخذوها أختاً لهم في الله ورسوله. وسعد الداعية الشاعر بهذه المسلمة جداً. فأنشدت على لسان ذلك الرجل هذه القصة الرائية من البسيط مترنماً بتهنئتها بالإسلام وتقديم الشكر للداعية. الذي طلب إليها أن تلزم التربية المتدرجة التي تسير بالمسلم شيئاً فشيئاً ، وترتقي به في مدارج كماله بتخطيط موزون ، والمنافية للارتجال والتسرع والقفزات المحطمة. ولكي ندرك أهمية هذا العنصر من عناصر الثبات ، فلنعد إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسائل أنفسنا: ما هو مصدر ثبات صحابة النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ، إبان فترة الاضطهاد؟ كيف ثبت بلال وخباب ومصعب وآل ياسر ، وغيرهم من المستضعفين وحتى كبار الصحابة في حصار الشعب وغيره؟ هل يمكن أن يكون ثباتهم بغير تربية عميقة من مشكاة النبوة ، صقلت شخصياتهم؟ لنأخذ رجلاً صحابياً مثل خباب بن الأرت رضي الله عنه ، الذي كانت مولاته تحمي أسياخ الحديد حتى تحمر ثم تطرحه عليها عاري الظهر ، فلا يطفئها إلا ودك [أي شحم] ظهره حين يسيل عليها ، ما الذي جعله يصبر على هذا كله؟ وبلال تحت الصخرة في الرمضاء ، وسمية في الأغلال والسلاسل. وسؤال منبثق من موقف آخر في العهد المدني: من الذي ثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم في حُنين لما انهزم أكثر المسلمين؟ هل هم حديثو العهد بالإسلام ومُسلِمة الفتح الذين لم يتربوْا التربية الكافية في مدرسة النبوة والذين خرج كثير منهم طلباً للغنائم؟ كلا! إن غالب من ثبت هم أولئك الصفوة المؤمنة التي تلقت قدراً عظيماً من التربية على يد رسول الله عليه السلام ، لو لم تكن هناك تربية ، هل كان سيثبت هؤلاء؟ بالطبع ما كانوا ليثبتوا قط!)

52 - الأشقاء الأعداء

(أشقاء شاذون لا يستحقون ما تحتويه الكلمة في طياتها من معاني الإخاء والحب. أحسن إليهم أكبرهم ، وسخره الله لهم أباً دون أب ، وصدراً حانياً بعد أن لفظتهم الصدور ، وكان لهم رداء وظهرا في الغربة. وجعل هؤلاء الأشقاء الأعداء جزاء المعروف خيانة وخسة وغدراً. فسمحوا لشقيقهم بالإهانة وهو الذي أعز شأنهم بين الناس بتوفيق الله إياه لذلك الجميل العظيم وسمحوا له بالضياع الذي أعدوا له عدتهم ، وسمحوا له بذل النفس بين الأراذل ، وكادوا له كيداً ليس لعدو! فأعلنها صراحة أن هؤلاء ليسوا مني ولستُ منهم إلا في مجرد الادعاء الأجوف على الأوراق والألسن ، ورب أخ لك لم تلده أمك. إن كل مسلم لم يعدم الأخوة الحقيقية في أحبائه وأصفيائه من أهل الإيمان بالله. فأرسل ذلك الشقيق الأكبر هذه الرسالة ، يكشف فيها نوايا الأشقاء الأوباش الذين افتعلوا تمثيلية فقط يقنعون أخاهم أنهم عادوا وأنابوا ، والله يشهد

إنهم بكل ما تعنيه الكلمة لكاذبون. إذ الحقوق لم ترجع ، والأمر كما أعدوا ورتبوا. إنهم يريدون عودة جوفاء لا أخوة صادقة فيها. وفي مقال عنوانه: (الأخوة في الله) يقول كاتبه أبو سعد الأثري ما نصه: (ينزل المسلم أخاه المسلم منزلة الصاحب لديه ، فيقوم بحاجته من فضل ماله إذا احتاج ، ولا ينتظر سؤاله فإن ألجأه إلى السؤال فهو دليل على تقصيره في حق أخيه ، وإذا انحط المسلم عن هذه المرتبة فهو مقصر مذنب يحتاج إلى فحص نفسه ، وتهذيبها والتوبة إلى الله تعالى. روى أن رجلاً جاء أبي هريرة فقال: إني أريد أواخيك في الله فقال: أتدري ما حق الإخاء في الله؟ قال له: عرفني! قال: ألا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني! فقال الرجل: لم أبلغ هذه المنزلة بعد. فقال أبو هريرة رضي الله عنه: فدعك عني. وليس هذا من بنات أفكار أبي هريرة رضي الله عنه فقد وردت مجموعة من الأحاديث تؤكد هذه الحقيقة العظيمة التي مفادها أن المؤمنين بوتقة واحدة ، ليس بينها حواجز. فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ قَالَ فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ) . وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ اعْتَلَّ بَعِيرٌ لِصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ وَعِنْدَ زَيْنَبَ فَضْلُ ظَهْرٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِزَيْنَبَ: (أَعْطِيهَا بَعِيرًا فَقَالَتْ: أَنَا أُعْطِي تِلْكَ الْيَهُودِيَّةَ؟ فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهَجَرَهَا ذَا الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمَ وَبَعْضَ صَفَرٍ). وعن ابن عمر قال: (ثم لقد أتى علينا زمان أو قال حينٌ وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم ثم الآن الدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (كم من جار متعلق بجاره يوم القيامة يقول يا رب هذا أغلق بابه دوني فمنع معروفه). ثم يرتفع بعض المؤمنين الصادقين إلى مرتبة الإيثار فيقدم إخوانه على نفسه فيلحق بأولئك الأفذاذ الذين خلد ذكرهم المولى عز وجل في القرآن الكريم: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ). فيصبح من المفلحين الذين يغبطهم الشهداء والنبيون. عن يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ قَالَ: (سَمِعْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُقْطِعَ مِنْ الْبَحْرَيْنِ فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ حَتَّى تُقْطِعَ لِإِخْوَانِنَا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ مِثْلَ الَّذِي تُقْطِعُ لَنَا قَالَ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي). ومن هذا النوع من الإيثار الذي يعجز الزمان أن يأتي بمثله ، ما حصل بين المهاجرين والأنصار عندما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم بعد الهجرة. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا قَالَ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ قَالَ سُوقُ قَيْنُقَاعٍ قَالَ فَغَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فزاحمهم وبزهم في ميدانهم ، فما لبث غير قليل حتى كسب مالاً وتأهل من ماله ولم يرزأ سعداً بشيء). لقد كان عبد الرحمن عفيفاً ولكن تعجز النساء أن يلدن مثل سعد بن الربيع رضي الله عنه. هذه مرتبة مستحبة ، وليست هي واجبة أو فريضة محتمة كما كان في دين السيد المسيح الوجيه المقرب صلى الله عليه وسلم ، إذ قد روي أن أتباعه كانوا يخرجون من أموالهم ويضعونها في صندوق مشترك تصرف منه أمراؤهم على كافة أفراد الجماعة. طيب الكلام والمبسم والبشاشة في وجه الأخوة ورد السلام والفرح باللقاء! لأنه مدعاة لجلب المحبة ودوامها وفي هذا يقول المولى عز وجل: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ

حُسْنًا). ووصف عباده الصالحين أنهم طيبي الكلمة فقال عز وجل: (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنْ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ). والقول الطيب والكلام الحسن يبطل كيد الشيطان ويسد أمامه الطريق للإفساد والتفريق بين الأخوة وفي ذلك يقول تعالى: (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا). وهذا أمر من الله سبحانه وتعالى يفيد وجوب طيب الكلام وحسنه واختيار أفضل العبارات أوضحها في التعبير عن المقصود وإدخال السرور على قلب أخيك كل ذلك يدخل في مفهوم طيب الكلام ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ). ومن طيب الكلام أن يدعو أخاه بأحسن أسمائه ، وأحبها على قلبه يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (ثلاث يصفين لك ود أخيك تسلم عليه إذا لقيته وتوسع له في المجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه). والمبسم والبشاشة في وجه الأخوة من موجبات الأخوة الإيمانية وكذلك هو من وسائل كسب القلوب ، لأن الوجه عبارة عن المرآة التي تعكس ما هو موجود في داخل أعماق الإنسان ، فإذا كان الوجه طليقاً بشوشاً كان موحياً بالبشْر والمحبة في نفس المقابل ، أما عن كان عبوساً مظلماً فلا شكَ أنه يوحي في قلب المقابل بالضيق والاشمئزاز وعدم الانشراح ، فعلى الإخوة أن يطلقوا وجوههم فيما بينهم وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا تَحْقِرَنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ).هـ.

53 - الأصيل

(كثيراً ما تمر حوادث شتى ، هائلة الوقع عظيمة الأثر على نفسي وعواطفي ومشاعري وأحاسيسي. ومع هذا فلم أكتب فيها بيتاً واحداً من الشعر. ولا أتعجب لهذا الأمر لعلمي بحقيقة نفسي وظروف كتابة الشعر معي. ولكن الأصحاب والأهل والمعارف أحياناً يكيلون اللوم والعتاب قائلين: لماذا لم تكتب في مناسبة كذا؟ كيف لا تكتب عن كذا؟ أما كان أحرى بك أن تنشد في كذا؟ وأجيب على هؤلاء جميعاً فأقول: إن الشعر يا جماعتنا ليس على هوى الشاعر الصادق. والشعر في الإسلام ليس مطية ذلولاً نركبها وقتما نريد ، وبالكيفية التي نشاء! إنما هو وسيلة للذود عن العقيدة والتوحيد والعقيدة ، وسلاح نؤدب به المتطاولين على ديننا! وإذا كان ذلك كذلك فإن الإسلام يؤيده ، ويعد صاحبه بالأجر الجزيل في الآخرة! كما كان حسان بن ثابت الأنصاري بالأمس! وفرق كبير بين الشاعر الذي يخرج شعره من قلبه ليصل إلى القلوب! حاملاً قضية جوهرية عظيمة! وبين الشاعر الصناع الذي يُقطع ويُقفي ويَنظم وقتما يريد وكيفما يشاء! وتحت عنوان: (الشعر وموقف الإسلام منه) ، يقول الدكتور محمد بن سعد الدبل ما نصه: (قديمًا قال النقاد: "أعذب الشعر أكذبه" ؛ أي: إن الشاعر متى اعتمد في صوره الشعرية على الخيال المجنَّح الغارق في المعاني غير الحقيقية كان في إلهامه الشاعري بعيدًا عن الواقعية ، مما يفرض عليه التعمية والألغاز أحيانًا في تلمّس المعنى والخروج به إلى المتلقِّي في ثوب قد يُعرِّي مِن الصحة ، ويَنعكِس الإبداع فيه إلى صورة مشوَّهة يمجُّها الذوق ويَنفر منها العقل وترفضها الفِطرة السليمة ، وتلك المآخذ ليس يورد شيئاً منها في شعره الشاعر المسلم المؤمن الموحد ؛ ذلك لأنه في نزعته الإسلامية تقيَّد بالمعاني الحقيقية التي يمنحها الإسلام كل فرد ولكل مجتمع ، فينطلق في صوره ومعانيه وأخيلَته من هدي الإسلام الذي هو معانٍ حقيقيَّة لا تَحتمِل التأويل والتخييل المُفرِط. ومِن خلال أفكار النص الشعري الإسلامي ، ومِن خلال نظرة الإسلام وتصوُّره الشامل للحياة يُمكننا القول عن موقف الإسلام

مِن الأدب بعامة ، ومِن الشعر بخاصة: إن أول ما يَحسُن ذكره في هذا المقام أن نقف على شيء مِن النُّظُم والعادات والتقاليد والأعراف التي كانت سائدةً إبّان العهد الجاهلي لتَّتضح الرؤية في تحديد موقف الإسلام مِن الأدب عامة ومِن الشِّعر خاصة. وإذا كنا بصدد الكلام عن موقف الإسلام مِن الأدب بعامة وموقفه من الشعر بخاصة ، فإن هنالك عادات ونظُمًا وتقاليد وأعرافًا وأخلاقًا درَج عليها العرب في جاهليتهم ، وجاء الإسلام فأقرَّ مِن هذا كله ما هو وثيق الصلة بتشريعاته وَفق كتاب الله وسنَّة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم. فمِن العادات التي درج عليها الجاهليون: عادات في الزواج ، وعادات في المِهَن والصناعات ، إلى جانب التمرُّس بأخلاق إيجابيَّة وأخرى سلبيَّة. فمِن الأخلاق الحميدة: عزَّة النفس ، كرْه الذلّ ، بغْض الظلم ، الترفُّع عن أخذ الديَة ، إكرام الضيف ، حبُّ السلام ، حفظ حقوق الجار. ومن الأخلاق السيئة التي تفشَّت في المجتمع الجاهلي: لهْو الشباب ، فسوق الشوّاب ، ابتذال المرأة صغيرة وكبيرة مُعاقَرة الخمر ، لعب القمار ، الدعوة إلى الثأر ، تأريث العداوات. وقد خالَج هذه الأخلاقَ ألوانٌ من المحامد والفضائل ؛ كصفاء النفس ، والإيمان بالله – تعالى ـ وإكرام المرأة للرجل ، وإكرام الرجل للمرأة ، التأثر بالحِكم الصادقة وحب المشورة ، والحلم والأناة. وحين جاء الإسلام أقرَّ مِن هذه القيم ما يلي: حب السلام ، الشجاعة ، الإيثار ، الكرم ، صلة الرحم ، حسن الجوار ، مساعدة الفقراء ، حسن المعاشرة ، الحلم ، الصدق ، الأمانة ، الوفاء ، الرأفة بالحيوان ، التكافل الاجتماعي ، مقْت الظلم ، حقوق المرأة ، الحقوق الزوجية ، برُّ الوالدين ، ثم ختم هذه القيم الرفيعة والمثل العليا بقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). وهذا يعني ـ بالضرورة ـ أن الأدب الإسلامي بمصدريه النثر والشعر ، قد اتخذ من هذه القيم مادته التي ينزع عنها في معالجة الأدواء التي يشكو منها الفرد والجماعة على حدٍّ سواء. وعلى الرغم مِن أن نُقَّاد الأدب قد نادوا بتأثير العقل والعاطفة والخيال على العطاء الأدبي ، فإن الإسلام في نظرته إلى الأدب قد وسَّع دائرة النظرة عند النقاد فسَمَا بالعقل ، وسما بالعاطفة ، ولم يَحجب الرؤية الأدبية مِن خلال الخيال الشاعري ، ولكنه عمل على تهذيب العواطف والارتفاع بخيال الأديب عن سفاسف الأمور ؛ حتى لا يطغى جانب العاطفة على جانب العقل ، فلكلٍّ منهما أثره وجدواه في جودة الأدب ورفعته ، وقيمه الفنية. وقد تحدث الإسلام عن المَعين الأول للأدب والقيَم الإنسانية كلها ، ذلك المعين هو (العقل) ؛ فقد جعل له الإسلام مزية تَفوق أرقام الحساب ، ودلالات اللفظ اليسير ، قبل الرجوع في تأييد هذه المزية إلى المناقشات والمذاهب التي قد تَختلِف فيها الآراء. وتلك المزية هي: التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة ، وأمر التبعة والتكليف. ففي كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو ضمنية إلى العقل أو إلى التمييز ، ولكنها تأتي عرضًا غير مقصودة ، وقد يلمَح فيها القارئ ـ أحيانًا ـ شيئًا مِن الزراية بالعقل أو التحذير منه ؛ لأنها منزلة العقائد ، وباب مِن أبواب الدعوى والإنكار. ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه ، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة مقتضبة في سياق الآية ، بل تأتي في كل موضع مِن مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة وتتكرَّر في كل معرض مِن معارض الأمر والنهي التي يُحثُّ فيها المؤمن على تحكيم عقله ، أو يُلام فيها المُنكر على إهمال عقله وقَبول الحَجرِ عليه ، ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد مِن معانيه التي يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة ، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها. وتتعمَّد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته ، فلا يَنحصِر خطاب

العقل في العقل الوازع ، ولا في العقل المُدرك ، ولا في العقل الذي يُناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح ، بل يعمُّ الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنساني مِن خاصة أو وظيفة. فالعقل - في مدلول لفظه العام - ملَكة يُناط بها الوازع الأخلاقي أو المنع مِن المحظور والمنكور ، ومِن هنا كان اشتقاقه مِن مادة "العقل" التي يؤخذ منها العقال ، وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية أن تتوارَد في اللغات الإنسانية الكبرى التي يتكلم بها مئات الملايين مِن البشر. وهذا يعني أن الأدب فنٌّ جميل قوامه العقل والعاطفة معًا ، فلا يَحسن أن يَطغى جانب أحدهما على الآخَر).هـ. يمكن أن لا يستعصي على الشاعر المحترف المتصنع الذي يكتب يراعه ما يمليه عليه عقله وليس يكتب ما يمليه عليه قلبه. إن أشعاري من قلبي نبعت. إن الشعر بالنسبة لأي شاعر مسلم ، يمثل أصيله الذي لم يحن إلى شئ مثله بعد القرآن والسنة. ومن هنا رُحت أناجي أصيل شعري ببعض الأبيات ، وجعلتها سلوة الخاطر ونزهة الأشواق. حيث تخلى عني القاصي والداني ، ولم أرَ مثلَ الذين عرفتُ في الخذلان. وكم هي حزينة تلك الأبيات ومكروبة ، ذلك أنها أتت في ظروف محنة عشتها وأهلي في الغربة على أيدي متخاذلين في ثياب أصحاب. وكنت ضيفاً على هؤلاء المتخاذلين الذين لم يقوموا يوماً بواجبات الضيافة كما شرعها الله لعباده المؤمنين. يعلق الدكتور محمد راتب النابلسي على مسألة الضيافة فيقول: (إن الله سبحانه وتعالى يقول: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً). كما هي العادة ، كل باب يعقده الإمام النووي رحمه الله تعالى ، يفتتحه بالآيات الكريمة التي لها علاقةٌ بالباب ، فالآية التي تناسب إكرام الضيف قوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ). أهله: هنا بمعنى زوجته وأولاده ، ومعنى كلمة راغ: أسرع ، هل هناك معنى آخر لـ: راغ؟ كما قال عليه الصلاة والسلام: (مثل المؤمن كمثل النحلة ، لا تأكل إلا طيباً ، ولا تعطي إلا طيباً ، وإذا وقفت على شئ هش لا تخدشه ولا تكسره). عندنا ثلاثة آداب: عدم إعلام الضيف ، والسرعة في الخروج لإعداد الطعام ، وسرعة إعداد الطعام ، وتهيئة الطعام الذي يروق لك ، تطيب به نفسك. والنبي عليه الصلاة والسلام قال: (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم بأخلاقكم).هـ. والنص هنا يضرب على الوتر الذي أعني! إنه كان ينبغي عليهم باسم الأخوة الإيمانية أن يبذلوا حق ضيفهم ابتغاء وجه الله. لكنهم لم يفعلوا. وكانت هذه القصة ترجمة لما لقيته على أيديهم من البلاء!)

54 - الأطـلالُ اليمنيــة 1!

(أعجبَ ذلك العاشقُ اليمنيُ بفتاةٍ يمنيةٍ حَشيمةٍ أديبةٍ فقيرةٍ للغاية! تعيشُ في (صنعاء) وتعيش قبيلتها في (المُكَلا)! فأخبر أمه أن تذهب إلى أمها ، وتتفق معها على الخِطبة مَبدئياً ، وذلك ليعرفَ إن كانت الفتاة ترغبه زوجاً أم لا! وعادتِ الأم بالبشارة ، ولكنْ بشرطٍ واحدٍ ، وهو أن يتقدمَ للقبيلة بعد أن يوفر لها مَهرَها ويُجَهز بيتها حتى لا يرفضه القوم! فمكث على ذلك شهوراً يتلظى بحُبها ، ويحُولُ فقرُه دون الزواج منها! ثم أتى القبيلة يمنيٌ آخرُ لا يقلُ عن الأول في الأدب والخلق والدين! ولكنه زاد فرقاً واحداً ، وهو أنه غنيٌ ميسورُ الحال ، ويستطيعُ أن يُثقلها ذهباً إن أراد قومها ذلك! وإذنْ فهو جاهز للزواج بها من ليلته! فوَقعتِ الفتاة العاشقة في حَيرةٍ بين مُحب عاشق فقير وخاطب راغب ثري! وكلاهما على خلق ودين! فاختارتِ الثاني

لتثري قومَها وتنتشلهم من الفقر والعوز مُضحية بحُبها للأول! فتخيلتُ الأول يبكي على أطلال حُبها فلقد خلفته بقايا جسد وخلفها بقايا روح!)

55 - الأطلالُ اليمنية 2

(ليس للمتحابَيْن إلا الزواج! هكذا قال النبي – صلى الله عليه وسلم -. وهذا الشاب اليمني صاحب التجارة ، وهو من (عُسيلان) وتحديداً من (تمنا) ، كان قد تزوج من المرأة التي أحبها وعشقها ، وهي من (بيحان) وتحديداً من (شبوة) ، كما أخبرني راوي القصة ، وأظنه من الصادقين! ورزقه الله منها بابن سماه: (عز الدين) وبابنة سماها: (دَهماء)! وفي إحدى رحلاته التجارية عاد التجارُ المرافقون بينما لم يعد صاحبُهم! ولم تعرف امرأته (البيحانية) عنه شيئاً! والتمستِ الأخبارَ هنا وهناك دون جدوى! وأصبح هذا الزوج مجهول المصير: فلا هو حيٌ فيُزار ويعود إلى أهله! ولا هو ميت فيُترحمُ عليه! وعاشت هذه الأسرة البائسة المنكوبة أطلالَ عائل غائب ، خلّفهم أطلالَ أجسام ، وخلّفوه أطلالَ روح! على أمل اللقاء به حياً أو ميتاً!)

56 - الأعاصير المطيرة

(ابتلي ذلك المؤمن الموحّد بالأعاصير العاتية. وكان من قدر الله أن انتفع منها ، حيث أمطرت له المطر الوفير ، ورب ضارة نافعة. فسبحان من يجعل للعبد الموحّد من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً! والذكي العبقري من المؤمنين من يستثمر المنح الربانية التي تأخذ شكل المحن! وإنما هي شر في ظاهر أمرها ، وخير في حقيقتها! ذلك أنها ما كانت يوم ابتلي بها إلا لرفع الدرجات أو لمَحو الذنوب أو لهما معاً! فسبحان من إذا ابتلى فلحكمة ، وإذا عافى فلحكمة! ولا يُسأل سبحانه وتعالى عن أي فعل فعله! (لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون) ، ولله في خلقه شؤون!)

57 - الاعتراف العقيم

(نذلٌ خسيس ظل يلبس عِباءة الصديق ، ثم انكشف بعد نكران الجميل والمعروف. والأصل أنه مهما عاش إنسان في غير ثوبه ، وتكلم بلهجة غير لهجته ، ومارس أخلاقاً غير أخلاقه ، فإنه سرعان ما يعرف في زلةٍ أو هنةٍ أو لحن قول أو سقطة! ومن هنا كان هيّنا علينا اكتشافُ المنافقين الأراذل الذين يتصنعون ويداهنون! وهذا الرذيل واحد منهم ، وعند مواجهته بحقيقته اعترف بالخسة والدناوة في أقواله وأفعاله! وراح يبرر لنفسه ما قال وما فعل ، ويختلق المعاذير لما سلك من دروب التصنع والمداهنة! وكان الأحرى به أن يتوب إلى الله من صنيع المنافقين هذا ، وينأى بنفسه من أن يكون على شعبة من النفاق ، وكأنما تتلمذ على يد الملعون عبد الله بن أبي بن سلول! فأهديته هذه القصيدة أصف فيها شعوري بكل حيدةٍ وموضوعية! ولقد التقيتُ من هذا الصنف القميء الخسيس الكثير من الناس في دار غربتي! إذ الغربة تُجلي للغريب الذكي طبائع الناس بدون كثير جهدٍ ولا عناء! وكنتُ أحسن الظن في مستهل التعارف ، فلما تبين لي حقيقة من أحسن الظن بهم أخذتُ موقفاً صارماً ، وجعلته في الله تعالى! لا لنفسي ولا لهواي ولا لشيطاني!)

58 - الإعصار

(مهما كتب الكاتبون وقصّد الشعراء قصائدَهم متحدثين عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فما وفوه حقه العظيم. وهذه هي أولى قصائدي عنه (صلى الله عليه وسلم) وأنا فيها أشبه بعثته – كما يتجلى من عنوان القصيدة - بالإعصار الذى ذهب بالكفر والكافرين ، والشرك والمشركين ، والأوثان والوثنيين ، والخرافة والخرافيين إلى غير رجعة. إن البعثة في تصوري تجديد لهذا الدين العظيم (الإسلام). فلقد جدد النبي (صلى الله عليه وسلم) ملة أبيه إبراهيم ودين إخوانه الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه من لدن آدم ونوح وحتى المسيح ابن مريم – عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه –. فببعثته بُعثتْ أمة موحدة من رقدة العدم. ليس هذا فقط بل زال الشرك والكفر ، وطهرت الأرض ، وعاد إليها التوحيد الحق. تحدث شعراء كثيرون عن ميلاد النبي (صلى الله عليه وسلم)! وأتحدث عن بعثته (صلى الله عليه وسلم) ، وكلاهما حدث تاريخي هام غيّر الحياة والأحياء. غير أن البعثة أهم في وقعها من الميلاد. يقول الأستاذ الدكتور عادل بن علي الشدي تحت عنوان: (في رحاب السيرة النبوية) ما نصه: (أخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن بعثته علامة من علامات الساعة ودليل على قرب قيامها ، حيث إنه - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين ، فلا نبي بعده. وقد دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة ، ومنها حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين - يعني أصبعيه: السبابة والوسطى -». وهذا الحديث وغيره مما هو في معناه يدل على أن بعثته - صلى الله عليه وسلم - أول أشراط الساعة ، فهو خاتم النبيين وآخر المرسلين ولا نبي بعده ، وإنما يليه قيام الساعة ، كما يلي في الأصابع السبابة الوسطى ، كما ورد هذا التشبيه في الأحاديث الماضية. قال القرطبي - رحمه الله - وهو يتحدث عن أشراط الساعة: أولها النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه نبي آخر الزمان ، وقد بعث وليس بينه وبين القيامة نبي! وقال الحافظ ابن رجب - رحمه الله - وقد فسر قوله - صلى الله عليه وسلم : «بعثت أنا والساعة كهاتين» فقرن بين السبابة والوسطى ، بقرب زمانه من الساعة كقرب السبابة من الوسطى وبأن زمن بعثته تعقبه الساعة من غير تخلل نبي آخر بينه وبين ذاك النبي).هـ. يقول الأستاذ عبد الرحمن عبد الوهاب عن فقه المجد ما نصه: (يقول عبد الرحمن الكواكبي: إن المجد هو إحراز المرء مقام حب واحترام في القلوب وهو مطلب طبيعي شريف لكل إنسان لا يترفع عنه نبي أو زاهد. ولا ينحط عنه دنيء أو خامل. للمجد لذة روحية تقارب لذة العبادة عند الفانين في الله ، وتعادل لذة العلم عند العلماء ، وتربو على لذة امتلاك الأرض مع ثمرها عند الأمراء ، وتزيد على لذة مفاجأة الإثراء عند الفقراء. لذا يزاحم المجد في النفوس منزلة الحياة. والحاصل أن المجد هو المجد. محبب للنفوس لا تفتأ تسعى وراءه وترقى مراقيه ، وهو ميسر في عهد العدل لكل إنسان حسب استعداده وهمته ، وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظلم حسب الإمكان. ويستطرد الكواكبي في قضية اختيار المجد على الحياة. حيث طالما أشكل على الباحثين أي الحرصين أقوى؟ حرص الحياة أم حرص المجد؟ والحقيقة التي عوّل عليهما المتأخرون ، أن المجد مفضلٌ على الحياة عند النجباء والأحرار حمية ، وحب الحياة ممتاز على المجد عند الأسراء والأذلاء طبيعة ، وعند الجبناء والنساء ضرورة. يقول الإمام علي: من أمضى يومه في غير حق قضاه أو فرض أداه أو مجد بناه أو حمد حصله أو خير أسسه أو علم اقتبسه فقد عق يومه. وكان سعد بن عبادة يقول: اللهم هب لي حمداً ومجداً ، ولا مجد إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال ، اللهم لا يصلحني ولا أصلح إلا عليه).هـ. وأعود للبعثة النبوية!)

59 - الأعمال بالخواتيم 1

(التوبة من الذنوب هي باب الله الواسع الذي يلج منه التائبون. وجنته الوارفة الظلال التي يتنعم فيها من قبلَ الله توبتهمُ النصوح. وهي بحر ممتد دون سواحل أو شطآن. وهي رحمة مهداة ، يلوذ بها كل من ظلم نفسه وعصى ربه. وهي عالم الندم على ما فات. يلج من خلالها المذنبون ، يبكون ذنوبهم ، ويتضرعون بخشية جمة ودعاء حار صادق ، كيما يغفر الحوب ويقبل التوب. وما كان الله ليرد تائباً صادقاً. وحاشاه عز وجل أن يقنط عاصياً ، وهو الذي يقبل توبة العبد ، وإن بلغت سيئاته عدد رمال الصحراء وقطرت الماء وزبد البحر. والأعمال بالخواتيم ، وإنا لنسأل الله تعالى أن يحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأن يرزقنا حسن الخاتمة. ولقد ضلتِ النفسُ كثيراً ، ثم شاء الخالق العظيم أن تتوب! فعرفتِ الهُدى بعد أن رزحت تحت نير الجاهلية ردحاً طويلاً من الزمان. فعلمت النفسُ أنَّ العبرة بالخواتيم وأنَّ الإسلام يَجُبُّ ما قبله. وأن الله لا يؤاخذ مسلماً على قول أو فعل أو اعتقاد قاله أو فعله في جاهليته ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وندمتِ النفسُ كثيرا وعزمت على العمل الجاد. روى البخاري ومسلم والترمذي: عن علي بن أبي طالب - رضي اللَّه عنه - قال: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم: "ما منكم من أحدٍ إلا وقد كتب مقعده من النّارِ ومقعده من الجَنَّةِ. "قالوا: يا رسول اللَّه! أفلا نتكل على كتابِنا وندع العمل؟! قال: "اعملوا فكلٌّ ميسّر لما خلِق له ؛ أمّا من كان من أهل السّعادةِ فسيُيَسّر لِعمل أهل السّعادة ، وأمّا من كان من أهل الشَّقاوةِ ، فسييسّر لِعمل أهل الشّقاوة ثمّ قرأ: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى). قال البغوي: قال الخطابي: قال الله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى) وهذه الأمور في حكم الظاهر ، ومن وراء ذلك علم اللَّه عزّ وجل فيهم وهو الحكيم الخبير لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. واطلب نظيره في أمرين من الرزق المقسوم مع الأمر بالكسب ومن الأجل المضروب في العمر مع المعالجة بالطب ، فإنك تجد المغيّب فيهما علة موجبة والظاهر البادي سبباً مخيلاً! وقد اصطلح الناس خواصهم وعوامهم على أن الظاهر فيهما لا يترك بالباطن. أخذ الله الميثاق علينا ونحن في ظهر آدم عليه السلام روى الترمذي وأبو داود وأحمد ومالك عن مسلم بن يسارٍ الجهني قال: سئِل عمر بن الخطّاب - رضي اللَّه عنه - عن هذه الآية: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فقال عمر: سمعت رسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم سئل عنها ، فقال: "إنّ اللَّه خلق آدم ثمّ مسح ظهره بِيمينِهِ ، فاستخرج منه ذرية فقال: خلقْت هؤلاء للجنّةِ وبعمل أهل الجَنَّةِ يعملون ، ثمّ مسح ظهره فاستخْرج منه ذرِّية فقال: خلقت هؤلاء للنّار وبعمل أهلِ النّار يعملون" فقال رجلٌ: يا رسول اللَّه ففيم العمل؟ فقال: "إنّ اللَّه إذا خلق العبد للجنّةِ استعمله بعمل أهل الجَنَّةِ حتّى يموت على عمل من أعمال أهل الجَنَّةِ فيدخله به الجَنَّة ، وإذا خلق العبد للنّارِ استعمله بعمل أهل النّار حتّى يموت على عمل من أعمال أهل النّار فيدخله النّار". رواه البخاري ومسلم. ونسأل الله الجنة وما يقرب إليها من قول أو فعل أو عمل! ونعوذ بالله من النار ومما يقرب إليها من قول أو فعل أو عمل! ووالله إنها لقصيرة تلك الحياة: ومن عمل للجنة واستقام على طريقة الله تعالى سيموت ، ومن عمل للنار واستقام على طريقة إبليس ونهجه لعنه الله سيموت! والكل ملتقون عند الله تعالى! والظالم سيموت والمظلوم سيموت وسيلتقيان عند الله ، ويقول الله للمظلوم تقدم! ويقول للظالم: لا تتكلم! وسيُقضى بينهما بالحق والعدل والقسط!)

60 - الأعمال بالخواتيم 2

(في يوم عُرسها ، وبعد أن وضعتْ زينتها لتكون بين صويحباتها بالمنظر البديع اللائق بالمناسبة ، هناك وسط النساء بعيداً عن أعين الرجال ، وأدركتها صلاة المغرب ، وأرادت أن تتوضأ ، وإذا فعلتْ فإن المكياج والزينة والمساحيق والكريمات سوف يزيلها الماء ، فأشارتْ عليها أمها أن تجمع المغرب مع العشاء فإنها ضرورة. فقالت البُنية المحبة للصلاة المؤثرة لطاعة ربها: لا ، ليست هذه ضرورة. واستمرت على ذلك ، وذهبت وتوضأت وأسبغت وضوءها على مكارهه غير مبالية بالمكياج وما شاكله ، قائلة بلسان الحال والمقال: وعَجلتُ إليك ربي لترضى! ولم تقدّم بين يدي الله ورسوله. وبينما هي ساجدة قبضتْ روحها فكانت خاتمتها سجوداً بين يدي الله! والله حسيبها ووكيلها ، ولا نزكّي على الله أحداً. والأصل أن يحافظ المسلم على الأذكار الصحيحة رجاء أن يموت على أحدها ، فتكون ميتته ميتة حسنة يحبها الله ويأجره عليها! حتى إذا قبض العبد وقد ذكر هذه الأذكار ، قبض على عمل صالح ، ومن أجل ذلك خلصت نيات المؤمنين وصدقت مع ربهم ، رجاء أن يقبضهم الله على نية حسنة ومما يعين عليها الإكثار من الأعمال الصالحات ، فما أكثر عبدٌ من عمل صالح إلا وتوفاه الله - سبحانه وتعالى - على ذلك العمل. قال أهل العلم رحمهم الله: من صدق فراره إلى الله ، صدق قراره مع الله ، فمن صدقت توبته ورجوعه وإنابته إلى ربه ، صدق قراره ومسيره وهديه على صراط الله حتى يلقى الله – تبارك وتعالى – هذا الهم الذي أقض مضاجع المتقين من قبل ، وأرق الصالحين من عباد الله. وأورد ابن خلكان رحمه الله في وفيات الأعيان ، في ترجمة يوسف بن أيوب الحمداني ، أنه كان عبدًا صالحًا محبوبًا من الناس ، فبينما هو ذات يوم في درسه ، إذ قام رجل من الصالحين ظاهرًا ، يقال له ابن السقاء ، وكان يحفظ القرآن وعنده شيء من الفقه ، فقام ذلك الرجل يسأله مسائل يريد بها أن يسيء الأمر في حلقته ويشغب عليه وجموع الناس حوله ، فلما أكثر عليه قال يوسف بن أيوب لابن السقاء: اجلس فإني والله ، لأشم من كلامك رائحة الكفر ، وأظنك ستموت على غير مِلة الإسلام. فمضت أيام قدم فيها وفد من ملك الروم إلى الخليفة، فلما خرج الوفد عائدًا إلى القسطنطينية، تبعه ابن السقاء وذهب معه واستقر به الأمر في تلك المدينة ، فما لبث فيها أيامًا حتى تنصر – والعياذ بالله – وأعجبه ما عليه النصارى من دين ، وخرج من ملة الإسلام ، فبقي فيها وكان يحفظ القرآن ، ثم قدّر لرجل من أهل بغداد أن يذهب إلى تلك البلدة لتجارة له فوجده مريضًا على دكةٍ وفي يده مروحة يذب بها الذباب عن نفسه ، فقال له: يا ابن السقاء إني كنت أعهد أنك تحفظ القرآن فهل بقي من القرآن في صدرك شيء؟ قال: لا ، ولا آية ، إلا آية واحدة: "رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ". وأما صاحبة قصيدتنا العروس الساجدة ، فأنشدتُ أحييها وأكْبر فِعلها ومِيتتها. وإنه لمشهد عجيب كلما قصصتُه على أحدٍ استغربه واستبعده واندهش من فحواه وحبكته! وأي عروس اليوم تضع اعتباراً للصلاة إن قبل العُرس أو بعده؟! إلا من رحم الله من أخواتنا المسلمات المؤمنات الموحدات الطاهرات! إن أغلب عرائس القوم اليوم لا يُصلين ابتداءً! أما مسألة احترام الصلاة وتعظيم حُرمتها أكثر من ماكياج العُرس ، فهذه مسألة فيها نظر ولا سبيل إلى طرحها ابتداءً للمناقشة ، فضلاً عن مناقشتها! فالاحترام والأولوية للماكياج وللمساحيق! أما الصلاة فمؤجلة ربما لليوم الثاني! إذ السهرة ممتدة حتى خيوط الفجر! وعلى هذا تكون صلوات ثلاث قد ضعن! (العصر والمغرب والعشاء) بأمر من؟ وبإذن من؟ ولمصلحة من؟ وبأي مسوّغ؟ هذا تُسأل عنه العروس التي تزعم أنها مسلمة ، وتدعي أنها تُعظم شعائر الله تعالى!)

61 - الأفعى

(عندما ينفخ المال أصحابه فيصيرون كالبالونات المنفوخة التي يملأها الهواء تكون كارثة كبرى فوق رؤوس هؤلاء المساكين. وعندما يتناول معدم موحد مخلص إبرة ويثقب جدار إحدى هذه البالونات فتنفجر في التو وتدرك ساعتئذ أنها لم تكن قط شيئاً مذكوراً ولا تساوي شيئاً البتة ، بل كانت هواءً في هواء ، وأفعى قصتنا بالونة من هذه النوعية الخاوية. كان لها معي في أحد الأيام موقف نقشت جدارها على إثره بإبرة التوحيد ومنقاش العقيدة ، فأسفرت البالونة عن أفعى تتلوى ولا تهلك صدقاً إلا نفسها. وتحت عنوان: (الغرور وعواقبه) يقول الأستاذ جابر عبدالله ، ما نصه: (بعض الرجال يصيبهم الغرور ، فرغم زواجهم بزوجات حقا رائعات ، إلا أن الغرور يصيبهم فيبحث أحدهم عن أخرى ، وبعض النساء يرفضن الرجال بسبب الغرور والمقارنة ، والبعض تسوّغ له نفسه الخيانة لأنه يرى أنه لا يحصل على ما يريده من الطرف الآخر. هذه الخطيئة وهذا الانخداع هو الغرور بعينه ، فالغرور لا ينشأ إلا حيث تكون النفس الشقية موجودة ، والنفس الشقية لا تظهر إلا في بيئة مليئة بالشهوات والأهواء. والإنسان المغرور إنسان بلا وعي ، فهو لا يرى الاستحقاق إلا له ، وينظر إلى ما عند غيره ويراه حقاً يجب استرداده ، وهو لا يقر بأحقية الحياة إلا له وحده ، ويحسد غيره ويتمنى زوال النعمة عنه. كم من الناس غرّهم المنصب! وكم من الناس غرّهم المال! وكم من الناس غرّهم الحسب والنسب! وكم من الرجال غرّتهم القوة! وكم من النساء غرّر بهن الشيطان في أشكالهن وجمالهن! فهل يدرك هؤلاء أنهم في جاهلية؟ وهل يدرك هؤلاء أنهم ينتهجون نهج الشيطان حين خرج عن أمر ربه ، وقال جملة واحدة: «أنا خيرٌ منه»؟ إن الإنسان لا يدرك مغبة أقواله وأفعاله الناتجة عن كلمات يختزنها عقله الباطن ، والتي سبق أن خزنتها النفس الشقية فيه ، لا يدرك أن كلمة واحدة بها شيء من الغرور قد تلقي به في نار جهنم سبعين خريفاً ، ولا يدرك أن كلمة قالها إبليس جعلته في الدرك الأسفل ، فلقد تحدى ربه في غرور وقال لأغوينهم أجمعين ، هذه هي النفس وهذا هو الغرور الذي تتوق إليه النفس الخبيثة).هـ.)

62 - آلام فراق الأحبة!

(لقد نجحتُ في بعض القصائد التي تصور آلام الفراق وعذابات البُعد ولواعج النوى ومحن الرحيل! ولفرط إعجابي بكلماتها جداً ، قمتُ بإضافة هذه القصيدة إليها جميعاً ، لتكون المتعة بها أكثر لمُحبي لسان الضاد! وكنت قد بدأتُ في الكتابة عن فراق الأحبة من عام 1993م! وأضفتُ لها موالاً من أشعاري القديمة التي تتناول فراق الأحبة كذلك من ديواني: (ترنيمة على جدار الحب)! وحاولتُ إخراجَها للنور عِدة مرات ، ولكنني لم أفعل أبداً! بل آثرتُ الاحتفاظ بها لنفسي لأقرأها من حين إلى آخر! والحقيقة أن من فارق أحبه فإنه يتعين على من حوله أن يجبروا بخاطره! هناك عبادة مهجورة اسمها جبر الخواطر! يقول الأستاذ مهدي راسم واصفاً هذه العبادة ما نصه: (إن جبر الخواطر خلق إسلامي عظيم يدل على سمو نفس وعظمة قلب وسلامة صدر ورجاحة عقل ، يجبر المسلم فيه نفوساً كسرت وقلوباً فطرت وأجساماً أرهقت وأشخاص أرواح أحبابهم أزهقت ، فما أجمل هذه العبادة وما أعظم أثرها ، يقول الإمام سفيان الثوري: "ما رأيت عبادة يتقرب بها العبد إلي ربه مثل جبر خاطر أخيه المسلم". ومما يعطي

هذا المصطلح جمالاً أن الجبر كلمة مأخوذة من أسماء الله الحسنى وهو "الجبار" وهذا الاسم بمعناه الرائع يُطمئنُ القلبَ ويريحُ النفس فهو سُبْحَانَهُ "الذِي يَجْبُرُ الفَقرَ بِالغِنَى ، والمَرَضَ بِالصِحَّةِ ، والخَيبَةَ والفَشَلَ بالتَّوْفِيقِ والأَمَلِ ، والخَوفَ والحزنَ بالأَمنِ والاطمِئنَانِ ، فَهُوَ جَبَّارٌ مُتصِفٌ بِكَثْرَةِ جَبْرِهِ حَوَائِجَ الخَلَائِقِ". تفسير أسماء الله للزجاج (ص: 34). وجبر النفوس من الدعاء الملازم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلي الله عليه وسلم كان يقول بين السجدتين: "اللهم اغفر لي وارحمني واهدني واجبرني وارزقني. سنن الترمذي. ومما يؤسس لجبر الخواطر في القرآن الكريم: قوله تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} فكان هذا الوحي من الله سبحانه وتعالى لتثبيت قلب يوسف –عليه السلام- ولجبر خاطره ؛ لأنه ظلم وأوذي من أخوته والمظلوم يحتاج إلى جبر خاطر ، لذلك شرع لنا جبر الخواطر المنكسرة. ومثله قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أحب مكة التي ولد فيها ونشأ أُخرج منها ظلماً ، فاحتاج في هذا الموقف الصعب وهذا الفراق الأليم إلى شيء من المواساة والصبر ، فأنزل الله تعالى له قرآناً مؤكداً بقسم ؛ أن الذي فرض عليك القرآن وأرسلك رسولاً وأمرك بتبليغ شرعه سيردك إلى موطنك مكة عزيزاً منتصراً وهذا ما حصل. ومثله أيضاً قوله تعالى: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} في سورة الضحى ، وانظر لروعة العطاء المستمر في هذه الآية حتى يصل بالمسلم لحالة الرضا ، فهذه الآية رسالة إلى كل مهموم ومغموم ، وتسلية لصاحب الحاجة ، وفرج لكل من وقع ببلاء وفتنة ؛ أن الله يجبر كل قلب لجأ إليه بصدق. وقد ورد في صحيح مسلم أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تلا قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ في إبراهيمَ: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} وقال عيسى عليه السلام: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم} (فرفعَ يديهِ وقال: اللهمَّ أُمَّتي أُمَّتي وبكى. فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: يا جبريلُ! اذهب إلى محمدٍ ، – وربُّكَ أعلمُ - ، فسَلهُ ما يُبكيكَ؟ فأتاهُ جبريلُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فسَألهُ. فأخبرهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بما قالَ. وهو أعلمُ. فقال اللهُ: يا جبريلُ! اذهبْ إلى محمدٍ فقلْ: إنَّا سنُرضيكَ في أُمَّتكَ ولا نَسُوءُكَ. وعندنا نماذج كثيرة شرعها ديننا الحنيف لجبر الخواطر وتطييب النفوس ، لأجل ذلك كان من السنة تعزية أهل الميت وتسليتهم ومواساتهم وتخفيف الألم الذي أصابهم عند فقد ميّتهم. وكذلك عند مشاهدة بعض الفقراء أو اليتامى شيئاً من قسمة الميراث فمن الأفضل أن يخصص لهم من المال شيئاً يجبر خاطرهم ويسد حاجتهم حتى لا يبقى في نفوسهم شيء ، قال تعالى: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا}. وفي قوله تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ} أجمل تطييب للخاطر وأرقى صورة للتعامل قال ابن قدامه - رحمه الله -: وكان من توجيهات ربنا - سبحانه وتعالى - لنبيه -صلى الله عليه وسلم ، فكما كنت يتيماً يا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فآواك الله ، فلا تقهر اليتيم ، ولا تذله ، بل: طيب خاطره ، وأحسن إليه ، وتلطف به ، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك ، فنهى الله عن نهر السائل وتقريعه ، بل: أمر بالتلطف معه ، وتطييب خاطره ، حتى لا يذوق ذل النهر مع ذل السؤال. تفسير ابن كثير (427/9) وقد عاتب الله نبيه محمداً -صلى الله عليه وسلم - لأنه أعرض عن ابن أم مكتوم وكان أعمى عندما جاءه سائلاً مستفسراً قائلاً: علمني مما علمك الله ، وكان النبي – عليه

الصلاة والسلام ـ منشغلاً بدعوة بعض صناديد قريش ، فأعرض عنه ، فأنزل الله: (عَبَسَ وَتَوَلَّى*أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى*وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى*أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى) ، التفسير البسيط للواحدي (210/23). قال القرطبي في التفسير: فعاتبه الله على ذلك ؛ لكي لا تنكسر قلوب أهل الإيمان تفسير القرطبي (213/20). ولا شك أن كل إنسان منا قد حُفر في ذاكرته أشخاص كان لهم الدور الفاعل والعمل الدؤوب بمواقف سطرت وحفظت سواء بالقول أو الفعل أو رسالة أو فكرة أو كلمة خير جبرت نفوساً وأثلجت صدوراً ، فهذه المواقف تحفظ ولا تنسى ، كما لم ينس النبي عليه الصلاة والسلام موقف المطعم بن عدي حين أدخله في جواره يوم عودته من الطائف حزيناً أسيفاً فقال يوم أسر أسرى بدر: لو كان المطعم بن عدي حياً وكلمني في هؤلاء النتنى لأجبته فيهم! صحيح البخاري ، وكما لم ينس الإمام أحمد أبا الهيثم فكان يدعو له في كل صلاة: اللهم اغفر لأبي الهيثم... اللهم ارحم أبا الهيثم... قال ابن الإمام له: من يكون أبو الهيثم حتى تدعو له في كل صلاة ، قال: رجل لما مُدت يدي إلى العقاب وأُخرجت للسياط إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا. قال: أنا أبو الهيثم العيار اللص الطرار ، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضُربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا ، فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين. مناقب الإمام أحمد/ ابن الجوزي (450). ومن السيرة النبوية ومن جبر الخواطر أن رسول الله صلي الله عليه وسلم ما رد سائلاً قط ، بل كان يرشد الصحابة للحل ويدلهم على الطريق ويطيب خاطرهم فقد دخل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة ، فقال: يا أبا أمامة ، مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزمتني ، وديون يا رسول الله ، قال: أفلا أعلمك كلاماً إذا أنت قلته أذهب الله ـ عز وجل – همك ، وقضى عنك دينك ، قلت: بلى يا رسول الله؟ قال: قل إذا أصبحت ، وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم ، والحزن ، وأعوذ بك من العجز ، والكسل ، وأعوذ بك من الجبن ، والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين ، وقهر الرجال ، قال أبو أمامة: ففعلت ذلك ، فأذهب الله ـ عز وجل ـ همي وقضى عني ديني. سنن أبي داود! عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه: أنه لما سمع قول عبد الله بن أبي لأصحابه وكان بمعزل عن جيش المسلمين ، ولم يأبهوا لذلك الغلام ، فقال عبد الله المنافق لأصحابه: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، (أبلغ زيد عمه ، وأبلغ العم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، كلمة خطيرة جداً ، أرسل النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لعبد الله بن أبي ، جاء ، وحلف ، وجحد ، قال زيد: فصدقه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وصار اللوم على زيد ، كيف تنقل مثل هذا الكلام الخطير ، أنت غلام لا تعلم ماذا يترتب على مثل هذا الكلام) ، قال زيد: فوقع علي من الهم ما لم يقع على أحد ، فبينما أنا أسير قد خفقت برأسي من الهم ، (هذا غلام انكسر قلبه وخاطره من جراء رد قوله ، ولوم الناس له وهو صادق) ؛ إذ أتاني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعرك أذني ، وضحك في وجهي ، فما كان يسرني أني لي بها الخلد في الدنيا) وهو سبب نزول قول الله – تعالى ـ في سورة المنافقون: {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} سنن الترمذي. وعندما جاء فقراء المهاجرين مكسوري الخاطر وقالوا: يَا رَسُولَ اللهِ ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ ، قَالَ: أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ

صَدَقَةٌ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ» رواه مسلم. وحتى الأطفال كان لهم من جبر الخاطر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيب فعن أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحسن الناس خلقاً ، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير – أحسبه قال: كان فطيما ـ ، قال: فكان إذا جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرآه قال: يا أبا عمير ، ما فعل النغير ـ طائر صغير كالعصفور ـ؟ قال: فكان يلعب به) رواه مسلم. بل إنه عليه الصلاة والسلام جبر بخواطرنا نحن الذين نحبه ونشتاق إليه ونتمنى لو كنا إلى جانبه نذود عنه وننافح عن دعوته ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى الْمَقْبَرَةَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ ووَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانُكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ أَصْحابِي ، وَإِخْوَانُنَا لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ ، فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ، أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟ فَقَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ: فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ. رواه مسلم هذه المواقف وغيرها تدعونا للإحسان إلى الخلق وجبر خاطرهم ، فما أجمل أن نتقصد الشراء من بائع متجول في حر الشمس يضطر للسير على قدميه باحثاً عن رزقه مساعدة له وجبرا لخاطره ، وما أروع أن نقبل اعتذار المخطئ بحقنا وخصوصاً عندما نعلم أن خطئه غير مقصود وأن تاريخ صحبتنا معه طيب نقي ، فالصفح عنه ومسامحته تُطَيِّبُ نَفسه وتَجبرُ خاطره ، وتبادل الهدايا بين الأقارب والأصدقاء والأحباب من أجمل ما يدخل الفرحة للقلب والهناء للنفس وهي سبيل الحب وبساط الود ، وطريق الألفة ، لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: تهادوا تحابوا البخاري. والبر بأرقى صوره أن تشتري لوالديك ما يحتاجون وتفاجئهم بما يفقدون ؛ دون طلب منهم أو سؤال بل كرم منك وتبرع ، ففي هذا الفعل أجمل ما يسطر من جبر الخواطر وإدخال الفرح والسرور على قلوبهم ، كما لا ننسى صاحب الحاجة والمسكين الذي انكسر قلبه وذلت نفسه وضاق صدره ما أجمل أن نجعل له من مالنا نصيب ومن طعامنا ولو الشيء القليل ومن دعائنا ما نستطيع ، بذلك نجبر كسرهم ونطيب قلوبهم ولا نشعرهم بالنقص ، قال أحمد بن عبد الحميد الحارثي: ما رأيت أحسن خلقاً من الحسين اللؤلؤي، كان يكسو مماليكه كما يكسو نفسه. سير أعلام النبلاء (544/10). وفي هذا الزمان تشتد الحاجة إلى مواساة الناس والتخفيف عنهم وتطييب خاطرهم ؛ لأن أصحاب القلوب المنكسرة كثيرون ، نظراً لشدة الظلم الاجتماعي في هذا الزمان ، وفساد ذمم الناس واختلاف نواياهم ، ففي مجتمعاتنا ترى أن هذه معلقة لا هي زوجة ولا هي مطلقة ، وهذه أرملة ، وذاك مسكين ، وهذا يتيم ، والآخر عليه ديون وغم وهم ، وهذا لا يجد جامعة ، وذاك لا يجد وظيفة ، وهذا لا يجد زوجة ، أو لا يجد زواجاً ، وذاك مريض والآخر مبتلى... والهموم كثيرة. وتطييب الخاطر لا يحتاج إلى كثير جهد ولا كبير طاقة فربما يكفي البعض كلمة: من ذكر ، أو دعاء ، أو موعظة ، وربما يحتاج الآخر لمساعدة ، وينقص ذاك جاه ، وينتظر البعض قضاء حاجة ، ويكتفي البعض الآخر بابتسامة ، فعلينا أن نجتهد بإدخال الفرح والسرور إلى قلوب إخواننا ولا نبخل على أنفسنا ، فالصدقة والخير نفعه يعود إليك).هـ. وإذن فليس يدرك قيمة أحبابه مثل من غابوا عنه أو فقدهم! وكم كتبتُ عن الفراق ولواعجه وعذاباته! وتأتي هذه الخاطرة لتعبر عن مقدار ما يعانيه محبٌ إذا غاب عنه أحبته!)

63 - الآمال الذابلة

(رأيتُ فيما يرى النائم أنني في شيء وفير من النعمة ، وأن أملاً كان يُداعب خاطري بالأمس ، فإذا به يتحقق اليوم. فلما أصبحتُ وجدتُ واقعي الذي أعيش ، كما هو بذات المعاناة وذات الشقاء ، وأدركتُ ساعتها أنني كنت أحلُم ، فصار حُلمي ذابلاً كزهرة ذابلة ، بل ربما بقيَ في الزهرة الذابلة بقيةٌ من أريج وأثر من رائحةُ رحيق ، وأدركتُ أن حياتي مجموعةٌ من الزهور الذابلة ، تلك التي قد يبقى فيها شيء من اليُنوعة رغم الذبول ، وقد تنعدم فيها الحياة! وقلتُ لنفسي: لا تنظر إلى غيرك من طلاب الدنيا ، ولا تتمنى ما ابتلى ربُك به غيرك ، وإن قوماً لم ينافسوك في آخرتك الباقية الخالدة ، فلا يجبُ عليك أبداً أن تنافسهم في دنياهم الزائلة! وإن أمور الحياة لا تؤخذ أو تستلهمُ من الأحلام ولا المنامات ولا الرؤى! بل يسعى المرء وليس عليه إدراكُ النجاح. والتوفيق يأتي من الله تعالى ثمرة كدٍ وسعي وكفاح وجهادٍ في الحياة! ولكل مجتهدٍ نصيبٌ كما يقول العوام! فلا تكون الرؤيا أملاً ذابلاً إلا إذا كان صاحبها لا تستهويه الرؤى ابتداء! ويكاد الواقع المُعاش يفرض نفسه على صاحبه. ومن هنا فنراه يستسلم لضغط الواقع ولثقله بكل ما تعنيه الكلمة من معان!)

64 - الإمعة

(كانت تعيش في البادية تعتز بتقاليدها وأعرافها. بل وترعى أغنامها وأنعامها وإبلها. وتعبد ربها - عز وجل - ، وتصلي خمسها وتصوم شهرها. ثم ابتلاها الله بسُكنى الحاضرة ، رغم أنها وزوجها من البدو الرعاة. فإذا بها تنفتح على العالم ، وتهمل وتفرط. حيث احتفلت بأعياد ميلاد أبنائها ودعوتهم إلى اللهو والمجون والتحلل. وإمعاناً منها في التقليد احتفلت معهم بأعياد النصارى كعيد الحب. وأصبحنا نرى سُليمى - البدوية راعية الغنم في البادية بالأمس - إمعة مقلدة. وتحت عنوان: (الانبهار بالحضارة الغربية المادية) يقول الأستاذ حسن عبد الحي ما نصه: (يقول الرافعي رحمه الله: "عَلِمَ اللهُ! ما فُتِنَ المغرورين من شبابنا إلاّ ما أخذهم من هذه الحضارة ، فإنَّ لها في زينتها ورونقها أخذةً كالسحر ، فلا يميزون بين خيرها وشرها ، ولا يفرّقون بين مبادئها وعواقبها ، ثم لا يقتنون منها إلا ما يدعوهم إلى ما يميت ويصدهم عما يحيي وما يحول بينهم وبين قلوبهم ، فليس إلا المتابعة والتقليد". [الرافعي: تحت راية القرآن]. قد جُبلت النفوس على الانبهار بكلّ مستحدث جميل أخّاذ. وهذا مما لم تنهَ عنه الشرائعُ في ذاته ، وإن حذّرت من إلهائه عن وظيفتنا في تلك الحياة ، وإن وضعته (أي الانبهار) كذلك في إطاره الصحيح ، بضوابط المنهج الرباني الحاكم للأرض. ومع قيام النهضة العلمية الغربية في العصر الحديث ، وما انبنى عليها من حضارة مادّية مذهلة ، كانت بمثابة نقلة هائلة ، ومرحلة تاريخية جديدة أخضعت العالم بأسره لقوانين جديدة لم تعهدها من قبل ، مع قيام تلك النهضة: كان بدءُ صراعٍ فكري جديد بين الغرب صاحبِ الجذور الصليبية والمناهج العلمانية ، وبين الشرق الإسلامي أرضًا وجمهورًا ورُوحًا بالانتساب ، الفوضوي منهجًا وسياسة وعملاً في الواقع. ولقد كان أهمّ أهداف تلك النهضة بعد أن تحققت معالِمُها وأثمرت بعض نتائجها. تحقيق الغلبة النفسية على العالم كله ، والإسلامي خاصّة ، وإذا تحققت الغلبةُ النفسية فقد تحققت معها الهيمنةُ والسيطرة الفكرية والسياسية والاجتماعية. ثم يُقاد الدين بعد

ذلك إلى منفاه في دور العبادة طائعًا مسرورًا ، تمامًا كما أحلَّت العلمانيةُ الغربية النصرانيةَ في المنفى الكنسي. ولقد خَدع الانبهارُ بالحضارة الغربية المادّية الغربَ ورجاله قبل أن يخدعنا الغرب به! فانطلق الغربي عن قناعة بأن ما وصل إليه من تقدّم في شتى مجالات الحياة هو نهاية ما يطلب في هذه الأرض ، وهو ثمرة المنهج العلماني الرافض للوصاية الدينية على الأرض وشؤونها ، وقال قائلهم: لا حاجة للإله في عصر السوبرمان! تمامًا كما قال أصحاب الحضارات القديمة.. (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) ، لقد غرّ الغربيين حضارتُهم العلمية ، كما غرّ الأولين أبنيتُهم العظيمة وآثارُهم الكبيرة ، فاتفقت مقالتهم لَمَّا مُلئت نفوسُهم إعجابًا بأعمالهم وما وصل إليه علمهم. كان ظاهرُ إطلاعِ المسلمين على التقدّم العلمي الهائل الذي وصلت إليه أوربا هو بثّ العلم في الآفاق ، ونشر الخير للعالمين ، وباطن الأمر وحقيقته إذلال غير الغربي للغرب ، وقناعته بأن للغرب فضلاً أهّلهم لصناعة تلك الحضارة الضخمة ، ومن ثَمَّ تكون الهيمنة الفكرية وتتبعها السيطرة الحسية. واتخذت الوسائل المتنوعة لإخضاع الشعوب المسلمة للغرب فكريًّا عن طريق إعجابهم وإبهارهم بتلك الحضارة: • الاحتكاك المباشر في أثناء الاحتلال الغربي للبلاد الإسلامية: فلقد تعرضت بلادٌ إسلامية كثيرة للاحتلال الغربي منذ القرن الهجري الثاني عشر وإلى القرن الخامس عشر ، وكانت الهيمنة الفكرية غاية من غايات الاحتلال ، فعمل على اصطحاب العلماء في أثناء احتلاله في كل المجالات العلوم ، بل وبعض الآلات الصناعية المستحدثة ، كل هذا لإحداث الإعجاب والانبهار بحضارتهم ونهضتهم. فعلى سبيل المثال لما جاءت الحملةُ الفرنسية إلى مصر حملت معها من أرباب العلوم والصنائع الشيءَ الكثير ، لا لخدمة الجيش وتمهيد الدولة المصرية مسكنًا لهم فحسب ، بل لإبهار الوجهاء والعلماء بالعقل الغربي ، حتى كانوا يجمعون أصحاب العلوم والصنائع جميعًا في مكان واحد ، ويتيحون لأهل البلد الدخول عليهم ومشاهدة أعمالهم وصناعاتهم ، ويشجعون من يأتي إليهم على الحضور ثانية ويتفاعلون معهم بلا أي مقابل!).هـ.)

65 - (الأمل الفواح)

(كل إنسان له آمال وطموحات. وعظيمٌ من جد واجتهد وهو يسلك الطريق إلى تحقيق هذه الآمال وتلك الطموحات! وسفيهٌ مَن كان يفعل غير ذلك فعاش يهوى ويتمنى فقط! ولا شك أن المؤمنين لهم أكبر الآمال في أن يعز الله دينه على أيديهم المتوضئة الطاهرة. و لذا فهو أمل فواح عبق. ولقد عزمتُ على أن أسمي ديواني الجديد (الأمل الفوّاح) ، والأمر أنني قد مللتُ الكتابة عن الحزن والألم والكرب. ولعلها جولة جديدة في عالم البشارة والأمل. فما أجمل الأمل الذي يبعث على الإيجابية والتفاؤل. وهذه القصيدة هي البداية المنطقية والمشاعرية للديوان الجديد. والأمل الذي أعني هو أمل التمكين للدين في الدنيا وجنة الله تعالى في الاخرة. وليس الأمل الذي عناه النبي – صلى الله عليه وسلم بقوله: والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني. إن الأمل الذي أعني هو الأمل الذي تفوح منه رائحة التفاعل والاندماج والإيجابية. وأملنا كبير في الله. ولقد يعرقل تحقيق الآمال العريضة التي - (الأمل الفوّاح) واحد منها – الفساد والإفساد المتعمد الذي أصبح ديدن الكثير من الناس على اختلاف طبقاتهم ومكاناتهم! وعن (فساد الناس) يقول الأستاذ أبو البراء ما نصه: (إنه من المعلوم بمقتضى

النصوص ، وبالواقع المحسوس ، أن الناس يزدادون إسرافاً في الرذائل وفي ترك الفرائض ، والفضائل عاماً بعد عام ـ وأن للدين إقبالاً وإدباراً وقوة وضعفاً. فمن إقبال الدين: تفقه القبيلة بأسرها ، وتتمسك بعزائم دينها ، حتى لا يكون فيها إلا الفاسق أو الفاسقان ، فهما مقهوران ذليلان. إن تكلما قمعا. وإن من إدبار الدين: أن تجفو القبيلة بأسرها ، وتنحل عن عزائم دينها وتفسق عن أمر ربها ، ويصيبها العتو والغفلة ، حتى لا يكون فيها إلا الفقيه أو الفقيهان ، فهما مقهوران ذليلان. وإن صفوة الأمة: هم أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ. الذين هم أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً. قوم اختارهم الله لصحبة نبيه. وإقامة دينه ، ثم التابعون لهم بإحسان. الذين تلقوا العلم عنهم ، فهم من خير الناس بعدهم ، لما في الصحيحين: عن عمران بن حصين – رضي الله عنه ـ: أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، لا أدري أذكرهم مرتين أو ثلاثة ، ثم يجئ قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون ، ينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن). وظهور السمن أي من أجل غرقهم في الترف وسائر الأكل المسمّن للجسم. وفي رواية: (تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته). وهذا مما يدل على فساد الناس في آخر الزمان ، كما يشهد به الواقع المحسوس. ويدل له ما روى البخاري في صحيحه: أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (يذهب الصالحون ، الأول فالأول. ثم تبقى حُفالاً وفي رواية حُثالاً كحثالة الشعير أو التمر لا يباليهم الله تعالى باله). ومن المعلوم أنه متى ذهب الصالحون المصلحون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، فإنه يخلو الجو للفاسدين الفاسقين ، ، فيبيضون ويصفرون. ومن أشراط الساعة: وهو: أن يذهب العلم ويفيض الجهل! كما في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا). ولهذا حث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على التمسك بسنته: أي بدينه عند فساد أمته. وقال في حديث العِرباض بن سارية: (إنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً. فعليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي. تمسكوا بها. وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة. وكل بدعة ضلالة). رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان. وقال الترمذي حسن صحيح. ويدل له ما رواه ابن عباس – رضي الله عنهما ـ: أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد). رواه البيقهي والطبراني. وقد سماه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأيام الصبر. وقال: (إن من وراءكم أيام الصبر ، القابض فيهن على دينه كالقابض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين منكم ، قالوا: كيف يكون له أجر خمسين منا؟ قال: (إنكم تجدون على الحق أعواناً وهم لا يجدون). رواه الترمذي عن أبي ثعلبه الخشني. إن أكثر الناس في هذا الزمان يتسمون بالإسلام وهم منه بُعداء ، وينتحلون بأنهم من أهله وهم له أعداء ، يعادون بنيه ، ويقوضون مبانيه. لم يبق معهم منه سوى محض التسمي به ، والانتساب إليه بدون عمل به ، ولا انقياد لحكمه. وإنما اكتفى أغلبهم بالأماني والآمال دون سعي لتحقيق الأماني ، ودون عمل لجعل الآمال واقعاً محسوساً ملموساً! فترى أكثرهم لا يصلون الصلوات الخمس المفروضة ، لا يؤدون الزكاة الواجبة ، ولا يصومون رمضان ، ويستحلون الربا وشرب الخمر ، فهم في جانب ، والإسلام الصحيح في جانب آخر ، فهؤلاء أكثر الناس والله يقول: (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين). وقد قيل

(وهو قول لابن مسعود عندما نظر إلى أفواج الحجيج!): الركب كثير ، والحاج قليل. يقول بعض الناس: إن الدين إذا فسد العمل به صار آلة ضعف وانحطاط! ونحن نقول: أنه متى فسد العمل بالدين فلا دين ، كما أنها متى فسدت الصلاة فلا صلاة. ومتى فسد الصيام فلا صيام ، لكون الدين عند الإطلاق ينصرف إلى الدين الصحيح. عن العباس بن الوليد قال : حدثنا أبي قال سمعت الأوزاعي يقول: * عليك بآثار السلف وإن رفضك الناس ، وإياك وآراء الرجال ، وإن زخرفوه لك بالقول ، فإن الأمر ينجلي وأنت على طريق مستقيم *. اللهم إحدى الحسنيين. فمتى أفسد الناس الدين بترك أوامره ، وارتكاب نواهيه ، فقد خرجوا عن حده ، واستبدلوا ضده ، وكانوا بهذا الانقلاب جديرين بالضعف والانحطاط ، لأن ذنوب الجيش جند عليه ، (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). فكل ضعفٍ نزل بالمسلمين فبسبب ما ضيعوا من تعاليم الدين ، حتى التنازع والاختلاف والقتال بين المسلمين وقع بذنوبهم. فكلها ذنوب تورث الضعف والذل وحلول الفشل. ولضعف الدين عوامل عديدة تساعد على ضعف الناس منها: قول عمر بن الخطاب (أنه يفسد الإسلام ثلاثة أشياء :- الأئمة المضلون ، وزلة العالم ، وجدال المنافق بالقرآن) . وروى مسلم عن ثوبان مولى النبي أن النبي - صلى الله عليه سلم - قال: (إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين). والخطر المخوف من زلة العالم ، هو الاغترار به فيها ، ومتابعة عليها. إذ لولا التقليد والاتباع ، لما خيف على الإسلام وأهله من زلته ، وكان ابن عباس يقول: (ويل للأتباع من عثرات العالم ، وقد شبهوا زلته بغرق السفينة ، يغرق بغرقها الخلق الكثير). كما أن الأئمة المضلين: هم رؤوس الناس (الطواغيت) الذين تنكبوا الطريق المستقيم ، واستبدلوا بها شريعة القوانين ، فتبعهم الناس على ضلالهم ، ووافقوهم على فسادهم ، واستبدادهم. والناس غالباً على طرائق ملوكهم في الخير والشر ـ ومتى فسد الراعي فسدت الرعية. ومنها دنيا تقطع أعناق الناس ، حتى تجعلهم كالميتين عن مصالحهم الدينية. وعما يوجب قوتهم واستقامتهم ، والاستعداد للعمل في سبيل الله ، لأن شغفهم بلذاتهم المادية قد شغلهم عن الأمور الدينية ، فلأجل حبها صارت هي الجيش الغازي بلاد الإسلام في هذا العصر ، وكأنها الكافلة لأعداء الإسلام بالفتح والنصر بغير جموع ولا جنود ، وبغير دفاع ولا امتناع ، طبق ما روى الإمام أحمد في مسنده ، وأبو داود في سننه ، عن ثوبان : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم ، كما تداعت الأكلة على قصعتها. قالوا أمن قلة نحن يومئذ؟ قال: لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل ينزع الله مهابة عدوكم منكم ، ويسكنكم مهابتهم ، ويلقي الله في قلوبكم الوهَن. قالوا: وما الوهَن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت).هـ. وكل ما كان أصلاً فإنه يكون سبباً لدخول الضعف منه على العباد. فهذا الضعف الحاصل بالمسلمين ليس من الدين ، وإنما حصل بسبب ما ضيعوه من تعالم الدين. ثم إن الضعف والغربة في الدين لا يلزم أن تدوم ، بل قد تقع ثم تزول ، إذ هي من وصف عارض ، كالأمراض الطبيعية ، وربما صحت الأبدانَ العلل. فقد يعود الإسلام إلى قوته ، ويفيء من غربته ، كما اشتد ضعفه وغربته زمن وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى ارتدت العرب منه ، ولم يبقى مسجد يصلى فيه إلا مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، ومسجد عبد القيس بجواثي أي الإحساء. وعلى إثر هذا الضعف ، وهذه الغربة - جاهد الصحابة في الله حق جهاده ، حتى استعادوا قوة الدين ونشاطه. فقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: (بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء). رواه مسلم من حديث أبي هريرة ، ورواه الإمام أحمد ، وابن ماجة ، من حديث ابن مسعود. وفيه قالوا: يا رسول الله من الغرباء؟ قال: (النزاع

من القبائل). وفي رواية قال: (الذين يصلحون إذا فسد الناس). وفي رواية قال: (هم الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي). وقد اتخذ الناس هذا الحديث بمثابة التخدير للهمم ، والتخذيل للأمم ، بحيث يتخذونه بمثابة العُذر لهم عن القيام بما أوجب الله عليهم من الجهاد في سبيله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والنصيحة لله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم ، حتى كأن الرسول – صلى الله عليه وسلم - بزعمهم قصد بهذا الحديث الاستسلام لهذا الضعف المفاجئ للمسلمين ، ولهذه الغربة في الدين وأن هذه الغربة تقع في مكان دون مكان. وفي زمان دون زمان. وفي قوم دون قوم. فمِثلُ الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الإخبار بها كمِثلِ خريت الأسفار ، يخبر قومه بمفاوز الأخطار ، ومواضع الأخطار ، ليتأهبوا بالحزم ، وفعل أولي العزم من وسائل التعويق ، ويحترسوا بالدفاع لقطاع الطريق ، كما في صحيح مسلم من حديث ابن عمر قال: (كنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في سفر. فنزلنا منزلاً. فمنا من يصلح خِباءه ، ومنا من يصلح جشره ، ومنا من ينتضل. إذ نادى منادي رسول الله: الصلاة جامعة ، قال : فاجتمعنا ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: (إنه ما من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم عن شر ما يعلمه لهم ، وأن هذه الأمة جعل عافيتها في أولها. وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها. تجيء الفتن يرقق بعضها بعضاً (يعني الآخرة شر من الأولى). فالعاقل لا يستوحش طرق الهدى من قلة السالكين ، ولا يغتر بكثرة الهالكين التاركين للدين. فإن الله – سبحانه وتعالى - يقول: (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين). وقد ثبت في الصحيح أنها لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة). وأن الله سبحانه لا يزال يغرس لهذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته. ينفون عن الدين تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين. وأن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها. ومنها ما روى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره). فكل هذه الآثار تدل دلالة واضحة على تقلب الأحوال. وأن الدين محفوظ عن الزوال. لا يزال باقياً دائماً حتى تقوم الساعة ، فمن ظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستمرة ، فقد ظن بالله السوء. ولكن المصارعة لا تزال قائمة بين الحق والباطل ، والعاقبة للمتقين. ولنقرأ: (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض). (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم). ونسأل الله أن يعجّل للإسلام والمسلمين بنصر مبين).هـ. ألا وإن الابتلاء سُنة من سُنن الله الماضية! والأملُ موجود ، ولكن لا بد من العمل! فليكن الأمل والعمل معاً صنوان لا يفترقان. في كتاب المنطلق للأستاذ محمد أحمد الراشد قال: "يقف الداعية يؤذن في الناس ، ولكن أكثر الناس نيام ، ويرى جلد أصحاب الباطل وأهل الريبة وتفانيهم لإمرار خطتهم ، فإذا التفت رأى الأمين المسلم سادراً غافلاً ، إلا الذين رحمهم ربهم ، وقليل ما هم. إن دعوة لا يعطيها أصحابها إلا فضول أوقاتهم دعوة ميتة لا ثمرة فيها ، كما قال الأستاذ الراشد حفظه الله: (والله لا نجاح في الدعوة إن أعطيناها فضول أوقاتنا ولم ننس أنفسنا وطعامنا). وذكر عن الإمام أحمد أنه كان "إذا بلغه عن شخص صلاح أو زهد سأل عنه ، وأحب أن يعرف عن أحواله. ولم يكن بالمنعزل الهارب من الناس ولا يكون داعية اليوم إلا من يفتش عن الناس ويبحث عنهم ويرحل للقائهم ويزورهم في مجالسهم. ومن انتظر مجيء الناس إليه في بيته فإن الأيام تبقيه وحيداً ويتعلم فن التثاؤب. الإسلام اليوم لا يحتاج مزيداً من البحوث في جزيئات الفقه ، بقدر ما يحتاج إلى دعاة يتكاتفون". ويؤكد ذلك

ابن الجوزي رحمه الله فيقول: "ألست تبغي القرب منه؟ فاشتغل بدلالة عباده عليه ، فهي حالات الأنبياء - عليهم السلام - ، أما علمتَ أنهم آثروا تعليم الخلق على خلوات التعبد ، لعلمهم أن ذلك آثر عند حبيبهم؟ ونظرة في حالنا وواقع الناس من حولنا ، ندرك مدى تقصيرنا في نصرة الحق وجهد غيرنا في نصرة الباطل. ذكر الشيخ عبد الحميد البلالي في كتابه "المصفى من صفات الدعاة: عن الدكتور عبد الودود شلبي قوله: (أذكر أنني ترددت كثيراً على مركز من مراكز إعداد المبشرين في مدريد ، وفي فناء المبنى وضعوا لوحة كبيرة كتبوا عليها: (أيها المبشر الشاب نحن لا نعدك بوظيفة أو عمل أو سكن أو فراش وثير. وإننا نذكرك بأنك لن تجد في عملك التبشيري إلا التعب والمرض. كل ما نقدمه لك هو العلم والخبز والفراش الخشن في كوخ صغير. أجرك كله ستجده عند الله. إذا أدركك الموت وأنت في طريق المسيح كنت من السعداء). قال الشيخ البلالي معلقاً على ما مضى: هذا يقال لمن هم على الباطل ، وليس لعملهم مهما كثر إلا النار. ومع هذا كله فإن هذا الكلام قد حرك المئات من المبشرين من أنحاء العالم من حملة شهادات الطب والصيدلة للذهاب إلى الصحاري القاحلة ، والتي لا توجد فيها إلا الخيام والمستنقعات المليئة بالنتن والميكروبات ، والمكوث هناك السنين الطوال دون راتب ودون منصب ، ولو أراد الواحد منهم العمل بمؤهله لربح مئات الآلاف من الدولارات ، ولكنه ضحّى بكل هذا من أجل الباطل الذي يعتقد صحته. أيجوز بعد هذا أن يتذرع بعض من لم تسر الدعوة في عروقه مسرى الدم وهو متكئ على أريكته بالحديث الضعيف [روحوا القلوب ساعة فساعة]؟ "ضعفه الألباني". (متخذاً من هذا الحديث عذراً له للتخلف عن الركب؟!). والشيخ الدكتور محمد بن إسماعيل المقدم قال في كتابه الرائع "علو الهمة": (حكى لي بعض الشباب المسلمين في (ألمانيا) ، أنه منذ الصباح الباكر ينتشر دعاة فرقة (شهود يهوه) في الشوارع ، وينطلقون إلى البيوت ، ويطرقون الأبواب للدعوة إلى عقيدتهم. وحدثني أحدهم أن فتاة ألمانية منهم ، طرقت بابه في السادسة صباحاً ، فلما علم أن غرضها دعوته إلى عقيدتها ، بيّن لها أنه مسلم ، وأنه ليس في حاجة إلى أن يستمع منها. فظلت تجادله وتلح عليه ، أن يمنحها ولو دقائق (من أجل المسيح)! فلما رأى إصرارها أوصد الباب في وجهها ، ولكنها أصرت على تبليغ عقيدتها ، ووقفت تخطب أمام الباب المغلق قرابة نصف ساعة تشرح له عقيدتها ، وتغريه باعتناق دينها! ولا بد للأمل لكي يتحقق من إحن ومحن ، وعذابات وبلاءات ، وتمحيص واختبار! والحقيقة أن البلاء بهذا الاعتبار يكون نعمة لا نقمة. لأنه يتحقق الأمل به في نهاية المطاف. وعن نعمة الابتلاء يقول الأستاذ خالد سعود البليــهد ما نصه: (والواجب على العبد حين وقوع البلاء عدة أمور: (1) أن يتيقن أن هذا من عند الله فيسلم الأمر له. (2) أن يلتزم الشرع ولا يخالف أمر الله ، فلا يتسخط ولا يسب الدهر. (3) أن يتعاطى الأسباب النافعة لدفع البلاء. (4) أن يستغفر الله ويتوب إليه مما أحدث من الذنوب. ومما يؤسف له أن بعض المسلمين ممن ضعف إيمانه إذا نزل به البلاء تسخط وسب الدهر ، ولام خالقه في أفعاله ، وغابت عنه حكمة الله في قدره واغتر بحسن فعله ، فوقع في بلاء شر مما نزل به ، وارتكب جرماً عظيماً. وهناك معان ولطائف إذا تأمل فيها العبد هان عليه البلاء وصبر ، وآثر العاقبة الحسنة ، وأبصر الوعد والثواب الجزيل! أولاً: أن يعلم أن هذا البلاء مكتوب عليه ، لا محيد عن وقوعه ، واللائق به أن يتكيف مع هذا الظرف ويتعامل بما يتناسب معه. ثانياً: أن يعلم أن كثيراً من الخلق مبتلىً بنوع من البلاء ، كل بحسبه ولا يكاد يسلم أحد ، فالمصيبة عامة ، ومن نظر في مصيبة غيره هانت عليه مصيبته. ثالثاً: أن يذكر مصاب الأمة الإسلامية العظيم ،

بموت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي انقطع به الوحي ، وعمت به الفتنه ، وتفرق بها الأصحاب "كل مصيبة بعدك جللٌ يا رسول الله". رابعاً: أن يعلم ما أعد الله لمن صبر في البلاء أول وهلة من الثواب العظيم ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: (إنما الصبر عند المصيبة الأولى). " خامساً: أنه ربما ابتلاه الله بهذه المصيبة دفعاً لشر وبلاء أعظم مما ابتلاه به ، فاختار الله له المصيبة الصغرى وهذا معنى لطيف. سادساً: أنه فتح له باب عظيم من أبواب العبادة من الصبر والرجاء ، وانتظار الفرج فكل ذلك عبادة. سابعاً: أنه ربما يكون مقصراً وليس له كبير عمل ، فأراد الله أن يرفع منزلته ويكون هذا العمل من أرجى أعماله في دخول الجنة. ثامناً: قد يكون غافلاً معرضاً عن ذكر الله ، مفرّطاً في جنب الله ، مغتراً بزخرف الدنيا ، فأراد الله قصْره عن ذلك ، وإيقاظه من غفلته ، ورجوعه إلى الرشد. فإذا استشعر العبد هذه المعاني واللطائف ، انقلب البلاء في حقه إلى نعمة ، وفتح له باب المناجاة ولذة العبادة ، وقوة الاتصال بربه والرجاء وحسن الظن بالله وغير ذلك من أعمال القلوب ومقامات العبادة ، ما تعجز العبارة عن وصفه. قال وهب بن منبه – رحمه الله -: لا يكون الرجل فقيهاً كامل الفقه والعلم ، حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة ، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء ، وصاحب الرخاء ينتظر البلاء! قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: (يود أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرّضت في الدنيا بالمقارض). رواه الترمذي. هذا ، ومن الأمور التي تخفف البلاء على المبتلى ، وتسكن الحزن وترفع الهم وتربط على القلب: (1) الدعاء: قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله -: الدعاء سبب يدفع البلاء ، فإذا كان أقوى منه دفعه ، وإذا كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه ، لكن يخففه ويضعفه ، ولهذا أمر عند الكسوف والآيات بالصلاة والدعاء والاستغفار والصدقة. (2) الصلاة: فقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا حزبه أمر فزع الى الصلاة رواه أحمد. (3) الصدقة" ففي الأثر: "داووا مرضاكم بالصدقة". (4) تلاوة القرآن: "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين". (5) الدعاء المأثور: "وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون". وما استرجع أحد في مصيبة إلا أخلفه الله خيراً منها).هـ. وَالحقيقة أنه لَمْ يَقْرَأِ التَّارِيخَ أَحَدٌ إِلاَّ عَلِمَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ عَلَى اخْتِلاَفِ عَقَائِدِهَا وَمِلَلِهَا: التَّفَرُّقَ وَالاخْتِلاَفَ وطول الأمل من دون عمل يفضي إلى تحقيق ذلك الأمل. فَهَا هِيَ الْخِلاَفَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ ـ على سبيل المثال ـ سَقَطَتْ بَعْدَ أَنْ تَفَرَّقَتْ دُوَلاً إِسْلاَمِيَّةً فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، فَنَشَأَتِ الدَّوْلَةُ البُوَيْهِيَّةُ ، وَالْمَمَالِيكُ ، وَدُوَيْلاتُ الشَّامِ ، فَلَمَّا زَحَفَ الْمَغُولُ إِلَى بَغْدَادَ ، لَمْ يَقِفْ فِي وَجْهِ زَحْفِهِمْ غَيْرُ أَهْلِ بَغْدَادَ فَقَطْ ، فَأَعْمَلُوا فِيهِمُ الْقَتْلَ وَالنَّهْبَ وَالتَّشْرِيدَ. وَسَقَطَتِ الدَّوْلَةُ الإِسْلاَمِيَّةُ فِي الأَنْدَلُسِ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتْ دُوَيْلاَتٍ مُتَفَرِّقَةً مُتَنَاحِرَةً ، لاَ هَمَّ لَهُمْ سِوَى التَّنَاحُرِ وَالْمُبَارَزَةِ وَرَفْعِ الصَّوْتِ فَوْقَ صَوْتِ الْخَصْمِ لاَ لِلْحُجَّةِ ؛ بَلْ لِمُجَرَّدِ الرَّفْعِ وَحَسْب ، إِنَّ مَا ظَفَرَ بِهِ أَعْدَاءُ الأُمَّةِ مِنْ سَطْوٍ وَاسْتِيلاَءٍ لاَ يَرْجِعُ إِلَى خَصَائِصِ الْقُوَّةِ فِي أَنْفُسِهِمْ بَقَدْرِ مَا يَعُودُ إِلَى آثَارِ الْوَهْنِ فِي صُفُوفِ أَصْحَابِ الْحَقِّ ، فَالْفُرْقَةُ تَجْعَلُ هَلاَكَ الأُمَّةِ بِيَدِ أَبْنَائِهَا ؛ فِي حَرْبٍ بِلاَ مَعْرَكَةٍ ، وَنَصْرٍ بِلاَ مُقَارَعَةِ عَدُوٍّ. وَلِذَا ؛ كَانَ الْوَاجِبُ مَعْرِفَةَ أَنَّهُ لاَ بُدَّ مِن وُقُوعِ الْخِلاَفِ ، وَلاَ مَفَرَّ مِنْ تَبَايُنِ الآرَاءِ ، وَلَكِنَّ الَّذِي لاَ يَجُوزُ هُوَ اسْتِبَاحَةُ الأَعْرَاضِ! وَالنُّقْرَةُ الَّتِي تَقَعُ بَيْنَ الْمُتَخَالِفِينَ ، فَلَيْسَ مِنَ الدِّينَ وَلاَ مِنَ الأُخُوَّةِ الإِيْمَانِيَّةِ الْقَائِمَةِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ الْوَاحِدِ ، أَنْ يَكُونَ مُجَرَّدُ الْخِلاَفِ سَبَبًا لِلْقَذْفِ وَالتَّحْرِيضِ وَالْعُنْفِ ، بَلِ الْوَاجِبُ: إِسْدَاءُ النُّصْحِ لِكُلِّ أَحَدٍ ؛ مَهْمَا كَانَ انْتِمَاؤُهُ أَوْ فِكْرُهُ أَوْ مَنْهَجُهُ. فَإِذَا فَعَلَ الْعُلَمَاءُ وَالدُّعَاةُ وَحَمَلَةُ الأَقْلاَمِ ذَلِكَ فَقَدَ قَامُوا بِوَاجِبِ النَّصِيحَةِ الْمَفْرُوضَةِ

عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم -: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلِرَسُولِهِ ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَامَّتِهِمْ» [رَوَاهُ مُسْلِمٌ]. ومن هذا المنطلق أنشدت من شعري قصيدة: (الأمل الفوّاح) لأقول للدنيا بأن الأمة المؤمنة قد تمرض ، ويصيبها من البلاء ما يصيبها ، ولكنها لا ولن تموت أبداً! ولذا جعلتُ العنوان ذاته: (الأمل الفواح) عنواناً للقصيدة وللديوان معاً! حتى إذا ما قرأه القارئون التمسوا الآمال مصحوبة بالبلاءات والمحن! فلا يحق لهم أن يعيشوا مع الآمال وحدها ، ولا مع البلاءات وحدها ، بل ليعيشوا مع الآمال والبلاءات! وذلك حتى يحملوا هم الأمة وأملها!)

66 - الأمل الكئيب

(لا بد من أن يوقن أهل الحق أن الله ناصر هذا الحق ، طال الزمان أو قصر. أما لماذا(الكئيب) فالجواب هو أن كآبة الأمل ناشئة من شيئين: فأما الأول فهو ما يقوم الشيطان بإلقائه في أمنيّة كل إنسان ذي أمل. وأما الثاني فهو استعجال النصر أو استبطاؤه لدرجة اليأس أحياناً. إن قولنا فلان حزين ومكتئب يفيد غلظ الهم وضخامة الكآبة ، وقولنا البث يفيد أنه ينبث ولا ينكتم من قول العرب أبثثته ما عندي وبثثته إذا أعلمته إياه! وأصل الكلمة كثرة التفريق! ومنه قوله تعالى: {كالفراش المبثوث} وقوله تعالى: {إنما أشكو بثي وحزني إلى الله}. فعطف البث على الحزن لما بينهما من الفرق في المعنى. إن الحسرة في حقيقتها غم يتجدد لفوت فائدة ما ، فليس كل غم حسرة. وأما الأسف فهو حسرة معها غضب أو غيظ وغضب! وإنا لنبصر بالغضبان المتلهف على الشيء لا يكاد يهدأ حتى يتحقق له مراده. ثم كثر ذلك الاستعمال حتى جاء في معنى الغضب وحده في قوله تعالى: {فلما آسفونا انتقمنا منهم} أي أغضبونا. واستعمال الغضب في صفات الله تعالى مجاز ، وحقيقته إيجاب العقاب للمغضوب عليه. والمسلم يجب أن لا يفقد الأمل في ربه ، بل عليه أن يحسن الظن بالله! قال تعالى: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ؟ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (*) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ؟ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ؟ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (*) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (*) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (*) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ.) أتناول في قصيدتي (الأمل الكئيب) الأمل الذي تحتوشه شياطين الإنس والجن ، حتى يُصبح باهتاً هزيلاً في قلب صاحبه في فترات ضعف الإيمان وغلبة الهواجس والوساوس ونزغات الشياطين وهمزاتها. إن المسلم الموحد يؤمن بالله الحكيم الخبير الذي يدبر كل شيء بحكمة وتقدير (إنا كل شيء خلقناه بقدر). طال عليَّ كشاعر ليل القهر ، واحلولكت الحال ولم يكن أمام القلب إلا التعلق بما عند ربي ، حيث اكفهر العزم وانتفش الخطب واشحوحب الأمل بين ناظري. وكل رأس مالي الثقة في الله ، واليقين في موعود الله ، فرحتُ أخاطب أزمتي وأقول لها: اشتدي الأزمة تنفرجي! وإن غداً لناظره قريب ، وكل آتٍ آت! ولا شك أن الله تعالى يريد بنا اليسر لا العسر! ولا شك أن هذا الذي نراه شراً في ظاهره ، هو خير في باطنه! والابتلاء للصالحين سُنة الله تعالى في خلقه لا سبيل إلى تبديلها أو تحويلها!)

67 - الأملُ يرتصد التصابي

(كانت طموحاته أكبر من إمكانياته. وعاش على الأمل العذب. وفي كل لحظة يحدوه أمل جديد وليد. ومن كثرة توارد الآمال عليه ، وهو لا يحقق عشر معشارها ، إذا به يُحس في لحظة بأن الأمل يرتصد التصابي ويجتني ثمرات الصبا ونضرة الشباب الغض. فقاوم هذا الشعور ، فعجز في أول المقاومة لأن المشيب قد حل به ، وأخذ يطبع بصماته هو الآخر. فعاش بين أمل يداعبه ومشيب يكبح جماحه ويتوعده. ومن هنا رحت أصف شعوره بين الصبا والمشيب وأبين لمن الغلبة في النهاية! وكانت قصيدتي هذي ترجمة لذلك. لقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم : (اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين). رواه أحمد والنسائي. وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم: (رب أعني ولا تُعن علي ، وانصرني ولا تنصر علي ، وامكر لي ولا تمكر علي ، واهدني ويسر الهدى لي ، وانصرني على من بغى علي رب اجعلني لك شكاراً لك ذكاراً ، لك رهاباً ، لك مطواعاً ، لك مخبتاً ، إليك أواهاً منيباً ، رب تقبل توبتي ، واغسل حوبتي ، وأجب دعوتي ، وثبت حجتي وسدد لساني ، واهدِ قلبي ، واسلل سخيمة صدري). رواه أحمد والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح. ولما سُئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ بأي شيء كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. رواه مسلم. فَدَلّ ذلك على اجتهاده صلى الله عليه وسلم في الدعاء ، وإرشاده إليه ، وتعليمه لأصحابه وأحفاده. وفيما يرويه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن ربِّه تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم). رواه مسلم . فاسأل ربك الهداية ، فقد قال خليلُ الله إبراهيمُ: (لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ). ومن دعاءِ المؤمنين: (رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ). قال تبارك وتعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ). وكثرة ذكر الله تبارك وتعالى تعين على الثبات على الحق المبين ، فإن الإعراض عن ذكر الله سبب في الضلال ، كما في قوله تعالى: (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ). وهذه الهداية لا تكونُ مهيأةً في كلِّ وقتٍ للعبدِ المسلم ، فإن الحقّ سبحانه وتعالى قال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ). وفي هذا حثٌّ على المبادرةِ بالاستجابة لله ولرسوله ، قبل أن يأتي يومٌ يَبْحَثُ فيه المسلمُ عن قلبه فلا يجده ، أي أنه يُحالُ بينه وبين قلبه. وهذا الأمر يجب على المؤمنين أن يحذروه!)

68 - الإملاق الأبكم

(كثير من المترفين الأغنياء الذين أعماهم بريق أموالهم عن حقوق الفقراء فيها ، لا يحسون بمصائب المعوذين والبؤساء ممن كان الفقر قدرهم لحكمة الله يعلمها. وتكون الطامة الكبرى عندما يكون هؤلاء الأغنياء مدينين لهؤلاء الفقراء ، فنجد أن الأغنياء قد صرفهم غناهم عن أن يحسوا بديون تعيّن الوفاءُ بها لهؤلاء الفقراء ، لا من باب الصدقة عليهم ، بل

من باب المَديونية لهم! فلا يُعطِي أحدهم الفقير الأجير عنده حقه ، لا قبل أن يجف عرقه (وهذا اختيار النبي – صلى الله عليه وسلم) ، ولا بعد أن جف عرقه وذهبتْ قواه أدراج الرياح من أثر العمل! وهؤلاء الفقراء برغم كل هذا أعزة صابرون محتسبون! وهم على افتقارهم الشديد إلى المال ، لكنهم في غاية العفاف والجدية والعزة ، كما وصفهم ربنا تبارك وتعالى إذ قال: (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافاً). فلم يذل الفقر هممهم ومعنوياتهم ، كما أذل أكبادهم الجائعة وبطونهم الخاوية. إن الغِنى غِنى النفس. والقناعة كنز لا يفنى. وكم من غنيٍّ رزقه الله المال ، وحرمه الصحة أو الدين أو الاستقامة أو العلم. وأسألُ: ما قيمة المال لإنسان هذا شأنه؟ إنني أكتب (الإملاق الأبكم) لأعزي بها كل فقير موحد وأصبِّره. وأيضاً أذكّره بأن الرحيم الرحمن قد منَّ عليك بنعمة الإسلام ، وكفي بها نعمة لا تضارعها نعمة. وتعجبني كثيراً كلمة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لو كان الفقر رجلاً لقتلته. وذلك لما فيها من الإحساس بضنك الفقر ولوعة الحاجة وثقل العوز ، والفقير العزيز يشعر بالفقر أكثر من غيره ، ونحن في أيام يعتد الناس بالأموال والدور والغنى ، وتكثر القوارين ، وإننا لنبْصر بهم يريدون أن يقولوا مثل الذي قاله قارون بالأمس السحيق: "إنما أوتيته على علم عندي". ومن هنا رحت أكتب عن الإملاق الذي قد تذهب معه بعض القيم ، لولا لطف الله بالعبد وانتشاله من دنيا الهواجس. وعموماً التوحيد والعقيدة يعصمان من الفتنة بالفقر والافتتان بالغنى!)

69 - الأمير الطيان

(جاءت امرأة إلى الشام وسألت عن قصر الخليفة عمر بن عبد العزيز. فدلوها على داره ، فلما بلغتها وجدت امرأة بثياب بسيطة تجلس على بساط عتيق ، ورجلا يداه في الطين يصلح جداراً في الدار. فدهشت المرأة عندما علمت أن هذه الجالسة على البساط هي فاطمة بنت عبد الملك زوج الخليفة. فقالت لها: ألا تتسترين من الرجل الطيان؟ فابتسمت ثم قالت: هذا الطيان هو أمير المؤمنين زوجي! إن الإمارة والملك عند الأتقياء تكليف وليس تشريفاً! ذلك الأمر الذي جعل الصديق أبا بكر يقول يوماً: (ليتني كنت جزوراً فأذبح!) وجعل عمر لا يقبل بترشيح ولده للخلافة من بعده! إن أمير القوم مسؤول بين يدي الله عن رعيته: عن طعام القوم وشرابهم ومسكنهم وملبسهم ودينهم وعقيدتهم وتوحيدهم! ذلك أن عليه أن يذلل العقبات ليعيش الناس في أمن وإيمان وسلامة وإسلام! ويبذل قصارى جهده ليتفيأ الناس ظلال الإسلام الوارفة! ومن هنا رحتُ أحيي سيدي الأمير الطيان عمر بن عبد العزيز! وكما قلتُ وأكرر: إن تحية الشعراء تكون بالشعر!)

70 - الآن طاب الموت!

(قال الدكتور راغب السرجاني – حفظه الله - يصف السلطان سليمان القانوني – رحمه الله تعالى – ما نصه: (سليمان القانوني ابن سليم ، ويُعرف في الغرب بسليمان العظيم ، وهو أحد أشهر السلاطين العثمانيين ، حكم مدَّة 48 عامًا ؛ منذ عام 926هـ ، وبذلك يكون صاحب أطول فترة حُكْم بين السلاطين العثمانيين. قضى السلطان سليمان القانوني ستة وأربعين عامًا على قمَّة السلطة في دولة الخلافة العثمانية ، وبلغت في أثنائها الدولة قمَّة درجات القوَّة والسلطان ؛

حيث اتسعت أرجاؤها على نحوٍ لم تشهده من قبلُ ، وبسطت سلطانها على كثير من دول العالم في قاراته الثلاث ، وامتدَّت هيبتُها فشملت العالم كلَّه ، وصارت سيدة العالم ؛ تخطبُ ودَّهَا الدول والممالك ، وارتقت فيها النظم والقوانين التي تُسَيِّرُ الحياة في دقَّة ونظام ، دون أن تُخالف الشريعة الإسلامية التي حرص آل عثمان على احترامها والالتزام بها في كل أرجاء دولتهم ، وارتقت فيها الفنون والآداب ، وازدهرت العمارة والبناء. فأما والده فالسلطان سليم الأول ، ووالدته حفصة سلطان ابنة منكولي كراني خان القرم ، وُلِدَ سليمان القانوني في مدينة طرابزون عام (900هـ - 1495م). وقد كان والده آنذاك واليًا عليها ، واهتمَّ به والده اهتمامًا عظيمًا ؛ فنشأ محبًّا للعلم والأدب والعلماء والأدباء والفقهاء ، واشتهر منذ شبابه بالجدية والوقار. تولَّى السلطان سليمان القانوني الخلافة بعد موت والده السلطان سليم الأول في (9 من شوال 926هـ - 22 من سبتمبر 1520م) ، وبدأ في مباشرة أمور الدولة ، وتوجيه سياستها ، وكان يستهلُّ خطاباته بالآية الكريمة: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ، وقد كانت الأعمال التي أنجزها السلطان في فترة حكمه كثيرة وذات شأن في حياة الدولة. ففي الفترة الأولى من حكمه نجح في بسط هيبة الدولة ، والضرب على أيدي الخارجين عليها من الولاة الطامحين إلى الاستقلال ، معتقدين أن صغر سنِّ السلطان - الذي كان في السادسة والعشرين من عمره - فرصة سانحة لتحقيق أحلامهم ، لكن فاجأتهم عزيمة السلطان القويَّة التي لا تلين ، فقضى على تمرُّد جان بردي الغزالي في الشام ، وأحمد باشا في مصر ، وقلندر جلبي في منطقتي قونية ومرعش ؛ الذي كان شيعيًّا ، وقد جمع حوله نحو ثلاثين ألفًا من الأتباع للثورة على الدولة. ولقد تعدَّدت ميادين القتال التي تحرَّكت فيها الدولة العثمانية لبسط نفوذها في عهد سليمان ؛ فشملت أوربا وآسيا وإفريقيا ؛ فاستولى على بلجراد سنة (927هـ - 1521م) ، وحاصر فيينا سنة (935هـ - 1529م) ؛ لكنه لم يُفلح في فتحها ، وأعاد الكَرَّة مرَّة أخرى ، ولم يكن نصيبها أفضل من الأولى ، وضمَّ إلى دولته أجزاءً من المجر بما فيها عاصمتها بودابست ، وجعلها ولاية عثمانية. وفي آسيا قام السلطان سليمان بثلاث حملات كبرى ضد الدولة الصفوية ؛ ابتدأت من سنة (941هـ - 1534م) ، وهي الحملة الأولى التي نجحت في ضمِّ العراق إلى سيطرة الدولة العثمانية ، وفي الحملة الثانية سنة (955هـ - 1548م) أُضيف إلى أملاك الدولة تبريز ، وقلعتا: وان وأريوان ، وأمَّا الحملة الثالثة فقد كانت سنة (962هـ - 1555م) وأجبرت الشاه طهماسب على الصُّلح وأحقية العثمانيين في كلّ من أريوان وتبريز وشرق الأناضول. كما واجه العثمانيون في عهده نفوذَ البرتغاليين في المحيط الهندي والخليج العربي ، فاستولى القائد أويس باشا والي اليمن على قلعة تعز سنة (953هـ - 1546م) ، ودخلت في عهده عُمَان والأحساء وقطر ضمن نفوذ الخلافة العثمانية ، وأدَّت هذه السياسية إلى الحدِّ من نفوذ البرتغاليين في مياه الشرق الأوسط. وفي إفريقيا دخلت ليبيا ، والقسم الأعظم من تونس ، وإريتريا ، وجيبوتي ، والصومال ضمن نفوذ الخلافة العثمانية. وكانت البحرية العثمانية قد نمت نموًّا كبيرًا منذ أيام السلطان بايزيد الثاني ، وأصبحت مسؤولة عن حماية مياه البحار التي تطل عليها الدولة ، وفي عهد سليمان ازدادت قوَّة البحرية على نحو لم تشهده من قبل! وذلك بانضمام «خير الدين بربروس» ، وكان يقود أسطولاً قويًّا يُهاجم به سواحل إسبانيا والسفن الصليبية في البحر المتوسط ، وبعد انضمامه إلى الدولة منحه السلطان لقب «قبودان». وقد قام خير الدين بفضل المساعدات التي كان يتلقَّاها من السلطان سليمان القانوني بضرب السواحل الإسبانية ، وإنقاذ آلاف من المسلمين في إسبانيا ؛ فقام في

سنة (935هـ - 1529م) بسبع رحلات إلى السواحل الإسبانية لنقل سبعين ألف مسلم من قبضة الحكومة الإسبانية. وقد أوكل السلطان إلى خير الدين بربروس قيادة الحملات البحرية في غرب البحر المتوسط ، وحاولت إسبانيا أن تقضي على أسطوله ؛ لكنها كانت تُخفق في كل مرَّة وتتكبَّد خسائر فادحة ، ولعلَّ أقسى هزائمها كانت معركة بروزة سنة (945هـ - 1538م). وقد انضمَّ أسطول خير الدين إلى الأسطول الفرنسي في حربه مع الهابسيورج ، وساعد الفرنسيين في استعادة مدينة نيس (950هـ - 1543م) ؛ وهذا ما أدَّى إلى تنازل فرنسا عن ميناء طولون الفرنسي برضاها للإدارة العثمانية ، وتحوَّل الميناء الحربي لفرنسا إلى قاعدة حربية إسلامية للدولة العثمانية في غرب البحر الموسط. واتَّسع نطاق عمل الأسطول العثماني فشمل البحر الأحمر ؛ حيث استولى العثمانيون على سواكن ومصوع ، وأخرجوا البرتغاليين من مياه البحر الأحمر ، واستولوا على سواحل الحبشة ؛ وهو ما أدَّى إلى انتعاش حركة التجارة بين آسيا والغرب عن طريق البلاد الإسلامية. وكان السلطان سليمان القانوني شاعرًا له ذوق فني رفيع وخطَّاطًا يُجيد الكتابة ، ومُلمًّا بعدد من اللغات الشرقية من بينها العربية ، وكان له بصر بالأحجار الكريمة ، مغرمًا بالبناء والتعمير والتشييد فظهر أثر ذلك في دولته ، فأنفق بسخاء على المنشآت الكبرى ؛ فشيَّد المعاقل والحصون في رودس وبلجراد وبودا ، وأنشأ المساجد والصهاريج والقناطر في شتَّى أنحاء الدولة ، وبخاصة في دمشق ومكَّة وبغداد! بالإضافة إلى ما أنشأه في عاصمته من روائع العمارة. ويُؤَكِّد الباحث جمال الدين فالح الكيلاني - باحث عراقي متخصص في الدراسات التاريخية - أن عصر السلطان سليمان القانوني يُعتبر العصر الذهبي للدولة العثمانية ؛ حيث كانت الدولة الأقوى في العالم والمسيطرة على البحر الأبيض المتوسط. وظهر في عصره أشهر المهندسين المعماريين في التاريخ الإسلامي ؛ كالمهندس سنان باشا ؛ الذي اشترك في الحملات العثمانية ، واطَّلع على كثير من الطرز المعمارية حتى استقام له أسلوب خاص. ويُعَدُّ مسجد سليمان القانوني أو جامع السليمانية في إسطنبول - الذي بناه للسلطان سليمان في سنة (964هـ - 1557م) من أشهر الأعمال المعمارية في التاريخ الإسلامي. وفي عهده وصل فنُّ المنمنمات (أي الرسوم) العثمانية إلى أوج ازدهارها ، وقد قدَّم «عارفي» وثائق الحوادث السياسية والاجتماعية التي جرت في عصر سليمان القانوني في منمنمات زاهية ، ولمع في هذا العصر عدد من الخطَّاطين العظام ؛ يأتي في مُقَدِّمتهم حسن أفندي جلبي القره حصاري ؛ الذي كتب خطوط جامع السليمانية ، وأستاذه أحمد بن قره حصاري ، وله مصحف بخطِّه ، وهو يُعَدُّ من روائع الخطِّ العربي والفنِّ الرفيع ، وهو محفوظ بمتحف «طوبي قابي». وظهر في عهد السلطان سليمان عدد من العلماء في مقدمتهم: أبو السعود أفندي ؛ صاحب التفسير المعروف باسم: «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم». القانون والإدارة الذي اشتهر به السلطان سليمان القانوني واقترن باسمه هو وضعه للقوانين التي تُنَظِّم الحياة في دولته الكبيرة ؛ هذه القوانين وضعها مع شيخ الإسلام أبو السعود أفندي ، وراعى فيها الظروف الخاصة لأقطار دولته ، وحرص على أن تَتَّفق مع الشريعة الإسلامية والقواعد العرفية ، وقد ظلَّت هذه القوانين - التي عُرفت باسم «قانون نامه سلطان سليمان» ؛ أي دستور السلطان سليمان - تُطَبَّق حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجري الموافق التاسع عشر الميلادي. ولم يُطلق الشعبُ على السلطان سليمان لقب القانوني لوضعه القوانين ؛ وإنَّما لتطبيقه هذه القوانين بعدالة ؛ ولهذا يعدُّ العثمانيون الألقاب التي أطلقها الأوربيون على سليمان في عصره - مثل: الكبير ، والعظيم - قليلة الأهمية والأثر إذا ما قُورنت بلقب

«القانوني» ، الذي يُمَثِّل العدالة. ولم يكن عهد سليمان القانوني العهد الذي بلغت فيه الدولة أقصى حدود لها من الاتساع ، وإنما هو العهد الذي تمَّت فيه إدارة أعظم دولة بأرقى نظام إداري. ولم يترك السلطان سليمان القانوني الجهاد قط ، وفي أواخر أيامه أصابه مرض النِّقْرِس ، فكان لا يستطيع ركوب الخيل ؛ ولكنه كان يتحامل – رحمه الله - إظهارًا للقوَّة أمام أعدائه ، وقد بلغ السلطان سليمان القانوني من العمر 74 عامًا ، ومع ذلك عندما علم بأن ملك الهابسبرج أغار على ثغر من ثغور المسلمين ؛ قام السلطان سليمان القانوني للجهاد من فوره! ومع أنه كان يتألَّم من شدَّة المرض ، فإنَّه قاد الجيش بنفسه ، وخرج على رأس جيش عرمرم في (9 من شوال 973هـ - 29 من أبريل 1566م) ، ووصل إلى مدينة سيكتوار المجرية ، وكانت من أعظم ما شيَّده المسيحيون من القلاع ، وكانت مشحونة بالبارود والمدافع ، وكان قبل خروجه للجهاد نصحه الطبيب الخاص بعدم الخروج لعلَّة النِّقْرِس التي به. فكان جواب السلطان سليمان الذي خلده له التاريخ: «أحب أن أموت غازيًا في سبيل الله». سبحان الله! هذا السلطان كان قد بلغ من الكبر عتيًّا ، وكان يملك تحت قبضته نصف الدنيا ، وملوك الأرض طوع بنانه ، وكان بإمكانه التمتُّع بحياة القصور ، والتنقُّل بين الغرف والاستمتاع بالملذَّات ، ومع ذلك أبى إلَّا أن يخرج غازيًا في سبيل الله. وخرج بالفعل على رأس جيشه ، وما كان يستطيع أن يمتطي جواده ؛ لازدياد علَّة النِّقْرِس عليه ، فكان يُحْمَل في عربة ؛ حتى وصل إلى أسوار مدينة سيكتوار ، وابتدأ في حصارها ، وفي أقلَّ من أسبوعين احتلَّ معاقلها الأمامية ، وبدأ القتال واشتدَّ النزال ، وكان أصعب قتال واجهه المسلمون ؛ لمتانة الأسوار ، وضراوة المسيحيين في الدفاع عن حصنهم. واستمرَّ القتال والحصار قرابة خمسة شهور كاملة ، وما ازداد أمر الفتح إلَّا صعوبة ، وازداد همُّ المسلمين لصعوبة الفتح ، وهنا اشتدَّ مرض السلطان ، وشعر بدنوِّ الأجل ، فأخذ يتضرَّع إلى الله تعالى ، وكان من جملة ما قاله: «يا رب العالمين ؛ افتح على عبادك المسلمين ، وانصرهم ، وأضرم النار على الكفار». فاستجاب الله دعاء السلطان سليمان ، فأصاب أحدُ مدافع المسلمين خزانة البارود في الحصن ، فكان انفجارًا مهولًا ، فأخذت جانبًا كبيرًا من القلعة فرفعته إلى عنان السماء ، وهجم المسلمون على القلعة ، وفُتحت القلعة ، ورُفعت الراية السليمانية على أعلى مكان من القلعة. وعند وصول خبر الفتح للسلطان فرِح ، وحمد الله على هذه النعمة العظيمة ، وقال: «الآن طاب الموت ، فهنيئًا لهذا السعيد بهذه السعادة الأبدية ، وطوبى لهذه النفس الراضية المرضية ، من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه». وتخرج روحه الطاهرة إلى بارئها ، إلى جنة الخلد - إن شاء الله - في (20 من صفر 974هـ - 5 من سبتمبر 1566م). وأخفى الوزير محمد باشا نبأ وفاة السلطان! حتى أرسل لولي عهده السلطان سليم الثاني ، فجاء وتَسَلَّم مقاليد السلطنة في سيكتوار ، ثم دخل إسطنبول ومعه جثمان أبيه الشهيد ، وكان يومًا مشهودًا لم يُرى مثله ، إلَّا في وفاة السلطان محمد الفاتح ، وعلم المسلمون خبر وفاة السلطان سليمان القانوني ، فحزنوا أشدَّ الحزن ؛ أمَّا على الجانب الأوربي ؛ فما فرح المسيحيون بموت أحدٍ بعد بايزيد الأول ومحمد الفاتح كفرحهم بموت السلطان سليمان القانوني المجاهد الغازي في سبيل الله ، وجعلوا يوم وفاته عيدًا من أعيادهم ، ودَقَّت أجراس الكنائس فرحًا بموت مُجَدِّد جهاد الأُمَّة في القرن العاشر – رحمه الله - الخليفة سليمان الأول أو سليمان القانوني (926- 974هـ) بلغت الدولة في عهده أقصى اتساع لها حتى أصبحت أقوى دولة في العالم في ذلك الوقت ، واشتهر بسليمان القانوني ، لأنه وضع نظمًا داخلية في كافة فروع الحكومة ، فأدخل بعض تغييرات في

نظام العلماء والمدرسين الذي وضعه محمد الفاتح ، وجعل أكبر الوظائف العليا وظيفة المفتي ، وأدخل التنظيمات الدقيقة على جيش الإنكشارية ، وكانت كلها في ضوء الشريعة الإسلامية ، ولم تكن مستمدة من القوانين الوضعية كما قد يتبادر إلى الأذهان. ومن جهة أخرى تمرد حكام الشام: فما إن وصل خبر موت السلطان سليم الأول إلى جانبرد الغزالي إلا وأعلن تمرده ، وعرض على حاكم مصر أن يحذو حذوه فخدعه حاكم مصر بإبداء الموافقة ، وفي نفس الوقت كان يطلع الخليفة سليمان على كل ما يرمى إليه حاكم الشام ، وبدأ حاكم الشام في تنفيذ تمرده بمحاصرة حلب ، ولكن بمجرد وصول الجيوش العثمانية إلى حلب ، ولَّى حاكم الشام الأدبار ثم تحصن بدمشق وواجه الجيوش العثمانية فهزم ، وحاول أن يفر متنكرًا فسلمه أحد أعوانه للعثمانيين فقتلوه. في بلاد فارس (الدولة الصفوية): في عام 941هـ دخل العثمانيون تبريز للمرة الثانية ، ومنها اتجهوا إلى بغداد فضمت إلى أملاك الدولة العثمانية ، وفي عام 954هـ طلب أخو الشاه الصفوي مساعدة السلطان ضد أخيه ، فدخل العثمانيون تبريز للمرة الثالثة. في بلاد العرب: احتدم الخطر الإسباني والبرتغالي الصليبي على المسلمين ، فبعدما استولوا على آخر معاقل المسلمين في بلاد الأندلس ، وعاهدوا المسلمين على أن يكفلوا لهم الحرية الدينية وممارسة الشعائر ، لكنهم سرعان ما أخلفوا العهود ونقضوا المواثيق ، فأخذت محاولات التنصير الضارية تنهمر على المسلمين في الأندلس ، مستعملين في ذلك كل الوسائل من إبادة وتشريد وهتك للأعراض واستعباد ، وغيرها من الوسائل التي يعجز القلم عن وصفها ، فهام المسلمون في الأندلس على وجوههم ، منهم من لحقته الإبادة ، ومنهم من ذاب في المجتمع النصراني ، ومنهم من استطاع أن يفر بدينه ليهاجر للأمصار الإسلامية. ولم يكتف الأسبان والبرتغاليون بالأندلس ، فبعد أن استتب لهم الأمر فيها اتجه الأسبان نحو الأمصار الإسلامية الأخرى ليعيدوا المأساة فيها ، واحتلوا بعض المراكز في شمال إفريقيا مثل طرابلس والجزائر وبنزرت ووهران وغيرها. فأرادت الدولة العثمانية تحرير شمال إفريقيا من الأسبان ، ثم الاتجاه للأندلس ولمّ شمل المسلمين. وماذا عن خبر البحّارة خير الدين وأخوه عروج: في عهد السلطان سليم الأول ظهر أحد البحارة الذين لهم صفحات لامعة في التاريخ الإسلامي ، وهو البحار خير الدين الذي كان قرصانًا نصرانيًّا في جزر بحر إيجة ثم اعتنق الإسلام هو وأخوه عروج ، ونذرا نفسيهما لخدمة الإسلام ، وكانا ينتقمان من القراصنة النصارى الذين كانوا يعترضون السفن المسلمة ويسترقون ركابها وينهبون خيراتها ، فكانا بالمثل يعترضان سفن النصارى ويبيعان ركابها عبيدًا ، ثم في عهد السلطان سليم الأول أرسلا إليه إحدى السفن التي أسروها ، فقبلها منهما فأعلنا طاعتهما وخدمتهما للعثمانيين. وانطلقا يطهران شواطئ إفريقيا من الصليبيين ، فحرر عروج مدينة الجزائر ومدينة تلمسان ، وكان ذلك في عهد السلطان سليم الأول ، فعين خير الدين واليًا على الجزائر ، وبالتالي ضمت الجزائر إلى الدولة العثمانية. وأرسل السكان المسلمون إلى الخليفة يستغيثونه بعد احتلال الأسبان لطرابلس ، فأرسل إليهم قوة بحرية صغيرة عام 926هـ بقيادة مراد أغا ولكنه فشل في تحريرها ، فأرسل الخليفة الأسطول العثماني بقيادة طورغول بك فحرر المدينة من الأسبان وطردهم شر طردة ، وواصل تحرير المدن الإسلامية من وطأتهم فحرر بنزرت ووهران ، وغزا ميورقة (إحدى جزر البليار جنوب شرقي أسبانيا) وكورسيكا ، وبذلك غدت طرابلس الغرب (ليبيا) ولاية عثمانية. ودعا الخليفة سليمان البحار خير الدين وأمره بالاستعداد لغزو تونس وتحريرها من ملكها الحفصي ، الذي اشتهر بميله إلى شارلكان الملك النصراني شديد العداوة للإسلام ، فأعد خير الدين العدة

وبنى أسطولاً كبيرًا لهذا الغرض ، وسار من مضيق الدردنيل قاصدًا تونس ، وفي طريقه أغار على مالطة وجنوبي إيطاليا للتمويه ، ولكيلا يعرف مقصده الأساسي ثم وصل تونس ، وبمنتهى السهولة سيطر عليها وعزل السلطان حسن الحفصي ووضع مكانه أخاه ، فاشتاط شارلكان ملك إسبانيا وإيطاليا والنمسا وغيرها من بلاد أوربا ، وصمم على استعادة نفوذه في تونس وإعادة ملكها العميل المخلص له ، فقاد شارلكان الجيوش بنفسه ، وتمكن من دخول تونس وترك الحرية لجنوده في النهب والقتل وهتك الأعراض وهدم المساجد والسبي والاستعباد ، وأعاد السلطان حسن الحفصي للحكم بعد أن أجبره على التنازل له عن مدن بنزرت وعنابة وغيرها ، واضطر خير الدين إلى الانسحاب من تونس. وكما ذكرنا من قبل الخطر الذي بدأ يظهر من قِبَل البرتغاليين واحتلالهم لبعض المواقع في جنوب شبه الجزيرة العربية ومواصلة الزحف لنبش قبر الرسول ، هذا بالإضافة إلى خطرهم على بلاد الهند التي كانت في ذلك الوقت تحت سلطان المغول المسلمين. أمر الخليفة سليمان بتجهيز أسطول للسيطرة على الجزيرة العربية وتطهيرها من البرتغاليين ، فتمكن العثمانيون من ضم اليمن وعدن ومسقط ومحاصرة جزيرة هرمز ، وبالتالي أغلقوا الأبواب في وجه البرتغاليين وأهدافهم الدنيئة ، وفي نفس الوقت استنجد المغول المسلمون بالسلطان سليمان من البرتغاليين الذين احتلوا بعض سواحل الهند ، فأرسل إليهم أسطولاً تمكن من تحرير بعض القلاع من البرتغاليين ، ولكن الأسطول العثماني هزم في معركة ديو البحرية ، فاضطر إلى الانسحاب وخاصة بعدما حاول الأعداء إثارة الفتن وإشاعة أن العثمانيين يريدون ضم الهند. وعندما سمع البحار خير الدين وأخوه عروج بما حدث للمسلمين قاما لنجدة إخوانهم في الأندلس ، وكانت سفنهم تتجه إلى شواطئ الأندلس لتحمل المسلمين الفارين بدينهم من محاولات الإبادة والتنصير الإسبانية إلى الأمصار الإسلامية ، وفي نفس الوقت أراد أن ينتقم لمسلمي الأندلس من نصارى أوربا بصفة عامة ونصارى إسبانيا بصفة خاصة ، والذين اشتركوا جميعًا وباركوا إبادة المسلمين في الأندلس. فأغار على الكثير من شواطئ إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وزج في سفنه بالكثير من أهالي هذه البلاد تمهيدًا لبيعهم عبيدًا في الأمصار الإسلامية ، ليعلمهم أن المسلمين بقدر سماحتهم وعفوهم ، فهم قادرون على الانتقام لإخوانهم ، وكان قد صب تركيزه على إسبانيا بعد أن عقدت معاهدة بين العثمانيين وفرنسا. وانتصر خير الدين بعد انسحابه من تونس على أسطول شارلكان في عام 944هـ ، وحاول فتح جزيرة كريت ولكنه فشل في فتحها. واستغل الخليفة انشغال أوربا بالحروب كحروب شارلكان ملك النمسا مع ملك فرنسا فرانسوا وأيضًا الخلاف المذهبي بين الكاثوليك والبروتستانت واتجه لفتح جزيرة رودس ، وتمكن بالفعل من فتحها عام 929هـ ، وفر فرسان القديس يوحنا من رودس إلى جزيرة مالطة ، التي أهداها لهم شارلكان ملك النمسا. تحويل القرم إلى ولاية عثمانية: وقع الخلاف بين التتر المسلمين الذين يحكمون القرم ، والتي تعترف بسيادة الدولة العثمانية ، فتدخلت الدولة العثمانية وجعلتها ولاية عثمانية عام 939هـ. وقرر السلطان سليمان أن يجعل ولاية الأفلاق ولاية عثمانية ، فدخلها عام 931هـ. ودخل عاصمتها بخارست ، ولكن الأعيان فيها ثاروا بمساعدة أمير ترانسلفانيا ، وعينوا أميرًا جديدًا فوافق الخليفة في مقابل زيادة الجزية. تحالف العثمانيين مع فرنسا: اشتد خطر شارلكان ملك النمسا على فرنسا ، وخاصة بعدما أحاط بها من جميع الجهات ، فقد ضم إليه إسبانيا وأجزاء كبيرة من إيطاليا وهولندا وألمانيا ، فاقترح ملك فرنسا على الخليفة سليمان القانوني أن يهاجم شرق مملكة شارلكان ، في حين يهاجم ملك فرنسا من الغرب ،

فاقتنع الخليفة بالفكرة. وأرسل الخليفة إلى ملك المجر يأمره بدفع الجزية ، فقتل الملك رسول الخليفة. فجهز الخليفة جيشًا قاده بنفسه وسار ففتح بلغراد عام 927هـ بعد أن كانت أكبر مانع للعثمانيين لدخول بلاد المجر. وسار الخليفة بنفسه ومعه جيش قوامه 100.000 جندي و300 مدفع و800 سفينة في نهر الدانوب جنوب بلاد المجر ، جاعلاً بلغراد قاعدته الحربية ففتح عدة قلاع في أثناء مسيرته ، واستطاع أن يفتح عاصمتها بودا في عام 932هـ بعد أن هزم ملك المجر وفرسانه والتقى بأعيان البلاد ، اتفق معهم على تعيين جان زابولي ملك ترانسلفانيا ملكًا على المجر. وادعى أخو الملك شارلكان فرديناند سلطته على المجر واستطاع أن يحتل عاصمتها بودا ، فاستنجد ملكها جان زابولي بالخليفة ، فانقضت الجيوش العثمانية على بودا التي فر منها فرديناند فتبعته الجيوش المظفرة وحاصرت عاصمة النمسا ويانه (فيينا) ، وأحدثت ثغرًا في أسوارها إلا أن الذخيرة نفدت منهم وأقبل فصل الشتاء فرجع الخليفة إلى بلاده. وفي عام 938هـ حاول ملك النمسا احتلال بودا ولكنه لم يستطع ، فسار إليه الخليفة في العام الثاني ، ولكنه رجع عندما علم باستعدادات شارلكان. فرنسا تنقض الحلف مع العثمانيين ثار الرأي العام في أوربا على تحالف فرنسا النصرانية مع الدولة العثمانية المسلمة ضد شارلكان ومملكته النصرانية ، فما كان من فرانسوا ملك فرنسا إلا أن عقد هدنة مع ملك النمسا ونقض التحالف مع العثمانيين ، فاستغلت النمسا الفرصة وأعادت الكرة في الحروب مع العثمانيين ولكنها انهزمت عام 943هـ. تحريض أمير البغدان على العثمانيين قام أخوا الملك شارلكان بتحريض أمير البغدان على الدولة العثمانية ، فأعلن تمرده فتمكن منه العثمانيون وعينوا أخاه أصطفان أميرًا للبغدان ، وعززوا الحامية العثمانية فيها. مواصلة الحروب مع النمسا اقتنع زابولي ملك المجر بفكرة فرديناند في اقتسام المجر ، وإلغاء الحماية العثمانية عليها ، وأرسل فرديناند صورة من الاتفاق السري بينهما للخليفة ليعلمه بعدم ولاء زابولي له ، وقبل أن يعاقب الخليفة الملك زابولي كان الموت أسرع إلى زابولي عام 946هـ ، فاستغل فرديناند الفرصة ليحتل المجر فاحتل مدينة بست (على الضفة الأخرى لنهر الدانوب والمواجهة لمدينة بودا واللتان اندمجتا معًا لتكونا العاصمة الحالية للمجر بوادبست) ، فانقض عليهم الجيش العثماني عام 947هـ ففر النمساويون. وبهذا أصبحت المجر ولاية عثمانية ، ورضيت أرملة زابولي بذلك حتى يكبر ابنها الذي ما زال طفلاً ، وأخيرًا عقدت معاهدة بين العثمانيين والنمسا لمدة خمس سنوات تدفع بموجبها النمسا جزية سنوية مقابل ما بقي تحت يديها من المجر. واستمر الأوربيون النصارى في نقض العهود فتنازلت إيزابيلا أرملة زابولي عن ترانسلفانيا لفرديناند ، وبذلك نقض العهد بين العثمانيين والنمسا ، فأسرعت الدولة العثمانية بالسيطرة على ترانسلفانيا عام 957هـ. وأرادت الدولة العثمانية استمالة أحد الأطراف الصليبية إليها حتى تفرق وحدتهم ضدها ، فعقدت مع فرنسا اتفاقية في عام 942هـ ، ولكنها شملت الكثير من الامتيازات لفرنسا التي سببت مشاكل كثيرة للعثمانيين حتى سقطت الخلافة ، خاصة وأن الكثير ممن خلفوا الخليفة سليمان قد تبعوه في منح الامتيازات التي جعلت للأجانب دولة داخل الدولة العثمانية ، وجعلت القنصل يحكم بقوانين بلاده في الدولة العثمانية في كل ما يتعلق بالرعايا الفرنسيين ، ومن أمثالها: ألا تسمع الدعاوى المدنية للسكان المسلمين ضد تجار ورعايا فرنسا ، ولا يحق لجباة الخراج إقامة دعاوى عليهم ، وأن يكون مكان دعواهم عند الصدر الأعظم لا عند أي محكمة كباقي الشعب ، وإذا خرج فرنسي من الدولة العثمانية وعليه ديون فلا يسأله أحد عنها ، وتكون في طي النسيان ، وغيرها من الامتيازات التي جعلت لهم

نفوذًا كبيرًا في أنحاء الدولة ، وبمرور الزمن أصبحوا يعيشون في أرض يباح لهم فيها فعل كل ما يريدون من استحلال للمنكرات والفجور ، ولا يستطيع أحد أن يكلمهم ، بل قيل إن سجونهم التي كانت تدار بواسطة بلادهم في الدولة العثمانية كانت عبارة عن قصور ، بها ما لذ وطاب من الجواري والخمور وغيرها. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أخذت كل دولة أجنبية تطالب بامتيازات لها في الدولة العثمانية كلما قوي أمرها ، ليزداد الخناق على الدولة العثمانية من الداخل ، إضافةً إلى الخناق المفروض عليها من الخارج والمتمثل في الحروب. ولقد أسر التتر المسلمون في القرم - في إحدى غاراتهم على الروس - فتاة بالغة الجمال تدعى روكسلان ، فأهدوها إلى الخليفة الذي اتخذها زوجة له ، وقيل إنها كانت يهودية روسية ، فعكفت على التدخل في شئون الحكم ، فطلبت من الخليفة أن يسمح لليهود الذين طردوا من الأندلس مع المسلمين بالاستيطان في أرجاء الدولة العثمانية ، والذين يطلق عليهم يهود الدونمة ، والذين لم يحفظوا الجميل للعثمانيين بعد أن رفضهم العالم وضاقت بهم الأرض بما رحبت ، فلم يجدوا إلا الدولة العثمانية تفتح لهم أحضانها ، وتظلهم بظلها ، والذين سيكون لهم دور رئيسي فيما بعد في سقوط الخلافة العثمانية ، وتوسطت أيضًا لدى الخليفة ليمنع التتر في القرم من محاربة الروس ، برغم أن الروس في ذلك الوقت كانوا قد سيطروا على أكثر بلاد التتر ، وارتكبوا فيها أبشع الجرائم التي تدل على حربهم الصريحة للإسلام. ولم تكتف روكسلان بذلك ، بل اجتهدت لتولي ابنها من السلطان سليمان - والذي سمِّي بسليم - الخلافة بعد أبيه برغم وجود أخيه الأكبر مصطفى القائد العظيم الذي حظي بحب الجيش والشعب له ، فقامت بعمل دسيسة نفذها الصدر الأعظم رستم باشا (المعيّن) بواسطتها وهو في نفس الوقت (زوج ابنتها من السلطان)! فحرّض رستم باشا الخليفة ضد ابنه ، وكتب إليه يحذره أن ابنه مصطفى يريد عزله وتنصيب نفسه على السلطنة فخرج إليه الخليفة ، وكان مصطفى يحارب الدولة الصفوية فاستدعاه أبوه إلى خيمته ، فما إن جاء ابنه حتى انقض عليه بعض الخدم فخنقوه ، ولم تكتف الأفعى بقتل مصطفى فأرسلت من يقتل ابنه الرضيع. ثم توفي الخليفة سليمان عام 974هـ ، وتولى بعده: الخليفة سليم الثاني).هـ. وأما عن سليمان القانوني المفترى عليه ، فقد كتب عنه وعن فضله ومناقبه الجمة الأستاذ جمال بن حويرب ، ما نصه: (لقد كان السلطان سليمان القانوني رجلاً عظيماً وقائداً مغواراً: فمنذ 1538 أمر السلطان سليمان بمحاربة البرتغاليين أينما كانوا ، وكان يرسل سفنه في كل مكان للدفاع عن أي مستغيث به حتى قام بتأمين كثير من المدن الإسلامية. وبانضمام القائد خيرالدين باربروسا إلى البحرية العثمانية استطاع السلطان أن يؤسس أقوى الأساطيل البحرية ، التي استطاعت أن تقلل من هجمات شارل الخامس وأمنت شمال إفريقيا تونس والجزائر وبعضا من المغرب ، واستطاع إنقاذ آلاف المسلمين من قبضة الأسبان قيل بلغ عددهم 70 ألفا. ولقد بقي السلطان سنة كاملة لم يرجع إلى قصره حتى حرر بغداد من الصفويين ، وإني أنصح باقتناء كتاب "سلطان الشرق العظيم سليمان القانوني" ، وهو من تأليف هارلود لامب وقد ترجم إلى العربية ، وهو كتاب ممتع ومفيد).هـ. وأما روكسلان زوجة سليمان القانوني المفترى عليها ، فقد كتب عنها وعن فضلها ومناقبها الجمة الأستاذ جمال بن حويرب ، ما نصه: (لم يكن في ظنّ ميرال أوكاي ، التي ولدت في أنقرة سنة 1959م ، وهي كاتبة سيناريو مسلسل القرن العظيم أو ما ترجم عند العرب "بحريم السلطان" ، والذي أثار ضجة كبيرة في تركيا حتى أوصلت بعض المتحمسين الأتراك إلى التظاهر أمام القناة التركية المنتجة. وكتبت الصحف عنه كثيراً من المقالات خاصة حول شخصية أم السلطان سليم الثاني

"روكسلان" ، التي ظهرت في المسلسل بشكل غير لائق بها ولا يمت إلى تاريخها ولا حقيقتها بصلة ، ولكن السيناريست "أوكاي" أخذت ما كتبه الأعداء عنها ولم يكتبه أحد من مؤرخي الدولة العثمانية فنسجت من خيالها هذا الدور الفظيع. والكاتبة أيضا ليست مؤرخة ولا علاقة لها بتاريخ بني عثمان ، ولكنها كانت تنفذ ما يطلبه منها المنتج والمخرج لهدف الإثارة والترويج ولو على حساب الحقيقة التاريخية. وهي ليست بدعا من الكتّاب ، بل أغلب مؤلفي القصص التاريخية يفعلون مثل فعلها عندما يكون نصب أعينهم حاجة المنتجين للربح وترويج أعمالهم التاريخية وإلا ستكون خسارتهم فادحة ، ولا ألومهم على ذلك وإنما ألومُ من يصدق هذا التاريخ ويعتقد أنه حقيقة! وأما "روكسلان"أو "روكسانة" الجارية الأوكرانية ، التي عرفت بخرّم سلطان أصبحت والدةً لرجل يعدّ من أعظم السلاطين العثمانيين وهو سليم الثاني ، ولها أفضال كثيرة وأوقاف وأعمال خيرية ، منها إكمال عيون زبيدة التي بدأتها زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد ، حيث وصل إلى علمها أنّ المياه صارت شحيحة لأهل مكة ، فأمرت بإكمال العيون حتى تصل إلى مكة المكرمة ، وقد قامت أيضاً ببناء مستشفيات ومبرات وأعمال خيرية ومساجد في تركيا وفلسطين ومكة وغيرها من بلاد المسلمين ، ولا يزال هناك مخطوطات ومصاحف تحمل اسمها أوقافاً لطلبة العلم والمساجد ، فهل يصح أن تسمى هذه المرأة الصالحة بالأفعى اليهودية كما ينعتها بعض من لا علم لديه؟ وهل نصدق ما يظهره هذا المسلسل عنها؟ الجواب: لا! ولن نقبل بتشويه هذا التاريخ العظيم لمجرد هوى كاتبة لا تعرفه ، هذا وقد توفيت هذه المرأة الجليلة في 18 إبريل من عام 1558م رحمها الله تعالى. ولا أدري ما سر إصرار بعض المؤرخين الغربيين على تشويه صورة والدة سليم الثاني ، وقد يكون هناك أسباب خفية منها أن سليم الثاني قام بأعمال عظيمة في إيقاف التوغل الأوروبي ، حتى ضربت جيوشه البرتغاليين في الشرق الأقصى وقام بت أمين كثير من البلدان الإسلامية الخاضعة لسلطانه ، مفوتاً فرصة كبيرة على الطامعين الأوربيين وغيرهم ، أم هي الادعاءات البغيضة على سلاطين الإسلام حتى تبقى صورة المسلمين مشوهة أمام العالم المتقدم! وبهذا يستطيعون التشكيك في الإسلام نفسه!).هـ. وتحت عنوان: (القصة الحقيقية للسلطان العثماني سليمان القانوني - مرارة الواقع ودراما كاذبة – وليس كما حرفها الكفار وجعلوا مسلسل حريم السلطان هي الرواية ، فقد كتب الأستاذ صلاح أبو دية ما نصه: (إنها قصه من تاريخنا المشرف العظيم ، وللأسف كثير منا لا يعرف هذا التاريخ ، والأغرب أن قصتنا اليوم عن ملك هو من أعظم ملوك الإسلام وأعظم سلاطين الأرض على مر العصور ، يكفي أن أقول بأن دولته ومملكته هي الأكبر والأقوى والأعظم في تاريخ البشريه باستثناء ملك سليمان! تخيل أن 99 بالمئة من المسلمين لا يعلمون شيء عن هذا السلطان ولا حتى يعلمون اسمه! إنه السلطان سليمان القانوني من خلفاء الدولة العثمانية وهو من أعظم سلاطين الإسلام وأعدلهم وأكثرهم جهاداً! وللأسف الشديد شُوهت صورة الدولة العثمانية من الغربيين والمناهج التعليمية لصرف أمة الأسلام عن عظيم تاريخها! أما السلطان سليمان القانوني فهو أكثر سلاطين المسلمين جهاداً وغزواً في أوروبا – فلقد وصلت جيوش المسلمين في عهده إلى قلب أوروبا عند أسوار فيينا مرتين! فهو بذلك مجدد جهاد الأمة في القرن العاشر! أقام السنّة وأحيا الملّة وقمع البدعة والروافض! صاحب انتصار المسلمين في معركة موهاكس التي كانت من أيام الله الخالدة ، وتُعد غرة المعارك الإسلامية في شرق أوروبا بعد معركة وبوليس وفتح القسطنطينية - وهو أعظم سلاطين الدولة العثمانية وأكثرهم هيبة ورهبة في قلوب النصارى وأشدهم خطرا عليهم ،

وكان من خيار ملوك الأرض! حكم المسلمين قرابة ثمانية وأربعين سنة ، وامتدت دولة الخلافة الإسلامية في عهده في ثلاث قارات وأصبحت القوة العظمى في العالم بأسره بلا منازع ، وتمتلك أعتى الجيوش والأسلحة وصاحبة السيادة في البحار والمحيطات! يقول المؤرخ الألماني هالمر: "كان هذا السلطان أشد خطراً علينا من صلاح الدين نفسه". ويقول المؤرخ الإنجليزي هارولد: "إن يوم موته كان من أيام أعياد النصارى". فمَن كان السلطان سليمان الأول "القانوني"؟ إنه عاشر سلاطين الدولة العثمانية وثاني خليفة للمسلمين في الدولة العثمانية - وُلد السلطان سليمان خان الأول بن السلطان سليم الأول عام 900هـ - كان طويل القامة حسن الوجه - وكان أبوه هو السلطان سليم الأول الذي ضم مصر والشام للدولة العثمانية - والذي تنازل له آخر خليفة عباسي في القاهرة عن الخلافة وأرسل له مفاتيح الحرمين - وأصبح أول خليفة من الدولة العثمانية ولُقب بخادم الحرمين الشريفين. وكان ميلاد السلطان سليمان الأول – رحمه الله – خير وبركة على الأمة الاسلامية واستبشر به المسلمون خيراً - وظل السلطان سليمان الأول – رحمه الله – في كنف أبيه السلطان سليم يربيه ويرعاه ويدربه على أمور السياسة والحكم - فكان أميراً على بعض الولايات في الأناضول أثناء خلافة أبيه ، وظل على ذلك الأمر حتى توفي أبوه السلطان سليم الأول عام 926هـ ، وتولى الخلافة سليمان الأول ودخلت الدولة الإسلامية في عهد جديد ، عهد السلطان الفاتح الغازي المجاهد سليمان الأول! تولى السلطان سليمان الأول الخلافة وهو ابن 26 سنة! – وكان أول شيء فعله السلطان سليمان – رحمه الله – أنه أقام السنّة وأعلى منارها وقمع البدعة وأهلها وقضى على الروافض وأحيا الملة ونشر العدل في ربوع الدولة الإسلامية فاستبشر الناس خيرا بعهده وكان السلطان سليمان يستفتح رسائله بقول الله تعالى: (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) تيمنا بنبى الله سليمان – حتى قال عنه المؤرخون إنه "سليمان زمانه"! لكثرة جنده ولعظيم هيبته ولنفاذ أمره في ملوك الأرض ، ولإقامته للسنّة ولجهاده ضد النصارى ، وأجمع المؤرخون من المسلمين وغيرهم أن ذروة مجد الدولة العثمانية وأعظم أيامها كان في أيام السلطان سليمان القانوني - وأنه كان آخر سعد الدولة العثمانية – وكان رحمه الله رؤوفا برعيته ، وترأف بحال الناس فأطلق سراح 600 مسجون من مأسوري مصر. وردع الظالمين عن المظالم ، وردع أهل الشرور والمفاسد ، وأمن الناس في أيامه وانتشر العدل في سائر الأركان ، واندثر الظلم ، واجتهد رحمه الله في أول جلوسه في نفي الزنادقة والمبتدعين في الدين! وعمل السلطان سليمان تعديلات إدارية في إدارة الدولة الإسلامية وشؤون أفرادها من مختلف الديانات والجنسيات والأعراق والأقليات ، فجلب السلطان سليمان العلماء الربانيين ، وجلس معهم ووضع قوانين إدارية مستمدة من الشريعة الإسلامية ، وبالفعل كان من أهم أعمال السلطان سليمان الإدارية أنه وضع قانون الدولة العثمانية المسمى "قانون سليمان نامه" أي "قانون السلطان سليمان"! وكان الذي شاركه في وضع تلك القوانين من القرآن والسنة هو العالم الجليل أبو السعود أفندي المفسر الكبير وصاحب التفسير العظيم "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" المشهور بـ "تفسير أبى السعود". فانظروا كيف كان حكام المسلمين يستعينون بالعلماء ولا يستغنون عن مشورتهم ، وجعل السلطان سليمان منصب الفتوى أعلى المناصب قاطبةً بعد منصب الخلافة! وبعد وضع تلك القوانين الإدارية التي تحكم الدولة الاسلامية ، شرع السلطان سليمان في تطبيقها بكل عدل ومساواة وبكل حزم - فكما قيل: الحزم سياج العدل! ومن هنا جاءت تسمية السلطان سليمان الأول بـ"القانوني" ،

ليس لأنه من وضع القوانين - بل لتطبيقه تلك القوانين بكل صرامة لا يفرق بين كبير أو صغير ولا بين عامة وخاصة! ومنذ تولي السلطان سليمان القانوني الخلافة - لم يركن إلى الدعة والراحة - بل لبس لامة الحرب من أول يوم ، وظل مجاهدا إلى آخر يوم في عمره ، وما ترك الجهاد قط - وما كان ينزل من على صهوة جواده إلا ليمتطي جواداً آخر ليمضي مجاهداً في سبيل الله ولإعلاء كلمة الله! ولا عجب من أن معظم الحديث عن السلطان سليمان القانوني كان عن جهاده - لأنه لا يوجد جانب أعظم ولا أروع في سيرة السلطان سليمان مثل جهاده ضد المشركين فى أوروبا وفتوحاته المجيدة!ولقد استطاع السلطان سليمان القانوني أن يوسع رقعة الدولة الإسلامية في ثلاث قارات ، حتى أصبحت دولة مترامية الأطراف - وكان سبيله في تحقيق هذا الهدف هو سيفه ودرعه! والحقيقة أن المؤرخين ذكروا أن عدد ما افتتحه السلطان سليمان القانوني في حياته من الحصون والقلاع والمدن ما يناهز 360 حصناً! وما علمنا أن من قادة المسلمين قديماً وحديثاً من افتتح مثل هذا العدد! فلقد فتح بلجراد (25 رمضان 926هـ - 31 أغسطس 1521م). وعندما جلس السلطان سليمان القانوني على كرسي الخلافة ، كان أول ما فعله هو إرسال رسالة إلى ملوك أوروبا يُعلمهم بتوليه الخلافة ، ويأمرهم بدفع الجزية المقررة عليهم كما كانوا يفعلون في عهد أبيه السلطان سليم الأول. فما كان من ملك المجر إلا أن قتل رسول السلطان سليمان! فاستشاط السلطان سليمان غضباً وانفعل قائلاً: أيُقتل سفير دولة الإسلام؟! أيهددني ملك المجر؟! فما أصبح الصباح إلا وقد أعدّ السلطان سليمان جيشاً جرار مدعوماً بالسفن الحربية وكان السلطان سليمان بنفسه على رأس هذا الجيش ، وكان قاصداً مدينة بلجراد المنيعة والتي تُعد بوابة أوروبا الوسطى وحصن المسيحية كما كانوا يطلقون عليها! ولكم أن تعلموا أن محمد الفاتح رحمه الله حاول أن يفتح بلجراد ولكنه فشل - بل وأصيب إصابات خطيرة أثناء حصارها. ولما انصرف عنها قال: عسى أن يخرج الله من أحفادي من يفتح الله تلك المدينة على يديه! وبلجراد كانت لها مكانة عظيمة في قلوب النصارى وخصوصاً بعد سقوط القسطنطينية وسمّوها (حصن المسيحية)! ويذكر المؤرخون أن السلطان سليمان عندما كان ولياً للعهد كان يمنّي نفسه بفتح بلجراد التي عجز أجداده (مراد الثاني - محمد الفاتح - بايزيد الثاني) عن فتحها! توجه السلطان سليمان القانوني على رأس جيش عرمرم مكوّن من كتائب الإنكشارية الذين ما أن يسمع النصارى في أوروبا باسمهم فيأخذ الرعب منهم كل مأخذ وترتعد فرائصهم - ومزود بأعتى المدافع والأسلحة يمدهم 3 آلاف جمل محمل بالأسلحة و30 ألف جمل محمل بالمهمات وسفن تحمل الخيول و50 سفينة حربية ومئات من المدافع العملاقة الفتاكة التي كانت فخر الجيوش الإسلامية. وبالفعل يبدأ السلطان سليمان في حصار قلعة بلجراد ، وبعد شهرين ونصف من الحصار تسقط قلعة بلجراد في 2 رمضان 927هـ - ثم دخل السلطان سليمان القانوني المدينة نفسها فاتحاً يوم 26 رمضان 927هـ! وكان يوماً مشهوداً ، وأمر السلطان سليمان أن يرفع الآذان من القلعة ، ويذكر صاحب كتاب "تاريخ بلجراد الإسلامية" نقلاً عن صاحب يوميات السلطان سليمان إلى بلجراد "بعون الله تعالى تم اليوم فتح قلعة بلغراد. وارتفع صوت المؤذن من القلعة. ونزل خبر سقوط بلجراد على النصارى والبابا فى روما كالصاعقة وارتعدت فرائصهم من الرعب! وعلموا وقتها أنهم أمام سلطان من طراز فريد ، وعلموا أنه سيعيد لهم سيرة بايزيد الأول ومحمد الفاتح - فوقعت هيبته في قلوب ملوك أوروبا قاطبةً ، وبعث إليه ملك روسيا والبندقية وسائر ملوك أوروبا يهنئونه بالفتح ويعطونه الجزية عن يد وهم صاغرون! ومن يومها سمّى المسلمون بلجراد (دار

الجهاد) وكان منها القاعدة الحربية لانطلاق جيوش المسلمين لغزو باقي أوروبا ، واهتم المسلمون بالأوجه الحضارية في بلجراد ، حتى سمّاها المؤرخون (أندلس البلقان) وكانت تنعم بأوجه الحضارة ، بينما كانت سائر بلاد أوروبا لا تعرف شيئاً عن أوجه الحضارة ولا عن تخطيط الشوارع ورصفها وإنارتها ليلاً! مَن مِن المسلمين الآن يعرف شيئاً عن بلجراد الاسلامية؟! فقد ضاعت كما ضاعت الأندلس ، فصدق من سمّاها (أندلس البلقان)! فهي شبيهة الأندلس في حدث إقامتها وحدث نهايتها! وظل السلطان سليمان القانوني في بلجراد حتى عيد الفطر وأقام صلاة العيد في أكبر كنائسها بعد تحويله إلى مسجد ولم ينزل السلطان سليمان من جواده حتى امتطى جواداً آخر مجاهداً في سبيل الله رافعاً كلمة الله خفاقة. وأما فتح جزيرة رودس فكان في (13 صفر 929هـ - 1 يناير 1523م) ، فلقد كانت جزيرة رودس هي الشوكة المنيعة التي في حلق الدولة العثمانية ، والتي تمتاز بمناعة وتحصين نادر جدا ورهيب ، حتى أن سلاطين المسلمين في صدر الدولة العثمانية ما استطاعوا فتحها أبداً كمحمد الفاتح! وكان يسكن جزيرة رودس نصارى الروم الصليبيون المسمون (فرسان القديس يوحنا) الذين طُردوا من بلاد الشام بعد الحملات الصليبية ، وكانوا تحت سلطة البابا في روما ، وكانوا على عصبية شديدة جداً ضد المسلمين ، فكان طوال مكثهم يغيرون على سفن المسلمين المتجهة للحجاز يقتلون رجالهم ويأسرون أطفالهم ويهتكوا عرض نسائهم وينهبوا أموالهم ويقتلون الحجيج ويحرقون سفن المسلمين وكانوا يبغضون المسلمين جداً ، ويستغلون حصونهم في الجزيرة المنيعة ، فكانوا على اطمئنان بأن المسلمين لن يستطيعوا أن يصلوا إليهم. ولقد نهب الصليبيون في رودس أحد السفن الإسلامية التي تُقلّ الحجيج والتجار المسلمين فقتلوهم وحرقوا سفنهم ، وعلم السلطان سليمان القانوني بهذا الخبر ، فاستشاط غضباً لله وأقسم أنه لن يركن للراحة حتى يفتح جزيرة رودس ويطرد الكفار الملاعين منها! وبالفعل أخذ السلطان سليمان استعداده لفتح جزيرة رودس براً وبحراً ، واستغل انشغال ملوك أوروبا بالحروب بينهم وانشغال بابا الفاتيكان بالتصدي لدعوة مارتن لوثر وقيام المذهب البروتستانتي ، فأرسل حملة عسكرية بقيادة مصطفى باشا قوامها 200 ألف جندي مزودين بأعتى المدافع ومعهم 700 سفينة حربية وبدأ الهجوم على أسوار رودس إلا أنهم لم يصيبوا منها شيئا لمناعتها. فغضب السلطان وسافر بنفسه ومعه كتائب من المجاهدين وتولى القيادة بنفسه أمام أسوار جزيرة رودس وحاصرها السلطان 6 أشهر كاملة وضيّق عليها الخناق وكان طوال تلك المدة يواصل إطلاق المدافع ، حتى بلغ عدد ما أطلقوه من المدافع 220 ألف مدفع! والمصادر التاريخية تذكر لنا حالة الطقس أثناء حصار المسلمين لرودس أنها كانت سيئة للغاية ، فالأمطار تتساقط على المجاهدين ، والسماء تبرق والرعد يصمّ صوته الآذان ، ومع ذلك لم يفت ذلك في عضدهم. فاستسلم فرسان القديس يوحنا ، وأمهلهم السلطان مدة 12 يوماً يخرجون من الجزيرة ، وأعطاهم أماناً على كنائسهم ودينهم كان هذا ديدن السلطان في فتح بلاد النصارى بأوروبا. ودخل السلطان سليمان القانوني جزيرة رودس فاتحاً يوم 13 صفر عام 929هـ الموافق 1 يناير 1523م ، وهنا اهتز عرش النصرانية في روما والعالم النصراني كله. وخرج فرسان القديس يوحنا منكسين رؤوسهم من الذل والهوان متجهين إلى جزيرة مالطا ، فسكنوها وسموا أنفسهم فرسان مالطا. ويحكي لنا المؤرخ عبد الرحيم العباسي الذي شارك في هذه الحملة أن المسلمون وجدوا في الجزيرة أكثر من 3 آلاف أسير في حالة يُرثى لها من التعذيب والقهر والذل ، ويقول بأن المجاهدين العثمانيين بكوا عندما رأوا حال الأسرى! وعندما دخل السلطان

سليمان المدينة أمر جنوده بتجهيز الكنيسة لصلاة الجمعة ، فأُزيلت الصور والتماثيل وصُنع منبر خشبي بسيط لهذه الغاية ، وبالفعل أُقيمت صلاة الجمعة وخُطب للسلطان وغص المسجد بالمصلين ولله الحمد والمنة. وهذا عبد الرحيم العباسي عند دخول المسلمين رودس بعد الحصار ، وكان شاهداً هذا الفتح:- يقول – رحمه الله – في كتابه (منح رب البرية في فتح رودس الأبية):- (ثم برز الأمر الشريف بإرسال السَنْجق "لواء الفتح عند العثمانيين" المنصور ، واللواء الذي هو لطيّ الكفار منشور ، ليوضع على سور القلعة ، بشامخ العزة والرفعة ، فذهبوا به على نهاية التعظيم وغاية الإجلال والتكريم ، والعساكر الإسلامية به محدقة ، وعيون المسلمين إليه مُحَدَّقة ، وعيون المشركين مطرقة - وأصوات الطبول والبوقات قد ملأت النواحي والجهات - والأصوات المرتفعة بالتهليل والتكبير - والصلوات والتسليم على سيدنا ومولانا محمد البشير النذير - والسراج المنير - وقلوب أعداء الله من ذلك في أحرّ من نار السعير - ولم يزالوا به سائرين - وقد أصبحوا على أعداء الله ظاهرين - إلى أن وضعوه من الحصن بأعلى مكان - وأعلن المؤذنون للظهر بالآذان - وأجابهم من المسلمين الثقلان - أعنى الجن والبشر حتى الشجر والحجر والمدر - وكانت ساعة مشهودة - وفي مواسم الأيام معدودة - وليس الخبر كالعيان - ولا يقدر على تأدية وصف ذلك بديع بيان - ولما أُدخل السنجق الشريف دخل معه كثيرٌ من العساكر - وجمُ غفير من القبايل والعشائر - واتخذوه من أحب المواطن - واقتسموا منه المساكن - وذهب ما كان يضمره المشركون - فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون - وبرز الأمر الشريف بأخذ أسلحة الكفار - وإلباسهم شعار الذلة والصغار - فسُلِبوها بأسرها - وقُلِّها وكُثرِها - حتى أُخذت منهم السكاكين - وصاروا بعد العز المكين - إلى ذل الخايف المستكين - وانتقل بعد بكاء العيون منهم إلى ضحك الأفواه - وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله - ولم يسع طاغيتهم من ذلك إلا إظهار الطاعة).أ.هـ. ومن عجيب المصادفات أن خلال هذه الأيام كان البابا أندريانوس الثاني يجري مراسم أعياد الميلاد في كنيسة سان بيترو في روما ، فتدحرجت حجارة سقطت من حافة سقف الكنيسة نحو قدميه ، فتشأم البابا ، وقال: (سقطت رودس)! وأما معركة موهاكس الخالدة في (21 من ذي القعدة 932هـ - 29 من أغسطس 1526م) ، فإن فى تاريخ المسلمين معارك كانت من أيام الله الخالدة كاليرموك والقادسية وحطين وعين جالوت وملاذ كرد والزلاقة وشانت يعقوب.....إلخ ، وكانت من تلك الأيام التي أنزل الله فيها النصر على جند الإيمان ، وقذف الرعب في قلوب جند حزب الشيطان ، يوم معركة (موهاكس) والتي هي من أشرس معارك المسلمين ، وأشد قهراً وذلاً في قلوب المشركين إلى يوم الناس هذا! وإنه ليوجد مثّل شعبي في المجر ، يتناوله أهلها إذا حدث أمر سيىء فيقولون: أسوأ من هزيمتنا بموهاكس! وبعض الكتّاب سمّى هذه المعركة بأنها المعركة التي أدخلت الرعب على أوروبا! يا لله! إلى هذا الحد! فما تفاصيل تلك المعركة الخالدة؟ لقد ظهرت في هذه الفترة قوة مملكة إسبانيا بصورة رهيبة جداً ، يقودها رجل مشهور وذائع الصيت في أوروبا ، وهو شارل الخامس أو شارلكان ، وكان هذا الخبيث النجس حفيد إيزابيلا وفرديناندو الذيْن دخلا غرناطة عام 1492م ، وأسقطا الحكم الإسلامي في الأندلس إلى الأبد ، وقادا حملات محاكم التفتيش ضد المسلمين. وأما شارلكان أو شارل الخامس ، فاستطاع أن يبسط نفوذه على إسبانيا والبرتغال وألمانيا والنمسا وهولندا ، وأسس إمبراطورية ضخمة وقوية جدا ، وكان يحاول أن يفرض سيطرته على المجر لتكون حاجزا له ضد الدولة العثمانية والمسلمين! فانتبه لذلك السلطان سليمان ، وعلم خطورة

سيطرته على المجر ، وما يترتب عليها من أوضاع خطيرة للمسلمين في أوروبا الوسطى! وهنا ظهر جانب آخر وخيانة خلدها التاريخ لأحفاد بن سبأ الملاعين ، قادة الدولة الصفوية الرافضية الخبيثة! فلقد اتفقت الدولة الصفوية مع المجر ضد الدولة العثمانية ، وعندما علم السلطان سليمان بهذا الأمر استشاط غضباً ، وبدأ في التحرك لغزو المجر وضمها للدولة العثمانية الإسلامية ، وأراد أن تكون تلك المعركة شرسة وعنيفة ليلقن الأوروبيين درساً ، وخصوصاً شارلكان حتى يصرف أبصاره عن المسلمين! وبالفعل خرج السلطان سليمان القانوني من عاصمة الخلافة وحاضرة الدنيا إسلامبول "إسطنبول" في 11 رجب عام 932هـ - 23 إبريل 1526م ، على رأس جيش عرمرم من المجاهدين قوامه 100.000 مقاتل مزودين بـ 300 مدفع عثماني عملاق ، ومعهم 800 سفينة بحرية لتسهيل تحرك المسلمين بين الأنهار! ووصل السلطان إلى بلغراد المسلمة ومكث هناك يستقبل التهاني بعيد الفطر ، ثم تحرك رحمه الله حتى وصل إلى نهر طونة "الدانوب" وأمر بتشييد جسر يعبر عليه المسلمون ، وبالفعل تم تشييد الجسر في مدة زمنية قليلة ، وظل عبور الجيش الإسلامي عليه لمدة 4 أيام ، وهنا أمر السلطان سليمان أمراً عجيباً! وقد أمر السلطان سليمان رحمه الله بهدم الجسر! يقول صاحب كتاب (أخبار الدول وآثار الأول) معلقا على هذا الأمر: "ثم أمر السلطان برفع الجسر فرُفع ، فبقي المسلمون في بلاد الكفار ، وذلك لشهامته وقوة عزيمته ، وقطع أطماع العسكر من الفرار إلى بلادهم" أ.هـ. وفي أثناء مسير السلطان سليمان رحمه الله افتتح عدة قلاع تقع على نهر الدانوب ، ولها أهمية حربية كبيرة ، ثم يواصل السلطان سليمان القانوني تقدمه حتى وصل إلى وادي موهاكس في 20 ذي القعدة عام 932هـ - 28 أغسطس عام 1526م ، وبات السلطان والجنود ليلتهم في الدعاء والتهليل والتكبير ، وتضرع السلطان سليمان إلى الله سبحانه وتعالى وسأله النصر - وكان يمر بين صفوف الجند فيخطب فيهم عن الجهاد وعن فضل الشهادة ، وفي اليوم الثاني ، وبعدما صلى السلطان صلاة الفجر ، دخل بين الجنود وحمّسهم ، وكان مما قال لهم: وكأني برسول الله – صلى الله عليه وسلم - ينظر إليكم الآن! فلم يتمالك أحد من الجند دموعه ، وبكى السلطان ، وأبكى كل من حضر. أما على الجانب الآخر ، عندما علم ملك المجر لايوش "لويس" الثاني بقدوم المسلمين إليه فأعدّ جيشاً جراراً ، واستعان بملوك أوروبا ، فأمدته ألمانيا بـ 38000 من خيرة الفرسان لديها ، فوصل عدد جيوش الكفار إلى 200.000 ألف مقاتل. وبات الكفار ليلتهم في سهل موهاكس ، ومعهم القساوسة والرهبان ، يحثونهم على قتال المسلمين ، وأتوا بالصلبان يرفعونها أمام الجند. وعند الصباح صُفّت الصفوف وبرز الشجعان ، وكان السلطان سليمان قد وضع خطة مع أركان الجيش وهي: أن يصطف جيش المسلمين في ثلاثة صفوف ، وأن يكون السلطان ومن معه من الإنكشارية في الصف الثالث ، ومن ورائهم مدافع المسلمين ، حتى إذا بدأ القتال يتقهقر الصفوف الأولى من المسلمين ، ويتراجعوا خلف السلطان ومن معه من الإنكشارية ، وبالتالي سيفسح المجال للمَدافع أن تحصد الكافرين حصداً! وبالفعل التزم المسلمون بالخطة ، وظل المسلمون واقفين فى أرض المعركة على الهيئة التي أمرهم بها السلطان وقادة الجيش ، وطال انتظار الفريقين ، حتى بدأ الملك لويس الثاني في الانقضاض على المسلمين وقت العصر. وبدأ القتال ، ووالله كان القتال في شدته وضراوته يشبه معاركنا الحديثة في شدتها وضراوتها مع اختلاف نوع السلاح المستخدم! والتزم المسلمون بالخطة وتراجعوا إلى الوراء ، فسارع الكفار خلفهم وظنّوا أن النصر سيكون حليفهم ، وتقدم الكفار حتى وصلوا إلى المكان الذي يقف فيه السلطان ،

وحاولوا قتل السلطان وبالفعل أصابوه في صدره بسهم ، إلا أن السهم لم ينفذ إلى صدره ولله الحمد ، والتحم الفريقان ، وذهب ثلاثة من شجعان المجر إلى السلطان سليمان ، إلا أنه قتلهم ولله الحمد ، وكان مشهوراً بالشجاعة رحمه الله. وهنا أعطى السلطان الأمر بإطلاق المدافع! وإلى الآن يروي المؤرخون الأوروبيون هذه المعركة بشيىء من الذهول ، وعندما يصلون إلى هذه النقطة يصيبهم الدهشة والعجب! يُروى أن مدافع المسلمين أُطلقت بسرعة ومهارة فائقة للغاية ، وكأن المسلمين استعانوا بالجن في هذا الأمر ، ولا عجب أن يكون هذا حال من استعان بالله واستمد قوته من الله! فكان إطلاق المدافع بصورة سريعة جداً وبدقة كبيرة ، مما أصاب الجيش المجري بحالة من الذهول والهلع والرعب ، فولوا أدبارهم ، والمسلمون وراءهم يركبون أذنابهم ويعملون سيوفهم فيهم كما أرادوا. وفرّ المجريون المعروفون ببسالتهم وضراوتهم أمام طلقات المسلمين وسيوفهم ، وفرّ ملكهم لويس الثاني ، بل إنه غرق أثناء فراره ومات! وانتصر المسلمون انتصارا لم يُسمع بمثله في أقطار الدنيا ، وكان نصراً مؤزراً ولله الحمد والمنة. والعجيب أن مدة المعركة كانت ساعة ونصف فقط! وكان عدد قتلى المسلمين لم يتجاوز 150 شهيد ، نحسبهم كذلك عند الله. وعدد ما أسر المسلمون من الكفار 25000 ، والباقي 175000 من الجنود ما بين قتيل وجريح! وبعد هذه المعركة أصبح الجيش المجري في ذمة التاريخ ، وسقطت إمبراطورية المجر التي دامت قرابة 6 قرون (سنة 637) ، وانتفضت النصرانية من أقصاها إلى أقصاها. وكانت هذه المعركة هي أسوأ هزيمة للنصارى في أوروبا قاطبةً بعد سقوط القسطنطينية وهزيمتهم في وبوليس أيام بايزيد الأول. وصلى السلطان صلاة المغرب مع الجنود في أرض المعركة ، ثم واصل مسيره إلى عاصمة المجر وهي مدينة "بودا" فدخلها بدون أي مقاومة تذكر في 3 من ذي الحجة 932هـ - 10 من سبتمبر 1526م ، ومكث فيها 13 يوماً ، واستقبل التهاني بعيد الأضحى المبارك في سراي الملك هناك ، فكان العيد عيدين ، عيد فتح المجر وعيد الأضحى ، فلله الحمد والمنة. وبعد هذه المعركة تبدلت حسابات أوروبا ، وتغيرت خريطة المنطقة ، وما اجترأ أحد من نصارى أوروبا أن يقوم بأي عمل ضد المسلمين بعد هذه المعركة الفاصلة في تاريخ أوروبا. ولقد جاهد السلطان سليمان ضد الروافض والدولة الصفوية ، وقاد ثلاث حملات حربية ضخمة ضدهم. أولئك المجرمون الذين ارتكبوا المجازر في أهل السنة في فارس والعراق! ويوجد مثل دارج في أوروبا أيامها: (لولا الشاه لوصل العثمانيون إلى الراين. بمعنى لولا تعاون الروافض في الدولة الصفوية مع الصليبين النصارى بأوروبا ، لاستطاع المسلمون العثمانيون أن يصلوا إلى نهر الراين في ألمانيا ، ولاستطاع المسلمون اجتياح أوروبا الغربية كلها ، ولربما أعادوا الأندلس مرة أخرى! وقد أفتى علماء الدولة العثمانية بضرورة قتال الروافض ، وبالفعل خرج السلطان سليمان القانوني على رأس حملة عسكرية من المجاهدين لقتال الروافض من الدولة الصفوية. وكان أول الحملات عام 941هـ ، واستطاع ان يدخل العراق فاتحاً ، ودخل بغداد وطرد منها الروافض ، وأسقط مذهبهم الخبيث ، ونفى علماؤهم وطهر بغداد من آثارهم ، واتجه إلى قبر الإمام أبي حنيفة ، فغضب علي ما رآه هناك من النجاسات ، فأمر بتطهير التربة وبنى فوقها قبة! ثم كانت حملته الثانية عام 955هـ ، والتي استطاع أن يهزم الروافض ، ودخل عاصمة ملكهم "تبريز" ، وفرّ شاه طاهمسب من أمامه وتوغل في بلاد أذربيجان ، فلم يستطع السلطان سليمان أن يتعقبه لوعورة الطريق ولتساقط الثلج واكتفى بدخول عاصمة الدولة الصفوية. وكانت الحملة الثالثة والأخيرة عام 962هـ ، واستطاع أن يخلص أذربيجان وإقليم

القفقاس "القوقاز" وشرق الأناضول من الروافض نهائياً ، وبهذه الحملات استطاع أن يدرأ عن المسلمين خطورة النفوذ الشيعي تحت زعامة الدولة الصفوية الرافضية النجسة. ولقد دخل المسلمون إقليم أذربيجان وخلصوه من الروافض. إنه لولا أن منّ الله علينا نحن المسلمين بهذا السلطان الجليل لتغلغل المد الشيعي في الدولة العثمانية بأكملها ، ولدخل الروافض مصر والشام مرة أخرى. وكذلك معركة "بروزة" البحرية الخالدة في (4 جمادى الأولى 945هـ - 28 سبتمبر 1538م) فاتحة خير على المسلمين! ونحن قليلا ما نسمع عن المعارك البحرية الإسلامية ، ولا نتذكر إلا معركة ذات الصواري أو معارك المسلمين في العصور الأولى! ولقد أولى المسلمين عناية فائقة بصناعة السفن وبناء أسطول إسلامي قوي لصد هجمات النصارى في البحر المتوسط ، ولصد هجمات الفايكنج أو المجوس كما كان يسميهم المسلمون في الأندلس. وكانت الدولة العثمانية تهتم جدا ببناء قوة بحرية عسكرية ضخمة لصد هجمات النصارى في البحر المتوسط. فاهتم السلطان سليمان القانوني بالبحرية الإسلامية ، وأولى قيادتها لرجل من المجاهدين ، فهو بذلك أفضل من جاهد في البحر من المسلمين في التاريخ الإسلامي! تُرى هل يعلم المسلمون عنه شيئا؟! هل سمع المسلمون عن المجاهد البطل المسلم (خير الدين بربروس)؟! نعم هو خير الدين بربروس ، وأطلق عليه الأوروبيون لقب (باربروسا) أي "ذو اللحية الحمراء" ، وكان هذا البطل وبالا على النصارى في العالم كله قاطبةً ، حتى إن سكان السواحل الأوروبية في إيطاليا أو إسبانيا عندما يريدون إسكات أطفالهم يقولون: اسكت وإلا جئنا لك ببربروسا خير الدين! كان ذعرا للنصارى على السواحل المطلة على البحر المتوسط . ويصفه الأوروبيون بالقرصان! وُلد خير الدين بربروس رحمه الله في جزيرة لسبوس باليونان المسلمة عام 857هـ ، ونشأ خير الدين على البحرية وشارك مع أخيه في قيادة سفن المجاهدين المتطوعين لصد هجمات الأسبان عن الجزائر والمغرب وإنقاذ مسلمي الأندلس من الهلاك. وذاع صيت "عُرّوج" أخو خير الدين وكان مصدر قلق للنصارى في البحر المتوسط ولنصارى جزيرة رودس - وفي أحد المعارك قُتل "عُرّوج" في أحد معاركه ضد الأسبان الصليبين عام 924هـ ، عن عمر يناهز الخمسين سنة! واحتل الأسبان مدينة تلمسان بالجزائر ، وتولى خير الدين رحمه الله قيادة أسطول المجاهدين واستبشر المسلمون به خيراً. وقاد حملات حربية رائعة ضد النصارى على السواحل الأسبانية والإيطالية ، وحرر مدينة تونس وتلمسان وغيرها من مدن السواحل الإسلامية التي احتلها النصارى! وفي عام 925هـ استطاع خير الدين بربروس أن ينتقم لأخيه من الأسبان انتقاماً بالغاً دمّر فيه سفن النصارى ، وأسر منهم عددا أمام سواحل الجزائر ، وفي عام 935هـ استطاع خير الدين بربروس أن يدمّر معقل الصخرة بالجزائر وحاميته الأسبانية ، وفي عام 936هـ انتصر خير الدين على الأسبان أمام جزر الباليثار ، وفي عام 937هـ استطاع أن يهزم النصارى بقيادة قائدهم المغوار أندريا دوريا هزيمة ساحقة في شرشال. وكان خير الدين رحمه الله كلما خرج من معركة دخل معركة أخرى مع النصارى ، وفي إحدى معاركه لصد هجمات الأسبان على الجزائر قال: (إن من كان يؤمن بالله ورسوله ، ويريد الجنة في الآخرة ، فعليه أن ينضم إلى جيشه بكل سرعة ، وذلك لمهاجمة وهران والمرسى الكبير). وأصبح خير الدين بربروس مصدر رعب وهلع للنصارى على السواحل ، حتى إن خير الدين رحمه الله أخذ 36 سفينة فقط ، واتجه بها إلى الساحل الغربي للأندلس ، ولم تستطع الأساطيل الأسبانية أو أي أسطول نصراني آخر أن يتدخل خوفا من خير الدين رحمه الله. واستطاع خير الدين بربروس أن ينقذ 70.000

من مسلمي الأندلس الذين نزل عليهم جام غضب شارلكان بعد خسائره أمام خير الدين بربروس وسليمان القانوني في موهاكس! وكان خير الدين يكمن في السواحل الغربية للسفن القادمة من الأمريكتين محملة بالذهب والأموال ، فكان يتصدى لها ويأخذ كل ما فيها من ذهب وأموال ويعطيها للمسلمين حتى تقوى بها شوكتهم ضد الأسبان. وهنا جنّ جنون النصارى ، وحتى البابا بولس الثالث في روما! وسمّوا أعمال خير الدين بربروس بالقرصنة. وللأسف الشديد مازالت الكتابات عن خير الدين بربروس تصفه بالقرصان خير الدين ، حتى المؤلفين من العرب والمسلمين مازالوا يسمّون خير الدين بالقرصان ولا حول ولا قوة الا بالله. وهنا انتهز السلطان سليمان الفرصة وكتب لخير الدين يستدعيه بصفته خليفة المسلمين. فاتجهت أنظار الدولة العثمانية إلى جهاد هذا البطل ، وأرادت أن تكافئه وأن تعينه رسمياً ضمن أسطولها البحري ، ليُصبغ جهاده ضد النصارى صبغة رسمية وشرعية ، وحتى يعلم الجميع أن الدولة العثمانية هي حامية الدول الإسلامية في أي مكان ، حتى ولو لم تكن تتبع السيادة العثمانية. وأكبر دليل على هذا ما فعله السلطان سليمان من إرسال أسطول بحري بقيادة سليمان باشا إلى الهند لصد هجمات البرتغاليين ، وأرسل كذلك أسطوله إلى البحر الأحمر وعدن لصد هجمات البرتغاليين الذين زاد خطرهم جداً. وفي عام 939هـ - 1533م عَيّن السلطان سليمان القانوني المجاهد البطل خير الدين بربروس أميرا للبحر أو قبودان البحر بمعنى أنه أصبح منذ الآن قائد عام الأسطول الإسلامي. واستقبل السلطان سليمان القانوني في إسطانبول خير الدين بروبرس استقبال الملوك وكان فرحاً جداً بقدومه. نزل هذا الخبر على النصارى في أوروبا كالصاعقة وذُهل أمراء أوروبا وجُن جنونهم ولو رأيتهم كأنهم سكارى وما هم بسكارى! وهنا قام خير الدين بربروس بأعباء المنصب الجديد كوزير البحرية وقائد عام الأسطول الإسلامي العثماني ، فظلّ في جهاده في البحر المتوسط حتى فرض سيطرة المسلمين تماماً من أول إسبانيا إلى البلقان ، ولم يكن في البحر المتوسط كله أي قوة بحرية تضاهي قوة المسلمين ، إلا قوة هذا القائد النصراني الصليبي الخبيث الشهير جدا فى أوروبا ألا وهو (أندريا دوريا) الذي ذاق طعم الذل على يدي خير الدين رحمه الله. وهنا انتفض البابا بولس الثالث في روما وعلم خطورة هذا البطل المجاهد. وأصبح خطراً يهدد النصارى في البحر كما أن السلطان سليمان صار خطراً يهدد النصارى على البر. فاجتمع البابا بولس الثالث مع ملوك وأمراء أوروبا ، وأعلن حربا صليبية جديدة. ولكن هذه المرة الحرب الصليبية لن تكون على البر ضد السلطان سليمان ، لأنهم بعد خسارتهم في موهاكس ما تجرؤوا أن يعلنوا الحرب على المسلمين لحين من الدهر. إنما الحرب الصليبية ضد قوة المسلمين البحرية: ضد خير الدين بربروس ، ورُفع الصليب واجتمع الأمراء ووافقوا على الحرب. ففي عام 945هـ اجتمع على المسلمين في البحر أكثر من 600 سفينة حربية للنصارى من كافة دول أوروبا ومدنها (أسبانيا - النمسا - البندقية - جَنوة - فرسان القديس يوحنّا) عليها 60.000 صليبى ، ويقود الأسطول القائد النجس الصليبي الملعون أندريا دوريا. وكان عدد أسطول المسلمين 122 سفينة فقط عليها 20.000 ألف مسلم! يقودهم خير الدين بربروس رحمه الله ، وفي يوم 4 جمادى الأولى 945هـ - 28 سبتمبر 1538، وأمام سواحل مدينة "بروزة" أو "بريفيزا" غربي اليونان - دارت أعنف معارك المسلمين البحرية. هذه المعركة إلى الآن يتذكرها النصارى في أوروبا بالألم والحسرة والضيق. والتقى الفريقان ، ووضع خير الدين بربروس خطة حربية رائعة كالعادة ، وبدأت المعركة وحمي الوطيس واحترقت السفن وارتفع دخان

المدافع إلى عنان السماء. ووضع خير الدين بربروس أسطوله على شكل هلال ، وعيَّن على رأس جناحه الأيمن القائد المجاهد صالح رئيس. وعلى رأس جناحه الأيسر سيدي علي رئيس. وقاد خير الدين الجناح الأيسر بنفسه ، وأمر القائد الفذ المجاهد طورغود بأن يقود احتياطي الأسطول ويبقى في الخلف. واستعمل خير الدين بربروس عنصر المباغتة ، ولم يكن أسطول الصليبيين مستعدّا ؛ مما أدى إلى اختلال نظامه ؛ فما لبث أن تفرق ، وهرب قائده أندريا دوريا نجاة بحياته. ولم تستمر المعركة أكثر من خمس ساعات تمكَّن في نهايتها "خير الدين" من حسم المعركة لصالحه ، وصارت العزة والسيادة للعثمانيين في البحر المتوسط. وانتهت المعركة: معركة بروزة "بريفيزا" البحرية بالانتصار الساحق للمسلمين وهزيمة مخزية للمشركين فلله الحمد والمنة. واستولى المسلمون على أكثر من 36 سفينة وأسروا حوالى 3000 أسير ، وغرق واحترق للكفار 123 سفينة! نزل خبر انتصار المسلمين على النصارى في روما وأوروبا كالصاعقة على مسامعهم ، فأُخرسوا من هول الخبر! وبهذا الانتصار فرضت الدولة العثمانية قوتها وسيطرتها على كل البحر المتوسط ، ولم ينازعها أحد ولله الحمد والمنة. ولقد استطاع السلطان سليمان القانوني في خلال 48 سنة أن يبسط نفوذ المسلمين من بغداد شرقاً إلى فيينا غرباً ، ومن موسكو شمالاً إلى بلاد إفريقيا جنوباً ، وكانت ملوك أوروبا وأمراؤها تدفع الجزية عن يد وهم صاغرون. وواصل السلطان سليمان رحمه الله جهاده ضد النصارى ، حتى وصلت جيوش المسلمين إلى أسوار فيينا مرتين ، ولم يُقدّر الله الفتح ، إما لتساقط الثلوج وطوال مدة الحصار ، وإما لتعاون الرافضة واستغلال توغل المسلمين في غرب أوروبا فيعبثون في مناطق الأناضول والقوقاز ويحاولون نشر المذهب الرافضي الخبيث. ولكن هيهات هيهات فقد كان السلطان سليمان رحمه الله سداً منيعاً ضد أطماع الروافض في الشام ومصر والأناضول وضد أطماع الصليبيين في القسطنطينية وشرق أوروبا. ووصلت الدولة في عهده أقصى اتساع ، لها ولم تصل حركة الفتوحات الإسلامية أقصى من ذلك ، ووصلت من هيبة السلطان سليمان أن بعث إليه ملك فرنسا يستجديه ويرجوه أن يساعده ضد هجمات شاركان على موانىء فرنسا ، فأجابه السلطان سليمان وبعث إليه خير الدين بربروس في سفن حربية حتى استعاد له الميناء المحتل! وكان السلطان سليمان مشهوراً ببناء المدارس ، وكذلك رمّ السلطان سليمان رحمه الله سور القدس القديم الموجود إلى الآن ، وهو صاحب العيْن الموجودة بعرفة لخدمة الحجيج ، وكانت له نفقات على أهل الحرمين وكانت مادة حياة أهل الحرمين من تلك الأموال فجزاه الله خيراً ، وبنى بمكة أربع مدارس لتعليم علوم الدين ، وكذلك بنى في دمشق المدرسة والتكيّة السليمانية ومازالت موجودة تعرف باسم (التكية السليمانية). وأمر بتشييد القلاع في طريق الحج لحماية المسلمين. واهتمامه بالعمران والجمال كان السبب الذي جعل إسطنبول أو الأستانة عاصمة الخلافة وحاضرة الدنيا ولم يكن لها في الدنيا نظير. وأنقل وصف إسطنبول في عهد السلطان سليمان من وصف عبد الرحيم العباسيّ الذي شاهد السلطان سليمان وعاش في إسطنبول - يقول رحمه الله: (ذات المحل الأرفع والمقام الأسمى - مدينة العلم وقرارة الحلم - ومحط الرجال - ومنتهى الترحال - وكعبة الكرم - وقبلة النِّعم - ومعدن الفخار - وموطن السنن والآثار - ومنبع الإقبال - ومربع الآمال - ومنتهى المطالب - ومشتهى القاصد والطالب - مَظهر شموس السيادة - ومقر السعادة - آياتُ محاسنها لم تزل بألسن السُّمار مملوَّة - وعرائس بدائعها لم تبرح على أعين النظار مجلُوّة - أجلّ ما فُتح من البلاد - وأعظم ما استخلصته يد الصلاح من الفساد - كم خَطبها عظيمٌ من ملوك الزمان

وأمهَرَها مواضي المشرفية وعوالي المُرّان - وهي أشد ما يكون إباء - وأوفى ما يتصور منعة واستعصاء - إلى أن قصدها من ادُّخر له ذلك الفتح - في خبر طويل الشرح - وهو المرحوم السعيد الشهيد السلطان محمد خان بن مراد خان بن عثمان - بوّأهُ الله غُرف الجنان - بمزيد من العفو والغفران - فذلت له صِعابُها - وخضعت لعزته رقابها - ولان جماحها - وتسنّى انفتاحها - وأُعلن فيها بالتهليل والتكبير - وصُرّح بالصلاة على البشير النذير - واعتدلت بعد انحنائها قامات المنابر - وارتفعت بعد خفضها درجات المنابر - وأُخرست النواقيس - ونُطق بالتأذين على رغم أنف إبليس - وخُطّت المساجد والمدارس - ومعّرت بأوقات الخيرات بعد ما كانت دوارس - ونَطَقَت خطباء الإسلام - فسكتت القساوسة اللئام - ونَصَب الدين المحمدي بها خيامه - ورفع الشرع الأحمدي على قُللها أعلامه - وبُدلت من الإنجيل بالقرآن - وعُوّضت من الرهبان بعلماء الإيمان - فأصبحت شموس الدين بأفاقها مشرقة - وسحب اليقين بروضاتها مغدقة. ولعمري إنها لمدينة العمران - والمشار إليها دون سائر البلدان - إذ هي تخت الملك الأعظم - ومقر المجد المعظم وموفد الوفود - ومنبع الكرم والجود - وبها العمارات العظيمة - ذوات الصدقات الجسيمة - والمبرّات العميمة - والقصور المنيفة - والمتنزهات اللطيفة - والرياض النضرة - والمروج الخضرة - فهي نزهة النفوس - ومسرّة العبوس - وبُهجة الخواطر - وقُرّة النواظر - وبها من الآثار العجيبة - والأبينة الغريبة - ما تذهل له الألباب - ويستولي عليها منه العجب العجاب - وبها من الأئمة الأعلام - وقضاة الإسلام - ما يتحمل به الزمان - ويفتخر بمجده العصر والأوان - إذ كلٌ منهم علّامة العصر - وفرد الدهر - وعالم الوقت - والمبرّأ من الشّين والمقْت - وبحر العلوم - ومالك أزمّة المنطوق والمفهوم - ونُعمان (أبو حنيفة) زمانه - وأبو يوسف (أبو يوسف القاضي) أوانه - وكنز الطالبين - وهداية الراغبين - ومختار الحق - واختيار الغرب والشرق - ومجمع الفضائل - ونُقاية الأماثل - وصدر الشريعة - ذو الفنون البديعة - دام فخرهم - وسما قدرهم - ولا برح نير سُعدهم مشرقا في الأكوان - والانتفاع ببركتهم - وبركة علومهم دائما مدى الأزمان - فكل فرد منهم نيّر قطرها الأعظم - ورئيس مجدها المكرم - تفتخر به على سائر الأمصار - وتسمو به عصره على غابر الأعصار - فهي الآن مصر الدنيا - والمنفردة بالمرتبة العليا - جعلها الله دار الإسلام والإيمان - ومحل الأمنية والأمان - ومقر الدولة والسلطان) أ.هـ. وفي يوم من الأيام ظهر فن الرقص في فرنسا في زمن السلطان سليمان القانوني - وكانت فرنسا حليفة للدولة العثمانية وكان المسلمون يطلقون عليها (ولاية فرنسا) وكأنها تابعة للمسلمين. انزعج السلطان سليمان القانوني جداً من ظهور هذا المجون والفسق - فتدخل السلطان سليمان في شؤن فرنسا الداخلية كما يُقال - وأوقف هذا المجون خشية أن ينتشر في بلاد المسلمين! والآن أسرد ما قاله رئيس اللجنة الأوربية عام 1923م عند سقوط الخلافة الإسلامية في تركيا - وتكريم أول مسلمة في مسابقة ملكة جمال العالم والذي روّج لها العلمانيون في تركيا - وكانت الفتاة المتقدمة للمسابقة هي "كريمان خالص". يقول رئيس اللجنة الأوربية فرحاً بهذه المناسبة - وانظروا إلى الحقد الدفين: "أيها السادة ، أعضاء اللجنة ، إن أوروبا كلها تحتفل اليوم بانتصار النصرانية ، لقد انتهى الإسلام الذي ظل يسيطر على العالم منذ 1400م ، إن "كريمان خالص" ملكة جمال تركيا تمثل أمامنا المرأة المسلمة. ها هي "كريمان خالص" حفيدة المرأة المسلمة المحافظة تخرج الآن أمامنا "بالمايوه" ، ولا بد لنا من الاعتراف بأن هذه الفتاة هي تاج انتصارنا. ذات يوم من أيام التاريخ انزعج السلطان العثماني "سليمان القانوني" من فن الرقص الذي ظهر في فرنسا ،

عندما جاورت الدولة العثمانية حدود فرنسا ، فتدخل لإيقافه خشية أن يسري في بلاده ، ها هي حفيدة السلطان المسلم ، تقف بيننا ، ولا ترتدي غير "المايوه" ، وتطلب منا أن نُعجب بها ، ونحن نعلن لها بالتالي: إننا أُعجبنا بها مع كل تمنياتنا بأن يكون مستقبل الفتيات المسلمات يسير حسب ما نريد! فلتُرفع الأقداح تكريماً لانتصار أوربا".أهـ. ونقلا عن مقال لأميمة بنت أحمد الجلاهمي في موقع إسلام واي ، وهذا مختصر رسالة السلطان سليمان القانوني إلى قاضي بروصة بعد انتصار المسلمين في رودس: "منذ بداية تسلمنا للسلطة ونحن سائرون على إعلاء ونصرة هذا الدين بتوفيق من الله تعالى - وجعل همنا واهتمامنا رفع أعلام هذا الدين لقلع وقمع آثار الكفر والظالمين - وسيرا على هذه العادة الحسنة - والسنة المرضية - صدرت أوامرنا بضرورة استخلاص قلعة رودس من أيدي الكفرة - وقد أعددنا أسباب القتال - والرجال الأبطال - والسفن والمراكب - وقد أرسلنا وزيرنا مصطفى باشا لإنجاز هذه الغاية - كما شاركنا شخصيا في هذه الحملة من القسطنطينية المحروسة إلى إسكودار. وكان أهالي رودس يقطعون طريق المسافرين بالبحر - ويسفكون دماء التجار - وذلك منذ أن سكنوا الجزيرة وحتى هذا الوقت - ورودس جزيرة في غاية المتانة - وأسوارها طويلة وعريضة - وخندقها عميق. وفي اليوم الثالث من ذي القعدة سنة 928هـ تم إطلاق قذائف كالمطر وهجمت العساكر المنصورة على الأسوار. ولم يتصور أن يستسلم أحد من الكفار - ولكن بتوفيق من الله تعالى زادت عساكرنا من تخريب قلاعهم يوماً بعد يوم. ثم قامت عساكر الإسلام المظفرة بتطهير قلعة رودس المنيفة من دنس أهل الكفر ، وتحولت معابد الأصنام والأوثان إلى مساجد لأهل الإيمان - وأضحت معابر بيت الله الحرم آمنة من عبث الكفرة الفجرة - وبالإضافة إلى القلعة المزبورة فقد فتحت أيضا كل من إستانكوي - وتخته لو - وبوردوم - وغيرها من القلاع التي بلغ مجموعها 11قلعة - وشملت كذلك كافة الجزر والأراضي وتوابعها - وأضيفت إلى الممالك المحروسة - والحمد لله الذى يسر لي ما لم ييسر لغيري". أهـ. وإن كنت أنسى فلستُ أنسى كلمة السلطان سليمان القانوني – رحمه الله تعالى – عندما منّ الله تعالى عليه بفتح الأسوار الأوربية ، فقال: الآن طاب الموت! تلك الكلمة التي أجعلها عنواناً لهذه القصيدة في تأبين السلطان ، وردّ شئ من جميله علينا! وهو الذي أوصى بأن يوضع معه في قبره صندوق صغير. فأخذ العلماء يسألون: ماذا بداخل الصندوق؟ فإذا به القوانين التي استفتى فيها كبار العلماء والفقهاء وكلها مستقاة من الشريعة الإسلامية. فعندئذٍ بكى مفتي الدولة العثمانية آنذاك أبو السعود الأفندي رحمه الله وقال: لقد أعذرت إلى ربك أيها السلطان وبقيت التبعة والمسؤولية علينا! ولقد أوصى السلطان بأن يخرجوا يده من النعش ليراها الناس ، حتى يوقنوا ويدركوا أن الإنسان لا يأخذ من هذه الدنيا شيئا لآخرته ، سوى عمله الصالح وتقواه لرب العالمين! أيها السلطان المحترم ، لقد أنشدت هذه القصيدة بعد تتبعي آثارك وسيرتك! وبعد أن استيقنت أنك برئ من كل الدعاوى الباطلة ها أنذا أبين لك حقيقة الموت والدنيا معا! وأعلم أنك إلى دار الحق سبقتنا ، ونحن إن شاء الله بك لاحقون! وكم كنت أتمنى أن أعيش في زمانك أيها السلطان العظيم! إذن لوجدتُ منك ما تقر به عيني ، ولوجدت مني ما تقر به عينك! وأشهد الله أننا على الخير الذي كنت عليه سائرون ، نرجو رحمة ربنا ونخشى عذابه! يقول الله في كتابه: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ). ويقول: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ

الْغُرُورِ). ويقول: (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا). ويقول: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ). هذا ، ويقول الأستاذ عبد الملك القاسم في كتابه: (الدنيا ظل زائل) ما نصه: (إن رب الأرباب ومسبب الأسباب جعل الآخرة: دار الثواب والعقاب ، والدنيا: دار التحمل والاضطراب والتشمر والاكتساب ، وليس التشمر في الدنيا مقصورًا على المعاد دون المعاش ، بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه ، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها. قال يحيى بن معاذ: يا ابن آدم طلبت الدنيا طلب من لا بد له منها ، وطلبت الآخرة طلب من لا حاجة له بها ، والدنيا قد كفيتها وإن لم تطلبها ، والآخرة بالطلب منك تنالها ، فاعقل شأنك).هـ. نقول ذلك عن السلطان وقومه العثمانيين إبراءً للذمة وانتصاراً للحق وأهله ، في زمان ضاعت فيه معالم الحق! وفي فترة من فترات التاريخ عصيبة ، قل خيرها وكثر بلاؤها وشرّها! في عهد يخون فيه الأمين ويؤتمن الخائن ، ويصدّق فيه الكاذب ويكذب فيه الصادق! نقول ذلك لأن كثيراً من الناس وعلى رأسهم المغرضون من المستشرقين الخبثاء والمؤرخين الجهلاء ، لا يكادون يذكرون للباشا العثماني وللسلطان العثماني إلا الضرائب التي فرضاها على الشعب والظلم الذي باشراه على بعض الناس! أما المعارك التي انتصرتْ لمجد الإسلام ، وأما المحافظة على خلافة الإسلام على ما كان يَعتورُها من طوام ، أما الهيبة والعزة التي اتصفتْ بها ديارُ الإسلام في عهد العثمانيين الأبطال الأشاوس ، أما المواقف النبيلة في الداخل والخارج تلك التي وقفها سلاطين آل عثمان! فلا يكاد الكثير من المؤرخين ولا المستشرقين يعترف بشي منه ويدونه في كتاباته أو محاضراته! والحمد لله أنْ كفانا الله بالدكتور المؤرّخ (علي الصلابي) وغيره ممن دافعوا عن العثمانيين في عصرنا الحديث! وقصيدتي هذه في الدفاع عنهم أسطرها لله أولاً وآخراً ، ثم للتاريخ في الانتصار للسلطان العظيم سليمان القانوني ، ولا أزكّيه على الله! ولو كانت في زمان المعلقات لكانت معلقة! ولو كانت في زمان شوقي وحافظ لتبوأتْ مكانها بين أشعار العرب في العصر الحديث! ولكن هذا قدري وهذا نصيبي! لقد كان شوقي يكتب القصيدة ولم يجف عنها حبرها ولم يُعد قراءتها على حد تعبير الدكتور أحمد الحوفي ، حتى يلقيها شوقي على الجماهير الغفيرة ، في قرطاج أو دمشق أو بغداد أو في بيروت أو في طرابلس! إذ تحمله طائرة خاصة إلى هناك! في زمان يعلم الله هل كان عدد الطائرات الخاصة يتجاوز أصابع اليدين أم لا! وذلك من فضل الله على شوقي ولا شك! ونشهد أن الرجل شاعر متمكن عبقري وفي بعض أشعاره جودة وحمية وغيرة على الإسلام وخاصة العثمانيين وكأن الرجل ابن من أبناء أحد السلاطين العثمانيين! إن كل كاتب له ظروف تصنعه بقدر من الله وله أدوات وأسباب توجه كتابته نحو وجهة هو موليها! وأعتذرُ عن طول القصة! ولكنني وجدتُ أن سلاطين آل عثمان قد ظلموا ظلماً كبيراً لا سيما السلطان سليمان بن السلطان سليم الأول (سليمان القانوني) ، فأردتُ أن أنتصر له بهذه الخاطرة التي تحمل القصة والدرس والعبرة والعظة لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكورًا! وبعد أن يُشوهه الغرب في كُتب ومقالات وحَكايا شائهة هو منها براء براءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب عليهما سلام الله ، وبعد أن يُجاري الشرقُ الغرب في التشويه والمؤامرة ويخرج علينا بمسلسل رقيع مغالظ مزيف للحقائق هو: (حريم السلطان) ، فكان ولا بد من عمل ينصف الرجل!

71 - الأندلس بين المجد والفقد

(إن الحديث عن الأندلس حديث ذو شجون وذو شؤون. ولا يمكن أن نتناول نمط الحياة الأندلسية الفكرية بصفة عامة ، والشعر منها بصفة خاصة. وذلك باعتبار أن الشعر يعكس ما في المجتمع من أطوار وأغيار. فالشعر لسان حال المجتمع ، وخطيبه المُصلِق الذي يدفع بسيف الكلمة غواشي الإبهام عن أحوال المجتمع وأهله. ألا وإن الذي يطالع بموضوعية تاريخ الأندلس ، ويقلب صفحات ماضيها ، يدرك أن الخاصية المميزة لتاريخ الأندلس ، هي أنه كان عصر غزو وفتح ، وعلم وتدوين ، وتأهيل فكري ومناظرات ، وأطروحات ثقافية وثورات معرفية. وذلك بعد قيام إمارة قرطبة وسيطرة المسلمين عليها ، ولا يعني هذا بالضرورة إهمال المشاركات الفكرية والشعرية التي ساهم بها المسلمون في إثراء تلك النهضة الثقافية. فإنه عندما استقر حكم الأندلس للمسلمين أفاق المسلمون للعلم والتدوين. فلقد كانت حروب المسلمين الجهادية الطويلة لنصرة دينهم:- "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله". ونشأت بعد ذلك حركة فكرية ثقافية لغوية وشعرية واسعة النطاق ، واكبت الحركة الجهادية التي أسلفنا الحديث عنها. وانفتح المسلمون في اكتساب العلم والفكر ، واستقطِبت العلماء والأدباء والمفكرين والكتاب والشعراء ، في شتى المماليك الإسلامية لإثراء تلك النهضة في الأندلس ، واستثمار تلك الصحوة الفكرية والثورة الشعرية. فلقد رحل أبو علي القالي صاحب الأمالي في بغداد بالعراق إلى الأندلس ، عندما دعاه إليها الخليفة عبد الرحمن الناصر - رحمه الله – فنفع الله بأبي علي القالي – رحمه الله - أهل الأندلس. فلقد علم وناظر وروى من مختارات الأدب والشعر ما الله به عليم. وكذلك فعل أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي اللغوي التحريري ، وجمع كتابه الشهير (الفصوص) الذي يضارع كتاب (الأمالي) للقالي. وكان ثمرة لهذين اللغوين الكبيرين (أبو عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسي ، حيث بات على عرش الأدب والشعر ملكاً عبقرياً ، وأظهر كتابه (العقد الفريد). كما رحل بعض الأندلسيين إلى المشرق لتحصيل علوم أهل المشرق ، ومن هؤلاء الرحالة (يحيي بن يحيي الليثي) بحثا عن العلم والأدب ، كما رحل ابن عبد ربه صاحب (العقد الفريد). وكذلك دأب أهل الأندلس على إنشاء المكتبات وجمع الكتب وحث الناس على القراءة والبحث العلمي ، والاطلاع على كتب الأوائل ودراسة مذاهبهم ، والوقوف على ما تحتوي الكتب من كنوز وثروات تتضاءل عندها كنوز الدنيا. ولقد سجل عبد الرحمن الناصر رقماً قياسياً (بلغة عصرنا) في جمع الكتب والمخطوطات النادرة القيمة. فلقد كان يبعث برسله إلى مصر والشام والعراق والحجاز والقسطنطينية وغيرها بحثاً عن المخطوطات. ودرج ابنه على ما عاش عليه أبوه ، حيث إنه عندما تولى مقاليد الحكم في البلاد بعد موت أبيه ، كانت له مكتبة ضخمة جداً ، حشد لها الكتبة والحُذاق في الخط والتدوين والضبط والتجليد ، مما جعلها مكتبة في غاية الإبداع مظهراً وجوهراً. مما يدل على اهتمامه بالكتب. وأروع ما يذكر عن الخلفاء والأمراء والحكام في ذلك الزمان ، أنهم كانوا جميعاً على درجة كبيرة جداً من الوعي والعلم والثقافة والمعرفة والأدب والشعر. فكانوا بذلك فرساناً مغاوير في حلبة التنظير الفكري والأدبي والعلمي. والتاريخ حوى الكثير والكثير من شعرهم وأدبهم وعلمهم ومنا قبهم ، ويضيق المقال الآن عن الوقوف على شيء من ذلك ولو يسير! وكما يقولون: (دوام الحال من المحال). وما لبثت هذه الأحوال تستمر ردحاً من الزمان ، حتى انقلبت ظهراً على عقب ، فلقد فرط المسلمون وقصروا في أمور دينهم ودنياهم حتى ضعفوا. فلما كان ذلك منهم ، تكمن الأعداء وغلبوا. فضاعت منهم الأندلس ، تلك

المملكة الحصينة المنيعة. وبعد أن كان ذلك منهم ، فإذا هم يتغنون بها ويمتدحون أوضاعها وجمالها وقدرتها ، وينشدون في طبيعتها الخلابة الرائعة ، ويُقصدون القصائد الطويلة في سحر الأندلس وجوها وأنهارها وأحوال أهلها ، وباتوا ينشدون في ضيعتها ويبكون عن أطلالها ويرثون أهلها وطبيعتها التي شوهها من نسبوا إلى الله الولد من الغزاة الغاضبين. ونسجوا بالدموع العانية أروع القصائد في ضياع الأندلس. وبكوا في قصائدهم بالدماء والدموع تلك الديار المسلوبة (الأندلس). وشيعوا الفقيدة الغالية إلى مثواها الأخير ، بعد ضعف أهلها وتخاذلهم عن نصرتها ، وهي تئن تحت مطارق الصليب والتلمود. ورثا شعراء الأندلس ديارهمُ العزيزة التي غصبها الأعداءُ الصليبيون ، وأخرجوا أهل الأندلس منها مشردين في أنحاء الأرض. وعكست قصائد الشعراء هزل الملوك وجد الأعداء. وذرفوا الدموع وهم يرون ديارهم تؤكل قطعة قطعة. فتنتهك حرمتها ويذل سادتها وتزهق أرواح أهلها وتسبى نساؤها ويتيم أطفالها وتذهب ريحها دون مبرر على الإطلاق ، وبلا جريرة اجترحها أهل الأندلس الأبرياء. ورثوا المدن والممالك التي أصبحت خاوية على عروشها إلا من الصليبيين وذيولهم وعملائهم. وبدل أن ترفع المساجد قول (لا إله إلا الله) أعلنت الأديرة (أن المسيح ابن الله). وبات فناً من فنون الشعر العربي في الأندلس (رثاء الممالك والديار والمدن). وبات فناً من فنون الشعر الأندلسي يميزه عن غيره. وقد أورد صاحب (نفح الطيب) من الأشعار في هذا الفن الشيء الكثير. والذي سوف نورد بعضه. وتطلعتْ همم الشعراء وقرائحهم إلى طريق للخلاص! أو رجل تجتمع عليه الرجال وتتوحد على يديه الغايات ، ويكون الفتح الجديد المبين مواكباً لصرخته كما كانت أول مرة. وفي ذلك يقول أحد شعراء الأندلس لم أعثر على اسم يوثق نسبة الشعر إليه:

ألا رجـــــل لـــــه رأي أصـــــيلُ بـــــه ممـــــا نحـــــاذر نســـــتجيرُ؟

ويطعـــن بالقنـــا الخطـــار حتـــى يقـــول الـــرمح: مـــن هـــذا الخبيـــر؟

وتفاوتت درجات الإجادة لشعر الرثاء الأندلسي ، ما بين القوي الجيد والضعيف المبتذل والذي كان عواناً بين ذلك فتوسط بين الإجادة والابتذال. وعلى قدر المأساة التي تعتلج في صدور الشعراء كانت صور الرثاء ودموع القريض ودماء الإيحاءات. وغلبَ عنصرُ العاطفة والإحساس بالمعاناة والألم على كل المراثي الأندلسية ، واعتمدت الصور الفنية في شعورهم بصورة بالغة على التشبيهات والاستعارات والكنايات ، وذلك لإبراز المعاني والعمل على تشخيصها وتجسيمها في صورة حسية ملموسة يسهل معها إدراك المعنى المراد تصوره ، ولو على شيء من حقيقته. ثم جاء دور الاستفهام البلاغي العام والخاص ، والذي كان يخرج عن معناه الحقيقي إلى أغراض بلاغية ، لا تخفي على أصحاب الصنعة وحذاق الشعر ، كالتعجب والإنكار والتمني والتطلع إلى الأمل الحاني والبسمة المشرقة. شأنهم في ذلك شأن كل منكوب مقهور حزين. ومن هنا اختلطت مشاعر الأسى بدموع القريض ، وفجرت معاناة الأندلس براكين شعر الرثاء ، فتمخض عن إحساس بالمعاناة لا يجد كاتب في الأرض اليوم من الكلمات ما يستطيع به أن يعبر عن هذه المعاناة وذلك الإحساس. لقد كان الطابع الطاغي على رثاء الشعراء الأندلسيين لممالكهم هو الحزن الموغل في أعماق النفس الإنسانية ، والأسى الضارب بجذوره في غياهب العاطفة ومجاهيل الشعور. وكذلك طغى على شعرهم وعظ الآخرين

وإنذارهم ، في التهام العبرة وأخذ الدرس ، من القيام المفاجئ للدول والممالك التي جاهدت في سبيل الله ، وأقامت في الأرض أمر الله وشرعه ، ونصَّبت من ذوات أنفس أهلها ـ حكاماً ومحكومين ـ حراساً لعقيدة التوحيد وشريعة الإسلام في الأرض ، فدعت إلى الله وفتحت البلاد وقلوب العباد للدين الحق ، وجاهدت في سبيل الله ، فكانت الصولة والجولة والدولة. وذلك بما ضحت وبذلت. وكان الشرع عندها مصحفاً وسيفاً ، عبادة وقيادة ، ديناً ودولة ، شعيرة وشريعة. فمكّن الله لها ولأهلها. ثم عندما بدلت وتقهقرت عن نصرة الدين ، وتخاذلت هنالك وتخلت ونفضت أيديها من الحق ، فما جاهدت وما ضحت وما بذلت. فزالت دولتها وانفض سلطانها ، وضاع مجدها وسؤددها ، وتقوضت أركانها ، وأعملت سيوف الصليبيين عملها في قلوب الأندلسيين. ومن هنا تعين على كل مطالع لشعر رثاء الممالك والمدن الأندلسية عبر التاريخ أن يعتبر ويستوعب الدرس. لقد برع شعراء رثاء المماليك والمدن والديار الأندلسية في تصوير نكبة الإسلام المُرة ومصيبة المسلمين القاصمة في الأندلس ، وما تعرض له المسلمون والإسلام من هوان وذل وصغار. كما نجحوا في تصوير التعلق بالديار وفراق أهلها. كما أنشدوا في رثاء المماليك والديار المغصوبة المنكوبة واستنهاض همم المسلمين في شتى بقاع الأرض للعمل على تأديب الأعداء الغاصبين وإعادة الأرض إلى أهلها والقوس إلى باريها والحق إلى نصابه. كما أنشدوا في الذود عن الإسلام وأهله والدفاع عن أعراض انتهكت ظلماً وعدواناً ، وديار استبيحت قهراً وغصباً. ولم أقرأ في حياتي قصيدة رائعة في رثاء الممالك والديار كالتي صاغها الشاعر الأندلسي العظيم ـ أبو البقاء صالح بن شريف الرندي ، وقد آلى الشاعر على نفسه أن يتحدث على لسان كل أندلسي ، أجلاه الصليب عن داره واستباح حرمته وانتهك عرضه ، ظلماً وعدواناً في الأرض بغير الحق. تلك القصيدة النونية التي تعبر عن ثورة المشاعر الجياشة ، واندفاعية العواطف الثائرة ، وانتفاضة الأحاسيس الهائجة التي عصرها الأسى وأدماها الكرب وألجأها الصغار إلى واد الحزن ، فأعياها الجوى عن التعبير عما تعانيه وتعيشه. فأتى كل لفظ موشحاً بالحزن ، مضخمّاً بالأسى ، معجوناً بالعذاب ، محاطاً بهالات من الأنين والنحيب والنشيج. وذلك تفجعاً على الإسلام والمسلمين. إن نونية أبي البقاء الرندي لهي من عيون الشعر العربي الرثائي ، ولو كتبها شاعر غربي صليبي أو مُلحد لوجدنا لها اليوم صدىً يبلغ الآفاق ويملأ الدنيا ويغزو الأسماع ويطير إلى السماء. وإن قصائد لم تصل عشر معشار النونية الرندية التي نحن بصددها الآن أخذت من الاهتمام والبيان ما لم تأخذه النونية الرندية. إن هذه النونية لو كانت أيام المعلقات لعلقتْ على أستار الكعبة ، وطالعها الناس من مشارق الأرض ومغاربها ، ولكان شاعرها من أصحاب المعلقات بلا شك ولأعجزت الفصحاء والبلغاء في زمانها ، بل ولتحدت من هم من غير أهل زمانها كذلك. وذلك لما اشتملت عليه من الجمال وحسن السبك وعذوبة الأداء وصدق الألفاظ وينوعة التراكيب وحساسية الصور الفنية والبلاغية. صاغها أبو البقاء على القافية النونية وعلى البحر البسيط الذي هو من أروع بحور العروض العربية الأصيلة ، وأصدقها مناسبة للرثاء وما يصاحبه من الدموع والأنين والشكوى والنحيب والأسى والجوى. والآن لنطالع ما يتيسر من هذه النونية الرندية الرثائية بشكل من النقد والتحليل ، في محاولة منا للتعرف على شعر رثاء الممالك والديار ، والوقوف على بعض سماته وخصائصه ومميزاته. وأجعلها بكل فخر في مستهل التقديم لقصيدتنا: (الأندلس بين المجد والفقد) ، يقول أبو البقاء الرندي في مرثيته البكائية: ـ

لكـــل شـــيء إذا مـــا تـــم نقصـــانُ فـــلا يُغـــر ـ بطيـــب العـــيش ـ إنســـانُ

هـــي الأمـــور كمـــا شـــاهدتها دولٌ ... مـــن ســـره زمـــن ، ســـاءته أزمـــان

وهـــذه الـــدار لا تبقِـــي علـــى أحـــدٍ ... ولا يـــدوم - علـــى حـــال - لهـــا شـــأن

وصـــار مـــا كـــان مـــن مُلـــكٍ ومـــن مَلـــكٍ ... كمـــا حكـــى عـــن خيـــال الطيـــف وســـنان

فجـــائع الـــدهر أنـــواع منوعـــة ... وللزمـــان مســـراتٌ وأحـــزان

وللحـــوادث ســـلوانٌ يُســـهلها ... ومـــا لمَـــا حـــلّ بالإســـلام سُـــلون

وبهذا المطلع الحزين يستهل أبو البقاء قصيدته البكائية. معطياً العبرة وشارحاً الدرس وملهماً العظة وسائقاً المثل. وكما نرى استهل المرثية بمطلع لا تغفله الحكمة. رابطا ما قد حل بدياره بحال الدنيا. وأنه كما رحل أهله عن ديارهم فإن أهل الدنيا يوما سيتركونها ويرحلون إلى الدار الآخرة. ومبيناً أن حياتنا الدنيا أقيمت على المسرات والأحزان ولا دوام لشيء فيها أبداً. ثم يردف أبو البقاء بعد هذه المقدمة الوعظية قصة قصيدته ومناسبتها قائلاً: -

دهـــى الجزيـــرة أمـــرٌ لا عـــزاء لـــه ... هـــوى لـــه أحُـــدٌ ، وانهـــدّ ثهـــلان

أصـــابها العـــين فـــي الإســـلام فـــارتزأتْ ... حتـــى خلـــت منـــه أقطـــار وبُلـــدان

فاســـأل بلنســـية: مـــا شـــأن مرســـية؟ ... وأيـــن شـــاطبة؟ أم أيـــن جيّـــان؟

وأيـــن قرطبـــة ، دار العلـــوم ، فكـــم ... مـــن عـــالم قـــد ســـما فيهـــا لـــه شـــأن؟

وأيـــن حمـــص ومـــا تحويـــه مـــن نـــزهٍ ... ونهرهـــا العـــذب فيـــاضٌ ومـــلآن؟

قواعـــدٌ كـــن أركـــان الـــبلاد ، فمـــا ... عســـى البقـــاء إذا لـــم تبـــق أركـــان؟

تبكـــي الحنيفيـــة البيضـــاء مـــن أســـف ... كمـــا بكـــى لفـــراق الإلـــف هيمـــان

علـــى ديـــار مـــن الإســـلام خاليـــةٍ ... قـــد أقفـــرتْ ، ولهـــا بـــالكفر عمـــران

حيـــث المســـاجد قـــد صـــارت كنـــائس مـــا ... فـــيهن إلا نـــواقيسٌ وصـــلبان

حتـــى المحاريـــب تبكـــي ، وهْـــي جامـــدة ... حتـــى المنـــابر ترثـــي ، وهْـــي عيـــدان

يـــا غـــافلاً ، ولـــه فـــي الـــدهر موعظـــة ... إن كنـــت فـــي سِـــنة ، فالـــدهر يقظـــان

وماشـــياً مَرحـــاً ، يُلهيـــه موطنـــه ... أبعـــد حمـــص تغـــر المـــرءَ أوطـــان؟

تلـــك المصـــيبة أنســـت مـــا تقـــدمها ومـــا لهـــا مـــع طـــول الـــدهر نســـيان

وكأن هذه الأبيات قد خرجت مخرج المقدمة الطللية في القصيدة الجاهلية ، فهي تصور بقايا الديار الأندلسية ، بعد نكبة الصليبيين - عليهم من الله ما يستحقون -. والشاعر هنا يبين لنا ما أصاب فؤاده من أحداث نزلت بدياره ، فأحزنت منه القلب والشعور والوجدان ، وأفجعت منه الخاطر والعاطفة والإحساس. وإن هذه المجموعة من الأبيات في البكاء على ما أصاب من الديار ، والوقوف على أطلالها ، لتبين لنا سمات شعر رثاء الممالك والديار مجتمعة كما صدرنا بها الحديث في مستهل قراءاتنا الأسلوبية هذه. ثم ينطلق أبو البقاء مستنهضاً همم المسلمين ، وصارخاً مستغيثاً بالله تعالى ، وثم مستحثاً لشجاعة المسلمين ومصابهم ثانياً. ويلغز أبو البقاء متهكماً ومستثيراً تقاعس المسلمين وتخاذلهم وخنوعهم عن نصرة إخوانهم واستنقاذ ديارهم من الصليبيين فيقرعهم ويوبخهم. ويعلو صوته مذكراً إياهم بحقوق الأخوة وواجبات الإيمان قائلاً: -

يـــا راكبـــين عنـــاق الخيـــل ضـــامرة كأنهـــا فـــي مجـــال الســـبق عُقبـــانُ

وحـــاملين ســـيوف الهنـــد مرهفـــة كأنهـــا فـــي ظـــلام النقـــع نيـــران

وراتعـــين وراء البحـــر فـــي دَعـــةٍ لهـــم بأوطـــانهم عـــز وســـلطان

أعنـــدكم نبـــأ مـــن أهـــل أنـــدلس فقـــد ســـرى بحـــديث القـــوم رُكبـــان؟

كـــم يســـتغيث بنـــا المستضـــعفون وهـــم قتلـــى وأســـرى ، فمـــا يهتـــز إنســـان!

مـــاذا التقـــاطع فـــي الإســـلام بيـــنكمُ وأنـــتمُ يـــا عبـــاد الله إخـــوان؟

وإذا كان قد ورد في قول أبي البقاء لفظ (يستغيث بنا المستضعفون) ، فإنه يعني الاستغاثة بالمخلوق فيما له به طاقة من جهاد الكفار والأعداء ، واستنقاذ الديار وتحرير الأسرى والانتصار لله ورسوله وشريعة الإسلام. وإذن فلم يقصد أبدا تلك الاستغاثة الشركية بالمخلوق ، كما قد يتوهمه الذين لا يفهمون الشعر إلا على هواهم. وأبو البقاء أديب مسلم مؤمن موحد على كل حال. وقد كان له باع في العلم الشرعي ، والأخذ من ذلك العلم بحظ وافر. ثم يختم الرندي قصيدته النونية تلك بخاتمة تستجيش ما في كل نفس مسلمة على وجه الأرض من بقية نجدة ومروءة وإباء واستشعار لما يلاقيه أهل الأندلس. وذلك بعد أن أثار حفيظة التقوى في سويداء القلوب والضمائر والمشاعر في الأبيات السابقة ، واصفاً الذل - الذي آل إليه قومه بعد عز ومنعة - التشريد بعد الاستقرار ، والهوان والصغار بعد الإباء والتمكين ، والعبودية لغير الله بعد السيادة في عبادة الله. نعم ، فلقد عانى القوم معاناة لا أظن التاريخ والدهر شاهَدا مثلها

- اللهم إلا في عهد قارون وفرعون وهامان – فأخذ الرندي يصور المأساة والملهاة في أسلوب رثائي بديع فيقول:

ألا نفـــوس أبيَّـــات لهـــا همـــمٌ؟ أمَـــا علـــى الخيـــر أنصـــار وأعـــوان؟

يـــا مـــن لذلـــة قـــوم بعـــد عـــزهمُ؟ أحـــال حـــالهم كفـــرٌ وطغيـــان!

بـــالأمس كـــانوا ملوكـــاً فـــي منـــازلهم واليـــوم هـــم فـــي بـــلاد الكفـــر عُبـــدان

فلـــو تـــراهم حيـــارى لا دليـــل لهـــم علـــيهمُ - مـــن ثيـــاب الـــذل - ألـــوان

ولـــو رأيـــتَ بُكـــاهم عنـــد بيعـــتهم لهالـــكَ الأمـــرُ ، واســـتهوتك أحـــزان

يـــا رُب أم وطفـــل حِيـــل بينهمـــا كمـــا تفـــرّق أرواحٌ وأبـــدان

وطفلـــةٍ مثـــل حســـن الشـــمس إذ طلعـــتْ كأنمـــا هـــيَ يـــاقوت ومَرجـــان

يقودهـــا العلـــجُ للمكـــروه مُكرهـــة والعـــينُ باكيـــة ، والقلـــبُ حيـــران

لمثـــل هـــذا يـــذوب القلـــب مـــن كمـــدٍ إن كـــان فـــي القلـــب إســـلامٌ وإيمـــان

ولأبي البقاء حق في كل الذي قال: فلقد كان للمسلمين الحنفاء أمجاد لا تعد ولا تحصى في الأندلس وإنجازات تعجز الكلمات عن وصفها. نعم ، اهتم المسلمون بالأندلس اهتماماً كبيراً بحيث جعلوا منها منارة لا تخبو أبداً وقلعة حصينة ، تحصنت بالرجال والعتاد كما تحصنت بالعلم والفقه والأدب والدين والثقافة والوعي. ورسّخ المسلمون جميع جوانب الحياة العمرانية في الأندلس على كل صعيد. سواء على الصعيد السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي أو الأدبي أو العلمي أو الشرعي. وإن كل بقعة من بقاع الأندلس ناطقة بكل هذا. ثم تداعى البناءُ الشامخ الراسخ الرازم بالتفكك والانحلال والضعف. فدب في أوصاله الفناء والزوال. وصدق الله إذ يقول: (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) وصدق إذ يقول: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) ، وصدق إذ يقول: (وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون). وإذن فهي سُنن ربانية لا تتبدل ولا تتخلف أبداً. ثمانية قرون عظيمة عاشها المسلمون في ديار الأندلس رافعين راية الحضارة (والإسلام هو الحضارة) ، وانعكست حضارة الإسلام على جيرانهم الأوربيين النصارى). ثم ذهب المجد وتلاشت الكرامة وانتحر السؤدد ودب الدمار (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). يرثى الوزير أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن اللبانة ، يرثى بني عباد ومملكتهم التي اغتصبها الصليبيون فيقول:-

تبكـــي الســـماء بـــدمع رائـــح غـــادِ علـــى البهاليـــل مـــن أبنـــاء عَبَّـــادِ

على الجبال التي هُدتْ قواعدها ... وكانت الأرض منهم ذات أوتاد

يا ضيف أقفر بيت المكرمات ، فخذ ... في ضم رَحلك ، واجمع فضلة الزاد

ويا مؤمّل واديَهم ليسكنه ... خفَّ القطينُ ، وجف الزرع بالوادي

نسيت إلا غداة النهر كونهمُ ... في المنشآت كأمواتٍ بألحاد

حط القناع ، فلم تستر مخدرة ... ومزقتْ أوجهٌ تمزيق أبراد

تفرقوا جيرة من بعد ما نشأوا ... أهلا بأهل ، وأولادا بأولاد

حان الوداع ، فضجّت كل صارخةٍ ... وصارخ من مغداة ، ومن فادي

سارت سفائنهم ، والنوح يتبعها ... كأنها إبلٌ ، يحدو بها الحادي

كم سال في الماء من دمع وكم حملت ... تلك القطائعُ من قطعان أكباد!

من لي بكم يا بني ماء السماء إذا ... ماءُ السماء أبى سُقيا جوى الصادي؟!

وهنا تبرز معاني الحزن والأسى على بنى عَباد. وأبو بكر محمد بن عيسى ليس يختلف كثيراً عن غيره من الشعراء الذين رثوا الممالك والديار الأندلسية. بل إنه يحاكيهم في إبراز ذات السمات من البكاء على المجد. فإن عبدون - في رثاء قتلى بن الأفطس أصحاب بطليموس ، وهذه في غاية الحبك وإبراز سمات شعر رثاء الممالك أكثر- يقول:-

الدهر يفجع - بعد العين - بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور؟

أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... فما صناعة عينيها سوى السهر؟

تسر بالشيء ، لكن لا تغر به ... كالأيم ثار إلى الجاني من الزهر

والدهر حربٌ ، وإن أبدى مسالمة ... والسود والبيض مثل البيض والسمُر

وإذا كنتُ أنسى فلا أنسى شاعر الأندلس ابن خفاجة ، وهو يرثي مدينة بلنسية التي سقطتْ في أيدي الأعداء سنة 488هـ ، وذلك بعد حصار دام أكثر من عشرين شهراً ، يقول في سقوطها:

عاثت بساحتكِ العدى يا دارُ ... ومحا محاسنك البلى والنارُ

فذا تردد في جنابك ناظر ... طال اعتبار فيك واستعبار

أرض تقاذفـــت الخطـــوب بأهلهـــا وتمخضـــتْ بخرابهـــا الأقـــدار

كتبـتْ يـدُ الحـدثان فـي عَرَصـاتها لا أنـــت أنـــت ، ولا الـــديار ديـــار

ثم ما لبث المسلمون في عهد المرابطين أن استردوا بلنسية. لكن غلب النصارى وكانت لهم الكرّة فاستولوا عليها مرة ثانية عام 636هـ ، وذلك في زمن الموحدين. ولنطالع ما صاغه الشاعر الأندلسي الفذ أبو المطرّف بن عمير المخزومي وهو يرثي بَلنسية ويبكيها: -

أمـــن بعـــد رُزءٍ فـــي بَلنســـيةٍ ثـــوى بأحنائهـــا كالنـــار مُضـــرمة الوقـــدِ؟

يرجـــى أنـــاس جنـــة مـــن مصـــائب تطـــاعن فـــيهم بالمثقفـــة المُلـــد؟

ألا ليـت شـعري ، هـل لهـا مـن مطـالع تعـاد إلـى مـا كـان فيهـا مـن السـعد؟

وهـــل أذنـــب الأبنـــاءُ ذنـــب أبـــيهمُ فصـــاروا إلـــى الإخـــراج مـــن جنـــة الخلـــد؟

ولقد ذكر صاحب (نفح الطيب) أن من أول ما استرده النصارى من مدينة الأندلس (طليطلة). وذلك أن النصارى استولوا عليها بقيادة (الأذفونش) ، وذلك عام 478هـ. وكانت مصيبة عنيفة ابتلى بها المسلمون في الأندلس آنذاك. ويورد أحمد بن محمد المقري التلمساني صاحب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) آنذاك. ويورد قصيدة لشاعر مجهول (لم يسمه) في رثاء طليطلة جاوزت السبعين بيتاً على البحر الوافر تقول:

لثكلـــكِ كيـــف تبتســـم الثغـــورُ ســـروراً بعـــد مـــا انـــدحرت ثغـــور؟

أمـــا وأبـــى مصـــاب هـــد منـــه تبيـــر الـــدين ، فاتصـــل الثبـــور

لقـــد قصِـــمتْ ظهـــور حـــين قـــالوا: أميـــر الكـــافرين لـــه ظهـــور

تـــرى فـــي الـــدهر مســـروراً بعـــيش مضـــى عنـــه لطيبتـــه الســـرور

ألـــيس بنـــا أبـــيّ الـــنفس شـــهمٌ يـــدير - علـــى الـــدوائر - إذ تـــدور

لقـــد خضـــعتْ رقـــابٌ كـــن غلبـــاً وزال عتوهـــا ، ومضـــى النفـــور

وهـــان علـــى عزيـــز القـــوم ذلٌ وســـامح فـــي الحـــريم فتـــىً غيـــور

بهذا المطلع الحزين استهل الشاعر قصيدته مبيناً أن جرح طليطلة (المدينة الغراء المنكوبة) هو جرحه. وأن ألمها هو ألمه. ثم يوجه إليه الخطاب في ألم وجوى متحدثاً عن نكبتها القاصمة فيقول:

طليطلـــة أبـــاح الكفـــر منهـــا حِماهـــا ، إن ذا نبـــأ كبيـــر

فلـــــيس مثالهـــــا إيـــــوانُ كســـــرى ولا منهـــــــا الخـــــــوارقُ والســـــــدير

محصـــــــــنة محســـــــــنة بَعيـــــــد تناولهـــــــا ، ومطلبهـــــــا عســـــــير

ثم يعود الشاعر إلى ماضي المدينة ، مذكراً أنها كانت معقل الإسلام الحصين وداراً يأوي إليها المسلمون من كل صوب وحدب في عز وكبرياء ومنعة وعلو كلمة. والمنعة والظهور والشوكة والصولة والجولة والدولة كانت فيها للإسلام وأهله بإطلاق ولم تظهر فيها خصلة واحدة كفرية إلا بجوار من أهل الإسلام ، كما هو التعريف الاصطلاحي لدار الإسلام. فإذا بها تصبح على العكس تماماً (دار كفر) أي دار نصرانية ترتفع فيها راية التثليث الوثنية ، وتهيمن عليها شريعة الصليب ، ويغتصبها سدنة الكفار الباطشين الغاصبين. وأصبحت المساجد التي تعلن أن (لا إله إلا الله) كنائس تعلن (أن الله ثالث ثلاثة) ، وتشرّد المسلمون! واستقر النصارى بها وصاروا أصحاب أملاك. فيقول الشاعر ذاته:-

ألـــــم تـــــكُ معقـــــلاً للـــــدين صـــــعباً فزلزلـــــــه - كمـــــا شـــــاء – القـــــدير؟

وأخـــــرج أهلهـــــا منهـــــا جميعـــــاً فصـــــاروا حيـــــث شـــــاء بهـــــم مصـــــير

وكانـــــــت (دار إيمـــــــان) وعلـــــــم معالمهـــــــا التـــــــي طمســـــــت تنيـــــــر

فعـــــادت (دار كفـــــر) مصـــــطفاة قـــــد اضـــــطربت بأهليهـــــا الأمـــــور

مســـــاجدها كنـــــائس ، أي قلـــــب علـــــى هـــــذا يَقـــــر ولا يطيـــــر؟!

وإنه لشيء لطيف من الشاعر أن يبين أسباب ما يبكي عليه وله. حيث إن كثيراً من الشعراء لا يفعلون هذا لا في القديم ولا في الحديث. الدنيا من حول الواحد منهم تشتعل ناراً ، وإذا بالشاعر عديم القلب والضمير يُحدّث عن ليلى والغرام والهيام والكأس والسيجارة. ولم يكن من هذا الطراز المستشعر. بل قال أسباب الضياع في صدق ، وبيَّن دواعي التردي والسقوط في وضوح. ألا إنها أسباب سقوط أي أمة في أي زمان ومكان ، إن أسباب سقوط طليطلة كما ذكر الشاعر كانت: فساد الحكم وانتشار الموبقات ، وظلم الناس ومصادرة الحريات والحقوق ، والزنا والربا والغنا ، والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وذيوع الإباحية والانحلال، وإقبال الناس على كل شهوات الدنيا التي حرمها الله تعالى ، والمجاهرة بالمعاصي والفجور ، وتفرق الحُكام والأمراء والملوك والسلاطين وخوفهم من المستعمر الغازي الجائر. والغفلة والنفاق ، والارتزاق الرخيص من جانب كثير من الناس على حساب العقيدة. فيعمد الشاعر إلى إبراز شيء من ذلك بالتلميح والتصريح في صدق مقرّعاً وموبخاً فيقول: -

وكـــــان بنـــــا وبالقينـــــات أولـــــى لـــــو انضـــــمت علـــــى الكـــــل القبـــــور

لقـــــد ســـــخنت بحـــــالتهن عـــــين وكيـــــف يصـــــحّ مغلـــــوب قريـــــر؟

فيـــــا أســـــفاهُ حزنـــــاً واعـــــتلالاً تكـــــرر مـــــا تكـــــررتِ الـــــدهور

لـــئن غبنـــا عـــن الأحبـــاب إنـــا ... بـــــأحزان وأشـــــجان حُضـــــور

نـــــذور كـــــان للأيـــــام مـــــنهم ... بملكهـــــمُ فقـــــد وفـــــت النـــــذور

فإنـــــا مـــــثلهم ، وأشـــــد مـــــنهم ... نجـــور ، وكيـــف يســـلم مـــن يجـــور؟

أنـــــأمن أن يَحـــــل بنـــــا انتقـــــامٌ ... وفينـــــا الفســـــق أجمـــــعُ والفجـــــور؟

يـــزول الســـتر عـــن قـــوم إذا مـــا ... علـــى العصـــيان أرخيـــتِ الســـتور

وأكـــــلٌ للحـــــرام ، ولا اضـــــطرارٌ ... إليـــــه؟ فيســـــهل الأمـــــر العســـــير

خـــذوا ثـــأر الديانـــة ، وانصـــروها ... فقـــد حامـــت علـــى القتلـــى النســـور

وموتـــوا كلكـــم ، فـــالموتى أولـــى ... بكـــم مـــن أن تجـــاروا ، أو تجـــوروا

ثم يتوجه الشاعر بعد الحديث عن أسباب السقوط والتردي والضياع والهزيمة ، فيتحدث بلغة اللوم والتأنيب والزجر ، لينبه الغافلين ويستنهض نخوة وإباء أصحاب المروءة من أهل الإيمان فيقول:-

أصـــبراً بعـــد ســـبي وامتحـــان ... يـــلام عليهمـــا القلـــبُ الصـــبورُ؟

فـــأم الصـــبر مِـــذكارٌ ولـــود ... وأم الصـــقر مقِـــلاتٌ نـــزور

نخـــور إذ دُهينـــا بالرزايـــا ... ولـــيس بمعجـــب بقـــر يخـــور

ونجـــبُن لـــيس نـــزأر لـــو شـــجعنا ... ولـــو نجـــبن لكـــان لنـــا زئيـــر

لقـــد ســـاءت بنـــا الأخبـــار حتـــى ... أمـــات المخبـــرين بهـــا الخبيـــر

أتتنـــا الكتـــب فيهـــا كـــل شـــر ... وبشّـــرنا بأنحســـنا البشـــير

وقيـــل تجمعـــوا لفـــراق شـــمل ... طليطلـــة تملكهـــا الكفـــور

فقـــل فـــي خطـــة فيهـــا صـــغارٌ ... يشـــيب لكرههـــا الطفـــل الصـــغير

لقـــد صـــمَّ الســـميع ، فكـــم يعـــولُ ... علـــى نبـــأ كمـــا عمِـــيَ البصـــير

ثم يواجه الناس بالحقيقة المُرة ، أنه ليس أمامهم إلا الجهاد في سبيل الله. ذلك الذي سوف يُعيد لهم الصولة والجولة والدولة والعز والسؤدد والديار. وهذه سمة إيجابية تميز شعراء الممالك. حيث لو ظل الشاعر يسترسل بأبياته في الحزن والجوى والدموع ، لما كان لقصيدته من التأثير

على القارئ كما يكون لو تناول شيئاً من الحل أو الطريق إلى الخلاص. ولما كان الفرق بين قصيدته وولولة النساء عند المصاب فرقاً كبيرا! فيقول موجهاً وناصحاً ومرشداً:

كَفي حزناً بأن الناس قالوا: إلى أين التحوّل والمسيرُ؟

أنترك دورنا ، ونفر منها وليس لنا وراء البحر دُور؟

ولا ثمَّ الضِياع تروق حسناً نباكرها ، فيُعجبنا البكور

وظل وارفٌ ، وخريرُ ماءٍ فلا قر هناك ، ولا حَرور

ويُؤكل من فواكهها طري ويُشرب من جداولها نمير

يؤدي مغرمٌ في كل شهر وتؤخذ كل صائفة عشور

فهم أحمى لحوزتنا ، وأولى بنا ، وهمُ الموالي والعشير

لقد ذهب اليقين فلا يقينٌ وغر القومَ بالله الغرور

فلا دينٌ ولا دنيا ، ولكنْ غرورٌ بالمعيشة ، ما غرور

رضوا بالرق ، يا لله ماذا رآهُ ، وما أشار به مشير

مضى الإسلام ، فابكِ دماً عليهِ فما ينفي الجوى الدمع الغزير

ونح واندب رفاقاً في فلاةٍ حيارى ، لا تحط ولا تسير

ولا تجنحْ إلى سِلم وحرب عسى أن يُجبر العظمُ الكسير

أنعمى عن مراشدنا جميعاً وما إن منهمُ إلا بصير

ولو أنا ثبتنا كان خيراً ولكن ما لنا كرمٌ وخير

إذا ما لم يكن صبرٌ جميلا فليس بنافع عددٌ كثير!

وهكذا تبين من خلال المقطع السابق ظن الشاعر ، وهو يرثي مدينة طليطلة ، ونحن نستشهد بهذا الشاعر على أن شعر رثاء المدائن والممالك ، لم يكن يعمد إلى الاسترسال في وصف المعاناة فقط ، وحشد الألفاظ والصور والإيحاءات والتراكيب المجسدة للدموع والدماء والأشلاء والأحزان والآلام. بل كان الشاعر يعمد إلى استنهاض الهمم وتشخيص الداء والدواء معاً. شأنه في ذلك شأن كل شاعر جاد ، يدرك أن الشعر رسالة سامية. فنراه يرفض الاستسلام لعدوه والرضوخ الغاصبين ، ولا يقبل أبداً أن يسالمهم أو يوادعهم أو يصالحهم. إنهم غصبوا بلاده وانتهكوا الحرمات ، وحولوا مساجد دياره إلى كنائس ، فلا سبيل إلى السلام معهم ،

فنستمع إليه يقول: (ولا تجنح إلى سلم ، وحارب). وليت الأمة تستفيد من هذا الدرس! وذلك السلم لن يعيدها لمسلمي الأندلس السلام. ولكن إذا استولوا عليها بالسلاح والعتاد والرجال والحرب. يطغى على الشاعر شوقه إلى دياره المسلمة المؤمنة. إنه لا يحبها لأجل التراب والطين والوحل ، فإن كل أرض في الدنيا هي تراب وطين ووحل! ولكنه يحبها لأجل دينها الذي كانت تطبقه وتقيمه ، وتجاهد في سبيله ، ألا وهو (الإسلام). ويستنهض الشاعر همم الرجال في رجل مجاهد يجتمع حوله الرجال ، ويلتفوا من حواليه تحت راية واحدة ، وهي راية (لا إله إلا الله) فيقول الشاعر:-

ألا رجـــــل لـــــه رأي أصـــــيلُ ... بـــــه ممـــــا نحـــــاذر نســـــتجير؟

يكـــــرّ إذا الســـــيوف تناولتـــــه ... وأيـــــن بنـــــا إذا ولـــــت كـــــرور؟

ويطعـــــن بالقنـــــا الخطـــــار حتـــــى ... يقـــــول الـــــرمح مـــــن هـــــذا الخطيـــــر؟!

عظـــــيم أن يكـــــون النـــــاس طـــــراً ... بأنـــــدلس: قتيـــــلٌ ، أو أســـــير

أذكـــــر بـــــالقراع الليـــــث حرصـــــاً ... علـــــى أن يقـــــرع البـــــيضَ الـــــذكور

يبـــــادر خرقهـــــا قبـــــل اتســـــاع ... لخطـــــب منـــــه تنخســـــف البـــــدور

يوســـــع للـــــذي يلقـــــاه صـــــدراً ... فقـــــد ضـــــاقت بمـــــا تلقـــــى الصـــــدور

تنغصـــــتِ الحيـــــاة فـــــلا حيـــــاة ... وودع جيـــــــــرة ، إذ لا مجيـــــــــر

فليـــــل فيـــــه هـــــمٌّ مســـــتكينٌ ... ويـــــومٌ فيـــــه شـــــر مســـــتطير

ونرجـــــو أن يتـــــيح الله نصـــــراً ... علـــــيهم ، إنـــــه نعـــــم النصـــــير!

وهكذا ختم الشاعر المجهول الذي لم يسمه صاحب (نفح الطيب) ، وهو يورد أبياته العظيمة الجليلة في مجلده السادس ص - 228 – 232 ، وإن كان ذلك الشاعر مجهولاً عند الناس ، فليس بمجهول عند الله تعالى. فأسأل الله أن يرحمه وأن يثيبه على تلك القصيدة العصماء التي جلت لنا معالم شعر الرثاء للمدائن والديار الأندلسية. إن أمراء الأندلس همُ الذين أودوا بها وبأهلها. بظلمهم وإشاعتهم الموبقات والدنايا وبالكبت للحريات والحقوق وبالهزيمة أمام النصارى ، أعنى أن الهزيمة النفسية التي كانت طريقاً فيما بعد للهزيمة العسكرية. ولقد نلمس شيئاً من ذلك عندما نطالع أبيات أربعة لشاعر أندلسي آخر هو محمد الفازازي ، الذي كان من عادته أن يكتب خواطره شعراً ومن هذه الخواطر تلك الأبيات الأربعة التي عثر عليها مغسلوه في جيبه بعد موته يقول:-

الـــــروم تضـــــرب بـــــالبلاد وتغـــــنمُ ... والجَـــــور يأخـــــذ مـــــا بقـــــيْ ، والمغـــــرمُ

والمـــــال يـــــورد كلـــــه (قشـــــتالة) ... والجنـــــد تســـــقط ، والرعيـــــة تظلـــــم

وذوو التعـــين لـــيس فـــيهم مســـلمٌ إلا معـــين فـــي الفســـاد مسَـــلم

أســـفي علـــى تلـــك الـــبلاد وأهلهـــا الله يلطـــف بـــالجميع ويـــرحم

ويورد صاحب نفع الطيب تعليقاً يدل على الذي أسلفناه عن هذه الأبيات الأربعة. وملخص هذا التعليق أن الأبيات الأربعة لما رفعت إلى سلطان بلده وقرأها بنفسه ، بكى وانتحب على الحال والأوضاع ، واستنكر في نفسه أن يجرؤ أحد الرعية على أن يكتب مثل هذا ، فقال كلمته التي تشخص الداء: (لو كان حياً ضربت عنقه!). وشاعر آخر هو (عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن الغسال) ، يعبر عن أنه لا فائدة ، بل الرحيل أولى وأكثر راحة ، ويؤثر الهجرة على مواجهة المحتل الغاصب. ويرى أن تكاليف الهجرة أقل من تكاليف المواجهة فيقول: -

يـــا أهـــل أنـــدلس ، شـــدوا رحـــالكمُ فمـــا المقـــامُ بهـــا إلا مـــن الغلـــطِ

مـــن جـــاور الشـــر لا يـــأمن عواقبـــهُ كيـــف الحيـــاة مـــع الحيـــاة فـــي ســـفط؟

الثـــوب ينســـل مـــن أطرافـــه وأرى ثـــوب الجزيـــرة منســـولاً مـــن الوســـط!

وشاعر آخر متشائم من المواجهة يؤثر الهروب ، آثر أن يستخدم ألفاظ لاعبي الشطرنج فيقول: -

يـــا أهـــل أنـــدلس ، ردوا المعـــار فمـــا فـــي العُـــرف عاريـــة إلا مـــرادات

ألـــم تـــروا بيـــدق الكفـــار فرزنـــة وشـــاهنا آخـــر الأبيـــات شـــهمات

وكثرت القصائد التي ترثي غرناطة وبلنسية وطليطلة جداً في دواوين شعراء الأندلس. وأورد منها جانباً كبيراً (صاحبُ نفح الطيب) ، حتى أن المرء ليذهل. ومن ذلك أيضا القصيدة السينية لأبي عبد الله الأبار القضاعي البلنسي وهو يبكي (بلنسية) ، تلك المدينة التي سقطت قبل أن يدركها أي جيش من جيوش المسلمين مما يدل على أنها كانت حلقة من حلقات المسلسل المدبر المتفق عليه بين صاحبها وغاضبها. فلقد أظهر حزنه في مستهل القصيدة على بلنسية وأثار العاطفة واستنكر تحويل المساجد إلى كنائس وتهديم مدارس القرآن والكتاتيب ، وتحويلها إلى زرائب للحيوانات والخيول فيقول على البحر البسيط :

أدركْ بخيلـــك خيـــل الله أندلســـا إن الســـبيل إلـــى منجاتهـــا درســـا

وهـبْ لهـا مـن عزيـز النصـر مـا التمسـت فلـم يـزل منـك عـز النصـر ملتمسـا

وحـــاش ممـــا تعانيـــهِ حشاشـــتها فطالمـــا ذاقـــت البلـــوى صـــباح مســـا

يـــا للجزيـــرة أضـــحى أهلهـــا جـــزراً للحادثـــات وأمســـى جـــدها تعســـا

فـــي كـــل شـــارقةٍ إلمـــام بائقـــةٍ يعـــود مأتمهـــا عنـــد العِـــدا عرســـا

وكـــــل غاربـــــةٍ إجحـــــافُ نائبـــــةٍ تثنـــي الأمـــان حـــذاراً ، والســـرور أســـى

تقاســـم الـــرومُ لا نالـــت مقاســـمهم إلا عقائلهـــا المحجوبـــة الأنســـا

وفـــي بلنســـيةٍ منهـــا وقرطبـــةٍ مـــا ينســـف الـــنفس أو مـــا يتـــرف النفســـا

مـــدائنٌ حلهـــا الإشـــراكُ مبتســـماً جـــذلان ، وارتحـــل الإيمـــان مبتئســـا

وصـــيّرتها العـــوادي العابثـــاتُ بمـــا يســـتوحش الطـــرف منهـــا ضـــعف مـــا أنســـا

فمـــن دَســـاكرَ كانـــت دونهـــا حرســـاً ومـــن كَنـــائسَ كانـــت قبلهـــا كنســـا

يـــا للمســـاجد عـــادت للعِـــدا بيّعـــاً وللنـــداء غـــدا أثنائهـــا جرســـا

لهفـــي عليهـــا ، إلـــى اســـترجاع فائتهـــا مـــدارسٌ للمثـــاني أصـــبحت درســـا

وأربعـــاً نمنمـــت أيـــدي الربيـــع لهـــا مـــا شـــئت مـــن خلـــع موشـــية وكســـا

كانـــت حـــدائق للأحـــداق مونقـــة فصـــوّح النضـــر مـــن أدواحهـــا ، وعســـا

وحـــال مـــا حولهـــا مـــن منظـــر عجـــب يســـتجلس الركـــب ، أو يســـتركب الجلســـا

ســـرعان مـــا عـــاث جـــيش الكفـــر واحتربـــا عيـــث الـــذي فـــي مغانيهـــا التـــي كســـبا

وابتـــز بزتهـــا ممـــا تحيفهـــا تحيـــف الأسَـــد الضـــاري لمّـــا افترســـا

ويبكى الشاعر دماً ودموعاً على حال أمير بلنسية ، الذي شارك الأعداء النصارى في تسليم المدينة وإخلاء الميدان من جنود الإيمان وفرسان التوحيد ، التي إن رآها الصليبيون الوثنيون المجرمون لطاردوها فيها الآفاق واندحروا في الوهاد. لكن الأمير – حاسبه الله بما هو أهله - سلم المدينة وأخلى الميدان ، إلا من الصليبيين ، ونكس راية التوحيد ، ورفع راية المسيح ابن الله. يقول الشاعر:-

فـــأين عـــيشٌ جنينـــاهُ بهـــا خضِـــرا؟ وأيـــن عصـــرٌ جلينـــاه بهـــا سلســـا؟

محـــا محاســـنها طـــاغ أتـــيح لهـــا مـــا نـــام عـــن هضـــمها حينـــاً ، ولا نعســـا!

ورج أرجاءهـــا لمّـــا أحـــاط بهـــا فغـــادر الشـــم مـــن أعلامهـــا خنســـا

خـــلا لـــه الجـــو ، فامتـــدت يـــداه إلـــى إدراك مـــا لـــم تطـــأ رجـــلاه مختلســـا

وأكثـــر الـــزعم بالتثليـــث منفـــرداً ولـــو رأى رايـــة التوحيـــد مـــا نبســـا!

ثم يضفي ابن الأبار - رحمه الله - هالة من المدح على أمير أفريقيا ، حتى يستجيش ما في قلبه من خلق وتقوى لله ودين ، ليهب مستنقذاً المدينة من أيدي الأعداء فيقول:

صل حبلها أيها المولى الرحيم فما أبقى المراسي لها حبلاً ولا مرسا

وأحي ما طمست منها العداة كما أحييت من دعوة المهدي ما طمسا

أيام صرت لنصر الحق مستبقاً وبت من نور ذاك الهَدي مقتبسا

وقمت فيها بأمر الله منتصراً كالصارم اهتز ، أو كالعارض انبجسا

تمحو الذي كشف التجسيم عن ظلم والصبح ماحيه في أنواره الغلسا

هذي رسائلها تدعوك عن كثب وأنت أفضلُ مرجو لمن يئسا

وافتك جارية بالنجح راجية منك الأمير الرضا والسيد الندسا

ألا وإن بطل معركة (الزلاقة) الأمير الملك الشاعر الفارسي (محمد المُكَنى بأبي القاسم الملقب بالمعتمد على الله) - رحمه الله - مات في الأسر ، وبكاه الشعراء المسلمون فضلاً عن غيرهم بكاءً مريراً مراً ، وقد كتبت على قبره هذه الأبيات من البحر البسيط (تلك التي صاغها قبل أن يموت):

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقا ظفرتَ بأشلاء ابن عَبّادِ؟

بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا بالخصب إن أجدبوا بالري للصادي

نعم ، هو الحق وافاني به قدرٌ من السماء ووافاني لميعادي

ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه أن الجبال تهادى فوق أطواد

فلا تزال صلاة الله دائمة على دفينك لا تحصى بتعداد

وهو هنا يرثى نفسه قبل أن يموت. والحقيقة لمن تأمل الأبيات أنه لم يبك نفسه فقط ، بقدر ما بكى دولة الإسلام وآلام المسلمين. وأيضاً من عيون الشعر العربي رائية أبي محمد ابن عبدون من البحر البسيط في رثاء الأندلس كلها ، تلك التي حشد لها صوراً كثيرة من ألوان البديع والحكمة والموعظة والعبرة. بكى على الأندلس حيث يقول -

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاءُ على الأشباح والصور؟

أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر

فالـــدهر حـــربٌ ، وإن أبـــدى مســـالمة والبـــيض والســـمر مثـــل البـــيض والســـمر

وكنا قد أشرنا من قبل لرائية ابن عبدون. فأرى أنه لا داعي للإطالة والتكرار. نصل إلى خاتمة هذه المقدمة من شعر رثاء المدائن الأندلسية ، فنقول بأنه كان شعراً ذا سمات متعددة نذكرها في إيجاز:

1– كل الشعراء الأندلسيين الذين رثوا الممالك الضائعة ، عمدوا إلى الصور والمحسنات البديعية والإيحاءات والتراكيب الفنية التي تضفي على أسلوبية الشعر الوقار والإحساس بالحزن والجوى.

2– كان رثاء الديار والممالك أكثر من رثاء الأمراء والملوك الموحدين الذين قاموا بما يجب عليهم حيال الدين والعقيدة والرعية. ولم يكن موقفهم التفرج على المآسي تصيب ديارهم!

3- استنهاض الشعراء لهمم المسلمين ، واستصراخهم لنجدتهم في محاولة منهم لاستنقاذ المدائن والممالك والديار. وذلك بدافع الجهاد في سبيل الله ، لتحقيق الكرامة واستعادة الأرض ولكيلا تكون هناك فتنة أي (شرك بالله في الأرض) ويكون الدين (أي الشريعة التي تحكم الكل) كله لله. وليعش في دار الإسلام الكل!

4– اللوم والعتاب والتأنيب لحالة الخنوع الأنثوي والرضوخ للأعداء الكفار تلك التي ابتلي بها المسلمون.

5 – ربط العاطفة الإنسانية العامة بتقوى الله والتذكير به – عز وجل - وبالآخرة وبالجنة وبالنار.

6 – واقعية الشاعر: فهو يصف الداء ويشخص الدواء مثل الرفيق (أي الطبيب في لغة القوم اليوم). وليس الشاعر يمثل الارتزاق الرخيص بالشعر. وليس يمثل الفصام النكد ، والتنصل من السمو برسالة الشعر السامية وتوظيفه خادماً للعقيدة والدين ، لكي يصير بهوى الشاعر ودنو همته منافحاً عن الباطل وجندياً للفجور والإفساد في الأرض.

7 – بيان الشوق إلى الديار والحنين إليها ، والبكاء على أطلالها ، وليس ذلك الحب ولا ذلك التعلق ولا ذلك الحنين من أجل الطين والأرض والوحل. فكل أرض في الوجود هي طين وتراب ووحل ، بل كان ذلك من الشعراء من أجل كون الأندلس جزءا من دار الإسلام ، تقيم الإسلام وتجاهد في سبيله وتنافح من أجله وتدعو إليه العالمين.

8 – الالتزام الصارم بأدب العقيدة عند الكتابة عن المحن والآلام ، فلا يُغلب الشاعر نزعته التشاؤمية ، فيسب الدهر بمعنى الأيام والقضاء والقدر ، ويلعن النصيب ، ويتسخط على ما أصابه. وأما ما كان من ابن عبدون في رائيته:

الـــدهر يفجـــع بعـــد العـــين بـــالأثر فمـــا البكـــاء علـــى الأشـــباح والصـــور؟!

وإلى قوله في ختام قصيدته العظيمة:-

فالـــدهر حـــربٌ ، وإن أبـــدى مســـالمة والبـــيض والســـمر مثـــل البـــيض والســـمر

فالشاعر هنا لا يسب الدهر بمعنى الزمان والأيام ، كما أنه لا يسب الدهر بمعنى القضاء والقدر. بل ما يحمل على ما عليه أهل الزمان من الحال الخانع الصاغر الذليل. وهذا جوّز فيه أهل العلم قديماً وحديثاً ، فيجوز أن نقول: هذا زمان قلّ خيره ، وكثر بلاؤه وشره ، عانين بذلك أهل الزمان لما درجوا عليه من معصية الله تعالى والمجاهرة بها! وعسى أن نكون قد وفقنا في رسم المعالم والسمات التي كان عليها شعر رثاء الممالك والديار الأندلسية في هذه القراءة الأسلوبية الخاطفة للتقديم لهذه القصيدة. ومن أراد المزيد فليُطالع المراجع وكتب التاريخ. وقد أمر الله بالإعداد والتخطيط والترتيب والعمل الجاد فقال تعالي: (وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ). وقال: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}. وقال: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ). إن الله تعالي خلق الإنسان لمهمة عظيمة تتمثل في عبادته سبحانه وتعالي فقال تعالي: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ). والعبادة في حقيقتها هي تحقيق مراد الله في تعمير الأرض وفق المنهج الرباني. ولذلك ربط الله الإيمان بالعمل في القرآن الكريم ، وحيثما ذكر الإيمان في القرآن أو ذكر المؤمنون ذكر العمل ، قال تعالى:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}. (وأشهد الله ربي أنني قد أرسلت بمقدمة هذه القصيدة لعدد من المجلات العربية والعالمية رجاء أن ترى النور ، على هيئة بحث من بحوث المجلة على عددين من أعدادها ولكن دون جدوى. ذلك أن المجلات والدوريات والجرائد مشغولة ومعنية بالأسماء التي لها صيتها ووزنها. فعقب ذلك ضننتُ عليهم جميعاً بالقصيدة النونية الأندلسية هذي احتقاراً لمناهجهم المزدوجة المعايير. وأيضاً لئلا يكون بجوارها أو خلفها في المجلة صورة راقصة أو قصة داعر من هنا أو من هناك! وآثرت أن تكون بين رفيقاتها وصويحابتها في ديوان القوقعة الدامية. ذلك الديوان الجريح الذي يناسبه جداً رثاء الأندلس ، غير عابئ بالمجلات والدوريات اللماعة التطويعية الارتزاقية هنا وهناك. وأسأل: هل هانت عليهم قضية الأندلس إلى هذا الحد؟! إن الاندلس سوف تعيش في وجداننا وذاكرتنا وأشعارنا إلى أن تعود إن شاء الله عز وجل. وهي عائدة لا محالة. كما لا يفوتني أن أعتذر جدا للقارئ الحبيب عن هذه المقدمة الطويلة التي تصيبه بالملل والسآمة ، وإن هذا لم يكن مقصوداً. وكذلك أعتذر عن طول القصيدة). والحقيقة أنه عزيز على نفس كل إنسان ما جرى للأندلس. وإنني قبل سنوات كتبت (الأندلس: الأرض والفتاة). وكانت قصيدة لها مناسبتها. وأما قصيدتي (الأندلس بين المجد والفقد) ، فإنني أكتبها أبكى بها الأندلس ، وأرسم الطريق لعودتها. ومذكراً بما كان فيها من أسباب النصر والتمكين والمجد. ومبكتاً بما آلت إليه من أسباب الهلاك والضياع. ومقارنة بين أرض الأندلس وأخرى بأرض فلسطين ندرك من خلالها كيف فرّط أهل الأندلس في أرضهم! وكيف تمسّك الفلسطينيون بأرضهم! ومن هنا اعتبرتُ المسلمين المؤمنين الموحدين من الفلسطينيين أرجل شعب عرفته الدنيا!)

72 - الانفعالُ الأبكم

(يريدُ ذلك الخائف المرتجف الدفاع عن الحق ، ولكنه لا يبين ولا يفصح ، ويكتفي بالرغبة القلبية ، فيخنقه الانفعال الأبكم بسبب الرضا بالهوان. ورأيت أن أنصح له بنصيحةٍ شعريةٍ لعله يتعهد نفسه بشيء من الإصلاح والتقويم! ولمته لوماً شديداً على انفعاله الأبكم ، الذي لا يتناسب مع الظروف من حوله ، وهو يرى جميع المغرضين لا يكفون لحظة عن الصدع بباطلهم ، وفرضه على الآخرين! وبيّنتُ له كيف لامني الآخرون على ترفقي به في مرحلة من المراحل! وإنما آخذه بالحزم والشدة ليفيق من سكرته ، ولينتبه من غفلته ، وليدرك أن المقام مقام جد لا هزل فيه!)

73 - الانهزام بداية الهزيمة

(أحياناً تجتمع على الشاعر عوامل ، يريد أصحابها أن يكسروا قلمه ، ولكنه لا ينهزم بل يُصر على الاستمرار. ذلك أن انهزامه هو هزيمته النفسية التي تقوده سريعاً نحو الاندثار والضياع. وكم من مواهبَ عظيمة سقطتْ وتلاشتْ أمام أول الصدمات ، وذلك من بعد أن تعثرتْ في أول الطريق! والمواجهة الإيجابية أولى من الانسحاب من المشهد. وكل من ألّف ونظر فأراه قد وضع ما احتواه عقله وقلبه من أفكار أمام قرائه ، فليتحملْ تبعاتِ الجدال والمناقشة بكل حيدةٍ وموضوعية. فلربما استطاع أن يُقنع من جادله إلى مراده بكل احترام ، دون ترك الميدان!)

74 - الآهة الثكلى

(قال الله عز وجل: (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) وقال: (وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت) ، وقال: (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون). وروى البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: خطَّ النبي ﷺ خطوطًا فقال: «هَذَا الإنسانُ ، وَهَذَا أَجَلُه ، فَبَينما هُوَ كَذَلِكَ إذْ جَاءَ الخطُّ الأقْرَبُ». فلماذا الدمع؟ إنها الدموع يدفعها المرء ساعة المصاب ، وذلك حتى يُعبِّر عَنْ معاناته الداخلية الكامنة ، يَسخرُ منها مَنْ يَسخر ، ويَحزنُ لها مَنْ يحزن ، وساعةَ يُبتلَى المرءُ بعينِه ويهرعُ إلى رُكنِ ربِّهِ القَوِي العزيز الغالب الشديد ، فإنه يجدُ العزاءَ بلْ والصبرَ ، والأصل في ذلك كله: فمَن رضيَ فلهُ الرضا ، ومَنْ سَخِطَ فلهُ السُخْط. يقول الأستاذ هاني ضوة عن مقام الرضا بقدر الله: (وقد فطن لهذا المعنى ابن عطاء الله السكندري ، فقال في حكمه: "ربما أعطاك "الله" فمنعك ، وربما منعك فأعطاك ، وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء." ومعنى قول ابن عطاء الله أنه ربما يعطي الله عبدًا نعمًا كثيرًا تمناها ، فتكون هذه النعم سببًا في ميله إلى الشهوات أو الفتنة ، أو تكون سببًا في مرض أو ضياع دين أو بعد عن الله ، وربما منع الله عن العبد ما يطلبه ، فيكون ذلك سببًا في منع بلاء أو توفيق لشيء آخر أفضل ، أو يكون ذلك سببًا في القرب من الله. وأمر المؤمن كله خير سواء كان في ضيق أو في يسر ، يقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: "عَجَباً لأمر المؤمن! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ،

إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صَبَر ، فكان خيراً له". وكان من دعاء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: "اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضاء بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت". وبيَّن الحبيب المصطفي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن من أسرار سعادة ابن آدم رضاه بالقضاء. فعن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه – قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: "من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له ، ومن شقاوة بن آدم تركه استخارة الله ، ومن شقاوة بن آدم سخطه بما قضى الله له". إن تحقيق صفة الرضا يقتضي إجالة النظر في أحوال الناس الآخرين ، لتعلم مقدار نعم الله عليك ، التي قد يغبطك عليها الملايين من البشر. فإن كنت فقيرًا ، فهناك من حولك من هم أشد فقرًا. وإن كنت مريضًا ، فإن من حولك من هم أكثر مرضاً وألماً منك. وإن كنت تحس بالحزن وكدر العيش ، فإن هناك من حولك من هم أكثر كآبة وحزنًا منك. فارض بما قسمه الله لك ، وخذ بالأسباب ثم توكل على الله).هـ. وأشكر الأستاذ ضوة على تفسيره الطيب لبعض حكم ابن عطاء الله. ولنا حكم ابن عطاء الله ، وعليه تصوفه وتجاوزاته! وأزيد الأمر وضوحاً فأقول بأن مقام الرضا بالقضاء لا يُرزقه إلا عبد مؤمن مسلم موحد يعلم جيداً أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه! ويصبر ويسترجع!)

75 - الأيام دُوَل

(أحياناً يحلو لكثيرين أن يتصوروا ، أن نعم الله الوفيرة عليهم في الدنيا قرينة رضاه – عز وجل - عنهم. وهذه ليس قاعدة. فإن كثيراً من الناس يتصور أن النعيم الذي يرتع فيه في هذه الحياة ، يمكن أن يدوم ويستمر معه إلى نهاية حياته فيها. وعلى النقيض من ذلك ، هنالك فريق آخر - لكثرة بلائه - يظن أن الضنك له في هذه الحياة حتمٌ لازمٌ وقدرٌ محتوم. ولا شك أن هذا وذاك بين تفريط في الإدراك وإفراط في الفهم والتصور ، قاد إلى هذا الإفراط وذلك التفريط الجهلُ بالشرع والتوحيد والعقيدة. وإلا لاستطاع صاحب مثل هذه التصورات الهزيلة أن يتجاوزها ، ويدرك بكل وضوح أن النعيم لا يدوم وأن الضنك والشقاء لا يدوم. إن هذه الأيام دولٌ تتقلب بأصحابها بين اليُسر والعسر. ولا يجب على ذي السعة واليسر أن يغتر بهما! بل له يوم مُر ينتظره إن آجلاً أو عاجلاً. والغرور طابع السفهاء البلهاء الحمقى والمغفلين. وأحياناً تأخذ الظالم نزعة الاغترار بالإمهال والإملاء في فترة من الفترات. فيزعم معها أنه قد أفلت من عقوبة الله المنتقم الجبار - تبارك وتعالى - وينسى أو يتناسى أن هذي الأيام دول: يوم لك ويوم عليك. ومن هذا المنطلق كان يوم القيامة يوماً فصلاً بين الظالم والمظلوم من بنى البشر. وهذه حتمية عقدية يجب الإيمان بها: (واليوم الآخر) كما في حديث جبريل ، وذلك أن عتاة كثيرين عاثوا في الأرض الفساد ، وظلموا الخلائق وأكلوا حقوقهم ، ومع هذا عاشوا يرفلون في النعيم والدعة والرغد ، ولم يقتص منهم ، ليس هذا فقط ، بل الناس لا يزالون يمدحونهم ويثنون عليهم إلى يوم الناس هذا! وكذلك امتلأت الدنيا بمظلومين كثيرين لم يُثأر لهم من ظالميهم! فإذا بيوم القيامة ، يوم الفصل المبين حيث يقول الله تعالى: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفي بنا حاسبين). ويعلق صاحب المعالم على الآية: (فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) بقوله نصياً: (إنه

الصبر وسيلة المؤمنين في الطريق الطويل الشائك الذي قد يبدو أحياناً بلا نهاية! والثقة بوعد الله الحق ، والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك. الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين ، ومن تكذيبهم للحق وشكهم في وعد الله. ذلك أنهم محجوبون عن العلم محرومون من أسباب اليقين. فأما المؤمنون الواصلون الممسكون بحبل الله فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين. مهما يطول هذا الطريق ، ومهما تحتجب نهايته وراء الضباب والغيوم!)هـ. إن الأيام يا أقوامنا دول ، وهذه الدنيا لا تدوم على حال ، والنعم فيها متداولة بين الناس ، هي اليوم لزيد دون عمرو ، وغداً تؤول تلك النعم لعمرو دون زيد. وصدق القائل: (لو دامت لغيرك ما وصلت إليك). فالزكي الفذ من جعلها مَعبراً للآخرة ومزرعة لها. فسبحان من يُميتُ ولا يموت ، وعز وجل من لا يبقى على ما هو إلا الذي لا إله إلا هو!)

76 - الباشا مؤرخاً

(في الماضي والحاضر كُتاب وروائيون وقصاصون كتبوا عن حياة الصحابة والتابعين. ولكن أين فيهم المحقق المؤرخ الذي يغربل الحدث صحة ومتناً وسنداً؟ لقد كان أستاذنا عبد الرحمن رأفت الباشا واحداً من هؤلاء. حيث كتب (صور من حياة الصحابة) وترجم فيها لـ 65 صحابياً. وكتب (صور من حياة التابعين) وترجم فيها لـ 37 تابعياً. فألفيت الكتابين آية في الإبداع والدقة والتحقيق. ونقلاً عن كتاب (مذكرات في البحث العلمي لمؤلفين) يرى ابن خلدون أن التاريخ هو دراسة الأمم الماضية وما حوى من أخبار الملوك والأنبياء مؤكداً حاجة المؤرخ إلى الدقة والتثبت حتى يصل إلى الحقيقة. وإن كان التاريخ في الظاهر هو الأخبار فهو في الباطن دراسة وتحقيق وتحليل لكيفية وقوع الحوادث. ويقول كولنجود: إن التاريخ هو تفكير الحاضر عن الماضي ، أما توينبي فيرى أن دراسة التاريخ هي البحث عن النمو في مسيرة الإنسان ، وهو سجل الفكر الإنساني. بيد أن نيتشه الفيلسوف الألماني – يكره التاريخ ويصر على أنه رفاهية ويؤكد عدم احترامه للتاريخ. ويعارضه د. زياد بقوله إن التاريخ هو مصدر العلوم لأنه يوضح تطور العقل الإنساني ويستشهد باهتمام القرآن الكريم في التاريخ وذلك بإيراد قصص الأمم السابقة. هناك من العلماء من يرى أن التاريخ علم ومن هؤلاء ليوبولد رانكه ، ويؤيد هذا ما طالب به فلاسفة التاريخ من إخضاع جميع الظواهر التاريخية بواسطة منهج علمي دقيق لقوانين السببية ، وطالبوا المؤرخ أن يثبت بصورةٍ مقنعة أن الأحداث التاريخية لم يكن في الإمكان حدوثها بطريقةٍ غير تلك التي حدثت بها. وإن التطور التاريخي يسير وفق قوانين بائتةٍ تماثل قوانين الطبيعة. ومع ذلك فإن المنهج التاريخي يختلف عن منهج العلوم الطبيعية من حيث استحالة القيام بالتجربة التاريخية لعدم إمكانية إيجاد الظروف الزمنية والمكانية ، وفقدان وسائل التحكم الصناعي لوجود العامل البشري. فحييتُ المؤلف الباشا شعراً لأنه التزم هذه المنهجية. وكان بحق قصاصاً محققاً مدققاً مؤرخاً أديباً في آن واحد. وهذا واضحٌ في أغلب استشهاداته! الأمر الذي استحال على كثيرين سواه! وهذا الأمر لم ألمسه في كثيرين من الكُتاب الذين أحدهم أشبه بحاطب الليل منه بكاتب القصص! لماذا؟ لأنه لا يتثبت من القصص التي يُوردها في كتبه! بل يوردها كما وقع عليها ، دون أدنى تحقيق أو تدقيق! لكن الباشا وأحمد خليل جمعة وعدنان النحوي وأحمد الجدع ، يختلفون في التحقيق والتدقيق!)

77 - البحر الطويل والليل الطويل

(سهرة كانت مع الشعر عبر الليل الطويل الذي كان يمُد بعباءته على حجرتي! فكتبت عبرها هذه الفكرة أسلي بها حزين خواطري وأطمْئِنُ بها أسيف وجداني.عن عبيد بن عمير - رحمه الله -: (أنه قال لعائشة - رضي الله عنها -: أخبرينا بأعجب شيء رأيتِه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟ قال: فسكتت ثم قالت: لمّا كانت ليلة من الليالي قال: (يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي!) قلت: والله إني أحب قُربك ، وأحب ما يسرك. قالت: فقام فتطهر ، ثم قام يصلي. قالت: فلم يزل يبكي ، حتى بل حِجرهُ! قالت: وكان جالساً فلم يزل يبكي - صلى الله عليه وسلم - حتى بلّ لحيته! قالت: ثم بكى حتى بلّ الأرض! فجاء بلال يؤذنه بالصلاة ، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله تبكي ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: (أفلا أكون عبداً شكورا؟!) لقد أنزلت عليّ الليلة آية ، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها! {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ... }) رواه ابن حبان وغيره - صحيح الترغيب للألباني. تقول الأستاذة نورة السعد نقلاً عن علي عزت بيجوفيتش في مقالة له عنوانها: (التربية طريق التغير الحضاري) يربط بين الثبات الأخلاقي ودوره في النهوض الحضاري وعلى العكس (الانهيار الأخلاقي) ودوره في الهزيمة على المستوى الإنساني ثم الحضاري. يتحدث عن الواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم والحالة المعنوية للعالم الإسلامي. هذا الواقع الذي ينتشر فيه الانحراف وسيطرة الفساد والخرافة والكسل والنفاق وسيادة التقاليد والعادات غير الإسلامية ، وترسخ المادية ، والغياب المذهل للحماسة والأمل. ويتساءل إذا كان بالإمكان البدء بأي نوع من أنواع الإصلاح الاجتماعي أو السياسي مباشرة في مثل هذه الظروف؟ حيث إنه على كل أمة - قبل دعوتها لأداء دورها في التاريخ - أن تحيا فترة من التطهير الجوّاني والتسليم العملي بمبادئ أخلاقية أساسية معينة. إن كل قوة في العالم تبدأ بثبات أخلاقي ، وكل هزيمة تبدأ بانهيار أخلاقي وهذه الحقيقة تثبتها دراسات في آلاف المجلدات في الدورة الحضارية ، ابتداء من ابن خلدون ، ومروراً بشبنجلر وبتيريم سوروكن ، وانتهاء بعصرنا هذا! فالعلاقة بين المبدأ الأخلاقي وبناء الحضارة وكيف تسيطر على مجريات الحياة وكيف ترتقي بالمجتمعات إلى المستوى الحضاري. ثم كيف بانهيارهما تنهار الحضارة في جانبها المعنوي وتبقى في جانبها المادي الذي لا يقوى على الصمود! يقول علي عزت بيغوفيتش: (كل ما يراد تحقيقه لا بد أن نبدأ بتحقيقه أولاً في أنفس الناس. فعندما تذكر الصحوة الدينية كمطلب أساسي للنظام الإسلامي. فذاك لأن الصحوة الدينية هي وعي واضح بالغاية الحقيقية للحياة لمَ نحيا؟ ولأجل أي هدف نحيا؟ وهل هذا الهدف شخصي أم هدف مشترك؟ هل يتعلق الهدف بعظمة العنصر (الذي أنتمى إليه)؟ أم بمجد الأمة؟ أم هو تأكيد شخصيتي الفردية؟ أم هو هيمنة شريعة الله على الأرض؟).هـ.

78 - البَدرُ ليلة التمام

(عندما تكون الشمس ساطعة متربعة رابضة في كبد السماء ، ويأتي العميان ينكرون ضوءها ، فهل على الشمس لوم؟ وهل يصح إنكار العميان ضوءها ، فتصح المقالة وتنكر الشمس؟ بالطبع: كلا. وإذن فالحقيقة لا تموت مهما تخرص المتخرصون ، ومضى كل غاش واش يُدلس ويُلفق ، ويُؤلف الأكاذيب ، ويخترع الأباطيل ، وينسج الزيوف ، ويحتال الحيل. إن

الحق واضح أبلج ، ناصع لامع ، لا يحتاج إلى كثير جدل. والحق كالبدر ، ليس يتأثر بالشهب ولا بالنيازك من حوله ، كما لا تنال منه ولا من ضوئه الغيوم والسحب ، ولا يحجب ذلك الضوء شيء. وإن حدث فلبرهة فقط. ويحدثنا الأستاذ عبد الله متولي عن غدر الوشاة فيقول: (يذكر التاريخ في صفحات سيئة ذلك الدور المشين الذي لعبه الوشاة. فأشعلوا النفوس حقداً وأوقدوا للحرب نيراناً. إن شر الناس ذو الوجهين. الذي يأتي هذا بوجه ، وهذا بوجه ، وينقل كلام هذا لذاك على سبيل الإفساد بينهما ، وقد يتقوّل على أحدهما ما لم يقل ، فيجمع بين النميمة والبهتان. الوشاية يا لها من خلق ذميم وسلوك مشين. فكم تقطعت من أواصر ، وتفرقت من قلوب ، وتهدمت من بيوت ، بسبب المشائين بالنميمة ، الساعين بالإفساد بين الناس ، المفرقين بين الأحبة ، المتتبعين للعورات! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان ، تقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك ، فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا). رواه الترمذي. غير أن بعض الناس ينسى قيمة اللسان ويتناسى أخطاءه ومساوأه فيطلق له العنان بالوشاية ، وما ذلك إلا لمرض في القلب حيث (إنما جُعل اللسان عن الفؤاد دليلاً) ، فنجد الواشي ساعياً بالغيبة والنميمة محاولاً الوقيعة بين الأصدقاء والإخوان ، فلا يروق له بال ، ولا يطمئن له حال إلا إذا قطع الأوصال وفرَّق بين الناس فإذا بالصداقة تصبح عداوة وإذا بالتفاهم والود يتحول إلى حقد وبغضاء ، والتقارب والتعارف يستحيل إلى تباعد ونكران ، وكل ذلك جرَّاء الوشاة الذين في قلوبهم مرض يحرك ألسنتهم بالنميمة غير عابئين بما ينتج عن أقوالهم وأكاذيبهم من نتائج سيئة وأفعال مشينة في العلاقات بين الناس.)هـ. والزور مهما تزخرف ولبس مسوح الحق فإنه يبقى زوراً كالحاً لا حقيقة فيه ولا حق يؤديه ، وأهله إن علت أصواتهم به فهم القوم الأفاكون المخادعون. وعندما ينجح الزور ، وتسود الدعاية ، وتروج الوشاية لا يستطيع الحق أن يدافع عن نفسه. ومن ثم فهو يشبه البدر ليلة تمامه ، ولكن في ليلة شاتية جوها ملبد بالغيوم الشديدة. ويتساقط المطر عبرها ولا تستطيع قطرة واحدة أن تجفف دموع البدر الباكي الشاكي ، ولقد يغبط الكثيرون من الناس ذلك البدر على هذا المطر ، وما درى هؤلاء أن المطر ينتفع به غير البدر!)

79 - نهج نهج البردة 1425هـ

(قرأ معلم لغة عربية زميل قصيدتنا: نهج نهج البردة ، والتي نشرت من قبلُ في ديوان: (الأمل الفواح) سابقاً. وعلق الأستاذ الفاضل بأنها لم تكن بمستوى البيان المتصور. فوعدته بأنني سأقوم بكتابة نهج جديد للبردة في مستقبل الأيام ، وهذا إن قدر الله لي وشاء وجاءتني المَلكة الشعرية بالإيحاء والصورة. وقد كان ، فأحسست بجنين البردة يتحرك في ضميري. فأهديتُ سيدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهجاً جديدا للبردة: أتحدث إليه فيها لست متوسلاً به – معاذ الله – فهذا شرك لا يرضاه لنا رسول الله قط ، ولكن أكلمه من مشربية (السلام عليك أيها النبي ، ورحمة الله وبركاته). كما أنني لست أشكو له الحال ، فإن ذلك لا يكون إلا لله سبحانه. بل أقارن حال الأمة المسلمة اليوم بحالها بالأمس. وذلك في باقة عطرة من الجمال ، الذي يناسب الحديث إلى الرسول النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وكنت قد عرضتها على الزميل الذي نقد بردة الأمس. فأخذ يمتدحها فشكرته. والحقيقة أنني غلبت فيها

الواقعية ، وإنما كان الخيال في الصور والتراكيب! في مقال عنوانه: (الشعر وموقف الإسلام منه) يقول الدكتور محمد بن سعد الدبل ما نصه بتصرف يسير: (قديماً قال النقاد: "أعذب الشعر أكذبه" ؛ أي: إن الشاعر متى اعتمد في صوره الشعرية على الخيال المجنَّح الغارق في المعاني غير الحقيقية كان في إلهامه الشاعري بعيدًا عن الواقعية ، مما يفرض عليه التعمية والألغاز أحيانًا في تلمس المعنى والخروج به إلى المتلقِّي في ثوب قد يُعرى مِن الصحة ، ويَنعكِس الإبداع فيه إلى صورة مشوَّهة يمجُّها الذوق ويَنفر منها العقل وترفضها الفِطرة السليمة ، وتلك المآخذ قد عري منها الشعر المتأدب بأدب العقيدة والتوحيد ذلك لأنه في نزعته الإسلامية تقيَّد بالمعاني الحقيقية التي يمنحها الإسلام لكل فرد ولكل مجتمع ، فانطلق الشاعر في صوره ومعانيه وأخيلَته من هدي الإسلام الذي هو معانٍ حقيقيَّة لا تَحتمِل التأويل والتخييل المُفرِط. ومِن خلال دراسة بعض القصائد الإسلامية ومِن خلال دراسة نظرة الإسلام وتصوُّره الشامل للحياة يُمكننا القول عن موقف الإسلام مِن الأدب بعامة ، ومِن الشعر بخاصة: إن أول ما يَحسُن ذكره في هذا المقام أن نقف على شيء مِن النُّظُم والعادات والتقاليد والأعراف التي كانت سائدةً إبان العهد الجاهلي لتَّتضح الرؤية في تحديد موقف الإسلام مِن الأدب عامة ومِن الشِّعر خاصة. وإذا كنا بصدد الكلام على موقف الإسلام مِن الأدب بعامة وموقفه من الشعر بخاصة ، فإن هنالك عادات ونظُمًا وتقاليد وأعرافًا وأخلاقًا درَج عليها العرب في جاهليتهم ، وجاء الإسلام فأقرَّ مِن هذا كله ما هو وثيق الصلة بتشريعاته وَفق كتاب الله وسنَّة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. فمِن العادات التي درج عليها الجاهليون: عادات في الزواج ، وعادات في المِهَن والصناعات ، إلى جانب التمرُّس بأخلاق إيجابيَّة وأخرى سلبيَّة. فمِن الأخلاق الحميدة: عزَّة النفس ، وكرْه الذلّ ، وبغْض الظلم ، والترفُّع عن أخذ الديَة ، وإكرام الضيف ، وحبُّ السلام ، وحفظ حقوق الجار. ومن الأخلاق السيئة التي تفشَّت في المجتمع الجاهلي: لهْو الشباب ، وقلخ الشواب ، وابتذال المرأة صغيرة وكبيرة ، ومُعاقَرة الخمر ، ولعب القمار ، والدعوة إلى الثأر وتأريث العداوات. وقد خالَج هذه الأخلاقَ ألوانٌ من المحامد والفضائل ؛ كصفاء النفس ، والإيمان بالله – تعالى ـ وإكرام المرأة للرجل ، وإكرام الرجل للمرأة ، والتأثر بالحِكم الصادقة وحب المشورة والحلم والأناة. وحين جاء الإسلام أقرَّ مِن هذه القيم ما يلي: حب السلام ، والشجاعة، والإيثار ، والكرم ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، ومساعدة الفقراء وحسن المعاشرة ، والحلم ، والصدق والأمانة ، والوفاء، والرأفة بالحيوان ، والتكافل الاجتماعي ، ومقْت الظلم ، وحقوق المرأة ، والحقوق الزوجية ، وبرُّ الوالدين ، ثم ختم هذه القيم الرفيعة والمثل العليا بقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم-: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). وهذا يعني ـ بالضرورة ـ أن الأدب الإسلامي بمصدريه النثر والشعر قد اتخذ من هذه القيم مادته التي ينزع عنها في معالجة الأدواء التي يشكو منها الفرد والجماعة على حدٍّ سواء. وعلى الرغم مِن أن نُقَّاد الأدب قد نادوْا بتأثير العقل والعاطفة والخيال على العطاء الأدبي ، فإن الإسلام في نظرته إلى الأدب قد وسَّع دائرة النظرة عند النقاد فسَمَا بالعقل ، وسما بالعاطفة ، ولم يَحجب الرؤية الأدبية مِن خلال الخيال الشاعري ، ولكنه عمل على تهذيب العواطف والارتفاع بخيال الأديب عن سفاسف الأمور ؛ حتى لا يطغى جانب العاطفة على جانب العقل ، فلكلٍّ منهما أثره وجدواه في جودة الأدب ورفعته ، وقيمه الفنية. وقد تحدث الإسلام عن المَعين الأول للأدب والقيَم الإنسانية كلها ، ذلك المعين هو (العقل) ؛ فقد جعل له الإسلام مزية تَفوق أرقام الحساب ، ودلالات اللفظ اليسير ، قبل الرجوع في تأييد هذه المزية إلى المناقشات

والمذاهب التي قد تَختلِف فيها الآراء. وتلك المزية هي: التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة ، وأمر التبعة والتكليف. ففي كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو ضمنية إلى العقل أو إلى التمييز ، ولكنها تأتي عرضًا غير مقصودة ، وقد يلمَح فيها القارئ - أحيانًا - شيئًا مِن الزراية بالعقل أو التحذير منه ؛ لأنه منزلة العقائد ، وباب مِن أبواب الدعوى والإنكار. ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه ، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة مقتضبة في سياق الآية ، بل تأتي في كل موضع مِن مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة وتتكرَّر في كل معرض مِن معارض الأمر والنهي التي يُحثُّ فيها المؤمن على تحكيم عقله ، أو يُلام فيها المُنكر على إهمال عقله وقَبول الحَجرِ عليه ، ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد مِن معانيه التي يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة ، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها. وتتعمَّد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته ، فلا يَنحصِر خطاب العقل في العقل الوازع ، ولا في العقل المُدرك ، ولا في العقل الذي يُناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح ، بل يعمُّ الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنساني مِن خاصة أو وظيفة. فالعقل - في مدلول لفظه العام - ملَكة يُناط بها الوازع الأخلاقي أو المنع مِن المحظور والمنكور ، ومِن هنا كان اشتقاقه مِن مادة "العقل" التي يؤخذ منها العقال ، وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية أن تتوارَد في اللغات الإنسانية الكبرى التي يتكلم بها مئات الملايين مِن البشر. وهذا يعني أن الأدب فنٌّ جميل قوامه العقل والعاطفة معًا ، فلا يَحسن أن يَطغى جانب أحدهما على الآخَر).هـ. وتحت عنوان: (الشوق إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم -) قال محمد المنجد: (وقد اشتاق الصحابة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - في حياته وبعد مماته ، وأحبوه حباً لم يعرف التاريخ مثله ، حتى قال أنس: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقْبِلُ وَمَا عَلَى الْأَرْضِ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْهُ). رواه أحمد ، وإسناده صحيح. وقال علي رضي الله عنه: (كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ). الشفاء بتعريف حقوق المصطفى. "وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ" كما يقول عمرو بن العاص رضي الله عنه: لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ. رواه مسلم. وقال عدوه: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً". السيرة النبوية الصحيحة. وهكذا تغلغل حبه في قلوبهم فوصل إلى الحشايا وتعمق في نفوسهم ، فكان أحب إليهم من أموالهم وأولادهم ووالديهم والناس أجمعين ، كما قال لهم وعلّمهم: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين). رواه البخاري. بل كل من صدقت محبته للنبي - صلى الله عليه وسلم - أحبه أكثر من نفسه ، ولذلك كان أحدهم يقول: نحري دون نحرك. وقال عمر للعباس: يا عباس والله لإسلامك يوم أسلمت أحبَّ إليّ من إسلام الخطاب - يعني أباه - لو أسلم وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب لو أسلم". الطبراني. وعمر رضي الله عنه لم تمنعه قوة شخصيته ولا غضبه في الحق أن يكون صاحب مشاعر حساسة وقلب مرهف تجاه النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فقد فرض لأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ثَلَاثَةِ آلَافٍ وَخَمْسِ مِائَةٍ ، وَفَرَضَ لابنه ثَلَاثَةِ آلَافٍ ، فسأله ابنه عن ذلك فقال: لِأَنَّ زَيْدًا كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَبِيكَ ، وَأُسَامَةُ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْكَ ، فَآثَرْتُ حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ. الترمذي. وقد حكى التاريخ حبهم له ، حتى أن الملوك لا يُفعل معها كما يفعل معه ، لا من باب الذل والعبودية ، ولكن من باب التوقير ،

وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ – يعني ما رأيت ملكاً قط - يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَمَّدًا ، وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ). رواه البخاري. وكانت محبته في قلوبهم أصيلة ، وكان شوقهم إليه عظيماً ، هذا ثوبان مولاه كان قليل الصبر عنه ، يشتاق إليه كل يوم ، جاءه يوماً وقد رأى في وجه تغيراً فقال: (ما غير لونك)؟ فقال: يا رسول الله ما بي من مرض ولا وجع غير أني إذا لم أرك اشْتقت إِلَيْك وَاسْتَوْحَشْت وَحْشَة شَدِيدَة حَتَّى أَلْقَاك ، ووالله إنك لأحب إلي من نفسي وأهلي وولدي ، وإني لأكون في البيت ، فأذكرك فما أصبر حتى آتيك ، فأنظر إليك ، وإذا ذكرت الآخرة عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك! فنزل قوله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}. الطبراني في الأوسط. وقال الألباني: صحيح بشواهده. وكان بلال يرددها قبل أن يموت ، وكان خالد بن معدان لا يأوي إلى فراشه إلا ويذكر شوقه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ومن مضى من أصحابه وآله ويقول: هم أصلي وفصلي ، وإليهم يحنّ قلبي ، طال شوقي إليهم. وهكذا كانت العجائز في بيوتها إذا نفشت الصوف تتذكر محمداً - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الأخيار ، وكيف كان بكاؤهم بالأسحار. ولما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لواحد من الصحابة : (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ). قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك. رواه البخاري ومسلم. كيف لا وهو سبب منع العذاب عنهم؟ ، لأن الله قال في كتابه: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ}. كيف لا وهو مصدر الوحي ، يأتيهم عبره ، كيف لا وهو قدوتهم ، {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}. ذو البجادين تربى في حجر عمه ، فنازعته نفسه إلى الإسلام ، فقال: يا عم كنت أنتظر سلامتك بإسلامك فلا أراك تريد محمداً فأذنْ لي في الإسلام. فقال: والله لئن أسلمت لأنتزعن كل ما أعطيتك حتى ثوبيك! فصاح لسان عزيمته: نظرة من محمد عليه الصلاة والسلام أحب إلي من الدنيا وما فيها. فجرده عمُه من كل شيء حتى الثياب فناولته أمه بجادًا لها ، فقطعه نصفين ، فاتزر نصفًا وارتدى نصفًا. وأتى رسول الله ، فقال: ما اسمك؟ قال: عبد العزى. فقال: بل عبد الله ذو البجادين". اللطائف وصفة الصفوة وحلية الأولياء. وهكذا زيد رضي الله عنه يقول للكفار: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وإني جالس في أهلي! الطبراني في الكبير).هـ. ومن هذا المنطلق كانت كتابتي للنهج الثاني للبردة النبوية تعبيراً عن مدى حبي لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وشوقي إليه!)

80 - البطولة بين الظل والحرور

(أراد أن يعيش لمبادئه وقيمه ، فكانت معاناة بين ظل المبادئ وحرور المعيشة اللافح. وانتصرت البطولة. وقليلون هؤلاء الذين يحيون في زماننا لمبادئهم وأخلاقهم! والمال عندما يصبح غاية وجود يعتبر نقمة ولعنة في ذات الوقت. والأصل أننا لا نهدر قيمة المال ، بل نراه قوام الحياة ، بعد الدين والعقيدة والأخلاق! ولكن المسألة عند الماديين عبيد المال تأخذ شكلاً آخر ، حيث يكون المال إلهاً يعبد من دون الله تعالى! فهل يُصَدقون أنفسهم هؤلاء الحمقى الذين يعبدون المال ، أنه يستحق العبادة أم لا؟)

81 - البكائية النحوية

(لقد رثيتُ الكثيرين بشعري هذا. غير أنني أرثي الدكتور عدنان النحوي بشعري وشعوري وعاطفتي وإحساسي. فلقد كان يُمثل لي الكثير. ولقد امتدّت علاقتي به على مدي عقدين ونصف ، تبادلنا القصائد. والتقيت به في عجمان وصلينا معاً ، وتبادلنا الرسائل وتجاذبنا أطراف الحديث معاً. والعجيب في هذه القصيدة الرثائية أنني بعد إتمامي لها ، ألفيتني قد كتبت خمسين بيتاً ، تماماً كما كانت قصيدة والدي علي سليمان عبد الرحيم! وعلى نفس عدة قصيدتي في رثاء أمي! فكأنه مقام الوالدية يا دكتور عدنان! الغائب الحاضر الدكتور الأديب الشاعر الوالد عدنان علي رضا النحوي (1346هـ / 1928م - 21 ربيع الأول 1436هـ / 12 يناير 2015م) ، الأديب والناقد والنحوي الفلسطيني السعودي ، ولد بفلسطين وحصل على بكالوريوس في التربية والتعليم وأصول التدريس من فلسطين ، وبكالوريوس في هندسة الاتصالات الكهربائية من مصر والماجستير والدكتوراه في نفس التخصص من أمريكا. عمل مدرساً في سوريا والكويت وفي مجال الإعلام الإذاعي في سوريا والسعودية. أسس دار النحوي للنشر والتوزيع بالرياض ، وأصدر من خلالها مؤلفاته. له عضوية في عدد من الجهات الأدبية والثقافية والمهنية مثل معهد المهندسين الكهربائيين في إنجلترا ، مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية في عمّان ، وعضو مؤسس في رابطة الأدب الحديث بالقاهرة. عدنان النحوي الرجل الذي كان يعيش بجوارحه ومشاعره وعواطفه وأحاسيسه أكثر من أن يعيش بجسمه بيننا. عدنان النحوي الذي ذكَرني في أشعاره ، وسطر فيَّ وفي شعري القصائد ، فمن أنا؟ ومن عدنان؟ أين الثرى من الثريا؟ أين القزَم من العلَم؟ عندما ذكرته في شعري ، لم ينله كبير شرف. لكنه عندما ذكرني في شعره نالني الشرف الكبير ، حيث قدمني للجمهور وللناس وللشعراء في وقت مبكّر. فجزاه الله عني خيراً كثيراً. وهذا منه تواضع كبير جداً أسأل الله أن يأجره عليه الجنة. ثم إنه تفضل بعد ذلك بمراجعة دواويني ، وترك تعليقاته وتعديلاته وصولاً بها إلى القمة. وكان في غاية التفاهم ومراجعة النفس. أذكر أنه حمل على الأستاذ المودودي في بعض مقالاته. وكنتُ قد استهجنتُ ذلك ، فكتبتُ له رأيي موثقاً بالأدلة والبراهين ، فما هو إلا أن قام بالردّ عليّ والاعتذار للأستاذ المودودي. وكانت هذه بداية تعارفنا ومراسلاتنا منذ عام 1993م ، حتى ذهب إلى الله شهيداً مجاهداً. عدنان النحوي الذي عزمتُ على أن أترجم له في مستهل قصيدتي هذي ترجمة مستفيضة تفي بحقه. أسطرها اليوم من باب ردّ التحية التي تفضل بها شعراً من ذي قبل. ألا وإن مصاب الأمة في النحوي لجلل. وإن مصاب الشعراء المؤمنين في عدنان لا يوصف! ولقد تحدّث كثيرون عنه. ولكن الذي استرعى انتباهي ما سطره الأستاذ عبد العزيز العسكر عنه. والذي سوف أقتطف بعض الفقرات من ترجمته عن الدكتور عدنان ، لأنها تكاد تكون أدق ترجمة له وأوفاها فيما طالعتُ ودرست. نعم تحدث الكاتب السعودي الكبير الأستاذ عبدالعزيز بن صالح العسكر – في ترجمةٍ مستفيضةٍ عن الدكتور عدنان النحوي ، نقتطفُ من أزهار بساتينها هذه الكُليمات. يقول: (كانت بلدة صفد في فلسطين نقطة انطلاق لشاعرنا ، فعلى أرضها وُلد ، وفي قلعتها تربّى ، وبين بساتينها الوارفة نشأ من أسرة كريمة ، تنتسب إلى عالم جليل ، اشتهر بين الناس بصفته العلمية وعرف بالنحوي. تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في صفد ، وحصل على دبلوم دار المعلمين عام 1948م من الكلية العربية في بيت المقدس ، وبعد نكبة عام 1948م هاجر هو وأهله وأبناء بلده ، فاستقر به المقام في دمشق ، فعمل في التدريس فيها خمس سنوات ، ثم انتقل إلى القاهرة ، ودرس

الهندسة في جامعة القاهرة وحصل على شهادتها سنة 1961م ، ثم حصل على الماجستير ، ثم الدكتوراه في مجال الاتصالات الكهربائية من أميركا عام 1985م. والناظر في تخصص الدكتور عدنان الدراسي ، يجده بعيداً كل البعد عن الأدب ؛ وأنا أجزم أنه لا رابط بين الهندسة وبين الأدب ، وبخاصة الشعر! لكن الأمر عند شاعرنا ، كما وصفه الدكتور محمد مصطفى هدارة رحمه الله في قوله في مقدمة ديوان: «الأرض المباركة» للنحوي ، الذي صدرت طبعته الأولى عام 1396هـ - 1976م: «وما من شك في أن عدنان نشأ مفطوراً على الشعر، ولم يبعد عنه لحظة واحدة في كل أدوار حياته ، حتى عندما اتجه إلى دراسة الهندسة ، فالشعرُ عنده ليس مُعاناة احتراف ، ولا مُحاولة لإثبات وجود في كل مناسبة تسنحُ ، وليس مطية ذلولاً يتسلى بركوبها في رحلة الحياة ، وإنما هو نبض وجدانه ، ومعاناة عاطفته ، وفيض مشاعره وذوب فكره. إنه يسري في جسده مَسرى نفسه ، فليس عنه غِناء ، وليس منه بُد. إن هَمّ التفكير في الأمة والدعوة إلى العمل لحاضرها لمستقبلها ، وإنهاض الهمم لا يفارق شاعرنا برهة من الزمن ؛ فها هو على سرير المرض في لندن لإجراء عملية في القلب عام 1402هـ ، وعاد ابنه بلال إلى الرياض ، فنظم قصيدة منها قوله:

ذكرنـاك ما بيـن المـروج ورفـقـة ... من الأهل والأصحاب والخلصـاءِ
وأنــداء أنســام وحلـو غـرائــس ... وخـفـق ضلوع فـي صـفي دعـاء
ومن يصدق الرحمن ينح لمرتقى ... عـزيـز وعـقـبى نعمـة وجــزاء
أألهـو وفـي لـبـنان هـول مـجـازر ... وصـرخـة أيـتــام ورجْــع نــداء؟
ومكرٌ (لريجان) و(بيجن)عاصفٌ ... ليحصد مـن أهـل ومـن ضـعـفـاء؟

كان نعم الصديق. شاعر طبع له أكثر من عشرة دواوين شعرية ، وأكثر من ثمانين كتاباً في الأدب والنقد ، وجمع رصيداً ضخماً من التجارب في الحياة ؛ فابتلي بالطرد من الوطن ، وبفقد الولد ، وعاش آلام أمّته ، وأعداؤها ينهشون جسدها قطعة قطعة ، وعمل في التدريس زمناً. أديب وناقد بهذه القامة لا يمكن أن تفيه حقه وحق أدبه ، سطورٌ قليلة كهذه! بقي أن أشير إلى أن «موكب النور» ، الذي أكملتُ به عنوان هذا المقال ، مستعارٌ من اسم أحد دواوين شاعرنا ، ولقد وجدت أن أصدق عنوان لطريق شاعرنا الذي سلكه وسار فيه حاملاً لرسالته هو موكب النور ، وفي ذلك الموكب انطلق من «الأرض المباركة» ، وقد واجه في طريقه «جراحاً على الدرب» ، وكان يرى في الأحداث التي تمر بأمته ووطنه «حرقة ألم وإشراقة أمل» ، وفيها «عبر وعبرات». وكان من نتيجة معاناته واستجابة للواجب الذي يحمله بصفته أديباً وشاعراً مسلماً أن نظم أكثر من عشر ملاحم شعرية مطبوعة. عدنان بن علي رضا بن محمد بن عبد الغني ، ويمتد النسب بعد ذلك إلى الشيخ العالم شهاب الدين أحمد الخفاجي. فقد الكثير بعد الخروج من فلسطين وفقد تراث العائلة كالمكتبة وغيرها. أما لقب (النحوي) ، فقد أطلقه والي عكا حين مرّ بها أحد أجداده قادماً من القاهرة ، متخرجاً من الأزهر ، لا يتكلَّم إلا العربية الفصحى ، فسمَّاه النحوي وولاه القضاء في صفد. وأما والده فهو المجاهد والسياسي علي رضا النحوي ، وأجداده وأعمامه علماء وقضاة ، ومُفتون ورجال قانون وإدارة ، وأدباء وشعراء. فنشأ ينهل من هذا الجو الغني منذ طفولته ، وينهل كذلك من مكتبة آل النحوي التي تحدّث عنها (محمد علي كرد) في كتابه "خطط الشام" ، والتي زارها عدد من رجالات العرب

من مصر وسوريا ولبنان وفلسطين وغيرها مثل: أحمد زكي باشا ، محمد علي كرد ، توفيق دياب ، وعدد من رجال الصحافة وآخرون وكذلك كان ينهل من أجواء الضيوف الوافدين على عائلته من العلماء والأدباء ورجال السياسة ومن مجالسهم الغنيَّة. وفي هذا الجو نشأ نشأة الإيمـان والعلم والأدب ، وتزوّد بزادٍ كريم ، أطلق مع الأيام مواهبه وقدراته ، فنظم الشعر سنة 1942م ، كما يظهر في دواوينه ، وبرز في حياته الدراسية والعلمية ، وجاءت مؤلفاته زاخرة بثمار ذلك الزاد وحصاد مسيرته كلها. يضاف إلى ذلك مدينة "صفد" نفسها وتاريخها العريق ، والعلماء الأفذاذ الذين ظهروا فيها مثل "صلاح الدين الصفدي" ، والجدِّ الأوَّل لآل النحوي في "صفد": "شهاب الدين أحمد بن موسى بن خفاجى الصفدي" المتوفى فيها سنة 750هـ ، والذي له مسجد في "صفد" يُسمَّى باسمه: "جامع الخفاجي". وغيرهما من العلماء. يضاف إلى ذلك جمال مدينة "صفد" ، والمناظر الطبيعية الخلابَّة التي تحيط بها مثل جبال الجليل وأعلاها جبل الجرمق ، وجبال سوريا ولبنان المجلوة أمام العين ، وبحيرة الحولة وبحيرة طبريا ونهر الأردن والسهول المحيطة بألوانها الرائعة المختلفة المتموجة ، هذه المواقع كلها تحمل جزءاً غير يسير من عظمة تاريخ الإسلام ومعاركه الفاصلة في التاريخ ، ومن مسيرة الأنبياء والمرسلين – عليهمُ الصلاة والسلام - في تاريخ حافل جعل فلسطين كلها هذه البيئة الغنية ، والمناظر البهيَّة ، وجمالها الساحر ، وهي تسبِّح خاشعة إلى ربها وخالقها ، تدفع الإنسان إلى النظر في آيات الله ، والتأمل في المرابع والآفاق ، فتغرس في النفس حبَّ الجمال الطاهر ، وتهب القلب صفاء الفكر والتصور ، وإذا التأمل والصفاء يبعث في القلب نهجاً جلياً في الحياة ، يقوم على صِدق الرأي ووضوحه ، وقوة الفكر والتأمل ، وأمانة الكلمة والفكرة ، وثبات الموقف على الحق ، واستقامة المسيرة والنهج ، على إيمان وتوحيد بفضل من الله وهداية منه. وقد رافقت هذه النشأة الثورات المتتابعة في فلسطين منذ مرحلة الطفولة الباكرة ، مما كان يلهب المشاعر ويمتزج مع ما كان يزوده به الأهل والبيئة ، ليكون حافزاً إلى الجدّ والعمل ، وإلى التزوّد والإعداد. وساهم منذ طفولته كما ساهم أطفال فلسطين بالتصدّي للإنجليز واليهود ولو بالحجارة. ورافق هذه الثورات والأوضاع المضطربة ضرورة التنقل وعدم الاستقرار. وأورث هذا كله وعياً سياسياً مبكراً ، وفهماً واضحاً للعدوّ وأساليبه ، وإدراكاً لضعف القوة المتوافرة عند المسلمين آنذاك ، مع بقاء الأمل مشرقاً في النفس. والبحث المستمر عن طريق النجاة للأمة. ولعله كان هو وزملاؤه الأطفال أول من حمل الحجارة و"المقلاع" و"بارودة السيخ" وغيرها من أسلحة الأطفال المعروفة آنذاك في تصيد الدبابات والدراجات البريطانية ، ثم تبدأ المطاردات حتى يحتموا بأوّل بيت يلقونه لقد وهبت هذه النشأة الدكتور النحوي زاداً غنياً نديّاً ، ظل يروي مسيرته كلها في مراحلها المختلفة: إيماناً وعلماً ونهجاً وعطاءً. أنهى دراسته الابتدائية والثانوية بين صفد وعكا ، ثمّ اختير ليُتِمَّ دراسته في دار المعلمين بالقدس (الكلية العربية) ، والتي كان يُختار لها الأوائل من كل مدينة في فلسطين. وفي دار المعلمين تعدّدت أبواب الدراسة: علوم التربيـة وأصول التدريس وعلم النفس ، وعلوم الرياضيات وتاريخها والفيزياء والكيمياء ، واللغة العربية وفقه اللغة ، ونحوها وصرفها ، والبلاغة والعروض ، والأدب العربيّ في عصوره المختلفة ابتداء من العصر الجاهلي ، وقليل من اللغة اللاتينية ، والمنطق ، وتاريخ اليونان والرومان بتفصيل واسع وتاريخ أوروبا ، ثم تاريخ إنكلترا بصورة موسعة ومفصلة كثيراً ، واللغة الإنكليزية وتاريخها وآدابها ومذاهبها الأدبية بصورة موسَّعة جداً. وكان في الكلَّيَّة العربية مكتبة غنية ، فحبِّبت إليه المطالعة ، فعكف

على مطالعة أهم الروايات العالمية ، وأهم الكتب الفكرية والأدبية والتاريخية ، يملأ بها وقت فراغه بصورة موجزة في المدارس ، التي كان يقرر مناهجها الانتداب البريطاني المحتلّ ، المكلف بإكمال خيوط المؤامرة على فلسطين. ولكن البيت والأهل كانوا يسدّون جزءاً غير قليل من هذا النقص في دراسة الإسلام في المعاهد الرسمية الحكومية ومن خلال هذه النشأة ومسيرة الحياة والعوامل المؤثرة كلها حفظ القرآن الكريم ودرس تفسيره وتجويده وعلومه. ودرس السنّة من الصحاح والسنن والمسانيد ، ومصطلح الحديث. كما درس الفقه من كثير من كتبه في المذاهب المختلفة ، وأصول الفقه ، وتابع دراسة اللغة العربية وآدابها. وظلت الدراسة الجادة جزءاً رئيساً في حياته في مختلف العلوم ، تخضع إلى منهج محدَّد يمضي عليه حياته كلها ، وكذلك أُسرته وكلُّ من رغب في النهج والتزمه. ذلك هو المنهاج الفرديُّ الذي هو جزء من النهج العام الذي يدعو إليه: "نهج مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن". ونال البكالوريوس في الهندسة الكهربائية قسم الاتصالات بدرجة جيد جداً مع مرتبة الشرف الثانية من مصر ، ودرجة الماجستير والدكتوراه في نفس الاختصاص العلمي من أمريكا ، ودرجة الزمالة من إنكلترا. كما أخذ دورات تدريبية في هذا التخصص في فرنسا لدى أكبر شركاتها المتخصصة ، ودورة تدريبية في الدراسات العليا في الهندسة الكهربائية في جامعة الملك سعود. ودرس اللغة الفرنسية في دورة عامة في جامعة بيزانسون في فرنسا ومع مسيرة الحياة ، كان يتابع دراسة الواقع والأحداث السياسية ، كجزء رئيس من المنهج الثابت الذي يمضي عليه في حياته. وكانت دراسة الواقع والفكر السياسي عنده تتم من خلال أهم الكتب التي تصدر باللغتين العربيّة والإنكليزية ، والمجلات المتخصصة في أبحاثها ، بالإضافة إلى وسائل الإعلام المختلفة ، وبالإضافة إلى الصلات التي توفرها له بيئته وأهله ، والنشاط الذي يتبع ذلك. ونمت هذه الدراسات وأخذت ميادين متعددة حين انطلق في الدعوة الإسلامية في باكورة شبابه ، ونمت معها الخبرة ونما الزاد من العلوم المختلفة. كما زادته مهنة التدريس ثم عمله في الحقل الهندسي ومسؤولياته الكبيرة ، ثم العمل في المؤسسات التي أنشأها مرحلياً والرحلات والسفر إلى بعض بلدان أوروبا وأمريكا وآسيا ، والندوات والمؤتمرات ، هذه كلها زادته خبرة وعلماً. وكان النزوح الأول عن فلسطين بحدود سنة 1937م إلى دمشق ، ليلحق هو ووالدته وإخوته بوالده الذي سبق أن خرج مع أعضاء اللجنة المركزية التي تقود ثورة سنة 1936م ، اللجنة التي كان الإنكليز يطاردون رجالها لإجهاض الثورة. وكانت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي آنذاك. وكان الانتداب الفرنسي يضيق مجال التحرك على أعضاء اللجنة ولا يسمح لهم بالإقامة في مدينةٍ واحدةٍ ، مع المراقبة اليومية. وكانت الحياة صعبة مع هذه الظروف . ولكنها سمحت لداعيتنا بالتعرّف على المجاهدين وعلى رجالات الثورة ، ومتابعة الأخبار. ولما توقفت الثورة عاد إلى صفد ، دون أن يُسْمَح لوالده بالعودة. وكان الإنكليز قد نسفوا بيتهم الكبير في وسط مدينة صفد في موقع يشرف على جبل الجرمق ومواقع جميلة أخرى. وظل فيه جدار واحد قائماً. والحجارة التي انهارت ظلت على الأرض إلى تاريخ النزوح الثاني ، شاهدة على جريمة المعتدين الظالمين. ولكن اليهود أزالوا بعد احتلالهم آثار الجريمة ، وأقاموا مكانها عمائرهم. وقد أقام هو ووالدته وإخوته في بيت العائلة ، بيت الأجداد ، البيت الذي كان يُسمَّى "بيت القضاء" لأن أجداده القضاة كانوا يقيمون فيه. وكان يتمُّ فيه دروس دينيّة للراغبين ، دروس منهجيّة يتخرج منها الطالب ليزاول عملاً شرعياً. وعندما سُمِح لوالده بالعودة ، انتقلت العائلة إلى مدينة عكا ، حيث أصبح والده مدير أوقاف اللواء الشمالي. وهنالك

بدأ نشاط داعيتنا الاجتماعي والسياسي في النوادي الثقافية ، ومع الطلاب والشباب المتعلمين وهو في سنّ مبكر ، بدأ نشاطه ونشاط إخوته كذلك .كوّن مع بعض الطلاب من مدن فلسطين المختلفة اتحاداً للطلاب ، ليجمعوا الصفوف لمقاومة الإنكليز واليهود ، وكان من بواكير أعمالهم المظاهرة الكبيرة في القدس ، المظاهرة التي ضمت مختلف كليات القدس. وطافت المظاهرة شوارع القدس ، وانتهت في باحة المسجد الأقصى ، حيث ألقى داعيتنا خطبة في الطلاب والجماهير المحتشدة ، ونجد بعض الصور لهذه المظاهرة في كتابه "على أبواب القدس". وعاصر في القدس أحداثاً جساماً قامت بها الثورة آنذاك يقودها المجاهد عبد القادر الحسيني رحمه الله. وبعد التخرج توجه إلى عكا عبر طرق خطرة ، حيث كانت الثورة قد اشتعلت. وتعرّض هو ومنْ معه لحادث نجّاهم الله منه ، ومن عكا كان النزوح الثاني إلى دمشق ليرافق والدته المريضة التي توفيت بعد ذلك بسنة تقريباً يرحمها الله ، وبقي والده وأخواه في عكا ، حتى سقوط مدينة عكا ، فغادروا المدينة في اللحظات الأخيرة ، وأخذت المدن تتساقط واحدة بعد الأخرى ، والأفواج المتلاحقة من أهل فلسطين يلجؤون إلى سوريا ولبنان وغيرهما. ولم يكن يدري النازحون أنه لا عودة لهم بعد هذا النزوح ، وأن الأعداء يسيرون على خطة واضحة لديهم ينفذونها ، وأن المسلمين في الأرض لا خطة لهم. وكان من أخطر ما اكتشفه هو وغيره أن المسلمين في الأرض خارج فلسطين لا يدركون أن فلسطين هي أرضهم شأنها شأن أوطانهم وأنها مسؤوليَّتهم ، وأن كل مسلم محاسَب يوم القيامة عن ضياع فلسطين. وكان ما يسمى بجيش الإنقاذ من كل البلاد العربية قد دخل فلسطين لينقذها ، كما كان يقال آنذاك ، ولكنّ الأمر كان غير ذلك. وجُرِّد أهل فلسطين من السلاح ، وسقطت المدن كأنها مدن مفتوحة إلا بقايا مقاومة ضعيفة. ولسقوط كل مدينة قصَّة ومأساة ، وحيرة وتساؤل وذهول. وزاد احتكاك داعيتنا مع رجالات فلسطين من خلال نشاط والده علي رضا النحوي الذي كان يبذل الجهد مع إخوانه لإيقاظ الأمة وتنبيهها إلى حقيقة الخطر الذي يهدّد العالم الإسلامي كله ، الخطر الذي يحمله اليهود الملتفّون كلهم حول الصهيونية والذين تدعمهم السياسة الدولية كلها. وانتقل بعد ذلك داعيتنا إلى الكويت. وهنالك نما نشاطه السياسي والفكري ، وتحدّد اتجاهه الإسلامي بشكل واضح ناضج ، واستمر منهجه الدراسي. وكان يُلقى محاضرة كل أسبوع عن الإسلام أو العمل الإسلامي ، أو قضاياه ، مثل قضية فلسطين ، وغيرها. ومن أجل دخول الجامعة في مصر لدراسة الهندسة لم تكن تقبل شهاداته التي مرَّ عليها أكثر من سنتين. فتقدّم لامتحان التوجيهية الكويتية ونال المرتبة الأولى بمعدل غير مسبوق ، مما سهل دخوله الجامعة مع إعفائه من الرسوم بسبب معدّله العالي ، وانتقل إلى القاهرة ودخل الجامعة وحافظ على تفوقه فيها. وتابع نشاطه الإسلامي. وفي هذه المرحلة أخذ يدرك بصورةٍ أوضح المخاطر أمام العمل الإسلامي وأمام المسلمين جميعاً. قدّم نهجاً بالنسبة لقضية فلسطين ، ليتولاه صفٌّ صامد واحد للمؤمنين المتقين ، لأنهم هم أول المسؤولين والمحاسبين عن فلسطين ، في الدنيا والآخرة. وهل يعقل للحظةٍ أن يكون أحد أكثر مسؤولية من المسلمين المؤمنين المتَّقين؟! ولكنها كانت صيحة غابت وراء الآفاق ، وأجهض النهج والتصور كلَّه ، وقامت أنشطة أخرى ملأت الساحة آنذاك وطغت عليها ، ونالت الدعم كله! وكانت هذه الفترة مليئة بالنشاط ، وكان الأمل ينمو بأن يهتدي المسلمون إلى الطريق المستقيم الأمثل لمجابهة الأحداث. وكانت الفرصة مواتية للانطلاق بصورة واعية تجمع القلوب والسواعد ، ولكن يبدو أن عوامل التمزيق كانت أقوى. وانتقل داعيتنا بعد ذلك إلى سوريا. وبدأت حياته الزوجية مع انتقاله إلى حمص ، حيث عمل مهندساً

ثم مديراً للإذاعة التي كانت في مرحلة الإنشاء. وتعرّض لمتاعب متنوعة ، كان من أهمها الغارات الجوية التي تنهال على الإذاعة مع كل انقلاب ، والتي نجاه الله منها برحمته ، ومتاعب أخرى متعددة ، وانتقل إلى السعودية حيث عمل في وزارة الإعلام في الرياض مسؤولاً عن محطات الإرسال ، ثم أنشأ أول استوديو في إذاعة الرياض افتتح في أول شهر رمضان المبارك سنة 1384هـ. ثم أصبح مسؤولاً عن المشروع الأول الكبير ، مشروع محطة إرسال الميجا واط ثم سائر مشاريع محطات الإرسال الإذاعي الكبيرة التي جعلت إذاعة المملكة من أقوى الإذاعات. وأصبحت مسؤولية كبيرة لضخامة المشاريع ، ودخل مع الشركات المنفّذة في خلافات حادة في النواحي الفنية والمالية والقانونية ، وكُوِّنت من أجل ذلك لجان تحقيق رسمية وكانت نتيجة ذلك أن أعانه الله على حفظ المشاريع من الناحية الفنية وإجبار الشركات على إصلاح العيوب والأخطاء ، وعلى حفظ أموال الدولة ، واستعادة الدولة حقوقها المالية من الشركات. وأصبح موضع تقدير الشركات نفسها واحترامها ، لدقته العلمية وقوّته ، ولنزاهته وعدالته. ولقد مرَّ داعيتنا من خلال ذلك بمواقف وتحديات كثيرة وكبيرة ، تحدِّيات علمية وفنية وقانونية ومالية وغير ذلك ، أمام كبار مهندسي الشركات وخبرائها الفنيين والقانونيين والماليين! فمنَّ الله عليه بفضله ، فحقَّق نصراً كريماً نال به احترام الجميع. لا مجال هنا لذكر جميع هذه المواقف والتحديات على أهميتها وطول امتدادها قرابة خمسة عشر عاماً ، إلا أننا نكتفي بذكر موقفين اثنين: فبعد الانتهاء من إحدى المفاوضات الطويلة مع إحدى الشركات وخبرائها ، وبعد أن أقرَّت الشركة بكلّ ما بيَّن لهم داعيتنا ما وقعوا فيه من أخطاء ومخالفات في التنفيذ ، ووافقوا على دفع التعويضات المالية للدولة وإجراء الإصلاحات اللازمة ، وبعد أن أقروا بذلك كلِّه ووقَّعوا عليه ، قام رئيس وفد الشركة المفاوض وصافحه وخاطبه بالإنكليزية ما معناه: "إننا نحترم المبادئ التي حاربتنا بها ، واعتبر شركتنا مفتوحة لك في أي وقت وفي أي مركز ترغبه. أنت أهل لكلّ احترام". فردَّ عليه بقوله: "أنا لم أحاربكم ولكن بيّنت لكم عملياً ما هو الإسلام. هذا ما لِقيَه من غير المسلمين الذين كشف لهم أخطاءَهم ورفض إغراءاتهم ، ورأوا منه نهجاً سليماً ، وموقفاً صلباً. وعند الله خيرٌ من ذلك كله إن شاء الله. لقد كان الفضل كله لله إذ أعانه على أن يقدّم الإسلام لهؤلاء بالموقف والسلوك ، والانتصار على كلّ الإغراءات وأبواب الفتنة ، وبالثبات على الحق ، وتحمل النتائج التي كانت أوَّل الأمر إيذاء شديداً وإرهاقاً وظلماً ، ثم انقلبت إلى راحة نفسية ، وإدراك أوسع لهداية الله وفضله. وموقف آخر: فقد رفعت لجنة فنية كُوّنت من ثلاثة في نفس اختصاصه الهندسي تقريراً فنياً عن المشروع المشار إليه أعلاه ، تقريراً مخالفاً لما ورد في دراساته وتقاريره الفنية. فجمعته لجنة التحقيق بهم ليدور حوار علمي على مسمع من جميع أعضاء اللجنة. وبدأ الحوار وامتدَّ حتى ظهر الحق فيما عرض من حجَّة وعلم ، فأسقِط في أيديهم واحمرَّ وجه رئيس اللجنة الفنية خجلاً ، ثم وقف وقال: لم يعد من حاجة لوجودي وانسحب مع زميليه. ويقول داعيتنا عن هذه المواقف: "هذه مواقف وتحدِّيات كان الفضل فيها لله ، فهو الذي هداني وعصمني وأعانني ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم ، بعد أن كانت الفتن والإغراءات من كلّ لون وبكلّ أسلوب تتدافع من كلّ ناحية من الصعب أن توصف شدة الإيذاء الذي عانى منه ، من هنا ومن هناك ومن مصادر متعددة ولمدَّة طويلة نسبياً. ولكنَّه خرج من ذلك كله بفضل من الله: هداه الله وعصمه وحفظه ، وحسب المؤمن أن ينال ذلك. وكان من بين مسؤولياته في وزارة الإعلام أن كان المستشار الفني لوكالة الأنباء الإسلامية. وشارك في وضع أسسها الفنية ومواصفاتها الرئيسة ودراسة

العُروض التي قدمتها شركات عالمية. وكان هذا العمل الطويل صورة عمليّة لممارسة نهجه وإيمانه وعلمه. ولكنه كلّفه الكثير من صحته. فخرج من العمل لتُجرى له أول عمليّة مفتوحة بالقلب ، ثم الثانية ، ثم الثالثة بالبالون ، ثم السكري والربو ، مع آلام في فقرات الظهر والرقبة والركبتين ، وغير ذلك ومازال تحت العلاج حتى اليوم. ويقول داعيتنا: "ولقد كان لهذا البلد المسلم الذي أصبحت مواطناً فيه فضل عليَّ كبير. ففيه كان كلُّ عطائي الفكري والأدبي والدعوي. ومن هنا نمت خبرتي ونما علمي. ومن خلال عملي زرت عدَّة بلدان وحضرت عدَّة مؤتمرات. وأرجو أن أكون قد قدَّمت خلال إقامتي هنا ما يرضي الله سبحانه وتعالى في أكثر من ميدان. ومهما قدَّم المسلم لأمته ودينه فيظلُّ مقصِّراً في حقِّ أمَّته ودينه. والواجب كبير والمسؤولية كبيرة. "أما المعاناة والآلام والإيذاء الشديد فذلك يُنسى مع الأيام. وأصبح يقيم في السعودية مواطناً فأقام أولاً مؤسسة البُشريات ، ثم دار النحوي للنشر والتوزيع. ولكنّ التحديات لم تتركه ، وظلَّ ماضياً على نهجه ، صابراً على ما يلاقيه في ميادين جديدة. ولقد رأى أن الاعتكاف على الكتابة والتأليف ووضع خلاصة تجربته في الحياة وفي العمل الإسلامي الطويل ، أتقى وخير له في دينه ودنياه ، معتزلاً ميادين التنافس على الدنيا وزخارفها ، التنافس الدنيوي والجري اللاهث وراء زخارفها الكاذبة ، التنافس الذي مزَّق المسلمين ، وفتح فيهم ثغرات واسعة يدلف منها الأعداء ، ليلهبوا الفتنة ، ويزيدوا التمزيق ، ويوهنوا القوى. هذا وقد جمع مكتبة علمية تضمّ شتّى أنواع المعرفة من هندسة وعلوم أخرى ، وأدب وفكر ، ودين ، دراسة الواقع ومذاهب وغير ذلك ، وتضمُّ بحدود عشرة آلاف كتاب تقريباً. زار خلال هذه المسيرة أقطاراً متعددة في العالم من خلال نشاط علمي أو دعوي أو فكري ، أو أدبي وحضر مؤتمرات متعدّدة. ومن أهم الأقطار التي زارها: سويسرا ، ألمانيا ، إنكلترا ، فرنسا ، بلجيكا ، السويد ، إيطاليا ، اليونان ، كندا ، أمريكا ، الكويت ، قطر ، البحرين ، الإمارات العربيـة المتحدة ، العراق ، الهند ، باكستان ، تركيا ، مصر ، ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب ، وغيرها. قضى في هذا الميدان قرابـة ستين عاماً ، ينهل ويعطي ، ولقد تعهّد أجيالاً وربى ناشئة ، واكتسب من خلال ذلك خبرة تنضم إلى دراسته في التربية وعلم النفس وممارسته التدريس ثماني سنوات ، وسائر خبراته التي عرضناها لا يخفى على أحد ما لاقاه العمل الإسلامي خلال هذا القرن ، وبصورة خاصة في النصف الثاني منه ، وما كان فيه من ابتلاء وتمحيص ، وعقبات ومشكلات ، وفتن ونكبات ، سواء أكان ذلك في الصف الداخلي أم من الخارج! ولقد قدّم نصحه بصورة مستمرة من خلال دراسات وأبحاث ، مع توافر الحجة والبيّنة من الكتاب والسنة. وتكوَّن لديه من خلال ذلك تصور واضح رأى ضرورة عرضه بصورة جادّة حازمة. فكان المنهجُ الذي يدعو إليه كلَّ مسلم وكلَّ أسرة وكلَّ جماعة ولكل داعية وعالم: نهج يحمل النظرية العامة للدعوة الإسلامية ، والدراسات التفصيلية لبنودها وعناصرها ، والمناهج التطبيقية ، والنماذج العملية ، والدراسات الأدبية والملاحم والقصائد ، ودراسات موسعة في قضايا الواقع من خلال منهاج الله ، والنظام الإداري ، وتحديد الأهداف الربّانية الثابتة ، والأهداف المرحليّة ، ليكون كلُّه نابعاً من الكتاب والسنة ، ملبياً لحاجة الواقع ، معيناً للمسلم على النجاة من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة ، وعلى المساهمة في تحقيق الأهداف الربانية الثابتة في الحياة الدنيـا ، والمضيّ على صراط مستقيـم ، ذلك كله بمشيئة الله وفضله ، لمن صدقت نيَّته وصحَّت عزيمته. ولقد واجه داعيتنا الدكتور عدنان علي رضا محمد النحوي تحدّيات كثيرة في ميدان الحيـاة ، مما يمكن أن يوقع الإنسان في فتن ومحن. ولكن فضل الله كان كبيراً عليه ،

حين عصمه من الدخول في أي فتنة أو الخروج على منهاج الله ، أو عدم ردّ الأمور صغيرها وكبيرها إلى منهاج الله. فظل خلال مسيرته كلها: صادق الرأي واضح الحجة والبينة ، أميناً في موقفه ثابتاً يرجو طاعة الله ورحمته ، مستقيماً في مسيرته على صراط مستقيم. متجاوزاً القيل والقال وترَّهات الأمور. لقد قدَّم دراسات لمن يعنيهم الأمر عن نواحي الخلل والضعف في واقع الدعوة الإسلامية ، دون أن يلجأ إلى نشر ذلك في وسائل الإعلام ، كما فعل الكثيرون. ولقد لاقى داعيتنا من التحديات مثل ما لاقاه في ميادين أخرى ، وقد كان لدراسته صدىً طيب لدى المؤمنين الصادقين ، وكانت عاملاً مساعداً لتقارب النفوس والقلوب بفضل الله. ولقد قدَّم في ميدان الدعوة الإسلامية وقضاياها وقضايا العالم الإسلامي دراسات جادَّة مفصَّلة في كتب بحدود مائة وأربعة وعشرين كتاباً ، تمثل كلها مع كتب الأدب والشعر والملاحم النهج الذي أشير إليه أعلاه. وقدَّم من خلاله نظريات متعددة مثل: النظرية العامة للدعوة الإسلامية أي: نظرية المعرفة في الإسلام لتقابل نظرية المعرفة لدى الغرب ، وقانون الفطرة ، ونظرية النهج الإيماني للتفكير ، ونظرية التربية في الإسلام ومناهجها ، نظرية الوسع الصادق والوسع الكاذب ، وقدّم تجديداً في الفكر الإسلامي وتطبيقه في الواقع وفي الدعوة الإسلامية ، وغيرها. ليكون كلّه نابعاً من أسس الإيمان والتوحيد ، ومن منهاج الله ومن مدرسة الدعوة النبوّة الخاتمة ، ومن وعي الواقع من خلال منهاج الله .وهذا النهج يأتي بعنوان: "نهج مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن ليكون أساس لقاء المؤمنين وبناء الأمة المسلمة الواحدة". وسمّي مدرسة لتجنّب التصور الحزبي والعمل السرّي. لقد كان لداعيتنا د. عدنان النحوي رؤية واضحة لقضية فلسطين منذ أول شبابه ولسائر قضايا العالم الإسلامي. كان يرى أنه لا بد من الجيل المؤمن المتراص صفّاً واحداً بعيداً عن جميع مظاهر العصبيات الجاهلية التي حرّمها الإسلام ، ولا بد من النهج الواعي الحق المدروس ، والخطة الوافية الأمينة ، ولا بد من إعداد القوة كما أمر الله ، فذلك أقرب للتقوى وإلى طاعة الله ، وإلى أن ينزل الله نصره. وكان هناك فسحة من الوقت آنذاك. وكان المؤمنون في الأرض حشداً كافياً. ومضت السنون والمسلمون لم يعدوا العدة ولا النهج ، وأكثروا من الشعارات والتمزُّق ، حتى أخذت الفرص تضيق ، واليهود تنمو قواهم وخطَّتهم ، وعدتهم وسلاحهم ، ويزداد كسبهم على الأرض جولة بعد جولة. لقد حملت قضية فلسطين الإسلام شعاراً ، وأخذت في الميدان صورة إقليمية أو قومية ، وجاءت النتائج كما هي ظاهرة اليوم للعيان. وكان يرى في جملة ما يراه عدم قبول دولة فلسطينية مجرّدة من كل أسباب القوة ، وعدم جواز التنازل عن أي جزء من أرض الإسلام وبخاصَّة أرض فلسطين وأن قضية فلسطين وغيرها من ديار الإسلام هي مسؤولية كلّ مسلم والأمة المسلمة كلها. ولذلك لا بد من جمع القوى وبناء الصف المؤمن الواحد كالبنيان المرصوص على أساس من منهاج الله ، ونزع العصبيات الجاهلية وجميع أسباب الفرقة والتمزّق. لقد كان الأدب من أهم ميادين نشاطه منذ صباه. وقد جمع قصائده الأولى في "ديوان الأرض المباركة" ، ثم توالت دواوينه وملاحمه الشعرية ، ثم امتدَّ نشاطه الأدبي في ما قدَّمه من دراسات ومقالات نشرتها صحف متعدِّدة ومجلات في العالم العربي والإسلامي ، وفي كتب ومؤلفات تجاوزت تسعة دواوين شعرية ، وأربع عشرة ملحمة ، وفق النظرية التي يعرضها للملحمة الإسلامية ، تتناول بعض قضايا العالم الإسلامي. وفي هذه الدراسات قدَّم نظرية الأدب الملتزم بالإسلام ، ونظرية النقد الذي اقترح تسميته بـ "النصح الأدبي" ، ونظرية الجمال في الإسلام ، ونظرية الملحمة في الأدب الملتزم بالإسلام لتفارق التصور الوثني اليوناني ، ونظرية

تولد النص الأدبي ، وغير ذلك من الدراسات النامية المتطورة على أسس ثابتة راسخة وجذور ممتدَّة. وردَّ على المذاهب الأدبية الغربية: كالحداثة والبنيوية والتفكيكية والأسلوبية ، وغيرها. ودرس موضوع الشعر المتفلِّت بين النثر والتفعيلة ، وبيَّن رأيه بوضوح الحجة والبينة برفض هذا النوع من الكلام في ساحة الشعر ، فحسنُهُ نثر لا صلة له ولا نسب مع الشعر ، وذلك في عدد من كتبه: النقد الأدبي المعاصر بين الهدم والبناء ، الحداثة في منظور إيماني ، الشعر المتفلت بين النثر والتفعيلة وخطره ، الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته ، وبيَّن خطر ذلك على اللغة العربية. وارتبطت دراساته هذه مع دراساته للمذاهب الفكرية والسياسية الغربية وردِّه عليها ، مثل: الاشتراكية والديمقراطية والرأسمالية والعلمانية والعولمة وغيرها ، وبيَّن عظمة النهج الإسلامي وحاجة البشرية كلها إليه ، وإعجاز المنهاج الرباني ـ قرآناً وسنَّة ولغة عربية ـ ، وقدرته على تلبية حاجة الإنسان في جميع العصور وجميع الميادين وجميع الأماكن والأحوال. ففي جميع ما كتب من مؤلفاته التي بلغت حتى الآن مئة وأربعة وعشرين كتاباً في موضوعات فكرية وفقهية وتربويَّة وسياسية وأدبية ودراسة أحداث الواقع ، كانت حجَّته وبيِّنته من الكتاب والسنَّة ، ومن الواقع الذي يردُّه إلى الكتاب والسنَّة رداً أميناً ، فجاءت كتبه تمثِّل نهجاً واحداً متماسكاً ، وفقهاً ممتدّاً يقوم على الركنين الأساسيين: المنهاج الرباني والواقع. ولقد كان من أوائل من ساهم في نشاط الدعوة إلى الأدب الملتزم بالإسلام. فقد حضر الندوة الأولى للأدب الإسلامي في لكنؤ ـ الهند ـ برعاية ندوة العلماء سنة 1401هـ ، وقدَّم فيها بحثه: "الخصائص الإيمانية في الأدب الإسلامي" وقصيدته: "عرائس وجواهر ـ هدية الشعر". وكان من المؤسسين لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في مؤتمرها الذي عقد في لكنؤ ـ الهند ـ برعاية ندوة العلماء ورئيسها الشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله. وقدم في هذا المؤتمر بحثه المتميز "الموضوع الأدبي وولادة النصِّ الأدبي" ، ودرَّته الشعرية عن الأدب الإسلامي "مهرجان القصيد". وفي هذا المؤتمر وُضِع النظام الأساسي للرابطة. وأصبح داعيتنا عضواً مؤسساً وعضواً في مجلس الأمناء ، ونائب رئيس مكتب البلاد العربية. ولأسباب متعدِّدة اعتزل ذلك في وقت لاحق ، وتفرَّغ للدراسة والإنتاج ، وقدم ذخائر من الفكر والشعر. تبلغ مؤلفاته حتى الآن (ربيع الآخر1433هـ) مئة واثنين وثلاثين كتاباً ، ترجم بعضها إلى الإنجليزية والتركية والأوردية منها: ستة وثلاثون كتاباً في الدعوة وفكرها ومناهجها ، والتربية والبناء ومنهاجه ، والفقه في الدعوة وامتداده في الحياة والإدارة ، وتسعة كتب في التوحيد وموضوعاته الإيمانية ومناهج تطبيقها ، وثمانية وثلاثون كتاباً في دراسة قضايا الواقع الفكرية وأحداثه ، اثنا عشر كتاباً في الأدب الملتزم بالإسلام ، وخمسة كتب في الرد على المذاهب الأدبية الغربية ، وعشرة دواوين شعرية ، وخمس عشرة ملحمة شعريّة ، وثلاثة كتب باللغة الإنكليزية ، وأربعة كتب مترجمة إلى لغات أخرى. هذه الدراسات والمؤلفات في موضوعاتها المختلفة تمثل عصارة علم المؤلف الداعية وتجربته خلال أكثر من نصف قرن ، صاغها على صورة نظرية عامة للدعوة الإسلامية بمعناها العام ، تقوم على قواعد الإيمان والتوحيد ، الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ، والقضية الأخطر في حياة كل إنسان ، وعلى المنهاج الرباني ، ودراسة الواقع من خلاله ، ثم تأتي بنود النظرية وعناصرها ، ونهج مفصل لبعض ميادين النشاط ونظام إداري ، ومناهج تطبيقية ونماذج علمية ، للفرد والجماعة والأمة للدلالة على أنَّ المنهاج الربّاني ـ قرآناً وسنّة ولغة عربية ـ صالح لكلّ زمان ومكان حتى قيام الساعة. هذا بالإضافة إلى مقالاته في معظم مجلات العالم العربي والإسلامي وصحفه ، مما

يؤلف إنتاجاً فكرياً كبيراً ، بالإضافة إلى مساهماته في المؤتمرات والندوات الفكرية والأدبية والعلمية. لقد قدم داعيتنا في دراساته موضوعات جديدة في الدعوة والفكر والأدب. وكذلك كان شعره يمثل نهجاً متماسكاً مترابطاً مع سائر ما يقدمه من موضوعات ، لتؤلف كلها منهجاً جديداً متميزاً في واقعنا اليوم ، نابعاً من الكتاب والسنَّة ، لقد كتب عنه عدد غير قليل من الأدباء والمفكرين في صحفٍ ومجلاتٍ في العالم الإسلامي ، وأحاديث في بعض الإذاعات ، كما تحدَّث عنه مفكِّرون وأدباء في كتبهم ومؤلفاتهم ، وفي المواقع الإسلامية على الإنترنت. ومن هؤلاء: د. محمد عبد المنعم خفاجي ، د. محمد مصطفى هدارة ، د. محمد جابر قميحة ، د. أحمد كمال زكي ، د. سعد أبو الرضا ، د. صالح عبد الله ، د. مأمون جرار ، د. موسى إبراهيم أبو دية ، د. محمود السيد الدغيم ، د. محمد عادل الهاشمي ، د. محمود الربداوي ، د. محمد بن سعد بن حسين ، د. محمد لطفي الصباغ ، د. محمد بن عزوز د. عبد الرحمن عبد الوافي ، والأستاذ عبد العليم القباني ، والأستاذ أحمد مبارك ، والأستاذ يحيى بشير الحاج يحيى ، والأستاذ عبد الله خليل شبيب ، والأستاذ محمد شلال الحناحنة ، والأستاذ حسني أدهم جرار ، والأستاذ أحمد الجدع ، والأستاذ محمد أبو صوفة ، والأستاذ حلمي الأسمر ، والأستاذ محمد أحمد الرواشدة والأستاذ ماجد رسلان ، والأستاذ محمد صالح! وقد نُشرت مقالاته في بعض صحف ومجلات المملكة العربية السعودية ، ودولة الإمارات العربية المتحدة ، ودولة قطر ، واليمن ، والأردن ، والجزائر ، ومصر والسودان ، والمغرب ، أفغانستان ، وكشمير ، الهند ، لبنان ، فلسطين ، إنجلترا....الخ. هذا وقد قدم د. نعيم كامل شبير دراسة عن الدكتور النحوي في كتاب خاص بذلك بعنوان: (صفحات مشرقة من حياة الدكتور عدنان.).هـ. أشكر للأستاذ العسكر ما تفضل به من ترجمة الدكتور عدنان النحوي حفظه الله. وأدع الدكتور عدنان النحوي يقدم نفسه بنفسه هكذا مستخدماً تاء الفاعل من خلال لقاء صحفي معه! وهذا اللقاء مع فضيلة الدكتور عدنان علي رضا محمد النحوي. العَلَم العالم العلامة الداعية المفكر الشاعر الأديب الناقد الناصح ، المجاهد بقلمه ، نحاور فيه الكاتب ، المؤلف ، والمبدع. ولا يَخفى أن الذي أجرى الحوار مع الدكتور عدنان هو الأستاذ عبد الحافظ شمروخ ، والحوار موجود كاملاً في موقع: (قصة الإسلام). ** بداية نشكر فضيلتكم على إتاحة الفرصة للقراء للتعرف عليكم وعلى تجربتكم في الكتابة والتأليف. فما هو ومتى كان أول كتاب تؤلفه؟ وما هي قصته؟ ـ لقد بدأتُ الكتابة ولم أبلغ الرابعة عشرة من عمري. كنتُ أكتب الشعر ولم أكن درستُ العروض ولا عرفته. وكنتُ أكتب أبحاثًا في موضوعات شتى ، وكان بعض أساتذتي في الصفوف الثانوية يُسَرّون بها ، ويطلبون مني قراءتها على الطلاب في الفصل. وبدأت أكتب بعض الخواطر كتابة خاصة لي ، لم أكن أفكر في النشر أو الإعلام ، وهذا كله فُقِد مع النزوح. أول كتاب تم جمعه وطبعه ونشره كان ديوان الأرض المباركة ، وقصته أنني كنتُ قد جمعتُ كل ما لدي من قصائد فأطلعُ عليها بعض الأصدقاء في مدينة الرياض في المملكة العربية السعودية ، إلى أن وصلتُ إلى الدكتور محمد مصطفى هدارة رحمه الله ، فاتصل بي ودعاني إلى زيارته ، وذهبت إليه مع بعض الأصدقاء ، وفوجئت بأنه أعَدَّ مقدمة للقصائد التي اطَّلَعَ عليها ، وشجعني على طبعه ونشره. وكان من بين الحضور صاحب دار نشر ، فعرض طباعة الديوان ونشره. وقبل أن تبدأ طباعته كتب عنه كذلك الأستاذ الشاعر الأديب عبد العليم القباني ، والأستاذ الأديب الدكتور أحمد كمال زكي ، والأستاذ زهير ماردِيني ، وتحدث عنه في إذاعة الرياض الدكتور محمد لطفي الصَّبّاغ ، ثم كتب عنه في جريدة اللواء الأردنية الأستاذ أحمد عوض النشاش ، ثم توالت

الكتابات عنه بعد طباعته ونشره ، والشكر والتقدير لجميع الأخوة الأدباء والشعراء الذين تفضلوا وكتبوا. وكانت الطبعة الأولى سنة 1398هـ/ 1978م ، ثم توالت الدواوين حتى بلغت الآن تسعة ، والملاحم الشعرية أربع عشرة ملحمة. وقد تم إصدار ديوان الأرض المباركة في ست طبعات متتالية بحمد الله تعالى ومَنه وفضله. ** عندما كتبت أول كتاب ، هل كان لديك فكرة أنك ستقوم بتأليف هذا العدد الكبير والمتنوع من الكتب القيمة؟ ـ كان أول كتاب من غير الشعر ، هو كتاب "دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية". لقد بدأتُ في التفكير في تأليفه وأنا في قلب العمل الإسلامي أرقب ما يعانيه العمل الإسلامي من تحديات ومشكلات وأخطاء ونواحي ضعف وخلل ، دون وجود أي محاولة في حدود علمي للمعالجة والإصلاح. وعندما يسَّر الله لي الوقت للتفرغ لتأليف هذا الكتاب ، كانت تجمعت لديَّ عدة قضايا شعرت بالواجب أن أكتبها وأدرسها وأعرضها. ولا بد من الإشارة هنا إلى أنني ما تركت كتابًا لداعية إسلامي عربي أو غير عربي إلا درسته ، ويُضاف إلى ذلك أنه في مسيرة حياتي درست علومًا متعددة ، خلاف ما ندرسه في المرحلة الثانوية ؛ ففي الكلية العربية في القدس كان الزاد الذي أخذته كبيرًا إلا مادة الإسلام ، فدراستها كانت جهدًا شخصيًّا وتوجيهًا بيتيًّا. فقد درستُ التربية وعلم النفس وأصول التدريس واللغة العربية وأدبها وشعرها ، واللغة الإنجليزية وأدبها وتاريخها وشعرها مع النقد الأدبي ، واللغة اللاتينية لبضعة أشهر ، والرياضيات وتاريخها ، والطبيعيات والكيمياء ، تاريخ اليونان بتفصيل مملّ وتاريخ أوربا ، تاريخ إنجلترا كذلك بتفصيل واسع ، تاريخ الرومان ، المنطق ، وعلومًا أخرى. وتابعت دراسة الإسلام وتاريخه بجهد شخصي! ثم حفظت كتاب الله ، وكان هذا أكبر زاد حملته. وخلال هذه المسيرة قرأت قراءة خاصة لمعظم الكتاب المشهورين في العالم العربي مثل طه حسين ، وجورجي زيدان ، ومصطفى صادق الرافعي. وقرأت لمعظم الشعراء الكبار في مرحلة شبابي مثل محمود سامي باشا البارودي ، وشوقي ، وحافظ إبراهيم ، والأخطل الصغير ، وأحمد محرم ، وبدوي الجبل ، قراءةً وحفظًا على قدر ما أستطيع ، يُضاف إلى ذلك ما درسناه في الدراسة الثانوية ، والكلية العربية من شعراء العصر الجاهلي ، وصدر الإسلام ، والعهد الأموي ، والعهد العباسي ، دراسة مفصلة مع التحليل والنقد. ولقد استفدت كثيرًا من مكتبة الكلية العربية المليئة بالمراجع في مختلف العلوم ، وكان من أكثر ما قرأتُ منها القصص العالمي. هذا بعض الزاد الذي حملته في مرحلة شبابي ، ثم جاء الزاد الكبير من الإسلام ومن فترة وجودي في الميدان. وعندما قدمت الكتاب للفسح جاءني خطاب شكر وتقدير على هذا الكتاب الذي اعتبروه مفيدًا للشاب والعالِم ، وأشعر أن كل كلمة فيه خرجت من صميم فؤادي ودمي وعروقي. كان هذا الكتاب أول ثمرة لمسيرة حياتي ، لم أكتبه للشهرة ولا للسمعة ولا للتجارة ، ولكني شعرت بأن واقع المسلمين بحاجة إلى ما في هذا الكتاب بعد أن أخذ الناس يبتعدون عن تدبُّر كتاب الله ، وأخذوا يزدادون جهلاً باللغة العربية ، وأخذت الشعارات يزيد ضجيجها ، والعلم الحق يبهت ويغيب. وبعد جلسات كثيرة ومناصحة وحوار اقتنعت أن تفرُّق المسلمين وتمزُّقهم ناتج عن خلل في الإيمان والتوحيد وضعف كبير في دراسة وتدبر منهاج الله ، وغلبة الشعارات ، وغياب النهج والتخطيط. لذلك رأيت أن أبدأ بوضع نهج وخطة للدعوة الإسلامية! فكان باكورة النهج والخطة هذا الكتاب: "دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية". ولم يكن لديّ فكرة كم كتابًا سأؤلف ، ولم أكن أفكر في ذلك أبدًا ، وكان كل فكري محصورًا في قضية واحدة رئيسة ، كيف يمكن أن نضع نهجًا ومنهجًا تطبيقيين للدعوة الإسلامية ؛ ليكون هذا النهج هو الأساس الذي يلتقي عليه

المؤمنون. كان هذا الذي يُشغل فكري ويُطلق عزيمتي ، متوجهًا إلى الله تعالى ، راجيًا أن يكون العمل كله لله لا تفسده الدنيا ، والبحث عن السمعة أو المال أو أي كسب مادي دنيوي آخر. كنت أتوقع أن أرسم النهج كله في خمسة كتب أو عشرة كتب ، ولكن تبين لي مع المسيرة أن النهج يجب أن يقدم حلولاً تطبيقية عملية لما يدور في الميدان من خلل أو أحداث أو قضايا تحتاج إلى دراسة وإجابة وحلول. وكلما أَلَّفْتُ كتابًا فتح الكتاب أمامي موضوعات جديدة ، مهمَّة وضرورية ليشكل النهج خطوطه وملامحه وموضوعاته ، ولتتكامل على صورة منهجية. أما سبب تنوّع الكتب على هذا النحو الذي بَلَغَته اليوم ، فلذلك سببان: أولاً إن نهج الدعوة الذي أسعى إلى وضعه يجب أن يعالج مشكلات الواقع المتجددة في مختلف مجالاتها. وثانيًا: أن دراساتي كانت متنوعة جدًّا ، سواء في ذلك دراساتي الجامعية ودراساتي الخاصة التي كان من طبيعتها أنها دراسة منهجية تطرق أبواب الفكر وميادينه والواقع وأحداثه. ** لماذا تكتب؟ ـ أكتب لأني صاحب رسالةٍ عظيمةٍ أعيش لها ، وقضية أدافع عنها. أريد أن تُبَلَّغَ رسالة الله كما أُنزلت على محمد – صلى الله عليه وسلم ـ ، إلى الناس كافة تبليغًا منهجيًّا صافيًا ، وتعهُّدهم عليها تعهدًا منهجيًّا صافيًا ، والمضيّ على ذلك حتى تكون كلمة الله هي العليا. وهي ليست مسئوليتي وحدي، لكنها مسئولية كل مسلم وداعية وعالم. ومن أجل ذلك أضع نهجًا ليسهِّل على المسلم والداعية التزود بالزاد الحق ، وليسهِّل عليه الوفاء بعهده مع الله ، وليسهِّل عليه تبليغ الرسالة والدعوة ، وليكون هذا النهج أساس لقاء المؤمنين في الأرض أمة واحدة ، لا تفرقها الحزبيّة ولا العصبيات الجاهلية ، ولا تنافس الدنيا. ** لمن تكتب؟ من هي الشريحة التي تكتب لها؟ ـ أكتب للناس كافة: أولاً للمسلم العادي ، للداعية ، للعالِم ، ولكل من يعرف العربيّة ؛ لأدعوه إلى الإسلام دعوة صافية بعيدة عن التصور الحزبيّ أو العمل السريّ. ** ما هو الموضوع الذي تود أن تكتب فيه ولكنك لم تفعل؟ ولماذا؟ ـ هي موضوعات كثيرة نبعت مما كتبت حتى الآن ، يوحي بها متطلبات الرسالة التي أدعو لها ، وأنا ماضٍ في ذلك حتى ألقى الله. فبعض هذه الموضوعات أكتب فيها وبعضها لم يأت دورها. إنها خط ممتد مع امتداد الواقع والرسالة. ** ماذا تعلمت من تجربة الكتابة؟ ـ تعلمت الكثير الكثير وأول ما تعلمته هو أني كلما تعلمت شيئًا وكتبتُ فيه ، تفتحت أمامي آفاقٌ جديدة منه حتى أشعر بأنه ما زال أمامي الكثير ، وأن بحر العلم لا شاطئ له ، وكأنني كلما ازددت علمًا ازددت معرفة بأن ميدان العلم أوسع. والدرس الثاني أنه لا قيمة للعلم إلا حين يتمثله الإنسان إيمانًا وممارسةً إيمانية ، ونهجًا في الحياة ، وخُلقًا. ثم تعلمتُ درس الإيمان والتوحيد وأسسه ، وتعلمت مجاهدة النفس ، وأن العلم يحتاج إلى العمل والسعي والبيان والتبليغ ، وأن هذا كله يحتاج إلى نهج وخطة تحمل النية والدرب والهدف. تعلمتُ النهج الإيماني للتفكير لأدعو إليه بعد أن ألتزمه أنا ، تعلمت الكثير والكثير وأنا أتلو كتاب الله وأتدبره وأحفظه. ** ما هي العقبات والصعوبات والعوائق التي واجهتك خلال تجربتك في الكتابة والتأليف والنشر والتوزيع؟ ـ الصعوبات كثيرة ، ولكن أهمها النشر والتوزيع ، فهي صعوبات متلاحقة تحتاج إلى صبر. ومما سهل الأمر عليَّ أنني لا أسعى لشيء من الدنيا إلا أن يتقبل الله عملي خالصًا لوجهه الكريم. وكنت أشعر أن الله تعالى يمدني بعونه ، ولو بالصبر والجلد...! لأن أمتنا لا تقرأ إلا القليل منها. ** الكتاب للقراءة. بعبارة أخرى ، أن الكتاب يُكتب ليُقرأ. ما هو رضاك عن أمة "اقرأ"؟ ـ أمَّة "اقرأ" لا تقرأ! ** ماذا تقرأ؟ وبأي اللغات؟ وفي أي الموضوعات؟ ـ أقرأ كل شيء في كل موضوع طيّب نظيف يعينني في رسالتي وهدفي. وأقرأ باللغة العربية والإنجليزية ، والموضوعات شتى ؛ الفكر

الإسلامي ، الدعوة الإسلامية ، الفقه ، التوحيد وموضوعاته المتنوعة ، أحداث الواقع وقضاياه والأحداث الدولية ، وقضايا العالم الفكرية كالشيوعية والمادية التاريخية والمادية الجدلية ، والديمقراطية ، والحداثة ، والبنيوية والتفكيكية والأسلوبية ، والعَلمانية ، والعولمة ، والإدارة والسياسة ، والاقتصاد ، والموضوعات الأدبية ، والنصح (النقد) ، والتاريخ والشعر ، وغير ذلك. وأهم من هذا كله الدراسات القرآنية ، وكتب السنة والسيرة ، والفقه ، واللغة العربية وقواعدها وآدابها. ** لمن من الكتاب المعاصرين تقرأ؟ - لعدد كبير جدًّا وفي الموضوعات التي سبق بيانها ، ويصعب تعدادهم ، وهذه مكتبتي يزيد عدد الكتب فيها عن اثني عشر ألفًا. ** كم تقرأ في اليوم أو في الأسبوع؟ - أقرأ يوميًّا جزءًا من القرآن الكريم ، وعددًا لا يقل عن عشر صفحات من أحد الكتب الصحاح والسنن ووفق منهج محدد ، ثم أقرأ ما لا يقل عن خمسين صفحة من أحد الكتب مما ذكرت أعلاه ، ثم أتفرغ للكتابة وإدارة العمل واستقبال الضيوف. ** كم مرجعًا تستخدم للكتابة في الموضوع الواحد؟ - عندما أحدد الموضوع الذي أريد أن أكتب فيه ، مثلاً الشورى ، أبحث عن كل ما أستطيع الحصول عليه ممن سبقوا وكتبوا في الموضوع ، فأدرسها ، فإذا وجدتُ أنه لا شيء جديد لديَّ في الموضوع تركته ولا أكتب فيه وأعتبر أنه ما دام ما كُتب كان كافيًا فلا حاجة أن أكتب فيه ، وإن وجدت أن لدي شيئًا جديدًا وأفكارًا لم يطرقها الآخرون ، وأن الأفكار هذه مرتبطة بالنهج الذي أدعو إليه ، أبدأ بالكتابة والإعداد ، وهناك موضوعات لا حاجة لمراجع غير الكتاب والسنة. ** الكتابة تعكس فكر الكاتب وأفكاره. ما هو الفكر الذي تريد إيصاله للقراء؟ - كما سبق أن قلت في الإجابة على السؤال الأول ، فإن لي رسالة أكتب فيها وأريد تبليغها إلى أكبر عدد ممكن ؛ لأُذكِّر المسلم بالتكاليف الربانية التي وضعها الله في عنقه ، والتي أخذ الله العهد عليها ، والتي سيحاسبه الله عليها يوم القيامة ، والتي غفل عنها كثير من المسلمين. وأكتب كذلك لأبيِّن نواحي الخلل في واقعنا الإسلامي وسبل معالجتها ، ولأنصح قدر جهدي وأحاسب نفسي على أسس ربّانيّة. ** ما هو الموضوع الذي تعكف على الكتابة فيه حاليًا؟ - حاليًا ، أكتب في موضوع مهمّ: "التجديد في الفكر الإسلامي"، وكذلك في موضوع آخر: "لتكون كلمة الله هي العليا". ** ما هو موضوع الكتاب القادم؟ - هناك عدة موضوعات ما زال "نهج مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن" يحتاجها! وهل يكتب الله لي أن أعيش حتى أتابع الكتابة عبادة لله وطاعة له؟! وكل أمر في وقته حسن ، والله يقضي ما يشاء ، فله الحمد كله وإليه يرجع الأمر كله. ** هل الكتابة مهنة ، موهبة ، علم ، فن؟ أم أنها مهارة يمكن اكتسابها وتنميتها وتطويرها؟ - الكتابة علم وموهبة ، ويجب أن تنطلق من حاجة مُلحّة لتحقق هدفًا ربانيًّا يريد الكاتب أن يعبد الله بالكتابة فيه. ولذلك أرى أن تكون الكتابة منهجيّة واضحة الأهداف والوسائل والأساليب ، تنطلق كلها من نية خالصة لله. ويمكن أن تصبح الكتابة مع الممارسة فنًّا ومهارة. ** كيف ترى صناعة الكتاب في العالم العربي؟ - هناك كتب تدعو إلى الفتنة والفساد ، وكتب تدعو إلى الحداثة أو العَلمانيّة أو الديمقراطية أو...وهناك كتب إسلامية تدعو إلى الإسلام. أتحدث عن هذه الكتب الإسلامية ، فإنها أنواع كل نوع يمثل حزبًا أو حركة لا تتفق مع الأخرى ، فيفقد الكتاب بذلك قوة من قواه ، لا تتوافر هذه القوة إلا حين يكون المسلمون صفًّا واحدًا ، ونهجًا واحدًا ، وكل كتاب يدعم الكتاب الآخر. والمأخذ الثاني أنها ليست كلها منهجيّة ، فلا ترتبط كلها بنهج واحد وخطة واحدة. ولكن تظل الكتب الإسلامية تحمل الخير وتحيي الأمة ، ونظل ندعو الله أن يجمع المؤمنين في الأرض جميعًا على نهج واحد ومناهج محددة وخطة شاملة جامعة ؛ فالله

واحد ، والدين واحد ، والأمة يجب أن تكون واحدة ؛ ومن ثَمَّ فالدعوة الإسلامية يجب أن تكون دعوة واحدة في الأرض كلِّها ، لها نهج واحد ، ومناهج واحدة. ** كيف تكتب؟ ما هي الخطوات التي تتبعها في كتابة موضوع معين ابتداءً من الفكرة مرورًا بتجميع المراجع والمعلومات وانتهاءً بإخراج الكتاب ونشره وتوزيعه؟ - إذا تحددت الفكرة في ذهني أعرضها أولاً على منهاج الله حتى أطمئن إلى أنها فكرة إيمانية ، ثم أدرس كم حاجة واقعنا إلى هذه الفكرة ، وبعد ذلك أدرس مدى ارتباطها بنهج مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن. فإذا اطمأنت نفسي إلى ذلك أبدأ ، أحاسب نيتي لماذا أكتب: للشهرة والسمعة والدنيا أم بنية خالصة لله ورغبة في الدار الآخرة وإيثارها على الدنيا؟ فإذا اطمأنَّت نفسي إلى إخلاص النية ، أبدأ بجمع المعلومات وكل ما كتب حول هذه الفكرة ، فإذا وجدت أن ما كُتب لا يوجد لدي شيء أضيفه عليه ، اكتفيت بما كُتب. وإذا وجدت أن لديَّ شيئًا جديدًا أضيفه ، وأنه في نظري مهم ، أبدأ بالكتابة بعد أن أكون درست كل ما جمعته ، أبدأ بوضع خطة الكتاب ، خطة عامة ، ثم أبدأ بالكتابة في الموضوع ، وقد وضحت الفكرة والخطة والمراجع. حتى إذا انتهيتُ أخذت بمراجعته ومعالجة ما فيه من أخطاء إذا وُجدت ، فإذا اطمأننتُ دفعت الكتاب لزوجتي لمراجعته ومناقشتي فيه. فإذا انتهت هذه المرحلة ، أعرضه على ثلاثة أشخاص من الإخوة في مدرسة لقاء المؤمنين أو أكثر من ثلاثة. وبعد ذلك تبدأ مرحلة تقديمه للجهات المختصة للفسح ثم للطباعة ثم للنشر والتوزيع والإهداء. ** من يساعدك في مراحل إعداد وتأليف الكتاب وتجهيزه؟ - أولاً تساعدني زوجتي في المرحلة التي ذكرتها ، ثم في الطباعة على الحاسوب يساعدني الموظفون في مكتب دار النشر. وإذا احتجت إلى مساعدة ، فأستعين ببعض أبناء مدرسة لقاء المؤمنين. ** هل تكتب عن أشخاص معينين؟ من هم؟ ولماذا كتبت عنهم؟ - لم أكتب كتبًا عن أشخاص معينين ، إلا قصائد رثاء لمن يتوفاه الله من الأقرباء أو الأصدقاء ، وقصائد مودّة ومحبة مع بعض الأصدقاء. وكذلك كتبت مقالات عن بعض الرموز بناء على ظروف استدعت الكتابة عنها ، مثل أبي الأعلى المودودي ، أبي الحسن الندوي ، عمر بهاء الأميري ، مصطفى صادق الرافعي ، عبد العزيز الرفاعي ، وغيرهم. ** ما هي نصيحتك للكتاب المبتدئين؟ - أول نصيحة: أن يتقن اللغة العربية ، ويدرس كتاب الله ويحفظ منه ما يستطيع ، ويدرس ما يستطيع من كتب الحديث ومن سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم - وتظل دراسة القرآن الكريم والسنة واللغة العربية ، دراسة منهجيَّة صحبة عمر وحياة. والنصيحة الثانية: أن لا يكتب للدنيا والسمعة وطلب الشهرة ، وأن يتأكد من نيته وصدقه. والنصيحة الثالثة: أن لا يكتب إلا بعد أن يقرأ كل ما كُتب عن موضوعه حتى يشعر أن لديه شيئًا جديدًا ، وإلا فليبحث عن موضوع جديد يبدع فيه بأفكار جديدة. والنصيحة الرابعة: أن يهتم بالكتابة إذا كانت له رسالة في الحياة يكتب فيها ومن أجلها ، مع استيفاء الشروط السابقة).هـ.

والحقيقة أنني أشكر الأستاذ شمروخ ذلك المحاور اللبق الذي استطاع أن يأخذ من الدكتور عدنان ما وراء نصوصه وما هو مخزون في جعبته! فلله لولا هذه الأسئلة المتفرّدة الدقيقة الذكية العبقرية لما استمتعنا بهذه المعلومات القيمة! ولقد تذهب هذه المعلومات مع الدكتور عدنان في قبره وتدفن معه فلا ينتفع بها أحد! وما قرأت حوارا مع كاتب أو شاعر وتمنيت أن يطول مثل هذا الحوار الجيد النافع! وإنني إذ أرثي وأنعي وأبكي الدكتور عدنان فهذا واجبي حياله واجب الابن على أبيه ، وواجب الطالب على مدرّسه ، وواجب الصديق على صديقه! ولو أنني مِت في حياة الدكتور عدنان ، وعلم بذلك لما كان منه إلا أن يصوغ قصيدة رثائية لا عجة

المعاني والألفاظ ، عني وعن أشعاري وعن صداقتي به وأخوتي له وتلمذتي على يديه! وإذن فالشيء بالشيء يذكر! وذلك أكتبه قياساً على ما كان بيننا من رسائل وبريد! لقد كنا نسترشد بك في كل الذي نكتبه يا دكتور عدنان! فنكتب ما نشتهي موقنين أنك ستفنده وستغربله وستنخله! فلنا الله من بعدك. أسأل الله أن يرحمك رحمة واسعة وأن يتجاوز عنك ويغفر لك ذنوبك ويتجاوز عن سيئاتك وأن لا يحرمنا أجرك وأن لا يفتننا بعدك! والآن لنطالع ماذا قلت في البكائية النحوية ، في رثاء الدكتور النحوي ونعيه للأمة المسلمة وللشعراء المؤمنين.)

82- البهتان الرخيص

(بهتتْ أمَة سوداء شوهاء شمطاء أحدَ الشعراء ، وانتقصته وأهانته بدون حق لها. فكتبتُ أنتصر للشاعر المُفترى عليه. والأصل أن لا تكون إدانة أو اتهام بغير دليل وبرهان! وأيضاً يجب إعطاء كل مُدان أو مُتهم فرصة للدفاع عن نفسه وتبرير قوله أو فعله! وابتداءً يجب إحسانُ الظن وتبييتُ حسن النية ، ريثما تأتي قرائنُ يستحيلُ معها إحسانُ الظن وتبييتُ حسن النية! أما بهتان الناس وذكر مساوئ خايسة ليست فيهم ، وذكر أخلاق سيئة ليسوا عليها ، فأن ذلك لا يجوز في ديننا مطلقاً! ولا يكون بيت امرأة حيزبون دردبيس من زجاج ، ثم هي تلقي بالحصى على الناس! ولا يجوز إلقاء الكلام الفظ على عواهنه بدون أي تحفظ أو تحسّب! والمهم أنني تخيلتُ ذلك الشاعر وهو يرد بهتان الشمطاء عليها مدافعاً عن نفسه!)

83 - البيوت الحزينة

(إن حزن البيوت منبثقٌ من حِرمانها من الوحي. ثم من إعمارها بالفضائيات والإنترنت حيث عجّت بالإباحية ، واستخدمت أسوأ الاستخدام. قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (لا تجعلوا بيوتكم مقابرَ ، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة). رواه مسلم ، وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (إذا دخل الرجل بيتَه ، فذَكَر اسم الله ـ تعالى ـ حين يدخل وحين يَطعم ـ قال الشيطان ـ يعني لأصحابه ـ: لا مبيتَ لكم ولا عَشاء ها هنا ، وإن دخل فلم يَذكُر اسم الله عند دخوله ، قال: أدركتم المبيت. وإن لم يذكر اسم الله عند مطعمه قال: أدركتمُ المبيت والعشاء). مسلم وأحمد.)

84 - التاريخ الجريح

(إن الإسلام دائماً شباب وإن شاخ بعض أتباعه من المسلمين! فلا يهرم ذلك الدين بل هو دائماً في ريعان الشباب ، وإن أحب له أعداؤه أن يشيخ ويهرم ويموت ويوارى في التراب! وها هو يتحدى ويقصم من عانده وحاربه وناوأه! قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: (يوشك أن تتداعي عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، قالوا أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ ، قال: بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهَن ، قالوا: وما الوهَن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت). خرج عمر بن الخطاب إلى الشام ومعه أبو عبيدة ، فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة له فنـزل عنها وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه ، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة ، فقال أبو عبيدة ، يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك فقال عمر: أواه لو يقل ذا

غيرك أبا عبيدة جعلته نكالاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله. وإذن فيبقى الإسلام شباباً في نفوس من اعتنقوه بصدق واعتزوا به بإخلاص! والتاريخ الجريح يأسى لما يعتور المسلمين من أحوال سيئة وظروف عاتية! والحقيقة أنني هممت بتمزيق هذه المقطوعة عدة مرات ، إذ يعود تاريخ كتابها لصيف 1987م! فالضعف الفني طابعُها! وأنا إذ أكتب هذا فمن باب الأمانة وليس ليكون هذا الاعتراف سيفاً عليّ يوماً!)

85 - التجمّل الزائف

(دخلتُ بيت أحدهم فإذا بخمسة سيوف من سيوف العرب مُعلقة على الجدران ، وسجّادة من القطيفة عليها أبيات من شِعر عنترة ، وبعض الأوعية والمجسمات التي تأخذ شكل الخِيام التراثية العربية ، ونموذج لبيت الشعر ، ولوحات تعكس بيئة العرب البدوية القاحلة ، ومجسمات للآبار ومرابط الخيل ومضارب القبيلة ، إلى جانب بعض الآلات الموسيقية القديمة العتيقة وبعض الآلات الحديثة. بينما البيت برمّته لا نصيب للعروبة فيه ، فضلاً عن الإسلام الحق بالمرّة ، فالدشوش قد نصبتْ واستقبلتْ وربّتْ وعلمتِ الأولاد والبنات كيف شاءت. للحدّ الذي قال أحد الأبناء مفتخراً متباهياً إن عندنا ألفَ قناة. وامتلأ البيت بالجواري (أعني الخادمات) والعبيد (أعني الخدم). وإن هي إلا بيئة نشاذ لا نصيب للعروبة منها إلا من التسمّي والاختلاط يملأ البيت وكأن هذه الخادمات صرن أهلاً وعشيرة إلى جوار الخدم. فرُحتُ أستهجنُ هذا التجمّل الزائف الممقوت ، وأطلب إلى راعي هذا البيت أن يختار لنفسه بدون تردّد إما عروبة طابعُها وأساسُها الإسلام ، وإما تغرّبٌ فظ طابعُه العلمنة والخروجُ على شريعة رب الأنام. وبناءً على هذا فلا يصحّ أبداً في بداهة العقل والمنطق هذا الفصامُ النكد ، وتلك الازدواجية التي تقوم على مبدأ الخلط بين التصورات والمفاهيم. إما عروبة مسلمة حقيقية قلباً وقالباً ، فتحتوي على قيم وأخلاق وتقاليد وأعراف العرب محاطة ومدعّمة بالإسلام ، فيكون الإسلامُ هو قاعدة الأساس فيها ، فنِعمتِ العروبة الأصيلة التي نفتخر بها. وإما تغرّبٌ كاملٌ بكل عَلمنته وانحطاطه وتهتكه ومُجونه وسُخفه وإباحِيته. أما التجمّل الزائف القائم اليوم في ديار وبيئاتٍ ونفوس نصيبُ العروبة منها مجرّد التسمي فقط ، ونصيبُ الإسلام التسمّي كذلك ، فإن هذا التجمّل الشاذ ليس بشيء. فبينما كنتُ ضيفاً في بيت هذا شأنه رحتُ أتأمّل في هذه الأشياء المُعلقة هنا وهناك ، وغرقتُ بتفكيري في سالف مجد العرب الأوائل ، وكانت هذه القصيدة انعكاساً لما جال بخاطري من الأفكار التي رحتُ أوجّهها مباشرة لراعي البيت بوصفه المسؤول الأول عن هذه الممارسات! وإن شاء تاب وأهل بيته عن ذلك الفصام النكِد!)

86 - إنها التربية بالقدوة

(أثر عن الدعاة المعلمين المخلصين الربانيين أن القلوب تنفتح لهم لتعمل بما يقولون. فهل هذا يا ترى من فراغ؟ بالطبع لا ، إنها التربية بالقدوة. إن حمل الناس على اتباع الحق نظرياً لا يمكن أن يؤتي ثماره إلا عندما يقترن باقتداء الناس بداعيةٍ يفعل ما يأمر به. وهذا هو الحسن البصري – رحمه الله - نحسبه واحداً من هذا الفريق الذي كُتب له القبول في الأرض – والله حسيبه ووكيله ولا نزكي على الله أحداً. الحسن البصري رحمه الله ، هو شيخ الواعظين ،

جاءه عبيد البصرة ذات يوم ، وقالوا له: يا تقي الدين ، قد أساء سادتنا معاملتنا ، وقست علينا قلوبهم ، وجئنا إليك لتكون خطبتك في الجمعة القادمة الحث على عتق الرقاب. ولبّى رحمه الله رغبتهم ، ووعدهم خيراً ، ومضت جمعة وجمعة ، والحسن لا يخطب فيما كلموه بشأنه ، ولم يتحدث فيما دعوه إليه. وذات يوم من أيام الجمع اعتلى الحسن المنبر ، وخطب عن عتق الرقاب ، فما من أحد سمعه إلا خرج وأعتق عبده. فلمّا تحرّروا من الرق ، اجتمعوا في بيت الحسن ، وقالوا له: يا تقي الدين جئناك مُعاتبين. قال فيم العتاب؟ قالوا له: ما الذي أخرك هذه الأسابيع ، وأنت تعلم أننا كنا في مسيس الحاجة إلى التعجيل بالكلام في هذا الموضوع؟ فقال لهم الحسن كلمة تكتب بحروف من الذهب على صفحات النور. قال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين: إنما أخرني أني كنت لا أملك عبداً ، ولم يكن معي ما أشتريه به ، فلمّا رزقني الله مالاً اشتريت عبداً وأعتقته ، فلما خطبتُ الناس دعوتهم إلى عتق الرقاب ، فوجد الكلام استجابه في قلوبهم ، لأني طبّقت على نفسي ما أمرت به غيري. وتلك هي الأخلاق الكريمة والخلال العظيمة التي اقتبسها البصري ونهلها من كتاب الله – عز وجل – ومن سنة النبي – صلى الله عليه وسلم –. وصدق الشاعر محمود الأيوبي إذ قال في قيمة الأخلاق التي يتحلى بها صاحبها:

والمرءُ بالأخلاق يسمو ذكره وبها يُفضل في الورى ، ويوقرُ

وصدق الشاعر أحمد شوقي إذ يبين قيمة الأخلاق في حياة الفرد والمجتمع في بيته المعروف:

وإنما الأممُ الأخلاق ما بقيت فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وصدق المتوكل الليثي في بيته إذ يعتبر من يدعو إلى خلق ويخالف عنه كأنما أتى عاراً يعير به: لا تنه عن خلُق ، وتأتي مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ!

والآية القرآنية تحسم الموقف: (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون!) والمقت كما يقول المفسرون هو أشد الغضب. إن العلماء هم أولى الناس بالعمل بما يعلمون من الحق وبما يدعون الآخرين للعمل به ويحثونهم على فعله. إن العلماء عندما لا يلتزمون في ذوات أنفسهم ومن يعولون بالحق الذي يؤمنون به ويدعون الناس إليه ليؤدون شهادة عملية على أنهم كاذبون مخادعون ، أو أن ذلك الحق لو كان فيه خير لكان فيه من الدافعية ما يجعلهم يلتزمون به تطبيقاً في ذوات أنفسهم ومن يعولون من الأبناء والبنات. إن العالم الذي يدخن ويدعو الناس إلى ترك عادة التدخين وضرورة الإقلاع عنها مبيناً الأضرار البالغة التي أقرتها منظمة الصحة العالمية من أن التدخين لا يترك أي عضو في جسم الإنسان إلا كانت له بصمة ضرر عليه ، ثم هذا العالم في الوقت نفسه يدخن ، ويراه الناس يشعل سيجارة من أخرى لا يمكن أن تثمر دعوته ، ذلك أنه شخصياً لو كان يؤمن بما يقول من حُرمة التدخين وسوئه لامتنع هو أولاً! وكذلك العالِم الذي يأمر بنات المسلمين ونساءهم بالحجاب ، على حين نرى بناته المكلفات العاقلات الراشدات غاديات رائحات مُتبرجات مُظهرات للحسن كاسيات عاريات مائلات مميلات ، ما تركن فناً من فنون التبرّج إلا أتين منه ما تيسر ، وما تركن عطراً من العطور إلا أصبن منه قدر الطاقة والاستطاعة ، فأنى تثمر دعوته في البنات والنساء عن ترك التبرج والتزام الحجاب؟ ومن هنا انتظر الحسن البصري – رحمه الله - حتى يطبق ما سوف يأمر الناس به ، وذلك ليكون أوقع في نفوسهم وليحفزهم على التطبيق. وقد كان ، فأثمرت دعوته. ومن هنا رحتُ أطري هذه الأخلاق التي غابت كثيراً عن عالمنا اليوم ، حيث ابتلينا بالمرتزقة الذين جُل همهم الراتب والبيت والمال والوظيفة وتيسيرات الجاهلية ، في محاولة مكشوفة من هذه الجاهلية والقائمين عليها لبيان أن

الدين قائم ، وذلك بعدما أضفى المرتزقة الشرعية على انحرافات الجاهلية هنا وهناك! إن البصري ما أراد للمسألة أن تكون هكذا أبداً ، بل يلتزم هو أولاً لتكون هناك تربية بالقدوة ، ويعنون الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي بـ: (التربية بالقدوة الحسنة) فيقول وبالنص: (إنَّ التربيةَ بالقدوةِ قد تكونُ أبلغَ منَ التعَّليمِ والترَّغِيبِ والترهيبِ وغيرها من الوسائلِ لأنَّ الأخْذَ بالشيءِ عملياً والتمّسّكَ بهِ أكثر إقناعًا للمتعلّمِ من الحديثٍ عنه والثناءِ عليه فمجردُ العملِ بالخيرِ ، تحَصُلُ قناعةٌ عند الولدِ بصلاحيةِ هذا الخيرِ ، وهذا واقعٌ مشاهدٌ في حياة الناسِ ، وقد أ كَّد عَلَى هذا علماءُ الإسلامِ منذُ القديمِ ونقَلوُا وصيةَّ عمْرو بنِ عتبةَ لمؤدِّبِ أولاده ليكُنْ أوَّلُ إصلاحِكَ لولدِكَ إصلاحَكَ لِنفْسِكَ ، فإنَّ عيونهُ معقُودَةٌ بعَينِكَ فالحُسْنُ عندَهُم ما صَنعْتَ ، والقبيحُ عنْدهمْ ما تركْتَ فكونوا أيهُّاَ المعلّمونَ لتلاميذِكُمْ قدوةَ صَالحةً في الأعمالِ والأحوالِ والأقوالِ ، لا يروْنَ منكُمْ إلا الصَّالحَ منَ الأعْمَالِ والأحوالِ ولا يسْمَعُونَ منكْمْ إلا الصَّادقَ من الأقوالِ ، وإنَّ الكذبَ في الأحوالِ أضرُّ على صاحبهِ وعلى الأُمَّة بِه مِنَ الكذبِ في الأقوالِ ، فالأقوالُ الكاذبةُ قد يحْترزُ مِنهَا وأمَّا الأحوالُ الكَاذبةُ فلَا يمْكِنُ منهَا الاحْتِرَازُ. أعيذُكُمْ باللهِ يا أبنْائِي المعَلِّمينَ أنْ تجَعلُوا كل اعتِمادِكُم في تربيةِ الصِّغارِ على البرامجِ والكتبِ ، فإنَّ النُّظُمَ الآليةَ لا تبَنِي عالمًا ولا تكوِّنُ أمَّةً ولا تُجَدِّدُ حياَة ، وإنمَّا هيَ ضوابطُ وأعلاَم تُرْشِدُ إلى الغايةِ وتُعينُ على الوُصولِ إليْها منْ طريقٍ قاصدٍ وعلى نهجٍ سويٍّ أمَّا العمدةُ الحقيقيةُ في الوصولِ إلى الغاية من التربية ، فهِيَ ما يفَيِضُ من نُفوسِكُم علَى نفُوسِ تلَاميذِكُم الناشئينَ منْ أخلاَقٍ طاهرةٍ قويمةٍ يحتذونكُم فيِها ويقْتبِسُونها منكم ، وما تبَثُّونهَ في أرواحِهم من قوةٍ وعزمٍ ، وفي أفكارهم من إصابةٍ وتسديدٍ وفي نزاعاتِهم من إصلاحٍ وتقويمٍ ، وفي ألسنتِهم من إفصَاح وإبانةٍ.هـ. الآثار ، ج 3 ، ص 268. يروى أنه في زمن خلفاء بني أمية قبل ولاية عمر بن عبد العزيز كان الناس إذا تلاقوا وجلسوا مع بعضهم بعضا كان سؤالهم بينهم حول كم يملك أحدهم من الجواري والدراهم والبيوت والأنعام. ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز تغير الحال وصار سؤال الناس فيما بينهم في مجالسهم حول كم يحفظ أحدهم من كتاب الله تعالى ، وكم يحفظ أحدهم من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. تلك هي القدوة وخطورتها في المجتمع! قال تعالى: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ). قال القرطبي في تفسيره: (قوله تعالى : قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي تقدم. ورزقني منه رزقاً أي واسعاً حلالاً ، وكان شعيب ـ عليه السلام ـ كثير المال ، قاله ابن عباس وغيره. وقيل: أراد به الهدى والتوفيق والعلم والمعرفة ، وفي الكلام حذف ، وهو ما ذكرناه ، أي أفلا أنهاكم عن الضلال! وقيل: المعنى أرأيتم إن كنت على بينة من ربي أتبع الضلال؟ وقيل: المعنى أرأيتم إن كنت على بينة من ربي أتأمرونني بالعصيان في البخس والتطفيف ، وقد أغناني الله عنه. "وما أريد أن أخالفكم". في موضع نصب بـ "أريد". إلى ما أنهاكم عنه أي ليس أنهاكم عن شيء وأرتكبه ، كما لا أترك ما أمرتكم به).هـ. وإذن فكلما كان الداعي ملتزماً بما يدعو الآخرين من حوله إليه ، كان ذلك أدعى إلى احترامه وسماع ما يقول! والعكس بالعكس! إن دعا الآخرين داع إلى غير ما يلتزم ويفعل ، كان ذلك أدعى إلى الانفضاض عنه والنفرة منه والبعد عنه وعدم الاتباع لما يقول!)

87 ـ التربية بين الجامع والجامعة

(عندما تؤسْلمُ نظمُ الحياة ، وتُسْلمُ الجامعة لا تتعارض قط أركان التربية ومواردها بين الجامع والجامعة ، وعندما يكون ذلك كذلك فهاك التربية الحقيقية. وعندما يكون ذلك غير ذلك نرى فِصاماً رهيباً لا حدود له ، ليس ذلك فقط بل واستساغة مريرة لكل أنواع الباطل! وإذن فالإسلام كلٌ لا يتجزأ! ولا يمكن أن تكون للإسلام جزءٌ من الهيمنة على بعض أنظمة المجتمع ، وتكون للعلمانية الهيمنة على باقي الأجزاء ، ثم نقول إن هذا إسلام! إن هذا الدين شرعه الله تعالى ليُخرج الناس كلهم في الأرض كلها من الجاهلية والظلام إلى الهداية والنور!)

88 ـ عندما تكون التربية رسالة

(قام المربيان المعلمان اللذان كانا يشرفان على تربية (محمد الفاتح) ابن السلطان مراد الثاني العثماني ، الشيخان / محمد بن حمزة المشهور بـ (آق شمس الدين) وأحمد الكوراني ، قاما بدور كبير في تنشئة الفاتح ، وكان الأول أشد تأثيراً عليه ، وكان الفاتح يعتز به ويقول وهو سلطان على المسلمين: لا تجعلوا شيخي وأستاذي يقف بالباب طويلاً ، بل أدخلوه عليّ مباشرة. قام المربى بضرب محمد الفاتح وعمره سبع سنوات ضرباً شديداً وذلك دونما سبب. وظل محمد الفاتح يذكر ذلك إلى أن تسلم مقاليد الحكم بعد أبيه ، وكان شاباً في مقتبل العمر. فنادى على مُربيه ، وقال: لماذا ضربتني ضرباً شديداً أيام كان عمري لا يتجاوز السنوات السبع يا سيدي؟ فقال: لتذوق معنى الظلم فلا تظلم أيام تكون سلطاناً يوماً ، إن عندي شعوراً أنك ستكون سلطاناً يوماً ما. كما كانت عادة ذلك المربي أيضاً أنه كان يركب جواداً ويحمل محمد الفاتح وهو طفل معه ويخوض الجواد في البحر إلى أن يشرف على الغرق ثم يرجع به. وأثناء هذه الرحلة البحرية يشير المربي إلى أسوار القسطنطينية في الساحل الآخر ويخاطب محمداً قائلاً: هذه هي الأسوار التي تحيط بالمدينة التي ستفتحها يوماً إن شاء الله. وإذن فهي التربية عندما تكون رسالة حقيقية ذات أهداف محددة المعالم. لا التربية الارتزاقية نظير دراهم معدودة. إن المربي الناجح هو الذي يترك أثراً لكل معنى من معاني الدروس التربوية التي يغرسها في نفس من يربيه. وهنا تثمر العملية التربوية بجميع أهدافها الوجدانية والمعرفية والأخلاقية والسلوكية. ولازلنا نذكر الدروس التربوية والمواعظ الوجدانية والنصائح التي جاد بها علينا أساتذتنا الكرام ونحن صغار. وفي سفره العظيم: (رِسَالةُ المُعَلّمِ وآدابُ العالم وَالمُتعلّمِ) يقول الدكتور عبد المجيد البيانوني يفرق بين التدريس كمهنة وكوظيفة فيقول ما نصه: (يجمع بين المعلّم والموظّف أن كلاً منهما مسلم يحمل في عقله وقلبه ، وسلوكه وأخلاقه رسالة الإسلام ، ويدعو إليها بحسب استطاعته. ولكنّنا من خلال طبيعة عمل كلّ من المعلّم والموظف ومهمّتهما في الحياة نستطيع أن نعرّف المعلّم والموظّف على النحو التالي: ـ فالمعلّم هو الذي يأتمنه الناس على تربية أولادهم ، وتأديبهم وتعليمهم ، ويتحقق بمستوى مناسب من الأهليّة لذلك. ـ وأمّا الموظّف فهو الذي يكلّف بعمل ما ، وتتحقق به الأهليّة العلميّة ، أو الفنيّة ، أو الخبرة المناسبة لهذا العمل. ونستخلص من التعريفين الحقائق التالية: * أنّ كلاً من المعلّم والموظّف يتحقّق فيهما قدر مشترك من المؤهّلات العلميّة والأخلاقيّة ، والمهارات الفنيّة المناسبة لمهمّة كلّ منهما ، وطبيعة عمله واختصاصه. * أن الجانب الأساسيّ في المعلّم هو

المستوى العلميّ والسلوك الأخلاقيّ المناسب ، والقدرة على التعليم والعطاء ، بما ينسجم مع طبيعة المهمّة المُلقاة على عاتقه ، ولا يُفترض في الموظّف أن يكون كذلك كما هو واضح. * أن علاقة المعلّم علاقة إنسانيّة تربويّة ، فميدان عمله: النفس البشريّة ، ومهمته صقل العقول وإيقاظ القلوب ، وتهذيب النفوس ، وغرس الفضائل ، واجتثاث الرذائل ، وتنشئة الطفال تنشئة قويمة سويّة. إنّ مهمّة المعلّم تتعلق بسيّد المخلوقات في هذا الوجود. بالإنسان الذي خلقه الله بيديه ، وأسجد له ملائكته ، وجعله في أحسن تقويم ، وحمّله ما ناءت السموات والأرض والجبال بحمله ، فشرّفه بالأمانة ، وخصّه بالتكليف ، ليكون في أرفع المنازل عند الله ، إنْ هو وفّى بعهد الله وأمانته. إنّنا نلقي إلى المعلّم بفلذات أكبادنا ، معادنَ وخاماتٍ ليجعل منها أدواتٍ نفيسة القدر ، عالية الهمّة ، شريفة المهمّة ، وينقش عليها نقوش الحقّ ، التي تؤهلها لجليل المهام ، ولا تمحوها الليالي والأيّام. وفي هذا المعنى يقول الإمام الغزاليّ رحمه الله تعالى: "إن الصبيّ أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة ، خالية من كلّ نقش وصورة ، وهو قابل لكلّ ما ينقش فيه ، ومائل إلى كل ما يمال إليه ، فإن عُوّد الخير وعُلّمه ، نشأ عليه ، وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه وكلّ معلّم له ومؤدّب ، وإن عُوّد الشرّ ، وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك ، وكان الوزر في رقبة مُربّيه والقيّم عليه". ـ أمّا الموظّف ؛ فقد يكون تعامله مع آلة صمّاء فحسب ، لا صلة له بالناس مطلقاً ، وقد يكون بعيداً عن الناس يتعامل مع أوراق تصله ، ومعاملات للناس يتلقاها من موظف آخر ، فتنحصر علاقته مع الناس بعلاقته مع زملائه ورئيسه ، وقد يكون تعامله مع الناس محدّداً بلحظة عابرة ، أو كلمة محدودة ، فلا يربطه مع الناس سوى نظام وشروط وقيود! ولا تصله بهم إلاّ الأوراق المطلوبة والشروط المستوفاة. ولا يخفى أنّ ذلك في كثير من الأحيان إن لم يصحبه حسن الخلق ، والصبر الجميل ، والأسلوب الحكيم في العلاقة ، والطيب في التعامل ، فإنّه يورث الجفاء في العلاقة بينه وبين الناس ، لأن النفوس جُبلت على النفرة من القيود والنظام ، وإباء الانقياد والانتظام. ولئن كانت طبيعة عمله لا تقلّل من أهميّة أخلاقه وسلوكه ، وضرورة صبره وتحمّله وحسن علاقته بالناس ولطفه ، وما لذلك كلّه من أثر ، وما يتركه في نفوس المتعاملين معه من انطباع حميد ، وثناء عطر ، وتأثير طيب ، ولكنه لا يقف في ذلك كلّه موقف المعلّم للناس ، والمربّي الموجّه. ونخلص من ذلك: إلى أنّ الفرق الذي نريد الحديث عنه بين المعلّم والموظّف يتجلى في طبيعة علاقة كلّ منهما بالناس ، ففي الوقت الذي تكون علاقة المعلّم مع تلاميذه علاقة أبويّة تقوم على التربية والتعليم ، والإرشاد والتوجيه ، تنحصر علاقة الموظّف بالناس في نطاق محدود ، من طبيعة العمل الذي يقوم به ، والمسئولية التي يؤدّيها ، ولا يطلب منه ما فوق ذلك ، ولا يسأل عنه! ومن هنا تتجلى علاقة الناس بالمعلّم والموظّف ، ولعلّ هذه النقطة تعدّ مكمّلة للنقطة السابقة ، ويتجلّى خلالها مزيد من الفروق بين المعلّم والموظّف! ـ أمّا علاقة التلاميذ بمعلّمهم ؛ فهي علاقة أبويّة حانية ، ممتدّة طويلة ، يقف فيها المعلّم موقف المربّي الموجّه ، ويقف فيها التلميذ موقف المتلقّي المتعلّم ، المستجيب المتأدّب ، إذ يرى معلّمه أكبر منه سنّاً وجسماً في أكثر الأحيان ، وأكثر منه علماً ، وأجلّ قدراً ، وينظر إليه نظرة الأسوة والاقتداء. وتبعاً لذلك ؛ فإنّه يُكِنّ له الاحترام والتقدير ، على حسب ما تكون هذه الصفات في المعلّم أتمّ وأكمل! وعلى حسب ما يكون المعلّم بعيداً عن الصفات السلبية ، التي تنزع احترام تلاميذه له ، فلا ينظرون إليه نظرة التأسي والاقتداء. وعلى قدر ما يخلص المعلّم في عمله ، ويكون قدوة حسنة لتلاميذه ، ينظر إليه تلاميذه نظرة التقدير والاحترام ، والتأسي والاقتداء ،

ويعظم انتفاعهم به واستفادتهم منه. ولا ننسى أن من إخلاص المعلّم في عمله أن يحرص على نصح تلاميذه وتوجيههم وإرشادهم في كل مناسبة ، وأن ينتهز كل فرصة مواتية لبثّ الفضائل في نفوسهم ، والتنفير من الرذائل ، والحثّ على معالي الأمور ، والنهي عن سفسافها. وتتبع علاقة التلاميذ بالمعلّم علاقة آبائهم وإخوانهم وأولياء أمورهم ، وهم الذين يمثّلون روابط التلميذ الأسريّة والاجتماعيّة ، وتنعكس سلبيّاتها وإيجابيّاتها على تكوين التلميذ وسلوكه وأخلاقه. ويلاحظ في هذا المقام أن كثيراً من أولياء الأمور ، على اختلاف دوافعهم ، يقفون من المعلّم كوقفة التلاميذ من معلّمهم. مسترشدين مستنصحين ، يتقبّلون بصدر رحب ما يوجّه إليهم من انتقادات ، تعود إليها أسباب تقصير الطالب في دراسته ، أو إهماله في واجباته ، أو عدم تهييئ الظروف المناسبة لجدّه واجتهاده. وإذ كان كثير من المعلّمين لا يجاملون أولياء الأمور ولا يدارونهم ، بل يصارحونهم ، ويتناولون تقصير الوالدين في مسئوليتهم ، ويقفونهم على نقائص التربية في بيوتهم وأدوائها ، وسلبيات تصرفاتهم على سلوك أبنائهم ، مما يحرج بعض الآباء ، وهم في كثير من الأحوال قد خرجت الأمور من أيديهم ، ولم يعودوا يستطيعون تلافي التقصير ، أو تدارك الخلل ، أو لا يريدون ذلك. ولا يخفى أنّ من طبع الإنسان الهروب من المواقف المحرجة مما يدفعهم إلى قطيعة المدرسة والهرب من مراجعتها ، وتجنّب التعرف على معلمي أولادهم ، والسؤال عنهم ، فيتخلّون بذلك عن مسئوليّتهم في التربية والتقويم ، وتكميل دور المعلّم والتعاون معه. وهذا ما تكثر الشكوى منه في مختلف مراحل التعليم بصورة عامّة).هـ. واليوم نحاول أن نغرس أمثالها في أبنائنا وطلابنا والله المستعان!)

89 - التربية كلها في القرآن

(تبجح ذلك السفيه الوقح قائلاً: ليس للقرآن أي مردود تربوي. وبهذا يكون قد أسفر عن علمانيته هذا السافل القذر المتطاول على القرآن. وتا الله لا يجرؤ طرفة عين ، ولا أقل من ذلك أن يقول هذا على (العهد القديم أو الجديد أو التلمود) ، لخوفه من أصحابها. ومن هنا رحتُ أعلن من منبر شعري - إجلالاً لكتاب الله تعالى - بأن القرآن كتاب التربية الأول ، وأن التربية كلها من ألفها إلى يائها كلها في القرآن. وإذا قلت بأن التربية كلها في القرآن ، فإن السنة النبوية المطهرة تأتي إلى جانب القرآن بالتبع ، (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) ، (ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه). وأبشر كل المنصرين وأذنابهم الرطبة من العلمانيين بالهزيمة.)

90 - الترويض على الذل

(لا يرتضي الذل سبيلاً في الحياة وديدناً في العيش وأسلوباً في التعايش ومنهجاً في التكيف مع الناس إلا إنسانٌ قد أكلت الخِسة والدناوة قلبه. ولم يعد له من الإنسانية إلا التسمي والانتساب! والأصيلُ الكريم لا يُروّض على الذل. والحق أنه متى رضيَ الإنسانُ بالذل والهوان تصبح حياته والعدم سواء. وكل مهان ذليل لا أثر له في الحياة ولا في الأحياء ، ولا يصنع المجد أبداً!)

91 - وأسفى على التصنيف وأهله!

(إنها لإحدى الكُبر أن يعزف كثيرٌ من المؤلفين والمصنفين عن التأليف والتصنيف ، لأنهم فقدوا الداعم والقارئ والمتبني للفكرة والناقد والمقدم والمحلل والمحقق والمدقق لها! نعم فقدوا كل هؤلاء في وقتٍ واحد. وأنا أعني هنا أصحاب التآليف والتصانيف المحترمة القيّمة الأخلاقية التي تهدف إلى ترسيخ دعائم الحق والفكر الصحيح والقيم السامية والأخلاق الفاضلة. ولستُ أعني من يصنفون ويؤلفون لهدم القيم ولسحق بنيان الأخلاق ولنسف صرح الفضائل. فإن هذا الفريق الأخير مدعوم ومكفول ، وبضاعته رائجة ، وباطله منتشرٌ في كل مكان. أما أهل القيم فقد عدموا كل من ذكرت! ومن هنا كانت عُزلتهم ، وكان عُزوفهم عن الكتابة والتنظير والتأليف والتصنيف! ولربما كان ذلك كذلك لندرة القرّاء وقلة القراءة! وأعجب من أمة أول آية في كتابها: (اقرأ) ثم هي لا تقرأ؟! وتحت عنوان: (ظاهرة العزوف عن القراءة) كتب الكاتب المغربي الأستاذ الوارث الحسن مقالة مطولة ونشرها في مجلة (طنجة) الأدبية نقتبس منها بتصرف بسيط كلامه: (إن العزوف عن القراءة مشكلة عويصة يواجهها المجتمع عامة وشباب الأمة الإسلامية خاصة ، ولا شك أن يكون ذلك هو أحد الأسباب الرئيسية في تأخر الأمة. فالقراءة هي مصدر الوعي في المجتمعات وهي نماء للعقول وبناء للثقافات المتنوعة وبها تحصل الرفعة والتقدم والنماء. إن مبدأ القراءة أصبح غائباً اليوم عن أمتنا ، وترى ذلك واضحاً جلياً في بعد الطلبة والشباب عامة ونفورهم من الكتب والمكتبات. إن القراءة نزهةٌ في عقول الرجال ، كما يقول أحد الحكماء ، من هذا المنطلق يشتد القول بأن الأمة لا تعرف ماضيها إلا بحاضر أبنائها ، حيث يبقى التحصيل بالقراءة يفيد في استشراف المستقبل. ومن أعظم ذلك عند المسلم قراءة كلام الله وأحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، والعلوم التي تدل على الله معرفةً ومحبةً وخوفاً ورجاءً ، أما كتب الخلق ففيها الصالح والطالح ، وعلى العاقل أن يميّز بين الغث والسمين ، وأن يستشير أهل العلم والرأي والعقل والخبرة . فالقراءة والتقدم أمران متلازمان باعتبار أن كل أمةٍ تقرأ فهي أمة ترقٍ وتتقدم ، على أن ذلك يبقى رهيناً باختياراتنا وهدفنا. والواقع أن مشكلة العزوف عن القراءة هي مشكلة عالمية ، حتى أن الدول التي كانت شعوبها مدمنة على القراءة مثل الشعب الإنجليزي والشعب الفرنسي تعاني اليوم من هذه المشكلة. وقد نشرت مجلة (لوبوان) وهي من أشهر المجلات الفرنسية تحقيقاً موسعاً عن القراءة تحت عنوان: "أنقذوا القراءة"، حيث تحدّث في هذا التحقيق عدد من كبار المفكرين والباحثين عن أزمة القراءة ومظاهر العزوف عنها ، وقد أوضحوا في تحقيقهم بأن الكتاب يتعرض منذ سنوات لمنافسة قوية وربما غير متكافئة مع وسائل الاتصال المعرفية مثل التلفزيون والفيديو والأنترنت وكل ما يتصل بها من وسائل سمعية وبصرية. وقد أوضح التحقيق بأن شخصاً من كل شخصين في فرنسا يشاهد التلفزيون طيلة ساعات النهار. وأن متوسط ما يخصصه الأمريكي للقراءة يبلغ حوالي 34 دقيقة للصحف و14دقيقة للمجلات ، و23دقيقة فقط للكتب. ولا يخفى على أحد أن الكتب في أمة من الأمم هي مظهر من مظاهرها الحضارية ، بل لعلها أهم تلك المظاهر وأبعدها أثراً على ثقافتها والمقياس الأول لنبضها وحيويتها ، فهي الوعاء الذي يضم ثمرات عقول أبنائها وإبداعات مدعيها في مختلف مناحي الحياة. لذا فمن الطبيعي أن تحتل هذه الكتب المكانة الرائدة في حياة الشعوب والأوطان ، وأن تلعب الدور الأساسي في المسيرة البشرية نحو التمدن السياسي والاجتماعي والتقدم الاقتصادي ؛ وليس من المستغرب أن تسعى الأمم للعناية بها والاهتمام بمصدرها ،

فتنشئ المؤسسات والمعاهد لتطويرها ونشرها وذيوعها ؛ حتى شهد العالم فيضاً منها لا يحصى ولا يعد ، متنوعة في موضوعاتها ، مختلفة في مضامينها ، توسعت بها حقول العلم ، ورحبت مساحة المعرفة ، وتعمقت العلاقة بين القارئ والكتاب ثقافياً ، وبين السلعة المستهلكة والمستهلك تجارياً. وبناء عليه يبقى علاج ظاهرة العزوف عن القراءة ضرورة ملحة في وقتنا الحالي لتدارك الموقف ومسايرة الركب المعرفي والعلمي. وخلاصة القول فإنه متى عرفت أمة للكتاب قدره وحفظت مكانته ، نالت حظها من الرقي والسمو ، واسترجعت حضارتها وازدادت قوة وعمقا ؛ ومتى عزفت عنه واستهترت بقيمته ، كانت الهلكة مآلها والتقهقر والتلاشي مصيرها ، لأن الأمة التي لا تقرأ تحمل في ذاتها بذور النهاية والفناء كما قيل. فنحن الآن مطالبون أكثر من أي وقت مضى ، بدعم الكتاب وتشجيع القراءة خارج الحملات الموسمية والتظاهرات الرسمية ؛ مطالبون بأن نعيد للكتاب مكانته في الحياة العامة ، وأن نربي في الناشئة فعل القراءة. لكن هل جمهور الشباب قابل لاكتساب عادة القراءة ، والامتثال لأوامر الله عز وجل ودعوته للقراءة وهو (اقرأ باسم ربك)؟ ، وليس علينا إعادة اختراع العلاج لأنّه متوفرٌ ومجرّب فهل نبدأ بتناوله؟ لذا ما نأمله أن يحظى موضوع – القراءة – باهتمام وتركيز في مقررات التعليم بدءاً من رياض الأطفال ومروراً بالمسارين الإعدادي والتأهيلي وانتهاء بالجامعة لتصبح القراءة عادة تمارس طوال الوقت والشعوب المتقدمة هي شعوب قارئة).هـ.
روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمرو – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: (إنَّ اللهَ لا ينتزِع العلمَ من الناسِ انتزاعًا. ولكن يقبض العلماءَ فيُرفَعُ العلمُ معهم. ويبقي في الناسِ رُؤوسًا جُهالًا. يفتونهم بغير علمٍ. فيَضلون ويُضلون ". قال عروة: فلما حدَّثتُ عائشةَ – رضي الله عنها - بذلك ، أعظَمتْ ذلك وأنكَرَتْه. قالت: أَحدَّثَك أنه سمع النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول هذا؟ قال عروةُ: حتى إذا كان قابلٌ ، قالت له: إنَّ ابنَ عَمرو قد قدم. فالْقه. ثم فاتِحْه حتى تسألَه عن الحديثِ الذي ذكره لك في العلمِ. قال فلقِيتُه فساءَلته. فذكره لي نحو ما حدَّثني به ، في مرتِه الأولى. قال عروة: فلما أخبرتُها بذلك. قالت: ما أحسبُه إلا قد صدق. أراه لم يَزِدْ فيه شيئًا ولم يَنقُص). وأيضا من صحيح ما قال النبي – صلى الله عليه وسلم – قوله: (من سلَكَ طريقًا يطلبُ فيهِ علمًا سلَك اللَّهُ بِه طريقًا من طرقِ الجنَّةِ وإنَّ الملائِكةَ لتضعُ أجنحتَها رِضًى لطالبِ العلمِ وإنَّ العالِمَ ليستغفرُ لَه مَن في السَّماواتِ ومن في الأرضِ والحيتانُ في جوفِ الماءِ وإنَّ فضلَ العالِمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ وإنَّ الأنبياءَ لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا). وإذا كان ذلك كذلك فعلى العلماء أن يكتبوا ، وعلى طلاب العلم أن يقرأوا! عملاً بمبدأ: (اقرأ)!)

92 - التكلفُ يضيعُ معه الحق!

(إن الذي يقضي بين اثنين يجب أن يكون محايداً في القضاء وموضوعياً في الحكم. لا يتكلف لأحد منهما على حساب الآخر ، وإلا ضاع الحق! ومن هنا يأتي التوفيق والإصلاح. بينما إذا جومل أحد المتخاصمين المتنازعين المتشاكسين على حساب صاحبه ، لم يكن هناك توفيق ولا إصلاح. وهذا الأمر مجرّب بالحجة والبرهان من واقع الحياة! وكثيرون هؤلاء الذين يقعون في هذا المزلق! يريدون الإصلاح ظاهرياً ، ولكن من الناحية العملية لبعضهم ميلٌ إلى أحد الأطراف ، ومن هنا لا يأتي الإصلاح ، لأنه لا حيدة ولا موضوعية منذ البداية!)

93 ـ التلوّن أخو النفاق من الرضاعة!

(كان يلبّس لكل شخص لباساً ويَحبكُ الدَوْر ويأكل على كل طاولة ويرقص على كل طبلة حتى سقط القناع فاحتقره الكل! وتحت عنوان: (النفاق والمنافقون) يقول الأستاذ أحمد بن حسين الفقيهي ما نصه: (لقد ظهرت فئة المنافقين في المدينة على عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم فتكاثر عددها وتناسل أبنائها ، وامتد نسلهم لا كثرهم الله إلى زماننا هذا ، فرأينا أحفادهم في زماننا لا يختلفون في مظهرهم عنا ، وهذا مكمن المصيبة فهم وللأسف من بني جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا ، وينتسبون لديننا ، وينتمون لأوطاننا. والحديث عن النفاق والمنافقين سواءً في السابق أو في اللاحق ، حديث يبدأ ولا ينتهي ، فقد جاء الحديث عنهم في أكثر من نصف سور القرآن المدنية ، إذ ورد ذكرهم في سبع عشرة سورة مدنية من ثلاثين سورة ، واستغرق الحديث عنهم ما يقرب من ثلاثمائة وأربعين آية من كتاب الله العزيز ، حتى قال ابن القيم رحمه الله: كاد القرآن أن يكون كلّهُ في شأنهم. لقد صدَّر ربكم سبحانه أطول سورة مدنية في القرآن – سورة البقرة ـ بذكر صفات المنافقين والتحذير من خطرهم ، فذكر سبحانه في المؤمنين أربع آيات ، وفي الكفار آيتين ، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية وذلك لكثرتهم ، وعموم الابتلاء بهم ، وشدة فتنتهم وبليتهم على الإسلام وأهله ، فهم كما يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: منسوبون إليه – أي الإسلام ـ وهم أعداؤه على الحقيقة ، يخرجون عداوته في كل قالب حتى ليظن الجاهل أنهم على علم وإصلاح ، فيا لله كم من معقل للإسلام هدموه ، وكم من حصن قد قلعوا أساسه وخربوه ، وكم من علم قد طمسوه ، وكم من لواء مرفوع وضعوه ، وكم ضربوا بمعاول الشبَه في أصول غراسهِ ليقلعوها ، فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية! ولا يزال يطرقه من شبههم سريةٌ بعد سرية ، ويزعمون بذلك أنهم مصلحون: {أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ}. اليهود أعداؤنا ، والنصارى أعداؤنا ، والرافضة أعداؤنا ، ومع عداوة هؤلاء وكيدهم لنا إلا أن المولى سبحانه حصر العداوة في المنافقين في قوله تعالى سبحانه: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ}. وذلك لإثبات الأولوية والأحقية للمنافقين بهذا الوصف ، ولا يُراد منه كما يقول ابن القيم رحمه الله: (لا يراد منه أنه لا عدو من الكافرين سواهم ، بل المعنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدواً من الكافرين المجاهرين بكفرهم ، فإن الحرب مع أولئك ساعة أو أيام ثم تنقضي ويعقبها النصر والظفر ، وهؤلاء – يعني المنافقين – معكم في الديار والمنازل صباحاً ومساءاً ، يدلون العدو على العورات ، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر ، ولا يمكن بل يصعب مناجزتهم).هـ. فلنحذر النفاق والمنافقين والتلون والمتلونين! وفي محاضرة عنوانها: (النفاق ضد الإيمان) للأستاذ الفاضل الدكتور عبد الرحيم الطحان يقول ما نصه: (النفاق هو أول الصفات الخبيثة التي إذا اتصف الإنسان بها يُخشى عليه سوء الخاتمة ـ فإنه ضد الإيمان ، والإيمان هو التصديق ، يعني: أن تصدق الله في جميع أحوالك ؛ في نيتك وفي جنانك ، في مقالك وفي لسانك ، في أعمالك وفي أفعالك ، فإذا تغيرت عن هذا ففيك صفة من صفات المنافقين ، وأمرك إلى رب العالمين. يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (الإيمان بضع وسبعون شعبة ؛ أعلاها: قول لا إله إلا الله ، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان). وهذه الشعب تتعلق بالجنان واللسان ، والعمل بالجوارح والأركان ، وهذا هو تعريف الإيمان ، فهل حققت ذلك على وجه الكمال والتمام؟ إن كنت كذلك فأنت مؤمن ، وإلا ففيك خصلة من خصال المنافقين ، فكيف سيكون حالك عند الاحتضار وحضور الشياطين؟ نسأل الله حسن الخاتمة بمنه ورحمته ، إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين. نعم! إن النفاق

يضاد الإيمان ، وحقيقة النفاق كما قرر أئمتنا الكرام: اختلاف السر والإعلان ؛ اختلاف سرك عن علنك ، وتغاير واختلاف القول عن الفعل والعكس ، وتضاد المدخل والمخرج ، أمام الناس بصورة لكن إذا خلوت مع ربك جل وعلا في بيتك أو في غيره فأنت في صورة أخرى ، هذه هي حقيقة النفاق ، ولذلك قال العبد الصالح يزيد بن الحارث: من استوى سره وعلنه فذلك النصف! أي: هذا قام بالعدل وهو منصف ، وإذا كان السر خيراً من العلن فهذا هو الفضل ، وإذا كان العلن خيراً من السر فهذا هو الظلم والجور. فتأمل حالك ، هل استوت سريرتك وعلانيتك؟ إذاً فأنت الآن منصف عادل أم هل كانت سريرتك خيراً من علانيتك؟ فأنت إذاً على خير عظيم ، أم أن علانيتك خير من سريرتك؟ فأنت بلا شك إذاً من المنافقين ، فانتبه على نفسك! والإنسان على نفسه بصيرة).هـ. ومن هنا كان التلون أخا النفاق من الرضاعة! فإلى منافق - ظل يتلون ويخدعني كثيراً ، إلى أن ظهرت حقيقته وحصحص الحق في شأنه!)

94 - التمجيد والتكريم

(لقد فسر الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين قول الله تعالى: (الحمد لله رب العالمين) بقوله: (قوله تعالى: {الحمد لله رب العالمين}: {الحمد} وصف المحمود بالكمال مع المحبة ، والتعظيم ؛ والكمال الذاتي ، والوصفي ، والفعلي ؛ فهو كامل في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ؛ ولا بد من قيد وهو "المحبة ، والتعظيم" ؛ قال أهل العلم: "لأن مجرد وصفه بالكمال بدون محبة ، ولا تعظيم: لا يسمى حمداً ؛ وإنما يسمى مدحاً" ؛ ولهذا يقع من إنسان لا يحب الممدوح ؛ لكنه يريد أن ينال منه شيئاً ؛ تجد بعض الشعراء يقف أمام الأمراء ، ثم يأتي لهم بأوصاف عظيمة لا محبة فيهم ؛ ولكن محبة في المال الذي يعطونه ، أو خوفاً منهم ؛ ولكن حمدنا لربنا عزّ وجلّ حمدَ محبةٍ ، وتعظيمٍ ؛ فلذلك صار لا بد من القيد في الحمد أنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة ، والتعظيم ؛ و "أل" في {الحمد} للاستغراق: أي استغراق جميع المحامد. وقوله تعالى: {لله}: اللام للاختصاص ، والاستحقاق ؛ و "الله" اسم ربنا عزّ وجلّ ؛ لا يسمى به غيره ومعناه: المألوه. أي المعبود حباً ، وتعظيماً. وقوله تعالى: {رب العالمين}؛ "الرب": هو من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق ، والملك ، والتدبير ؛ فهو الخالق المالك لكل شيء المدبر لجميع الأمور؛ و{العالمين}: قال العلماء: كل ما سوى الله فهو من العالَم؛ وُصفوا بذلك ؛ لأنهم عَلَم على خالقهم سبحانه وتعالى ؛ ففي كل شيء من المخلوقات آية تدل على الخالق: على قدرته ، وحكمته ، ورحمته ، وعزته ، وغير ذلك من معاني ربوبيته).هـ.

95 - التميز طريق النصر

(لما تميزت المدرسة الوطنية وتفوقت بين المدارس ، ونالت الاعتماد الأكاديمي وبعده التميز التربوي ، تحركت قشعريرة الشعر في قلبي ، ووجدتني أتأمل التميز ، فوجدته في كل شيء! والحقيقة أن الذي ينظر فيما خصّنا الله به يجدنا قد تميزنا عن الناس من حولنا في أمور كثيرة تجعلنا في الصدارة! وهذا من فضل الله علينا. فنحن ننتسب إلى أمة متميزة هي أمة الإسلام. وندين بدين متميز لا يقبل الله سواه هو دين الإسلام. ونقتدي ونتأسى بنبي عظيم

الجناب هو رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم -. ونتبع منهجاً وسطاً متميزاً ليس فيه إفراط ولا تفريط. ونتخلق بأخلاق متميزة. والتعليم في مدرستنا متميز ، فقد خصّت بصفوة متميزة من المعلمين والمعلمات. والتربية في مدرستنا تغلب جانب القيم ، فليس عندنا ما تعجّ به المدارس الأخرى من حولنا من الأمراض والأوبئة السلوكية والفكرية! كما وأن المدرسة قد حققت نجاحات كثيرة في مجالات عديدة: في اليولة كنشاط تراثي وفي أوليمبياد العلوم وحفظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وقطار المعرفة والخطابة والقصة القصيرة وغير ذلك الكثير مما لا يحضرني ذكره. وتحت عنوان: (حرب النجاح) يقول الأستاذ عبد الله بن سُليمان العُتَيِّق: مبيناً أن "ثقافة الفوز أن تنظر إلى القوة لا الضعف" ، ويضيف ما نصه: (الإنسان يَطمح للغلَبة والانتصار على الآخرين في أيِّ مجالٍ في حياته ، فلا يرضى أن يكون غيره أعلى منه ، كما أنه لا يُحب أن يغلبه أحد في ساحاتِ العِراك والتصارع التنافسي نحو الأعلى والأسمى في الحياة. لذا كان الأهم لديه أن يكون متأهِّباً لكلِّ حالةٍ يكون فيها صراعٌ وتنافس نحوَ الكمال ، ولا يكون متأهباً ما لم يكن ناظراً بدقَّةٍ في مكامن قوته وأسلحة المعركة ، فالحياةُ ليست إلا سلاحاً ، والنجاح له أسلحةٌ كثيرة ، وقيمة السلاح في قوته وجودته ، وإن لم يكن كذلك فليسَ إلا اسماً مُعاراً يجلبُ عاراً. وإذن فسلاحُ النجاح هي القوةُ المختزنة لدى الإنسان ، وهي الذاتيَّة العظيمة التي تجعله يسيرُ في طلب الشيءِ بيقين البلوغِ والتحصيل له ، وهي أشياءُ لها حقيقتها وأثرها في واقع حياته ، وإن لم يكن لها أثر في واقعه فليست إلا أوهامٌ والـ "وهم سيبتره النسيان يوماً" ، ولا تبقى إلا الحقائق ، كما أنه لا يصح إلا الصحيح. والبحثُ عن تلك الأشياء التي هي أسلحةُ السعي للنجاح خطوةٌ أولى وهي من الأهمية بمكانٍ ، فيبحثُ عن نقاط قوته في كلِّ شيءٍ ، فيتلمَّس ذات أنحاءِ عالَمه ليحصل عليها ، وبقدر البحثِ يكون البعثُ ، فإن أكثرَ البحثَ والتنقيبَ وجدَ كثيراً ، وإن قلَّل البحث قلَّ الموجود. محالٌ القوة عند الإنسانِ مُوزَّعَةٌ في كيانه كلِّه ، ولكلِ جزءٍ منه شيءٌ من القوة ، فلديه في: العقلِ كثيرٌ من صور القوة والعقلُ أقوى قوة يمتلكها الإنسانُ ، حتى لو فقد بقيَّة الكيان القائم به الجسم ، ففيه التفكيرُ والتدبير والإدارة والقيادة والتأمُّلُ والتخيُّلُ ، وأشياءَ لا تنتهي حصراً لعجزه وقِصَرِ نظره ، وقوةُ العقلِ في المعارفِ التي يحتويها ، والمعرفة قوةٌ بذاتها. ولديه الجسَدُ ، فكلُّه قوةٌ مُوزَّعَة ، وكل جزء منه قوة بنفسه ، ولو دقَّقَ نظرَهُ في أجزاء جسده ، وخاصة حواسه الخمس لأدرك أسراراً خافيةً عنه تمتلك قوة تسحَر ، ولكن أخفاها التغافلُ والتجاهُل. ولديه العاطفةُ ، فهي قوةٌ متى اسْتُقْوِيَتْ واستُثِيْرَت ، أقلُّ أحوالها أنها إذا تحرَّكتْ حرَّكَت العقلَ فتحرّك له الجسدُ. إنَّ القوى تلك التي يملكها الإنسان هي التي يجب أن يكون نظرُه عليها ، نظرَ المفتخر بها ، المعتمد عليها ، المتمثِّل بها شهادةً زمنيةً حياتية ، وتلك القوى لا ينظر إليها إلا من ارتقى سماءَ النجاح ، ولا يَمدح الإنسانَ بها إلا من حصلَ عليها ولقيَ أثرها ، وأما من انحطَّ إلى حضيضِ الفشلِ فإنه يبحثُ في الضعفِ ويُهمل القوة. متى التفت الإنسان في ساحة حربِ النجاح إلى خللِ سلاحه فقد استلفتَ انتباه المنافسِ فأتاه من تلك ، ولو ضعُفَ سلاح الإنسان استبدله بآخرَ ، فالاحتياط في حرب الحياة كالأساسِ).هـ. وأشكر للكاتب هذه الفيوضات الغالية! وإذن فهو دَينٌ علي ككاتب وشاعر وناقد للمدرسة الوطنية أرده بكل فخر! وأعرف أن هذه الآراء وتلك القصص وهاتيكم الأشعار ستكون أطول عمراً من كاتبها! كما كانت أشعار شوقي أطول عمراً منه! وذلك لتحكي قصصي وأشعاري للأجيال القادمة ما كنت عليه من وفاء لذويّ وإن كرهوا ولأصدقائي وإن تغيروا عليّ ، ولمدرستي وإن قلتني!)

96 - التنور

(إن التنور الذي أعني هو تنور العقوبات المريرة التي يفرضها الغرب الصليبي الحاقد على المسلمين ، متبعاً قوي الشر التي تغرس موته الوشيك القريب في الأرض. والحق أن الذي يدفع الثمن الحالي هم المسلمون وحدهم. وأما الذي سيدفع ثمن اعتدائه فهو الغرب ومن يحركه ويستنوقه. عسي الله أن يكون ذلك قريباً. أقول: لقد اصطلي المسلمون من قبل في تنور التتار ، وفي تنور المغول ، وفي تنور الفرس ، وفي تنور الروم الغاصبين ، وفي تنور الصليبيين ، وفي تنور الشيوعيين ، وفي تنور الرأسماليين ، وفي تنور الاستعماريين من شتي بقاع الأرض ، من شذاذ الآفاق ، من الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة أينما حلوا ، من أحفاد القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، من الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء ، وقالوا: يد الله مغلولة. إن دماء أهل الإيمان لن تضيع هدراً ولن تذهب سُدي مهما طال الزمن. لأنه ما من يوم يمر إلا ودماءُ التوحيد تُراق يَمنة ويَسرة ، وما من لحظة تمر إلا وأشلاء العقيدة تتناثر في السهل والوعر ، وما ذاك إلا بسبب الحقد الصليبي المشرك المتعطش لدماء أهل التوحيد والعقيدة. ونعتب على قوم يدعون الإسلام ثم هم يشاركون الغرب في عدوانه على أهل الحق. ولا يمكن أن تطول المعركة بين الحق والباطل إلى ما لا نهاية. في مقال له عن الذي ينبغي أن يعمله الظالم ، يقول الأستاذ محمد المنجد ما نصه: (إنه ينبغي على الظالم أولاً أن يتقي الله تعالى ويحذر من الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، وليس ظلمةً واحدة. الظلم ظلمات يوم القيامة ؛ بمعصية الظالم لربه ، وظلمه لأخيه ، وفتح باب الظلم للناس. الظلم ظلمات لأنه ربما يمرض المظلوم ؛ بل قد يموت كمداً وقهراً. فعلى الظالم أن يتقي الله تعالى. انظروا ماذا كان يفعل عمر رضي الله عنه الذي حمى أرضاً للمسلمين من أراضي أهل المدينة ؛ سوَّرها وحماها ، وجعلها محمية لأجل مصلحة المسلمين لرعي إبل الصدقة وإبل بيت المال وشياه بيت المال التي تُؤخذ من أصحاب بهيمة الأنعام من الزكوات ، وكذلك خيل الجهاد في سبيل الله ، وجعل هذه المحمية مصلحة لعموم المسلمين ، ومع ذلك كان يخشى رضي الله عنه ، فقد روى البخاري رحمه الله عن أسلم مولى عمر: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل مولى له يُدعى هنياً على الحمى فقال: [يا هني! اضمم جناحك عن المسلمين - انتبه أيها الغلام القائم على المحمية واكفف يدك عن ظلم المسلمين - واتقِ دعوة المظلوم فإن دعوة المظلوم مستجابة ، وأدخل رب الصريمة ورب الغنيمة -أي صاحب القطعة القليلة من الإبل وصاحب الغنم القليلة أدخلهما في المرعى المحمي - وإياي ونعم ابن عوف ونعم ابن عفان - خصهما بالذكر لكثرة أموالهما ، والنعم الإبل ، وكانا من مياسير الصحابة ، فقال للغلام: إذا لم يتسع المرعى إلا لأحد الفريقين فأدخل أصحاب الغنم القليلة والإبل القليلة لأنهم أولى - قال عمر: فإنهما - أي: ابن عفان وابن عوف - إن تهلك ماشيتهما يرجعا إلى نخلٍ وزرع - عندهما عوض من أموالٍ أخرى - وإن رب الصريمة ورب الغنيمة إن تهلك ماشيتهما يأتيني ببنيه ، فيقول: يا أمير المؤمنين يا أمير المؤمنين ؛ أفتاركهم أنا لا أبا لك - أتظنني أتركه في تلك الحالة - فالماء والكلأ أيسر عليّ من الذهب والورق - فربما يكون هناك مصارف أولى للمجاهدين والبعيدين ونحو ذلك. قال عمر: فالماء والكلأ أيسر علي من الذهب والورق ، وايم الله إنهم ليرون أني قد ظلمتهم - بعض الناس يرون أني قد ظلمتهم بأرض المحمية - إنها لبلادهم ؛ قاتلوا عليها في الجاهلية ، وأسلموا عليها في الإسلام ، والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله - فهو يحتاج إلى أرض المحمية لخيل الجهاد - ما حميت عليهم من بلادهم شبراً] رواه البخاري. فليتق الظالم ربه وليضع نصب

عينيه دعوة المظلوم ؛ فإن النبي عليه السلام أوصى معاذاً فقال: (اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب). رواه البخاري.).هـ. وإذن فلا بد من اجتناب الظلم بكل صوره لنسلم من دعاء المظلوم لأن دعاءه ليس بينه وبين الله تعالى حجاب ، وقد وعده الله بالاستجابة ولو بعد حين! ولا يفرح قوم أملاهم الله تعالى فإنه ولا بد منتصر لمن ظلموهم ونالوا منهم وهضموا حقوقهم! لأن لهم مع الله المنتقم الجبار موعداً! ونسأل الله تعالى أن ينتصر لدينه وأوليائه من الذين ظلموهم ونالوا منهم بغير حق!)

97 - التوبة المزعومة

(أحد العابثين المستهزئين يسعى في خراب بيت أخيه ، ويفعل الأفاعيل ليتم له مراده الأثيم ، فلما تم له ذلك راح يتعلل ، ويختلق المعاذير ، ويدعى التوبة على هواه: (فلا رد للمظالم ، ولا إعادة للحقوق التي ضاعت بفعلته). وما أشبهه بإخوة يوسف عليه السلام إذ قالوا - قبل توبتهم -: (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين). وما أشبهه بالفاسقين الذين يطلق عليهم (النجوم) في زماننا: يرقص الواحد منهم ويغني ، وهي أيضاً ترقص وتغنى وتسكر وتفحش وتدعر العامَ كله ، حتى إذا جاء رمضان صام أو صامت لتطهير الذنوب! وقد تعمد أو يعمد إلى الحج والعمرة كذلك لتطهير الذنوب. (أهو خداع الناس؟) ربما! والناس سوف تصدق إلا أهل الإيمان والتوحيد ، فهؤلاء لا يخدعون. وإن كان خداعاً لله عز وجل (يخادعون الله وهو خادعهم). فالله لا يخدع ولا تنطلي عليه حيل العابثين. وإنني أقول لهذا العابث: إن الله الذي حرّم عِرض المسلم وماله ودمه بغير حق هو – عز وجل - الذي شرع التوبة لعباده المذنبين. فمن أراد أن يتوب فليكن ذلك منه ، على مراد الله وشرعه ، ووفق كتاب وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم -. وإلا يكن ذلك كذلك فلا توبة هناك ولا تائبين. وادعاء التوبة شيء ، والتوبة النصوح شيء آخر. ومن علامات قبول التوبة انشراح الخاطر بها ، وذلك بعد رد المظالم التي إن لم تكن تؤدى في الدنيا فإنها سوف تؤدى يوم القيامة ، ذلك اليوم الذي لا درهم فيه ولا دينار. كلما تكلم إلى جلسائه قال: أذنبت ذنباً عظيماً ، وإن ضميري يؤنبني ، ولا أكاد أنام من تذكري هذا الجرم وذلك الزلل. وأرسل رسله للمظلوم الذي طعنه في عقيدته وأهله ورفاقه وسلوكه ، دون أدنى مثقال حبة خردل من حق له في الذي فعل. وجاءت الرسل رسولاً تلو الآخر للإصلاح بينهما ، وكم كانوا خيّرين وسمْحين وطيبين! ودارت مناقشات أثبت عبرها الثاني (المظلوم) براءته كالشمس في رابعة النهار وكالبدر ليلة تمامه ، وعادوا إلى الأول (الجاني) فاعترف ثم أخذته عزته بالإثم ، وغره حلم المنتقم الجبار القهار العزيز القوى عليه. وصبر المظلوم في الانتقام وتأييد الناس عقلائهم وسفهائهم له رغم وضوح ظلمه – أخذه الكبر ، وقال: إنني كنت أجتهد ولم أذنب فيما فعلت. فوقع في تناقض عميق تغرق فيه الأمم ، وأصر المظلوم على شروطه التي منها: رد المظلمة المعنوية وكذا المادية ، ثم أن لا يترتب على الصلح هذا أي صلاحيات ، ريثما يندم الجاني على جنايته ، ويبلي في الصحبة بلاء حسناً ، مثلما أبلى في الوقيعة. فقال الجاني: لن أفعل ، فرد المجني عليه قائلاً: موعدنا يوم القيامة ، والحُكم لله العلي الكبير. يصف الأستاذ سعد العثمان الظلم بقوله: (لا شكَّ أنَّ الظُّلم مرتعه وخيم ، والظُّلم من أقبح المعاصي وأشدِّها عقوبة ، وقد حرَّم الله جلَّ جلاله الظُّلم في كتابه الكريم ، وعلى لسان نبيِّه الأمين صلَّى الله عليه وسلَّم. ومن يستعرض القرآن

الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة يقف على مئات الآيات والأحاديث التي تحدَّثت عن الظُّلم والظَّالمين ، وتوعدت الظَّلمة ولعنتهم لعناً كبيراً ، والظَّالم الذكي الحصيف ، من يسارع بطلب العفو والمغفرة والمسامحة ممن ظلمهم ، قبل فوات الأوان ، والعضِّ على الأنامل والشِّفاه ، فما يزال في الدُّنيا حيٌّ يرزق ، ومن ظلمه قريب منه ، يمكنه الوصول إليه بكلِّ سهولة ، ولا يكلِّفه الأمر عنت ولا مشقَّة ، فقط قليلاً من التَّنازل عن الكبرياء والعظمة ، وقليلاً من التواضع والأناة والرحمة ، والمستفيد الحقيقيُّ هو الظَّالم نفسه ، لو فقِه وفهِم وعلِم.) هـ. سطرت هذي القصيدة أرثي فيها الحق وأهله. وأيضا لأبرهن على أن ذلك المظلوم لم يحُل بين الجاني والتوبة كما يدعي! ومن ذا الذي يستطيع أن يحول بين عبيد الله والتوبة؟ ولكنه اللجاج والمماحكة المكشوفة ، لكي يتوب الجاني أو يزعم لنفسه أنه يتوب - إن صح التعبير - بالثمن البخس. الأمر الذي ترفضه الشريعة ، لأنه مادام زيد قد تسبب في خسارة عمرو بآلاف خمسة من الدراهم مثلاً فعليه إن أراد أن يتوب إلى الله بأن يرد الآلاف الخمسة التي كان هو سبباً مباشراً في تغريمها لعمرو دون وجه حق. نحن لا نتدخل بين الله وبين عباده ، إن شاء الله غفر وإن شاء أخذ بالذنب ، هذا شأن الله مع خلقه. ولكننا نتكلم عن الشق الآخر الذي يخص العباد (رد المظالم). وهذا لا علاقة له بالشق الأول الذي هو محض حق الله تعالى. إن الله يتسامح معه فيما هو من شأنه تبارك وتعالى ، وأما ما كان من شأن العباد من الحقوق ، فإنه لا يتسامح فيها بل يأمره بأن يرد المظالم لأصحابها. وما هو – يومها – إن أراد ذلك بمستطيع! فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: (من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء ، فليتحلله منه اليوم ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه.) رواه البخاري. وعن عبد الله بن عمرو ، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه). متفق عليه. والذكي العبقري من تاب وأناب ورد المظالم لأصحابها من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله! والغبي العاجز المخذول المهزوم من ضحك على نفسه وأوهم ذاته أنه كان يجتهد فأخطأ ولا شيء عليه!)

98 - زيد بن سعنة – رضي الله عنه -!

زيد بن سعنة رضي الله عنه أحد أحبار اليهود الذي أعتنق الإسلام: يحكي زيد فيقول: لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنين لم أخبرهما منه: - يسبق حلمه غضبه! – ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً. فكنت أتلطف له لأن أخالطه وأعرف حلمه وجهله ، فخرج رسول الله صلي الله عليه وسلم يوماً من الأيام من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب ، فأتاه رجل علي راحلته كالبدوي فقال: يا رسول الله ، إن قرية بني فلان قد أسلموا وقد أصابتهم سنة وشدة ، فإن رأيت أنه ترسل إليهم بشيء تصيبهم به فعلت. فلم يكن معه شيء! قال زيد فدنوت منه فقلت: يا محمد ، إن رأيت تبيعني تمراً معلوماً من حائط بني فلان إلي أجل كذا وكذا. فقال: لا يا أخا اليهود ، ولكن أبيعك تمراً معلوماً إلي أجل كذا وكذا ولا أسمي حائط بني فلان. فقلت: نعم. فبايعني وأعطيته ثمانين ديناراً ، فأعطاها الرجل. قال زيد: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاث خرج الرسول صلي الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصاري ومعه أبو بكر وعمر وعثمان في نفر من أصحابه رضي الله عنهم أجمعين ،

فلما صلي علي الجنازة أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ ثم قلت: ألا تعطيني يا محمد حقي؟! فوالله ما علمتكم يا بني عبدالمطلب لسيء القضاء مطل! فنظرت إلي عمر وعيناه تدوران في وجهه ثم قال: أي عدو الله ، أتقول لرسول الله ما أسمع ، فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فوته لضربت سيفي برأسك! ورسول الله ينظر إلي عمر في سكوت وتبسم ثم قال: يا عمر ، أنا وهو إلي غير هذا منك أحوج ، أن تأمره بحسن الاقتضاء وتأمرني بحسن القضاء! اذهب يا عمر فاقضه حقه و زده عشرين صاعاً مكان ما روعته! قال زيد: فذهب بي عمر فقضاني وزادني ، فأسلمت. لقد أسلم زيد تصديقاً بالخلق العظيم للنبي الأمي فقد مر بتجربة عملية واستقراء لملامح الشخصية واحتكاك مباشر بصاحب الدعوة حتي تتجلي الصورة واضحة بلا خفاء ، فإن المعاملة هي محك الخلق.)

99 ـ سلمان الفارسي

في صحيح البخاري ، عن سلمان الفارسي: أنه تداوله بضعة عشر من رب إلي رب. وتفيض كتب السيرة بقصة إسلام ذلك الصحابي الباحث عن الحق (راجع الروض الأنف -1-247 والسيرة الحلبية -1-303- والسيرة النبوية لابن كثير -1-296) وفي صحيح البخاري أنه من رامهرمز وفي رواية: ولدت برامهرمز وبها نشأت وأما أبي فمن أصبهان. وكان أبوه مجوسياً له في المجوسية قدم حتي صار دهقان قريته أي كبير أهل القرية. وجعل ابنه يجتهد في المجوسية حتي كان قطن النار أي الخادم الذي يقودها(بفتح القاف وكسر الطاء). وذات يوم أرسله والده إلي ضيعة له يتولى شؤونها فمر بكنيسة وسمع أصوات المصلين بها فأعجبته صلاتهم وقال: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه. ثم عاد إلي أبيه عشاء دون أن يعمل شيئاً في الضيعة وقص عليه ما حدث ، فخاف الرجل علي ولده أن يترك دين أبائه فجعل في رجله قيداً وحبسه في بيته. لكن العقل الباحث عن الحقيقة يرفض القيد حسياً كان أو معنوياً ويتحين الفرص ، ويذهب مع وفد من أهل الشام يسأل عن أفضل أهل هذا الدين علماً. فدلوه علي أسقف في كنيسة ، فجاءه يتعلم منه ويصلي معه ، ويشاء الله أن يكون هذا الأسقف ممن أشار إليهم القرآن الكريم في قوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ". يقول سلمان: (فدخلت معه ، فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا له شيئاً كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين ، حتي جمع سبع قلا ذهب وورق ، وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع). ويموت هذا الراهب ، ويخلفه آخر علي النقيض منه ، زاهداً في الدنيا ، راغباً في الآخرة ، دائباً في العبادة ، ويظل معه سلمان ويحبه حباً شديداً ، ويقيم معه زماناً حتي تحضره الوفاة ، فاستشاره سلمان بمن يلحق بعده ، فأوصي به إلي رجل من "نصيبين". ذهب سلمان إلي "نصيبين" فوجد صاحبه خير رجل ، وما لبث أن نزل به الموت فأوصي به إلي رجل بـ"عمورية" من أرض الروم ، وأقام عنده سلمان ، واستقر به المقام ، واكتسب بقرات وغنماً يرعي بها. ومرة أخري نزل بالرجل أمر الله ، فسأله سلمان: إلي من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال صاحب "عمورية": أي بني ، والله ما أعلم أصبح أحد علي مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مهاجراً إلي أرض بين حَرّتين ، بينهما نخل ، به علامات

لا تخفي ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة. فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل! ومات الرجل ، ومكث سلمان بعمورية ما شاء الله أن يمكث ، ثم مر به نفر من تجار العرب فقال لهم: احملوني إلي أرض العرب ، وأعطيكم بقراتي هذه وغنمي هذه. وحمله التجار حتي إذا بلغوا وادي القري (وهو مكان قريب من المدينة) ، ظلموه فباعوه عبداً لرجل يهودي ، ويشاء الله أن يأتي ابن عم لهذا اليهودي من بني قريظة فيبتاع سلمان منه ويحمله إلي يثرب. يقول سلمان: "فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي لها ، فأقمت بها ، وبُعث رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فأقام بمكة ما أقام ولا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق ، ثم هاجر إلي المدينة. فوالله إني لفي رأس عذق (النخلة) لسيدي أعمل فيه بعض العمل ، وسيدي جالس تحتي ، إذ أقبل ابن عم له حتي وقف عليه وقال: يا فلان ، قاتل الله بني قيلة (الأنصار نسبة إلي أمهم قيلة بنت كاهل) ، والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء علي رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي! فلما سمعتها أخذتني الرعدة حتي ظننت أني ساقط علي سيدي ، فنزلت عن النخلة ، فجعلت أقول لابن عمه: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة ثم قال: ما لك ولهذا؟! أقبل علي عملك." وهنا تبدأ مرحلة تحقيق وتثبت في حياة سلمان الدينية ، ويراوده الأمل في قرب الوصول ويحاول أن يستكشف الوصايا الثلاث التي حملها عن أسقف عمورية. يقول سلمان: "وقد كان عندي شيء قد جمعته ، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو بقباء ، فدخلت عليه فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب غرباء ذوو حاجة ، وهذا شيء كان عندي للصدقة ، فرأيتكم أحق به من غيركم. فقربته إليه. فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم لأصحابه: كلوا ، وأمسك يده فلم يأكل. فقلت في نفسي هذه واحدة! ثم انصرفتُ عنه فجمعت شيئاً ، وتحول رسول الله صلي الله عليه وسلم إلي المدينة ، ثم جئته فقلت له ، إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية أكرمتك بها. فأكل رسول الله صلي الله عليه وسلم منها وأمر أصحابه فأكلوا معه. فقلت في نفسي: هاتان ثنتان! ثم جئت رسول الله صلي الله عليه وسلم ببقيع الغرقد ، وقد تبع جنازة رجل من أصحابه ، وعليه شملتان ، وهو جالس في أصحابه ، فسلمت عليه ثم استدبرته أنظر إلي ظهره ، هل أري الخاتم الذي وصف لي صاحبي؟! (ذكر السهيلي مجموعة روايات في خاتم النبوة منها أنه كان كأثر المِحْجمة يعني أثر المحجم القابضة علي اللحم حتي يكون ناتناً! وفي الخبر أنه كان حوله خيلان فيها شعرات سود ، وقيل كالتفاحة أو بيضة الحمامة أو ركبة العنزة. ويقع الخاتم بين كتفي النبي صلي الله عليه وسلم عند أعلي منقطع الغضروف في الكتف – الروض الأنف 1-206). فلما رآني رسول الله صلي الله عليه وسلم استدبرته عرف أن استثبت في شيء وُصف لي ، فألقي رداءه عن ظهره ، فنظرت إلي الخاتم فعرفته ، فأكببت عليه أقبله وأبكي. فقال لي رسول الله صلي الله عليه وسلم: تحول. فتحولت بين يديه فقصصت عليه حديثي." شغل سلمان الرق حتي فاته مع الرسول الكريم بدر وأحد. ما الحل إذن؟ كيف يتخلص من الرق ، ويخلص للإسلام ، ويصفو قلبه من هموم الحياة المادية. أشار عليه النبي صلي الله عليه وسلم أن يكاتب سيده ، فكاتبه علي ثلاثمائة نخلة يغرسها له وأربعين أوقية من ذهب. وشارك المسلمون في أداء هذا الدين عن سلمان ، فأحضروا له النخل وحفروا معه أماكنها ، وقدم رسول الله صلي الله عليه وسلم ووضعه بيده الشريفة وعُتق سلمان. وكانت أول مشاهده غزوة الأحزاب ، وأشار علي المسلمين بحفر الخندق حول المدينة ، وحين قسم الرسول حفر الخندق بين الصحابة والأنصار قال الأنصار: سلمان منا وقال المهاجرون: سلمان منا. فقال عليه الصلاة والسلام: سلمان منا أهل البيت!)

100 - التوبة التوبة يا أبتاه!

(إن للوالد على ولده حقوقاً. ومن أهمها على الإطلاق حق إسداء النصيحة ومحاولة وعظه رجاء أن يهتدي ويتوب إلى الله تعالى. لقد اعتاد ذلك الكاتب الدنيء على كتابة الروايات القبيحة الفجة الماجنة الساقطة. فكان رأساً من رؤوس العفن الفني. وكان من إرادة الله تعالى أن يَخرج من صلبه كاتب إسلامي عبقري فذ. فراح يناشد أباه التوبة قبل الندم. وأنشأ يُلح على أبيه ، والأب سادرٌ في الغي منصرفٌ عن الحق إلى اللهو والمُجون والفجور. إن التوبة إلى الله عز وجل من الذنوب ليست نافلة بعد هي فريضة وواجبٌ إذا كان هناك قلب سليم نقيٌ تقي. تقول الأستاذة الفاضلة دعاء الدغيم عن شروط قبول التوبة ما نصه: (* أن يخلصَ العبدُ في توبتِه: فيكون الدافع لها أُخرويّاً لا دنيويّاً ، ويبتغي العبد بها رضا الله تعالى وثوابه ويخاف من عقابِه ، لا أن يتوبَ من أجل شخصٍ ما أو غرض دنيويّ يبتغيه في نفسه. * أن يعترفَ بذنبه: لا يمكنُ أن تكونَ التوبة صحيحة من أمر لا يَعُدُّه التائبُ ذنباً ، إنّما على العبدِ أن يُقِرَّ أنّه أذنب. * أن يندم على ذنبِه الذي اقترفه ويتمنّى لو أنّه لم يفعلْه: إذا لا يمكن أن تُقبَل التوبة من شخص يتباهى بذنبِه ويتحدّثُ به للناس. * أن يُقلعَ عن الذنب الذي تاب منه: فلا تصحُّ التوبة مع الإقامة على المعصية وعدم تركها. أن يعزم على عدم العودة إلى ذنبه: هذه نقطة حسّاسة ويجبُ الحذر منها ، فإن ترك العبد ذنباً اليوم وينوي الرجوع إليه غداً أو في أي زمنٍ كان ، فلْيعلم أنّ توبته غير مقبولة عند الله -عزّ وجل - ، لذا يجب أن تكون نيّته في توبته ألّا يرجع إليه أبداً ، فإنّ حدث يوماً وعاد إليه ولم يكن قد نوى ذلك قبل توبته ، فإنّ توبته صحيحة ، إلا أنّه يجب أن يتوبَ منه توبة جديدة. * أن يردّ الحقوق إلى أصحابها: إن كانت توبته من ذنب فعله مع عبدٍ مثله وكان لهذا العبدُ حقاً عليه ، فيجب أن يعيد له حقّه ، إلا إن سامحه ذلك الشخص وتنازل عن حقّه ، فإن لم يسامحه ولم يُعِد له حقّه ، فإن توبته مرفوضة. * أن تكون توبته في الوقت المسموح بها فيه: فهي مقبول طالما هو على قيد الحياة ، إلا إذا غرغرَ عند أجَلِه فإنّ توبته غيرُ صحيحة وغير مقبولة. كذلك إذا أشرقت الشمس من مغربها - وذلك عند نهاية العالم - ، فإنّ التوبة حينها تكون مرفوضة أيضاً).هـ. وكانت الأستاذة دعاء الدغيم قد بنتْ هذه الشروط على بدهيتين في صدر مقالتها يحسن بنا أن نوردهما: (* الأولى أن ابن آدم خطّاءٌ بطبعه ، وليس منّا معصومٌ إلا الأنبياء ، ولولا سعة رحمة الله لامتلأتْ صحائفُنا بالذنوب وكبّتْنا على وجوهنا في النار ، لكنّه سبحانه أتاح لنا فرصة عظيمة لمحو الذنوب جميعها ، ألا وهي التوبة ، من خلالها يمكنُ الرجوع عن الذنب وغفرانه مهما كان عظيماً ، بل ويفرح المولى - عزّ وجل - بتوبة عبده. ولولا التوبةُ لَيَئس الإنسان من كثرةِ ذنوبه ، وربّما وأكثرَ من المعاصي لأنّه يعلم ألّا فائدة مِن تركها. إلا أنّ التوبة لها شروطٌ لا بدّ من توفّرها لتكون مقبولة عند الله - عزّ وجل -. * الثانية أنه من الجدير بالذكر أنّ رحمة الله فينا وفتحه بابَ التوبة مهما أذنبنا من ذنوب ، لا يعني أن نُرخي زمامَ المعاصي لأنفسنا ، فالبعض يقول: أفعل المعصية ثمّ أتوب منها طالما أنّ الله يقبل التوبة ، حيثُ لا يضمنُ أحدُنا البقاء على قيدِ الحياة بعد هذه المعصية ليتوب منها ، فلا بدّ من الحذر والحرص على إرضاء الله - عزّ وجل - والقرب منه! لا التمادي في ارتكابِ الآثام التي تزيدُ البعدَ والضلال).هـ. قال ابن القيم: "النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء: (الأول) تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبا إلا تناولته. (الثاني) إجماع العزم والصدق بكُلّيته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار ، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرا بها. (الثالث) تخليصها من الشوائب والعِلل القادحة في

إخلاصها ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده. لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته ولحفظ حاله أو لحفظ قوته وماله ، أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من ذمهم أو لئلا يتسلط عليه السفهاء ، أو لقضاء نهمته من الدنيا ، أو لإفلاسه وعجزه ، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل. فالأول يتعلق بما يتوب منه ، والثالث يتعلق بمن يتوب إليه ، والأوسط يتعلق بذات التائب ونفسه! فنصح التوبة الصدق فيها والإخلاص وتعميم الذنوب بها ، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب ، وهي أكمل ما يكون من التوبة").هـ. فتخيلتُ أن ذلك الابن الطائع المحترم المبتلى بهذا الأب المجرم الفاشل المنحط السافل يخاطب أباه بقوله: التوبة التوبة يا أبتاه!)

فهرست القصص – (من القصة الأولى بعد المئة حتى القصة المئتين)

مسلسل	عنوان القصة	النغم	النوع	الصفحة
1	أغداً ألقاك؟! (تغريدة يمنية!)	حزينة	قصيرة	9
2	المرأة السوداء (أم علقمة)	الفخر	قصة قصيرة	9
3	قصة الملك شيرخان	المدح	قصة قصيرة	11
4	الأميرة زبيدة بنت جعفر (طموح يتحدى الواقع)	المدح	تصحيح	12
5	أصحاب أحمد – رضي الله عنهم -!	الافتخار	تصحيح	13
6	أصنام وعاكفون	الحقيقة	تصحيح	17
7	أضغاث أحلام	الحقيقة	تصحيح	20
8	أطلال فن القصيدة	النصيحة	موقف	21
9	أطلال المأساة	الإرشاد	خاطرة	21
10	أطلق قصيدك - شعر / د. عدنان النحوي	الإحراج	قصيدة	22
11	أطياف الذكريات	الاشتياق	موقف	23
12	أعاجيب الأوهام	بيان الحق	تشخيص	24
13	أعاجيبُ قلب قاس	بيان الحق	موقف عجيب	25
14	اعتذار	الاعتذار	موقف محرج	26
15	اعتذار الحِيتان	النفاق	قصة قصيرة	27
16	اعتذاري للشاعرة جُمانة شبانة!	الاعتذار	موقف محرج	28
17	اعتراف قلب قاس	الحقيقة	خاطرة	28
18	اعترافات العذراء	إظهار الحق	موقف محرج	29
19	أعجمية تعلم العرب	الإنصاف	موقف	30

20	أعرابية في عصر الإنترنت	الخجل	موقف	30
21	أعرابية في عصر الجاهلية المعاصرة	التغيير	موقف	31
22	أعرضْ عن هذا!	الماضي	موقف	32
23	أعمالٌ ونيّات	الإخلاص	خاطرة	32
24	أعود كما أتيت	الاعتبار	موقف	33
25	إغفاءة اليراع	الموعظة	موقف	35
26	أغلال العاصفة	العِبرة	موقف	36
27	آفاتٌ وحُزونات	المشكلات	طرح الحلول	37
28	إفحامُ البُهت ببراءة المُحصنات الست!	الحقيقة	توجيه	38
29	أفراح	الفرحة	توضيح	42
30	من إفرازات الاحتضار	تشخيص الداء	العلاجات	43
31	أفصحت يا عمر!	التعلم	موقف	45
32	أقطاب القرآن العشرة	التاريخ	التعلم	46
33	أقِلوا من أخباركم	الحنين	التدبر	47
34	أقِلوا من اللوم	الزجر	موقف	49
35	اكتشاف الخليل	البيان	خاطرة	49
36	إكرام الراحلة	الرثاء	موقف	53
37	إلا الذين آمنوا!	الهجاء	موقف حاد	56
38	ألا تستحون؟!	التوبيخ	موقف محرج	57
39	إلا تنصروه فقد نصره الله!	الفخر	خاطرة	58
40	إلا من تاب وآمن	اختيار الخل	قصة قصيرة	59

41	الأب الحقيقي	الحقيقة	قصة قصيرة	61
42	الأب الغريب	التشخيص	موقف	62
43	الابتلاء سُنة ماضية	المحنة	خاطرة	62
44	الإحسان أسمى عبادة	الحقيقة	التعلم	63
45	الوجه الآخر للحضارة	بيان الحق	التعلم	64
46	الأخوة الزائفة	بيان للحق	التعلم	65
47	الآداب في كتاب	الدراسة	التوجيه	67
48	الإسلام هو الحضارة	التشخيص	مقالة	68
49	الإسلام أمانة	التشخيص	خاطرة	72
50	الإسلام ديوان العرب	بيان الحق	مقالة	72
51	هنيئاً لك الإسلام يا لينة!	تهنئة	خاطرة	73
52	الأشقاء الأعداء	هجاء	مقالة مطولة	73
53	الأصيل	هجاء	مقالة فلسفية	75
54	الأطـلالُ اليمنيــة 1!	رثاء	خاطرة	77
55	الأطـلالُ اليمنيــة 2!	رثاء	خاطرة	78
56	الأعاصير المطيرة	الابتلاء	خاطرة	78
57	الاعتراف العقيم	هجاء	خاطرة	78
58	الإعصار	مدح	مقالة	79
59	الأعمال بالخواتيم 1	موعظة	مقالة	80
60	الأعمال بالخواتيم 2	إشادة وفخر	خاطرة طويلة	81
61	الأفعى	هجاء	قصة	82

62	آلام فراق الأحبة!	الشوق	خاطرة	82
63	الآمال الذابلة	الأسى	خاطرة	86
64	الإمعة	الهجاء	مقالة	86
65	(الأمل الفواح)	الأمل	مقالة مطولة	87
66	الأمل الكئيب	الحزن	مقالة	93
67	الأملُ يرتصد التصابي	الموازنة	خاطرة	94
68	الإملاق الأبكم	التشخيص	مقالة	94
69	الأمير الطيان	الافتخار	خاطرة	95
70	الآن طاب الموت!	الفخر	قصة طويلة	95
71	الأندلس بين المجد والفقد	الرثاء	مقالة مطولة	116
72	الانفعالُ الأبكم	الغضب	خاطرة	133
73	الانهزام بداية الهزيمة	الانكسار	خاطرة	133
74	الآهة الثكلى	التوجع	خاطرة	133
75	الأيام دُوَل	الحكمة	خاطرة	134
76	الباشا مؤرخاً	سيرة ذاتية	قصة كفاح	135
77	البحر الطويل والليل الطويل	السهر	خاطرة	136
78	البَدرُ ليلة التمام	الافتخار	خاطرة	136
79	نهج نهج البردة 1425هـ	المدح	خاطرة	137
80	البطولة بين الظل والحرور	الوصف	رأي	140
81	البكائية النحوية	الرثاء	قصة كفاح	141
82	البهتان الرخيص	الهجاء	رأي	155

83	البيوت الحزينة	الحزن	خاطرة ورأي	155
84	التاريخ الجريح	الحزن	خاطرة	155
85	التجمّل الزائف	التهكم	رأي وقصة	156
86	إنها التربية بالقدوة	التربية	قصة وموقف	156
87	التربية بين الجامع والجامعة	التربية	رأي	159
88	عندما تكون التربية رسالة	التربية	قصة ورأي	159
89	التربية كلها في القرآن	التربية	اعتقاد ورأي	161
90	الترويض على الذل	حقيقة	خاطرة	161
91	واأسفى على التصنيف وأهله!	الأسف	رأي	162
92	التكلفُ يضيعُ معه الحق!	التكلف	رأي	163
93	التلوّن أخو النفاق من الرضاعة!	الحقيقة	رأي وخاطرة	164
94	التمجيد والتكريم	المدح	خاطرة	165
95	التميز طريق النصر	الفرحة	رأي	165
96	التنور	الانتصار	خاطرة	167
97	التوبة المزعومة	الهجاء	موقف	168
98	زيد بن سعنة	السيرة	قصة قصيرة	169
99	سلمان الفارسي	السيرة	قصة إسلام	170
100	التوبة التوبة يا أبتاه!	الخشية	موقف	172

تم بحمد الله وتوفيقه وعنايته ورعايته إتمام (من القصة الأولى حتى القصة المئة)

الخاتمة

على أمل اللقاء بكم أعزائي القراء في الجزء التالي حتى نكمل معاً ثلاثة آلاف قصة وقصة! لنقرأ ونستمتع ونتأمل ونعتبر! فإن العاقل من وعظ بغيره! والقصة خير معلم!

مع خالص احترامي وتقديري

الكاتب الفقير إلى الله والراجي عفوه ومغفرته /

أحمد علي سليمان عبد الرحيم

(كاتب أهل الصعيد)

نبذة عن أحمد علي سليمان عبد الرحيم

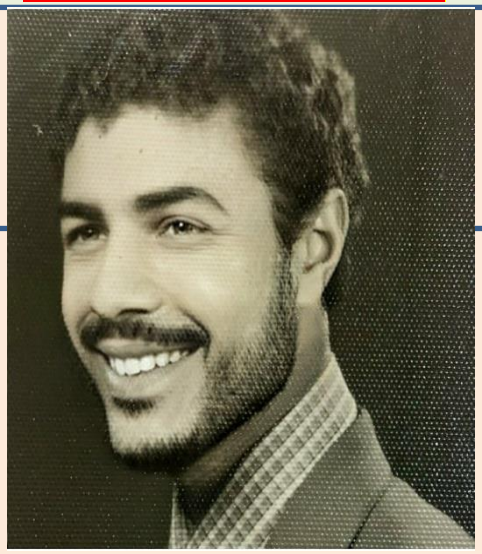

(الشاعر والكاتب والناقد / أحمد علي سليمان عبد الرحيم ، ولد في جمهورية مصر العربية - محافظة بورسعيد - تقاطع شارعي روس وأسوان ، في يوم 15 / 10 / 1963م. تخرّج في كلية الآداب – قسم اللغة الإنجليزية - جامعة المنصورة - مايو عام 1985م. والشاعر بدوي صَعيديٌ قح أباً وجداً وأعماماً من بيت خليفة - الكولة - مركز أخميم - محافظة سوهاج. يدعو في أدبه إلى القيم والأخلاق والمبادئ بوسطية ودليل! وهو معلم لغة إنجليزية - لم يُقدمه للناس أحد! وإنما قدمه أدبه وشعره ونثره ونقده بالحسنى - بتوفيق الله – سبحانه وتعالى -!

ويمكننا إجمال الدواوين والقصائد والمجموعات الشعرية والكتب في هذه القائمة:

أولاً: الدواوين الشعرية

1 – نهاية الطريق: (ديوان شعر).
2 – عزيز النفس: (ديوان شعر).
3 - سويعات الغروب: (ديوان شعر).
4 – القوقعة الدامية: (ديوان شعر).
5 - ترنيمة على جدار الحب: (ديوان شعر).
6 – الأمل الفواح: (ديوان شعر).
7 – من وحي الذكريات (1): (ديوان شعر).
8 – الصعايدة وصلوا: (ديوان شعر).
9 – ذل الجمال: (ديوان شعر).
10 – ماسحة الأحذية: (ديوان شعر).
11 – دموع التصبر: (ديوان شعر).
12 – عتاب وشكوى: (ديوان شعر).
13 – فأعِضُّوه ولا تكنوا: (ديوان شعر).
14 – الشعر مسبحتي وتغريدتي: (ديوان شعر).
15 – غادة اليمن: (ديوان شعر).
16 – عزة الخير: (ديوان شعر).
17 – منار الخير: (ديوان شعر).
18 – غربة وحَربة وكُربة: (ديوان شعر).
19 – الطبيبتان: (ديوان شعر).
20 – عجبتُ من قدرة الله تعالى: (ديوان شعر).
21 – أعلام الأرض المقدسة: (ديوان شعر).
22 – كالقابض على الجمر: (ديوان شعر).
23 – من وحي الذكريات (2): (ديوان شعر).
24 – خانك الغيث: (ديوان شعر).
25 – الشعر رحمٌ بين أهله: (ديوان شعر).

ثانياً: الكتب الأدبية والنقدية

1 - قراءة أسلوبية في شعر الصحابي الجليل المخضرم: حسان بن ثابت الأنصاري (رضي الله تعالى عنه).
2 – قراءة أسلوبية في شعر أحد أغربة الجاهلية: عنترة بن شداد العبسي.
3 - السيرة والمسيرة (دراسة نقدية لحياة التابعية الأميرة: زبيدة بنت جعفر بن المنصور) (رحمها الله).
4 - ترجمة الشاعر أحمد علي سليمان عبد الرحيم.
5 – ثلاثمائة سؤال وجواب في سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم -!
6 – إن من الشعر حكمة! (مجموعة من الأبيات الشعرية لآخرين تأثرتُ بها في حياتي العملية والعلمية)

ثالثاً: القصائد الشعرية ذات الشأن

1 – الشاعر ليس نبياً ليكون شعره وحياً!
2 – القاتل البطيء (التدخين)
3 – بين شوقي وحافظ!
4 – ثاني اثنين إذ هما في الغار
5 – عُمَير بن وهب الجمحي – رضي الله عنه -.
6 – لو كان له رجال! (سيرة الحاجب المنصور)
7 – من أجل زوجي!
8 – هشام الشريف (القاضي المصري الرحيم)
9 – فرانك كابريو (القاضي الأمريكي الرحيم)
10 – يا ليل الصب متى غده! (معارضة للقيرواني)
11 - يزيد بن معاوية (ما له وما عليه)
12 – رباعيات الخيام اليمنية (معارضة لعمر الخيام)
13 – ابتسم! (معارضة لإيلياء أبو ماضي)
14 – إبراهيم مصطفى صديقاً وصهراً
15 – أبو غياث المكي – رحمه الله –
16 – أتيناكم! أتيناكم!
17 – أحمد الجدع مؤرخاً وشاعراً ونحوياً وناقداً
18 – أستاذي قال لي! (عريف الكُتاب – رحمه الله -)
19 – قراءة في أوراق الماضي (القصيدة الوحيدة من شعر التفعيلة)
20 – أسماء الله الحسنى
21 – الآن طاب الموت (السلطان سليمان القانوني)
22 – التلون أخو النفاق من الرضاعة
23 – موقع (الديوان) منتجع الشعراء
24 – (الزاهية) تحدثنا عن نفسها
25 – أبجديات شعرية
26 – الشعر رحِمٌ بين أهله
27 – الله يرحمُ مُزنة
28 – رسالة شعرية إلى أم يوسف
29 – امتَهنوا فما امتُهنوا! (علماء السلف رحمهمُ الله)
30 – تراني عندما أرى لحيتك!
31 – لا فضّ فوك يا دكتور بدر العتيبي!
32 – بُردة أبي بكر الصديق – رضي الله عنه –
33 – بردة عائشة بنت أبي بكر الصديق – رضي الله عنهما –
34 – بردة عثمان بن عفان – رضي الله عنه –
35 – بردة علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –
36 – بردة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –
37 – بردة فاطمة بنت محمد – رضي الله عنها –
38 - بكائية إسماعيل علي سليم (فقيد التربية والتعليم)
39 – نعم الميّت ، ونعمت المِيتة! (رثاء فقيد الأزهر الشريف)

40 – تحية رقيقة إليك يا غدير!
41 – تحية أهل الشعر في جروب (أهل الشعر)
42 – تغير الحال أم الخال؟!
43 – تلميذي البار شكراً!
44 – تيس يرث نعجة! (جيء به محللاً فورثها)
45 – ثلاثة أقمار وأنت رابعتهن! (رؤيا عائشة)
46 – جاز المعلم وفه التبجيلا! (معارضة لشوقي)
47 – حادي القلوب (ظفر النتيفات)
48 – حبيبتي أقبلتْ! (معارضة لجاءت معذبتي لابن الخطيب)
49 – حرامية الشعر!
50 – حنين القلب (رثاء الشيخ عبد الباسط عبد الصمد)
51 – حنين بقلبي (معارضة للعشماوي)
52 – خانك الغيث (معارضة للسان الدين بن الخطيب)
53 – رثاء الدكتور الشربيني أبو طالب (معارضة لشوقي)
54 – رثاء الحاجة فاطمة (أم زكريا مجاهد)
55 – رسالة إلى دائنة!
56 – رضيعة الحاوية (رماها أبوها رضيعة فنفعته في كبره)
57 – رفقاً بنفسكِ يا صاحبة الدموع (عائشة – رضي الله عنها -)
58 – رفيدة بنت سعد الأسلمية – رضي الله عنها –
59 – سلطان المجنوني (رائد القصة الهادفة)
60 – سمية بنت خياط – رضي الله عنها –
61 – سنسافر أنا والكتب (عبد الرشيد صوفي)
62 – ضحية تعتب على قاتلها (بعد استشراء ظاهرة قتل البنات)
63 – طبت حياً وميتاً يا أبتاه!
64 – طبت حياً وميتاً يا رسول الله!
65 – طبيب الغلابة (الدكتور محمد المشالي – رحمه الله -)
66 – ظلم الشقيقتين (كفلهما صغيرتين وخذلتاه في الكبر)
67 – عاشقٌ عزيز النفس (معارضة لقصيدة نزار قباني: يا من هواه)
68 – موقع (عالم الأدب) مأوى الشعراء
69 – عجبتُ للنذل
70 – عجبت من قدرة الله تعالى! (معارضة لقصيدة: عجبتُ لا تنتهي)
71 – غادة اليمن (معارضة لغادة اليابان لحافظ)
72 – وربما حار الدليل!
73 – يا جارة الوادي اليمنية (1 & 2) (معارضة لشوقي)
74 – لصوص القريض
75 – لقاؤنا في المحكمة
76 - لوعة الرحيل
77 - مسألة كرامة (تحويل (تبيني صدق لحامد زيد) إلى العربية الفصحى)
78 – كفى تبرجاً وقبحاً (معارضة لقصيدة: أفوق الركبتين للخوري)
79 – مصابيح الدجى (علماء السلف – رحمهمُ الله -)

80 – مكتبة نور مأوى الأدباء والعلماء والشعراء
81 – منار الخير (هدية لجمعية حماية اللغة العربية)
82 – ميلاد أمة بميلاد نبيها (معارضة لقصيدة شوقي: ولد الهدى)
83 – هذا بعض ما أعيش! (معارضة لقصيدة الأميري: أين الضجيج؟)
84 – الأطلال اليمنية (1 & 2) (معارضة لقصيدة الأطلال لإبراهيم ناجي)
85 – الكائنات الفضائية!

رابعاً: المجموعات الشعرية الموضوعية

1 – الغربة سلبيات وإيجابيات
2 – إلى هؤلاء أتكلم!
3 - آمال وأحوال
4 – أمتي الغائبة الحاضرة
5 – أنات محموم وآهات مكلوم
6 – أوبريت هيا إلى العمل (أوبريت غنائي للأطفال)
7 – تحية شعرية والرد عليها
8 – رمضان شهر الخير والبركة
9 – عندما لا نجد إلا الصمت
10 – يا أماه ويا أختاه كفا الدمع!
11 – بيني وبينك!
12 – تجاذبات مع الشعر والشعراء
13 – دموع الرثاء وبكاء الحُداء (1 & 2)
14 – رجالٌ لعب بهمُ الشيطان
15 – رسائل سليمانية شعرية
16 – شخصيات في حياتي! (1 & 2)
17 – شرخ في جدار الحضارة
18 – شريكة العمر هذي تحاياك! (أم عبد الله)
19 – ضدان لا يجتمعان: الشهامة والنذالة (1 & 2&3)
20 – عندما يُثمر العِتاب
21 – فمثله كمثل الكلب!
22 – قصائد لها قصص مؤثرة (1 : 10)
23 – كل شعر صديق شاعره
24 – مساجلات سليمانية عشماوية
25 – مراودة ومعاندة (بين نذل وزوجة أخيه المسافر)
26 – الأميرة زبيدة بنت جعفر بن المنصور – رحمها الله –
27 – الزاهية تحدثنا عن نفسها (مسرحية شعرية من عشرة فصول)
28 – الشهادة خيرٌ من النفوق!
29 – الصبر تِرياق العلل والداءات
30 – الصعيد مهد المجد والسعد
31 – الضاد بين عدو وصديق
32 – العيد السعيد جائزة الله تعالى
33 – الغربة دُربة على الطريق

34 – الغيرة غير القاتلة
35 - القصيدة ابنتي
36 – اللغة العربية وصراع اللغات
37 – اللقيط بريءٌ لا ذنب له!
38 – المال والجمال والمآل
39 – المشاكل الزوجية توابل الحياة (1 & 2)
40 – المعلم صانع الأجيال
41 – الوحدة بر الأمان (مسرحية من فصل واحد)
42 – اليُتْم غنمٌ لا غرم
43 – أمومة وأمومة
44 – أهازيج بين الشعر والشاعر
45 – أهكذا تكون الصداقة يا قوم؟!
46 – أهكذا يُعامَل الشقيقُ يا هؤلاء؟!
47 – بين الفتنة والبطنة!
48 – بين هندٍ وزيد!
49 – جيران وجيران!
50 – رب ارحمهما كما ربياني صغيرا! (شاعر يرثي أبويه)
51 – عزة الخير (أم عبد الله)
52 – فداك أبي وأمي ونفسي يا رسول الله!
53 - قصائدي القصيرة المشوقة (1 & 2)
54 – مدائح إلهية شعرية
55 – اليمن في شعر أحمد علي سليمان عبد الرحيم
56 – البُردات الشعرية السليمانية
57 – عيون الدواوين السليمانية
58 – معارضات سليمانية شوقية (معارضاتي لشوقي)
59 – المعارضات الشعرية الكاملة (معارضاتي لبعض الشعراء) (3&2&1)
60 - مقدمات وإهداءات شعرية
61 – من أزاهير الكتب
62 – من الأجوبة المُسكتة المُفحمة
63 – من أناشيد الأفراح
64 – نحويات شعرية
65 – نساء صَقلتهن العقيدة
66 – نساءٌ لعب بهن الشيطان
67 – وتبقى الحقيقة كما هي!
68 - وصايا شعرية!
69 – أم المؤمنين عائشة في شعر أحمد علي سليمان
70 – النفس في شعر أحمد علي سليمان
71 – الأندلس في شعر أحمد علي سليمان
72 – الحجاج في شعر أحمد علي سليمان
73 – الدنيا في شعر أحمد علي سليمان
74 – الصحابة في شعر أحمد علي سليمان (2&1)
75 – العثمانيون في شعر أحمد علي سليمان

76 – المنشدون في شعر أحمد علي سليمان
77 – علماء السلف في شعر أحمد علي سليمان
78 - علماء الخلف في شعر أحمد علي سليمان
79 – رسائل شعرية لمن يهمه الأمر
80 – ماذا قال لي شعري؟ وبم أجبته؟
81 – مواقع متفردة لهمم مغردة!
82 – المرأة في شعر أحمد علي سليمان 1 & 2 & 3
83 – التوبة في شعر أحمد علي سليمان
84 – الحجاج في شعر أحمد علي سليمان
85 – أبو بكر الصديق في شعر أحمد علي سليمان
86 – نصيب طلابي من شعري
87 – حضارة البِطنة لا الفِطنة
88 – إحقاقاً للحق وإظهاراً للحقيقة 1 & 2
89 – لا ينبغي أن ننخدع بلحن القول!
90 – الإدمان ذلك الشبح القاتل!
91 – دعاة الحق في شعر أحمد علي سليمان
92 – المرتزقة في شعر أحمد علي سليمان
93 – القرآن الكريم في شعر أحمد علي سليمان
94 – وترجون من الله ما لا يرجون
95 – قرية ظفر في شعر أحمد علي سليمان
96 – الفاروق عمر في شعر أحمد علي سليمان
97 – الإسلام في شعر أحمد علي سليمان
98 – صنائع المعروف تقي مطارق السوء! (1&2&3)
99 – الموت في شعر أحمد علي سليمان
100 – لماذا؟
101 – (لا) كلمة لها وقتها!
102 – هارون الرشيد في شعر أحمد علي سليمان
103 - أخرْتُ عمّنْ هان رد سلامي! (معارضة لحمزة شحاته)
104 - العشق في شعر أحمد علي سليمان
105 - الحكمة في شعر أحمد علي سليمان (1&2&3)
106 – أين؟!
107 – الحب في شعر أحمد علي سليمان
108 – القلوب في شعر أحمد علي سليمان
109 - الشعر والشعراء في شعر أحمد علي سليمان (1&2)
110 - الطب والأطباء في شعر أحمد علي سليمان
111 – أيومة إلى الأبد!
112 – شتان بين البر والعقوق
113 – الملك والأميرة!
114 - عنوسة مع سبق الإصرار والترصد
115 – الظلم والظالمون في شعر أحمد علي سليمان
116 - النفاق والمنافقون في شعر أحمد علي سليمان
117 - الطبيعة في شعر أحمد علي سليمان

118 – الأميرات الثلاث!
119 – عندما!
120 - تحايا شعرية سليمانية (1&2&3)

خامساً: الكتب القصصية

شرائح قصصية سليمانية في ثلاثة آلاف قصة وقصة ، مقسمة على ثلاثين جزء ، كل جزء يحتوي على مائة قصة!

سادساً: الكتب الإنجليزية

1. Proofreading Drills (1-12)

2. Reading Drills (1-50)

3. Reading Quizzes (1-111)

4 – Airborn (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

5 - Allied with Green (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

6 - Conversation Skills

7 - Correction Exercise (1-100)

8 - Frederick Douglass (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

9 - Grammar Tasks (1-77)

10 - Harriet Tubman (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

11. Kensuke' s Kingdom (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

12. Punctuation Tasks (1-56)

13. Reorder Quizzes (1-34)

14. Two Legs or One (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

15. Writing Practices (1-76)

16. Eleanor Roosevelt (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

17. Roughing It (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

18. Raymond's Run – Toni Bambara

19. Clean Sweep (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

20. The Treasures of Lemon Brown (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

21. O' Captain! My Captain! (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

22. The Ransom of Red Chief (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

In addition to hundreds of social essays to enrich the students backgrounds in English and make them love English! & 77 Translation Passages!